من الدراسات التاريخية

شفاء القلوب
فى مناقب بنى أيوب

لأحمد بن إبراهيم الحنبلى
ت ٨٧٦هـ - ١٤٧١م

تقديم وتحقيق وتعليق
مديحة الشرقاوى

مكتبة الثقافة الدينية
المركز الرئيسى . ٥٢٦ شارع بورسعيد الظاهر
تليفون ٩٣٦٢٧٧ / ٩٢٢٦٢٠

١٩٩٦ م - ١٤١٥هـ

مكتبة الثقافة الدينية

المركز الرئيسي : ٥٢٦ شارع بورسعيد الظاهر
تليفون ٩٣٦٢٧٧ / ٩٢٢٦٢٠

شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

مقدمة التحقيق

والصلاة والسلام على أفضل خلق الله محمد بن عبد الله وعلى آله وبعد..

فنقدم للمكتبة العربية كتاباً من كتب التراث « شفاء القلوب فى مناقب بني أيوب » وسوف نلقى الضوء على الدولة الأيوبية .

الدولة الأيوبية

(٥٦٧ _ ٦٤٨ هـ / ١١٧١ _ ١٢٥٠)

سلاطين الأيوبيين

عدد	سنة هجرية	أسماء السلاطين	سنة ميلادية
١	٥٦٧	الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب	١٧٧١
٢	٥٨٩	العزيز عماد الدين عثمان	١١٩٢
٣	٥٩٥	المنصور ناصر الدين محمد على	١١٩٨
٤	٥٩٦	العادل سيف الدين أبو بكر	١٢٠٠
٥	٦١٥	الكامل ناصر الدين محمد	١٢١٨
٦	٦٣٥	العادل الثانى	١٢٣٨
٧	٦٣٧	الصالح نجم الدين أيوب	١٢٤٠
٨	٦٤٧	المعظم توران شاه	١٢٤٩
٩	٦٤٨	عصمة الدين أم خليل شجرة الدر	١٢٥٠

أصل الأيوبيين

يرجع أصل الأيوبيين إلى نجم الدين أيوب ، الكردى الأصل ، كان أبوه يدعى شادى من قبيلة الهذبانية ، إحدى القبائل التى استقرت ببلدة دوين فى أطراف أرمينية .

اتصل « شادى » أبو نجم الدين أيوب بشخص يسمى بهروز ، وساعد الحظ بهروز فوصل إلى وظيفة كانت تعد من وظائف الدولة الهامة ، هى وظيفة حاكم بغداد سنة ٥٠٢هـ (١١٠٨م) تحت سلطة السلاجقة بعد أن كان مربياً لأبناء مسعود السلطان السلجوقى ، وكان لبهروز لدى السلطان السلجوقى مكانة سامية ، حتى أقطعه قلعة تكريت ، وتقديراً لعامل الصداقة الوطيدة القائم بين بهروز وشادى أسند بهروز حراسة قلعة تكريت إلى نجم الدين أيوب بن شادى وقيل إنها أسندت لشادى نفسه ، وآلت بعد وفاته إلى ابنه نجم الدين[١] وسواء أكانت حراسة هذه القلعة فى يدى شادى أو ابنه نجم الدين ، فإن ذلك يبين لنا أن العلاقات بين بهروز وشادى كانت قوية .

قضى نجم الدين أيوب فى حكم تكريت عدة سنين ، اكتسب فى خلالها خبرة بشئون الإدارة وتمتع بمحبة الأهالى ، ولكن سرعان ما توترت العلاقات بين نجم الدين وبهروز على إثر حادث اشترك فيه نجم الدين بمحض إرادته وحريته وذلك أن عماد الدين زنكى أتابك الموصل الذى كان قد عزم على توسيع أملاكه هاجم بغداد سنة ٥٢٦ هـ (١١٣١م) خارجاً على الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى .

غير أن الهزيمة لحقت بزنكى ، وكاد يقضى عليه لولا أن نجم الدين أيوب سهل له سبيل العودة، فعبر نهر دجلة إلى تكريت ، حيث بقى بها خمسة عشر يوماً حتى ضمدت جراحه ثم عاد إلى الموصل ، فنشأت منذ ذلك الحين علاقات ودية بين أيوب وأخيه شيركوه من جهة

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ٨٥ .

وبين زنكى من جهة أخرى ، وفى الوقت الذى توطدت فيه العلاقات بين أسرتى أيوب وزنكى اشتد العداء بين أيوب وبهروز الذى ظل يتحين الفرصة المناسبة لطرد أيوب من تكريت، حتى انتهى الأمر بأن تمكن بهروز من إخراج أيوب من تكريت ، وقابل الأهالى خروج أيوب بحزن عميق مما يدل على مكانته السامية فى قلوبهم[1] ، على أن أيوباً رحب بخروجه من تلك القلعة إذ كان قد عزم على المغامرة فى حوادث الشرق الأدنى ، وعلى ربط مستقبله بشخصية عظيمة هى شخصية عماد الدين زنكى الذى كان إذ ذاك قد عظمت مكانته وأصبح نداً للسلطان السلجوقى[2] .

رحلت أسرة أيوب عن تكريت سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨م) ميممة شطر الموصل ، فرحب زنكى بمقدمها وأكرم وفادتها ، وقدر مواهب رجالها . فأسند حكم بعلبك بعد فتحها سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩م) إلى أيوب[3] وقلد شيركوه قيادة الجيش . ويظهر لنا أن زنكيا كان موفقاً فى استخدام هذين الأخوين العظيمين فقد كان أيوب حاكماً مستنيراً محبوباً من رعيته، عادلاً فى أحكامه ، كما اتصف شيركوه بالشجاعة والإقدام والمغامرة وحب القتال[4] .

وفى ليلة رحيل نجم الدين أيوب من تكريت سنة ٥٣٢هـ (١١٣٨م) ولد له ولد أسماه « يوسف » وهو الذى عرف فيما بعد باسم صلاح الدين . نشأ يوسف فى بلاط زنكى بالموصل ، وقضى طفولته فى ظل والده أيوب فى بعلبك ، وأخذ عنه براعته فى السياسة وشجاعته فى الحروب . فلا غرو إذا شب صلاح الدين متشبعاً بالدهاء السياسى والروح الحربية. وتعلم صلاح الدين يوسف علوم عصره وتثقف بثقافة أهل زمانه فحفظ القرآن ودرس الفقه والحديث .

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ١ ص ٢٧ .

(٢) ابن الأثير : الدولة الأتابكة ٢١٤ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص ٢٧٧ . المقريزى : السلوك ٦ ص ٤٧ .

(٤) أبو شامة : الروضتين جـ١ ص ٢٣٠ .

وبعد مقتل عماد الدين زنكى ، رحل صلاح الدين يوسف مع والده إلى دمشق ، ثم دخل فى خدمة نور الدين سلطان حلب أخى عماد الدين زنكى ، فاستعان نور الدين بشيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف فى تحقيق أغراضه فى مصر ، وتمكن بمعونتهما من ضم مصر إلى أملاكه .

* * *

قيام الدولة الأيوبية

١ ـ صلاح الدين الأيوبى
(٥٦٧ ـ ٥٨٩ هـ = ١١٧١ ـ ١١٩٣م)

قامت الدولة الأيوبية فى مصر نتيجة التنافس بين شاور وضرغام فى الوزارة فى أواخر العهد الفاطمى ، واستنجاد كل من المتنافسين بأعداء الدولة الفاطمية الطامعين فى أملاك مصر . فقد استنجد شاور بنور الدين سلطان حلب ، وضرغام بعمورى ملك بيت المقدس ، وانتهز كل منهما تلك الفرصة وأرسل الجيوش لتحقيق مطامعه فى الاستيلاء على مصر بحجة الدفاع عمن استنجد به .

أرسل نور الدين حملة إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب وانتهت الحملات النورية على مصر بانتصار نور الدين على الصليبيين فى مصر . وبمقتل شاور وزير العاضد ، اعتلى أسد الدين شيركوه كرسى الوزارة . ولكنه توفى بعد قليل ، فأصبح صلاح الدين وزيراً فى سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩م) وهو فى الثانية والثلاثين من عمره . ومنذ ذلك التاريخ أخذ يوطد مركزه فى مصر ، ويعمل على تأسيس دولة تحل محل الدولة الفاطمية المنحلة ، وبوفاة الخليفة العاضد الفاطمى تم لصلاح الدين ما أراد .

العقبات التى اعترضت صلاح الدين :

لم تستقر الأمور لصلاح الدين منذ أن وصل إلى منصب الوازرة ، بل اعترضه عدة صعاب ، كان لا بد له من تذليلها والتغلب عليها ، كى يحقق ما كانت تصبو إليه نفسه من إقامة دولة جديدة يكون هو مؤسسها وأول سلطان لها ، وله فيما كان يحدث فى أوربا فى القرن الثانى عشر الميلادى وفى الشرق الأدنى حوالى ذلك الوقت من ظهور دول جديدة ، أبلغ مثل وأكبر حافز .

وكان وجود صلاح الدين فى مصر نائباً عن نور الدين ، ومحاطاً بالصليبيين الطامعين

فى امتلاكها ، ومناضلاً بقايا الفاطميين وأنصارهم من مثيرى الفتن والقلاقل ضد حكمه ، مما رسم له طريق الكفاح فى سبيل تحقيق آماله .

كان صلاح الدين سنياً ووزيراً فى دولة شيعية ، عمل خلفاؤها على تأسيس دولتهم على دعائم شيعية . حضر إلى مصر فى مهمة مؤقتة . كان من المفروض بعدها أن يعود إلى وطنه فى الشام ليواصل خدمة سيده نور الدين . ولكن استقر به المقام فى الديار المصرية ، وتولى أكبر منصب فيها ، ورغم أن صلاح الدين كان شاباً فى مقتبل العمر ، فقد كانت له الكلمة العليا إدارة شئون البلاد . ولما كان يعمل بين كهول أفنوا أعمارهم فى خدمة الفاطميين ، فلا نعجب إذا أوغرت صدورهم واشتد عليه حقدهم ، وكثر حساده وأعداؤه ، واعتبروه دخيلاً عليهم ومغتصباً لحقوقهم . ومن هنا نتبين مدى حرج موقفه الداخلى .

بدأ صلاح الدين حياته فى مصر موالياً لسيده نور الدين ، فحذف اسم العاضد من الخطبة وذكر اسم نور الدين بعد اسم الخليفة العباسى ، وكان العاضد مريضاً ، ومات دون أن يعلم بذلك التغيير .

ذلك أنه فى أحد المساجد قام الخطيب فى ذلك اليوم فى صلاة الجمعة ، متبعاً الطريقة المأثورة عن السنيين « فأكثر بالصلاة على محمد ﷺ وعلى آله ، ورضى عن أصحابه ، واختص الأربعة الخلفاء بالتسمية رضى الله عنهم جميعاً ، ودعا لعمى النبى صلى الله عليهم سلم حمزة والعباس ، والحسن والحسين ووالى الرضى عن جميعهم ، ثم دعا لأمهات المؤمنين زوجات النبى ﷺ ورضى عن جميعهم ، ورضى عن فاطمة الزهراء ، وعن خديجة الكبرى بهذا اللفظ ثم ألقى عظته بعبارت بليغه ، أثرت فى السامعين حتى لانت له أقسى القلوب وسالت من العيون الدموع الغزيرة ، وكان لابساً ثوب سواد ـ وهو شعار العباسيين ـ مرسوماً بذهب ، وعليه طيلسان شرب وفيق (يسميه الأسبان الأحرام) ومتعمماً بعمامة سوداء مرسومة أيضاً ، وعلى عاتقه السيف يمسكه بيده دون تقلد له ، فعند صعود فى أول درجة ، قلده المؤذن المذكور السيف ، ثم ضرب بنعلة سيفه فيها ضربة أسمع بها الحاضرين ـ إشارة منه إلى التزام السكون ـ ثم فى الثانية ثم فى الثالثة ، فإذا انتهى إلى الدرجة العليا ضرب ضربة

رابعة » ثم أخذ يتلو الدعاء هو واقف بين علمين أسودين عليهما علامات بيضاء ، وقد ثبتا في أعلى المنبر » ثم دعا للخليفة العباسى أبى العباس أحمد الناصر (لدين الله ابن المستضىء) ثم لصلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب ولولى عهده أخيه أبى بكر بن أيوب »[1] .

هوى بذلك نجم الدولة الفاطمية ، وظل عرش مصر شاغراً ، حتى اعتلاه صلاح الدين بعد كفاح مع عناصر عدة . فقد كانت بقايا الفاطميين وأنصارهم أول ما يتطلبه اهتمام صلاح الدين ، ذلك أنه بعد وفاة العاضد ألقى صلاح الدين أسرة الخليفة المتوفى فى القصر الفاطمى ولم يخرجهم منه[2] ، ولم يقس فى معاملتهم ، بل مهد لهم سبيل الترف والنعيم ، حتى ينسيهم تراثهم المغتصب ويبعدهم عن سبيل الحكم . غير أن الطامعين فى العرش من أنصار الفاطميين لم يعدموا وسيلة يقلقون بها صفو صلاح الدين .

ومن هنا قامت الفتنة التى أحدثها الجند السودان بزعامة مؤتمن الخلافة نجاح ، ولكن صلاح الدين قضى على تلك الفتنة تماماً ، وقتل زعيمها وطرد الثوار إلى الوجه القبلى ، وما لبث أن أجلاهم عن الديار المصرية ، وغزا السودان . ويذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن فتحه للسودان كان بقصد اتخاذه ملجأ يحتمى فيه إذ ما غدر به سيده نور الدين ، وخاصة أن العلاقات بين الرجلين كانت قد ساءت فى ذلك الحين ، بسبب شك نور الدين فى أطماع صلاح الدين فى مصر والشام . ولكن الواقع أن غزوه السودان كان للقضاء على الطوائف الثائرة ، فإن مناخ بلاد السودان وحالتها العامة لم تكن تشجعه على الالتجاء إليها ، حتى إن صلاح الدين رأى أنها لا تستحق المجهود الذى بذل لأجلها[3] .

على أن أعنف حركة قامت ضد صلاح الدين ، هى الحركة التى دعا إليها الشاعر المعروف عمارة اليمنى ، الذى طالما مدح الفاطميين وأيامهم . فقد عمل عمارة على إعادة الحكم للدولة الفاطمية ، إذ اعتبر الأيوبيين مغتصبين للعرش الفاطمى ، وبلغ من تحقير هذا

---

(١) ابن جبير (طبعة رايت) ص ٤٦ ـ ٤٧ .

(٢) Lane - Poole : Egypt in the Middle Ages, P. 93 .

(٣) راجع ما ذكر عن تلك الثورة فى : ابن الأثير جـ١١ ص١٥٥ .

الشاعر لشأن صلاح الدين أنه كان يطلق عليه لقب « المملوك الصغير » واستطاع عمارة فى سبيل الوصول لأغراضه ، أن يضم إلى حركته كثيراً ممن جمع بينهم الحقد على الدولة الأيوبية ومن تأثرت مواردهم المالية نتيجة قيامها . فجمع حوله كثيراً من السودانيين ، وبعض التركمان الحاقدين، وبعضاً من قواد صلاح الدين الحاسدين له لوصوله إلى الوزارة ، بل أكثر من ذلك أن المتآمرين ضد صلاح الدين فاوضوا عمورى ملك بيت المقدس ، وراشد الدين سنان رئيس الإسماعيلية الحشيشية ، لإرسال حملات إلى مصر ضد الأيوبيين . وانضم كبار موظفى الدولة إلى حركة عمارة اليمنى أمثال : عبد الجبار بن إسماعيل داعى الدعاة ، وابن كامل قاضى القضاة ، وعبد الصمد الكاتب ، وجماعة من بنى رزيق من أسرة شاور ، والعوريس ناظر الديوان[1] .

ومما زاد فى خطورة هذه الحركة ، اتفاق عمارة اليمنى مع ملك صقلية النورماندى على مهاجمة الشواطئ المصرية ، فى الوقت الذى تقوم فيه الثورة ضد الأيوبيين فى القاهرة[2] فأرسل ملك صقلية أسطولاً كبيراً مكوناً من ٢٨٢ قطعة فى سنة ٥٧٠ هـ (يولية ١١٧٤م) وحاصر الإسكندرية بالمجانيق والدبابات لمدة ثلاثة أيام ، استبسلت فيها حامية الإسكندرية وقاومت بكل شجاعة ، ولكنها أوشكت على التسليم ، لولا أن صلاح الدين أعلن أنه سيمدها بالعتاد والذخيرة ، فأوجس الأعداء خيفة ورفعوا الحصار وهربوا بعد أن تكبدوا خسائر فادحة فى سفنهم . وكذلك لم يف ملك بيت المقدس بوعده فى إرسال حملته ، لما علم بمصير حملة ملك صقلية وبقضاء صلاح الدين على مدبرى المؤامرة .

ذلك أن أخبار هذه المؤامرة وصلت إلى صلاح الدين عن طريق زين العابدين على بن نجا، الذى ظل يشترك مع المتآمرين حتى عرف خطتهم كاملة ، وعندئذ نقل تفاصيلها إلى صلاح الدين[3] وبذلك فشلت حركة عمارة اليمنى ، واستطاع صلاح الدين أن يقبض عليه

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ١ ص٥٤ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٥٣ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ص ٤٨ .

وعلى باقى زعماء الحركة الذين ساعدوه فاعترف بعضهم ، وبرروا عملهم هذا بما نالهم من قطع أرزاقهم بإقصائهم عن مناصبهم ، فصلب صلاح الدين أكثر المتآمرين وقتل عمارة فى رمضان سنة ٥٦٩ هـ (أبريل ١١٧٤م) ونفى بعضهم إلى الصعيد ، وقيل إنه لم يتعرض بسوء لجنده وقواده الذين خرجوا عليه ، وإنما تجاهل فعلتهم لعلهم يرتدعون عن غيهم .

أما الفتنة الداخلية الثالثة التى واجهها صلاح الدين ، فقد قامت فى أسوان وقوص ، وسببها أن كنز الدولة وهو مصرى من أبناء الصعيد ، نزح إلى أسوان[١] بعد فتنة مؤتمن الخلافة نجاح ، واستطاع هناك أن يجمع حوله بقايا الجنود السودانية وغيرهم من أنصار الدولة الفاطمية ، ولما آنس كنز الدولة من نفسه القدرة على مناهضة صلاح الدين ، قام بحركته بقصد إعادة الخلافة الفاطمية ، فقتل بعض أمراء صلاح الدين فى تلك الجهات ، وفى الوقت نفسه خرج عباس بن شاذى فى قرية طود ، واستولى على قوص ، فأرسل صلاح الدين إلى هؤلاء الخارجين أخاه الملك العادل بجيش كبير ، وتمكن العادل من قتل كل من : كنز الدولة وعباس بن شادى ، وقضى بذلك على تلك الفتنة فى صفر سنة ٥٧٠ هـ (سبتمبر ١١٧٤م)[٢] .

موقف صلاح الدين من نور الدين :

لم تكن تلك الفتن الداخلية هى العقبة الوحيدة التى واجهت صلاح الدين فى بداية حكمه ، فقد كان صلاح الدين أحد قواد نور الدين ، ولما حكم مصر حكمها نيابة عنه ، وكان يذكر اسم نور الدين فى الخطبة بعد اسم الخليفة العباسى ، وكذلك ضربت السكة باسمه ، على أن تبعية صلاح الدين لنور الدين كانت اسمية ، وكان صلاح الدين هو حاكم مصر الفعلى ، وله جيشه وحاشيته ، كما كان متمتعاً بحب رعيته .

لذلك لم يستطيع نور الدين ، رغم حسده له ، أن يتدخل فى شئونه ويحد من أطماعه . يضاف إلى ذلك أن موقف نور الدين كان حرجاً أمام خصومه من السلاجقة والصليبيين وأمراء

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ١ ص٥٨

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة

الجزيرة ، وكان يعتمد على مساعدات صلاح الدين له ضد أعدائه ، فاضطر أن يتفادى قيام عداء بينهما . أما صلاح فقد قيل إنه تنكر لسيده نور الدين وأراد الاستقلال بمصر ، وقد شعر نور الدين بنوايا صلاح الدين وأطماعه ، وذلك عندما دعا صلاح الدين أهله وعشيرته من الشام سنة ٥٦٨ هـ (مايو ١١٧٣) وكان ذلك بمثابة قطع كل صلة بينه وبين مملكة نور الدين وقد وزع على أهله بعضاً من كنوز الفاطميين وأسكنهم فى قصورهم ، رغم اكتفائه بالدار التى كان يشغلها عندما كان وزيراً وتسمى « دار الوزارة » وفى ذلك يقول أبو شامة « لما دخل فصل النيروز وزاد ، استأذن الأمير نجم الدين أيوب ، نور الدين فى قصده ولده صلاح الدين والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته وسبده ولبده[1] ، وخيم بظاهر البلد . خاف نور الدين عليهم ، فسار إلى الكرك ، فنزل عليه وحصره وسار نجم الدين أيوب ومن معه سالمين ، ونصب نور الدين على الكرك المجانيق[2] ومن قصيدة للشاعر عمارة اليمنى ، مدح بها صلاح الدين :

جــــاءته إخـــــوته ووالده إلى مـــصـــر على التــدريج والتــرتيب
فـــاســـعـــد بأكـــرم قـــادم وبدولة قـــد ســـاعـــدتك رياحـــهـــا بهـــبـــوب

ويستدل على نوايا صلاح الدين من محاولاته المتكررة ليتفادى مقابلة نور الدين عند حصن الكرك رغم ترتيباتهما المشتركة لغزو هذا الحصن والتلاقى فيه ، فقفل راجعاً إلى مصر عندما علم بمسير نور الدين إليه ، وفى مرة أخرى رجع إلى مصر ، واحتج بمرض والده أيوب[3] كما أن صلاح الدين لم يمد يد المساعدة لنور الدين فى حروبه مع الصليبيين ، بحجة أنه مشغول بقمع الثورات الداخلية فى مصر . ويعتقد بعض المؤرخين أن صلاح الدين ظل وفياً لسيده طول حياته ، بدليل عمله على استرضائه بالهدايا الكثيرة والتحف النفيسة التى آلت إليه بعد الفاطميين ، وذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة[4] ويؤيدون صلاح

(١) لم يرد ذكر أسماء إخوة صلاح الدين .

(٢) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ص١٨٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ١١ ص٦٧١ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ص٤ .

الدين فيما ذهب إليه ، بأنه كان مشتغلاً بالفتن الداخلية فلم يتمكن من مساعدة نور الدين في حروبه .

علاقة صلاح الدين بالملك اسماعيل بن نور الدين :

في تلك الفترة الحرجة من حياة صلاح الدين ، توفى سيده وعدوه نور الدين في شوال سنة ٥٦٩هـ (١٥ مايو ١١٧٤م) وهو متأهب لغزو مصر لإخراج صلاح الدين منها . وإلى ذلك الحين ، كان صلاح الدين قد نجح في التغلب على العقبات التي صادفته منذ أصبح وزيراً إذ إنه قضى على مؤتمن الخلافة نجاح ، وارتدت الحملة الصليبية إلى دمياط سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م) في بداية عهده ، وكان لهذا الارتداد أكبر الأثر في ذيوع اسم صلاح الدين ، إذ جعل العالم الإسلامي ينظر إليه نظرته إلى بطل من أبطال الإسلام ، أمكنه الوقوف في وجه الصليبيين ، كذلك نجح صلاح الدين في فتح اليمن ، والقضاء على حركة عمارة اليمني ، وحركة كنز الدولة .

وكان للأحداث التي أعقبت وفاة نور الدين ، أثرها في جعل صلاح الدين ينقل جهوده من الميدان المصري إلى الميدان الشامي . فقد حدث أن قامت المنافسة الشديدة بين أمراء نور الدين في حلب ودمشق وبين رجال الجيش الزنكي بالموصل على من يعتلي عرش الدولة النورية الشاغر ، وانتهت هذه المنافسة باعتلاء اسماعيل بن نور الدين عرش أبيه ، ولكنه وقع فريسة في أيدي أمراء الدولة المنقسمين . وكان طفلاً في الحادية عشرة من عمره ، فضاعت بذلك قوة الدولة النورية وهيبتها ، وبدأت بها ظاهرة التجزؤ ، فأصبحت الجزيرة والموصل تحت سيطرة سيف الدين غازي ، وانفرد شمس الدين بن الداية بحلب ، وشمس الدين بن المقدم بدمشق . وأدى تنافس هؤلاء الأمراء على السلطة والنفوذ ووقوع السلطان الصغير تحت سيطرتهم إلى ضعفهم ، حتى إن ابن المقدم لم يقو على قتال الفرنجة فعمل على استرضائهم بالمال ليتجنب شرهم[١] .

---

(١) ابن واصل : مفرج لكروب ص١٨٠ .

بعد وفاة نور الدين ، أحاط بالملك اسماعيل حزبان من الأمراء : جنوب الحلبيين الذى يميل إلى بقاء اسماعيل فى حلب كما كان نور الدين فيها من قبل ، وحزب الدمشقيين الذى يريد نقل العاصمة إلى دمشق لإرجاعها إلى مجدها القديم الذى كانت عليه قبل اتخاذ نور الدين لمدينة حلب عاصمة للدولة . وبذلك تنازع هذان الحزبان : فاستنجد الحلبيون بالصليبيين لمساعدتهم ، واستعان الدمشقيون بصلاح الدين كى ينصرهم على منافسيهم .

ساعد ذلك الضعف الذى انتاب دولة نور الدين فى عهد اسماعيل وتنافس أمرائه فيما بينهم ، على تدخل صلاح الدين فى شئون بلاد الشام ، كى يحول دون وقوع تلك الدول الإسلامية غنيمة فى يد الصليبيين ، فتصبح مصر والشام وباقى الإمارات الإسلامية ، فى خطر عظيم .

وكان هدف صلاح الدين هو القضاء على خطر الصليبيين ، ووجد أن السبيل إلى ذلك هو توحيد القوى الإسلامية كلها فى جبهة واحدة ليتمكن من حصر الصليبيين بين شقى الرحى ، بين المسلمين فى الجزيرة وشمال الشام من جهة ، وبين الأيوبيين فى مصر من جهة أخرى لذلك فإنه حين استنجد به هؤلاء الأمراء المتنازعون ، لبى دعوة أمراء دمشق ، وسار إلى الشام ، على اعتبار أنه أكبر أمراء المسلمين وأجدرهم برعاية الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين وتمكن صلاح الدين دون قتال من الاستيلاء على دمشق (١١ جمادى الأولى سنة ٥٧٠ هـ) ثم استولى على حمص وحماه .

حاول صلاح الدين أن يقنع الملك الصالح اسماعيل بإخلاصة ، فلم ينجح فى ذلك وحال الملك بينه وبين دخول حلب ، ولكن صلاح الدين لم يقف مكتوف اليدين إزاء ذلك العمل ، فإنه حاصر حلب . إلا أن أهلها استبسلوا فى الدفاع عنها واستنجدوا بريموند صاحب طرابلس ، وبسيف الدين غازى صاحب الموصل ، وبطائفة الإسماعيلية التى كاد أحد أفرادها أن يفتك بصلاح الدين لولا أنه نجا بأعجوبة . فاضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عن حلب ، واستولى على بعلبك كى يحمى جيشه من الخلف . ثم عاد إلى حصار حلب من جديد ، وأعلن استقلاله وحذف اسم الملك الصالح اسماعيل من الخطبة واتصل بالخليفة العباسى وحصل منه على لقب « سلطان » .

صلاح الدين بعد حصوله على لقب سلطان :

هكذا أصبح لصلاح الدين حق شرعى فى حكم مصر ، ولم يعد يحكمها نيابة عن أسرة نور الدين ، وأحرز صلاح الدين بعض انتصارات استولى بها على منبج وإعزاز ، واشتد حصاره لحلب التى أصبحت معزولة عن كل المدن المجاورة ، وعند ذلك طلب الملك الصالح إسماعيل الصلح ، فقبل صلاح الدين ، واتفق الطرفان على تنفيذ شروط الصلح وتلك الشروط تدلنا على أن صلاح الدين لم يقصد إذلاله أسرة نور الدين .

وابتسم الحظ ثانياً لصلاح الدين ، فتوفى أكبر منافس له ، وهو سيف الدين غازى صاحب الموصل فى سنة ٥٧٨هـ ، كما توفى الملك الصالح اسماعيل ولما كان اسماعيل طفلاً لم يعقب وريثاً للعرش ، فإن الانقسام والتنافس ظهرا ثانية بين أمراء الدولة النورية . فخرج صلاح الدين من القاهرة سنة ٥٨٨هـ (١١٨٢م) وزحف على الشام ، فانضمت إليه بعض المدن دون قتال . وانتصر فى سنجار وآمد وتل خالد ، ثم استولى على حلب سنة ٥٧٩هـ (١١٨٣م) ولم يمض وقت طويل حتى كان شمال الشام كله فى يد صلاح الدين . ولم يبق بعد كل تلك الانتصارات ، إلا مدينة الموصل ، وهى مدينة قوية تعادل حلب ودمشق فحاصرها صلاح الدين ، ثم تركها لانشغاله بإخضاع الأرمن ، ولكنه ما لبث أن عاد إليها ، وحاصرها ، ومنع عنها الأقوات والإمدادات . حتى طلبت الصلح ، وانتهى الأمر باعترافها بسيادة صلاح الدين الذى ترك عليها أميرها عماد الدين زنكى على أن يكون تابعاً له، ويقيم الخطبة ، ويضرب السكة باسم صلاح الدين ، ويرسل له المساعدات الحربية وقت الحاجة إليها(١) .

هكذا خضعت كل الإمارات الإسلامية الشامية لصلاح الدين ، واستطاع أن يجمع دولة

---

(١) Lane - Poole : Egypt in the Middle Ages. P. 209

نور الدين تحت سلطانه ، ويوحد كلمة المسلمين ، ومهد بذلك لنضاله المقبل ضد الصليبيين ، ذلك النضال الذى كرس له صلاح الدين حياته ومواهبه[1] .

خرج صلاح الدين من القاهرة لآخر مرة سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م) زاحفاً على الشام لتوحيد شمل المسلمين ، وإعدادهم لقتال الصليبيين . وكان أغلب حياة صلاح الدين بطل الإسلام العظيم فى خارج مصر ، ذلك أنه لم يقض من مدة حكمه التى بلغت أربعة وعشرين سنة ، سوى ثمانى سنوات فى مصر ، لأن تبعيته لملك دمشق التى دامت خمس سنين لم تكن سوى تبعية اسمية ، كما أن أعظم انتصاراته كانت فى سورية ، وبلاد الموصل ، وفلسطين . ولما غادر القاهرة فى اليوم الحادى عشر من شهر مايو سنة ١١٨٢م ، خرج رجال القصر لتوديعه ، وحين وقف الركب عند بركة الحبش وصدحت الموسيقى ، سمع صلاح الدين شاعراً ينشد شعراً تشاءم منه ووقع فى نفسه أنه لن يرى مصر بعد ذلك وقد صح حدسه، إذ لم تكتحل عينه بمرأى مصر بعدها[2] .

دارت رحى الحرب بين الصليبيين وبين صلاح الدين فى سنة ٥٨٣ هـ فغزا أرض الفراتين ، واستولى على دمشق التى كان قد ضمها إلى أملاكه بعد موت نور الدين ، وانتصر على الصليبيين فى موقعة حطين ، وكان ذلك فاتحة انتصارات باهرة للمسلمين ، فسلمت لصلاح الدين مدن طبرية ، وعكا ، ونابلس ، والرملة ، وقيسارية وأرسوف ، ويافا ، وبيروت ، والإسكندرونة . ودخل فلسطين واستولى على عسقلان واسترد بيت المقدس التى كانت مقدسة بالنسبة إليه كما كانت بالنسبة إلى المسيحيين ، وأخضع الأرض المقدسة بأسرها ، وحارب فرسان أوربا حول عكا نحو سنتين ، ونازل اخر الأمر ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا نزالاً جعل اسم صلاح الدين يتردد على كل لسان حتى فى أوربا نفسها وأخيراً أمضى معاهدة الصلح التى عقدت فى الرملة فى شهر سبتمبر سنة ١١٩٢م ، وبه أصبحت جميع الأراضى

---

(١) راجع العلاقات الخارجية فى عصر الأيوبيين فى الباب الرابع .

(٢) مات صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ (شهر مارس سنة ١١٩٣م) فى دمشق .

فى أيدى المسلمين إذا استثنينا جزءاً ضيقاً من الساحل بين مدينتى صور ويافا ودعا البابا العالم المسيحى أن يحمل السلاح لتخليص بيت المقدس ومملكة أورشليم وقد استجاب لندائه : إمبراطور ألمانيا ، وملوك انجلترا ، وفرنسا ، وصقلية ، وليوبولد صاحب النمسا ، ودوق برغندية ، وكونت الفلاندرز ، ومئات من مشاهير البارونات ، والفرسان من جميع الأقطار ، وانضموا إلى ملك بيت المقدس وأمراء فلسطين ، وفرسان العبد والكنيسة . إلا أن الإمبراطور قد مات ، وعاد الملوك من حيث أتوا ، وقد تركوا أنبل جماعة من رعاياهم قتلى فى الأرض المقدسة غير أن بيت المقدس بقيت فى يد صلاح الدين ، ولم يبق لملكها الاسمى إلا قطعة صغيرة من الأرض حول عكا لقد تجمعت كل قوى العالم المسيحى فى الحرب الصليبية الثالثة ، ولكنها لم تستطع أن تنال من قوة صلاح الدين وسلطانه .

ولما انتهت حروب السنوات الخمس وخفت محنها ومصائبها ، لم يكن لصلاح الدين منافس يحكم الأقطار التى تقع بين جبال كردستان ، وصحراء ليبيا . وكان ملك جورجيا وكاثوليك أرمينية ، وسلطان قونيه ، وإمبراطور القسطنطينية وكلهم وراء الحدود ـ يتوددون إليه ويخطبون وده ، ويتوقون إلى محالفته[1] وظل صلاح الدين يتفقد أحوال سوريا وفلسطين وزار بيت المقدس وذهب إلى دمشق حيث استقبل استقبالاً حافلاً وتغنى بمدحه الشعراء والأدباء .

تقدير صلاح الدين :

مرض صلاح الدين بعد كل تلك الجهود ، ولزم فراشه ، ومات فى سنة ٥٨٩ هـ (٤ مارس سنة ١١٩٣م) وله من العمر ٥٥سنة ، بعد أن أسر مواطنيه بجليل أعماله ، وقهر الصليبيين بقوته ، وخلص العالم الإسلامى من كوارث داخلية وخارجية كادت تودى به وبدولته وتوقعه فى أيدى الأعداء ، ويعتبر صلاح الدين من الشخصيات العظيمة النادرة فى التاريخ الإسلامى ، فقد كان سياسياً ماهراً وقائداً محنكاً ، نبيلاً فى تصرفاته ، ميالاً إلى الكرم والعفو ، محباً للعلم والأدب مخلصاً مع أصدقائه وأعدائه . وفيا بوعوده وعهوده ، فإنه لم ينقض اتفاقاً أو صلحاً عقده حتى حين كانت تسنح له الفرصة للتخلص من أعدائه ، لذلك

---

(١) Lane - Poole : Saladin, p. 360

فإنه لما توفى هذا البطل العظيم ساد الحزن أرجاء البلاد الإسلامية ، وبكاه شعبه المحزون عليه رجالاً ونساء ، وتمنى الجميع لو افتدوه بأرواحهم .

ويتميز عصر صلاح الدين بتلك المنشآت الهائلة التى تمت فى عهده : فقد شيد قلعة الجبل ، وعهد ببنائها إلى وزيره بهاء الدين قراقوش ، وكان لها سور وأبراج وثلاثة أبواب . ولم يبن عاصمة جديدة ، أسوة بمن سبقوه ، بل ضم الفسطاط والعسكر وأطلال القطائع والقاهرة، بعضها إلى بعض ، وأحاطها بسور عظيم ، وبذلك اتسعت مدينة القاهرة . وعنى ببناء المدارس : كمدارس الناصرية والقمحية والسنية ونهض بالحركة العلمية فى البلاد نهضة مباركة .

وإذا كان صلاح الدين من أبرز شخصيات العالم الإسلامى ، فإن عصره كان كذلك من أزهى العصور ، وحفل بكثير من الشخصيات التى كان لها من رجاحة الرأى ، وسداد الفكر ما ساعد صلاح الدين على إنجاز كثير من مهام الدولة . فكان والده نجم الدين أيوب أول مستشار له ، وأكبر عون ونصير ، ولكن الزمن لم يمهله طويلاً ، فقد وافته منيته فى ٢٧ ذى الحجة سنة ٥٧٨ هـ ودفن فى مصر ثم نقلت جثته وجثة أخيه أسد الدين شيركوه إلى الحجاز[١] وبوفاته انتهت حياة أولى شخصيات الأيوبيين والساعد الأيمن لصلاح الدين .

وبعد وفاة نجم الدين أيوب ، اعتمد صلاح الدين على أخيه العادل سيف الدين واسترشد بآراء القاضى الفاضل، وكان من الشخصيات المقربة إليه ، فترك له حرية التصرف فى مكتبة القصر ، وكانت تحوى ١٢٠,٠٠٠ مخطوط[٢] ، وبهاء الدين قراقوش الذى عهد إليه بالإشراف على بناء قلعة الجبل ، وكان الأخيران من رجال الدولة الفاطمية ، ثم انضما إلى صلاح الدين ، وخدما الدولة الأيوبية الناشئة أجل الخدمات .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ١١ ص١٧٦ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٦ ص٦٧ .
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص٥٢ .

خلفاء صلاح الدين

(٥٨٩ ـ ٦٤٨هـ / ١١٩٣ ـ ١٢٥٠م)

بعد موت صلاح الدين ، انقسمت السلطنة الأيوبية بين أبنائه الثلاثة وأخيه وبعض أقاربه. فاستقل ابنه العزيز بمصر ، وابنه الأفضل بدمشق وسوريا الوسطى ، وابنه الظاهر بحلب ، أما أخوه العادل فحكم العراق وديار بكر والرها ، وتولى أبناء عمومته حماه وحمص وبعلبك واليمن ، واعتبر كل منهم مستقلا فى ولايته ، وهكذا قضى بموت صلاح الدين على وحدة الدولة ودب الشقاق بين أبناء صلاح الدين بعضهم وبعض ، وبين عمهم العادل وأبناء عمومتهم ، مما أضعف الدولة وهد كيانها .

٢- العزيز بن عماد الدين

(٥٨٩ ـ ٥٩٥هـ = ١١٩٣ ـ ١١٩٨م)

خلف صلاح الدين على عرش مصر ، الملك العزيز وهو أصغر أبنائه الثلاثة ، وكان شاباً فى الحادية والعشرين من عمره ، وساعد على تبوئه هذا المنصب : أن كان يحكم مصر نيابة عن أبيه أثناء حياته ، وأن أخاه الأكبر المعروف بالأفضل حاكم دمشق ، كان شاباً مستهتراً منغمسا فى اللهو والشراب مما لا يجعله كفؤا لتبوأ العرش .

حدث نزاع بين العزيز وأخيه الأفضل ، فقد كانت مدينة القدس ضمن أملاك الأفضل ، ولما كانت تتطلب مجهوداً عظيماً لدفع الصليبيين عنها ، فإنه كتب لأخيه العزيز بالتنازل له عنها ، وسر العزيز لذلك وبعث جنده إلى القدس لتسلمها ، ولكن بدا للأفضل ألا يسلمها له حسب اتفاقه معه ، فساءت العلاقات بين الأخوين وحبب إليه رجال دولته محاربة أخيه الأفضل[١] وقد مر ذلك النزاع فى ثلاث مراحل اشترك عمه العادل فى كل منها : مرتين

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ١ ص ١١٥ .

إلى جانبه [illegible] عرش مصر [illegible]
حكم دمشق ، منتهزاً فرصة ضعف مركز أخيه فيها ، وجمع لذلك جيشاً زحف به عليها .

في ذلك الوقت ، كان الملك العادل أخو صلاح الدين يرقب الحوادث ، كي تتاح له الفرصة في النهاية للاستيلاء على العرش وإخضاع الدولة لسلطانه ، مع عمله في نفس الوقت على أن تظل الدولة محتفظة بكيانها ولا تنحدر إلى طريق الانهيار . فذهب العادل إلى الشام ، لنصح العزيز بالإقلاع عن حصار دمشق ، حتى لا يوجد ثغرة ينفذ منها الطامعون في مصر من أعداء الدولة الأيوبية وأخصهم الصليبيون ، وتدخل باقي الأمراء للفصل في هذا الأمر ، وأقنعوا العزيز بصحة رأى عمه العادل ، فلم يجد العزيز بدا من قبول النصح ، واصطلح مع أخيه الأفضل ورجع إلى مصر وودعه الأفضل أحسن وداع[١] .

شعر العزيز بعد ذلك بقوته وضعف أخيه أما الأفضل فإنه استمر في لهوه واعتمد على بعض الرجال الذين ساءت سمعتهم وكرههم الشعب وخاصة الوزير محمد ابن الأثير ، لذلك أصبح موقف الأفضل في دمشق في غاية الحرج ، ولم يجد وسيلة للتخلص مما هو فيه سوى التحالف مع عمه العادل ورحب العادل بذلك ، كي يضعف من سلطان العزيز ونفوذه ، واتفق الاثنان على خلع العزيز عن عرش مصر ، وسارا معاً من الشام حتى وصلا إلى بلبيس ، ولما استعصت عليهما لسوء حال جيشهما تركاها وسارا إلى القاهرة ، إلا أن العزيز خرج واسترضى عمه العادل بأن استوزره[٢] وبذلك تدخل العادل في شئون الدولة بصفة فعلية ، وقبض على زمام الأمور ، بحجة منع الأفضل من الاستيلاء على القاهرة وكان وصوله إلى الوزارة ، الخطوة الأولى في سبيل وصوله إلى العرش وتحقيق أمنيته التي طالما عمل جاهداً لنيلها . على أن العادل ما لبث أن حرض العزيز على أخذ دمشق من الأفضل ، وتم لهما ما أرادا وتولاها العزيز، ولكنه وهبها قبل موته للمعظم عيسى ابن الملك العادل[٣] .

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ١ ص ١١٦ ، ١١٧ .
(٢) ابن أيبك : كنز الدرر جـ٧ ص٩١ .
(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ٢ ص ٢٣١ .

استمر العزيز على عرش مصر يساعده فى حكمها عمه العادل ، حتى توفى العزيز سنة ٥٩٥هـ (١١٩٨م) وكان شجاعاً رحيماً كريماً ، ويتصف بالعفة وكرم الأخلاق .

٣ - المنصور ناصر الدين

(٥٩٥ - ٥٩٦هـ = ١١٩٨ - ١٢٠٠م)

خلف العزيز ابنه الملك المنصور وهو طفل فى التاسعة من عمره ، حكم مصر لمدة سنة وتسعة أشهر ، كانت عبارة عن نزاع بين عمه الأفضل وعم أبيه العادل لتنافس كل منهما على الوصول إلى العرش . وكان أبوه العزيز قد أوصي قبل وفاته بأن يتولى الوصاية عليه الوزير بهاء الدين قراقوش[١] ، وقيل إن الوصى عليه كان أزكش مقدم الأسدية[٢] .

ومهما يكن اسم الوصى الذى أشار به أبوه ، فإن الأمراء اتفقوا على استدعاء عمه الأفضل للوصاية عليه حتى يبلغ سن الرشد ، إلا أن الصلاحية وزعيمهم جهاركس كانوا ضد هذا الرأى وعملوا على مقاومته ، ولكن الأفضل سار إلى مصر وحكمها واستبد بالأمر ، ولم يترك للمنصور من السلطة إلا اسمها ، منتهزاً فرصة انشغال عمه العادل فى العراق . ولما تأكد الأفضل من عدم رضاء عمه العادل عنه ، عزم على أن يقف منه موقف الهجوم بدلاً من الدفاع فاتفق الأفضل مع أخيه الظاهر على أخذ دمشق من يد عمهما ، وحاصراها ولكن محاولتهما فشلت، ورجع كل من الأفضل والظاهر إلى دولته .

سار العادل فى أثر الأفضل إلى مصر ، وتعقدت الحالة أمام الأفضل ، فقد كان الشعور قوياً ضده لكراهية رجال الدولة لوزيره محمد بن الأثير ولعجزه عن دفع أجور الجند حتى تألبوا عليه . لكى يدافع عن مصر ، حاول حرق بلبيس حتى يسد الطرق أمام العادل ، الذى استمر فى الضغط على الأفضل فى مصر .

ولم يجد الأفضل بداً من عقد الصلح مع عمه ، واتفق على أن يأخذ العادل مصر ، فى مقابل أن يترك للأفضل ميافارقين وجبل جور وديار بكر . وبهذا صار العادل وصياً على

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ١ ص ١٤٦ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزهرة جـ٦ ص١٤٦ .

المنصور ، وكان يخاف أن تتعقد الأمور فى يده ، فتنهار الدولة الأيوبية ويطمع فيها جيرانها ، كما كان يتوق للوصول إلى العرش واضعاً نصب عينية : أن الملك ليس بالإرث ، فجمع مجلساً من الفقهاء قرر أنه يجب خضوع الصغير للكبير ، وأعلن خلع السلطان الصغير ، وتولية العادل سلطاناً على مصر .

وهكذا وصل العادل إلى العرش ، ووجد تحت إمرته كل إمبراطورية أخيه صلاح الدين تقريباً ، مع استثناء بلاد العرب وشمال سوريا (حلب ، حمص ، حماه) فقد نص على أن تحتفظ باستقلالها الذاتى ، واعترفت هذه الولاية بسيادته ، وساهمت فى حروبه ، وضربت السكة باسمه وخطب له على كل المنابر الإسلامية .

٤ ـ العادل سيف الدين

(٥٩٦ ـ ٦١٥هـ = ١٢٠٠ ـ ١٢١٨م)

كيف وصل إلى السلطنة :

كان العادل أعظم سلاطين الأيوبيين فى مصر بعد صلاح الدين ، فقد اكتسب خبرة واسعة من اشتراكه مع أخيه صلاح الدين فى غزواته ومفاوضاته وإدارة أقاليم الدولة ، إذ وكل إليه معاونة العزيز فى حكم مصر عندما كان يحارب الصليبيين فى الشام . كما عهد إليه بحكم حلب ثم العراق وذاع صيت العادل بيم ملوك أوربا فكان صديقاً لريتشارد قلب الأسد ووسيطاً بينه وبين أخيه صلاح الدين أثناء محاولة الصليبيين الاستيلاء على مصر .

اشتهر العادل بالكفاية والدهاء والدراية بشئون الحكم ، ولكنه ـ بحكم وصية أخيه ـ كان بعيداً عن العرش ، ولما رأى ضعف سلالة أخيه وحاجة الدولة إلى سلطان قوى ، فضلاً عن أن الوصول إلى السلطنة كان أمنيته التى ينشدها انتهز فرصة الشقاق الواقع بين أبناء صلاح الدين الثلاثة : العزيز والأفضل والظاهر للوصول إلى الحكم ، واشترك فى منازعاتهم وناصر أحدهم على الآخر ، ليمهد الطريق لنفسه ، دون أن يظهر بمظهر الطامع فى العرش ، بدليل أنه لم يخلع العزيز من السلطنة بعد وفاة أبيه صلاح الدين ، بل ظل يتحين الفرصة حتى سنحت

فاقتنصها وكان ذلك ضرورياً لحفظ كيان الدولة الأيوبية التى بلغت من الانقسام درجة كان يخشى عليها من الانهيار .

وما أن تولى العادل زمام الحكم فى مصر ، حتى عزم على التخلص من المنصور السلطان المعزول ، فأخرجه هو وأسرته من مصر إلى الرها ، ولكنهم هربوا إلى حلب ، وظل المنصور فى رعاية عمه الظاهر أمير حلب حتى توفى(١) إلا أن تصرف العادل إزاء المنصور سبب قيام طائفة الصلاحية ضده ، رغم أنهم ساعدوه من قبل أثناء نزاعه مع الأفضل .

الصعاب التى واجهت العادل

١ - موقفه من أبناء صلاح الدين :

ومن الطبيعى أن يقف الأفضل والظاهر عما المنصور السلطان المعزول ، ضد العادل مغتصب السلطنة ، ولم تفلح الطرق الودية فى إرجاع التفاهم والتعاون بين الطرفين ، وحاول الأفضل والظاهر الاستيلاء على دمشق ، ولكن العادل سبقهما إليها ومنعهما من أخذها ، وانتهى الأمر بعقد صلح بين الفريقين . نص فيه على : أن يكون للعادل مصر ودمشق وجميع ما فى يده من البلاد ، ويكون للظاهر حلب ، وللأفضل قلعة النجم وسروج وسميساط ، وأن تقام الخطبة للعادل(٢) .

غير أن الأفضل انتهز فرصة قتال العادل مع الصليبيين وألب أعداءه ، لذلك انتزع منه العادل أملاكه عدا سميساط ، فقابل الأفضل عمل العادل بقطع الخطبة له ودعا للسلطان السلجوقى صاحب الروم . كان العادل دائماً شجى فى حلق الأفضل بن أخيه : فقد أصبح تحت يد العادل حران والرها وميافارقين ، وأخذ من الأفضل دمشق وقلعة النجم وسروج .

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ١ ص١٥٣ .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك جـ١ ص٣٧١ .

ولكن الظاهر حاول أن يوجد علاقات ودية بينه وبين عمه العادل ، فتزوج الظاهر صفية خاتون ابنة العادل ، وأنجب منها ابناً ، إلا أن هذا الزواج لم يفلح فى إيجاد الصفاء بين العم وابن أخيه ، وظل كل منهما يتحين الفرصة للايقاع بالآخر والتخلص منه . وقد حدث أن خرج الظاهر من حلب للحج ، ولكنه منع من أداء تلك الفريضة ، بحجة أنه أتى للاستيلاء على اليمن ، فقال : « قيدونى ودعونى أقض مناسك الحج » ، فرفض طلبه ، وتألم الناس لتلك المعاملة التى عومل بها الظاهر [1] .

٢ ـ عداء الاسماعيلية والصلاحية له :

لم يكن موقف العادل إزاء بعض شخصيات أسرة صلاح الدين وعداء هؤلاء له هو كل ما صادف العادل من العقبات ، فقد ظهرت أثناء سلطنته بعض الطوائف المتمردة على حكمه، وأهمها طائفتا الإسماعيلية ، والصلاحية .

كانت الإسماعيلية تعادى الأيوبيين منذ ظهور صلاح الدين فى مصر ، واشتركت فى الفتنة التى قام بها عمارة اليمنى ، بقصد خلع صلاح الدين ، ولا نعجب لقيام العداء بين طائفة الإسماعيلية وبين الأبوبيين . إذ كان الفاطميون من الشيعة الإسماعيلية . وقد قبض العادل على تلك الطائفة سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨م) وصادر أملاك زعمائها وسجنهم .

أما الصلاحية، فهم أنصار صلاح الدين ، الذين كرسوا جهودهم لخدمة أبنائه من بعده ، ولكنهم ساعدوا العادل قبل أن يتولى حكم مصر ضد الأفضل ابن صلاح الذين بعد أن رأوا استهتاره وسوء خلقه أثناء توليته حكم دمشق ، على أنهم انقلبوا على العادل . حين عزل سلطان مصر الشرعى الملك المنصور ، حفيد صلاح الدين وابن العزيز ، إذ كانوا يريدون أن يظل العادل وصياً على السلطان ، لا مغتصباً لملكه ، واشترك الصلاحية مع الأفضل ابن صلاح الدين فى زحفه على دمشق لأخذها من يد العادل ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك ، لاستبسال العادل فى الدفاع عنها ، غير أن العادل استراح من هذه الطائفة بموت زعمائها : الأمير جهاركس والأمير عز الدين أسامة والأمير تراجا ، والاستيلاء على حصونهم .

٣ ـ فشله أمام الصليبيين :

---

(١) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص١٥٩ .

وواجه العادل عدة حملات صليبية ، زحفت على مصر خلال حكمه لها ، فقد خرج الصليبيون بأسطول كبير إلى مصر ، ولكن العادل اصطلح معهم سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤ م) وعقد هدنة مع ملك بيت المقدس . وواجه كذلك حملة الأطفال التى زحفت على مصر ، ولو أنها لم تترك بالبلاد أى أثر سوى أنها ملأت البلاد بأسرى من الفتيات بيعوا كالرقيق . ثم أرسلت أوربا حملة صليبية هاجمت مصر بقيادة جان دى برين Jean de Brienne ، ووصلت إلى دمياط وحاصرتها ورغم أنها كانت محصنة ويشرف عليها برج السلسلة ، فقد استولى عليها الصليبيون وسقط هذا البرج .

٤ ـ المجاعة تكتسح مصر :

ومما زاد فى حرج مركز العادل ، أن مصر اكتسحتها فى السنوات الأولى من حكمه مجاعة خطيرة كادت تكون صورة مماثلة للمجاعة التى حدثت فى عصر المستنصر بالله الفاطمى، فقد انخفض فيها ماء النيل حتى لم تعد المياه كافية لزراعة الأراضى مما سبب انتشار القحط ، وتفشى الأوبئة ، وسوء أحوال مصر الاقتصادية[١] ، وصحب هذه المجاعة زلزال حدث فى الصعيد ، هدم كثيراً من أبنية مصر ومات بسببه الكثيرون ، وامتد خطره للشام ، وهدم جهات عديدة فى نابلس وعكا وصور ودمشق ، وأهلك عدداً لا يحصى من السكان[٢] .

٥ ـ تقسيم ملكه بين أبنائه :

ورغم ما واجه العادل من الصعاب الداخلية والخارجية ، فقد اتسع ملكه إلى حد كبير ، ووصله تقليد رسمى من الخليفة العباسى فى بغداد بحكم مصر والشام وأرض الجزيرة ، وخلع الخليفة عليه الخلع الثمينة ، على أنه كان من الصعب على العادل أن يحكم هذه المملكة الواسعة ، فوزعها بين أولاده ، وكانوا تسعة عشر ابناً عينهم جميعاً ملوكاً على أجزاء دولته ، نذكر منهم : الكامل الذى حكم مصر نيابة عن أبيه فى حياته مما مهد له سبيل الوصول إلى سلطنتها بعد مماته ، والمعظم عيسى الذى حكم الشام ، والأوحد نجم الدين أيوب الذى حكم

---

(١) راجع الحالة الاقتصادية فى مصر الأيوبية ، فى الباب السابع .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص ١٦٧ .

ميارفاقين ونواحيها والأشرف مظفر الذى حكم الولايات الشرقية[1] .

وهذه الطريقة التى اتبعها العادل ، فى حكم مملكته الواسعة بواسطة أبنائه ، ضمنت وحدة الدولة أثناء حياته ، ولكن كان لها خطرها بعد مماته ، شأن كل سلطان يترك إرثه موزعاً بين أبنائه ، فإن تقسيم أملاك الدولة أوجد التنافر والتحاسد ، وأعاد من جديد المأساة التى حدثت بعد صلاح الدين .

تقدير العادل :

كان العادل حاكماً عادلاً ، ذكياً ، حليماً حسن التدبير ، محباً للأدباء والعلماء مشجعاً لهم ، سياسياً محنكاً ، نال إعجاب الصليبيين وصداقتهم ، قوى الجسم أكولا ، قام برحلات عديدة ، جاب بها أطراف إمبراطوريته الشاسعة الأرجاء ، كى يضمن استتباب الأمن والنظام ، متفقداً أحوال أبنائه فى الأقاليم ، التى أنابهم عنه فى حكمها .

وحزن العادل حزناً شديداً على قوع برج السلسلة المتصلة بدمياط فى أيدى الصليبيين ، فمرض ، ومات سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨م) وكتم أصحابه خبر موته ونقل إلى دمشق ، حيث استولى ابنه المعظم عيسى على أمواله ، وخلفه فى حكم مصر ابنه الكامل .

ومما يؤسف له أن ذلك الملك الشاسع الذى توحد تحت سيطرة العادل ، انقسم ثانية بعد وفاته بين أبنائه العديدين ، وساد الشقاق بينهم ، وحاول ابنه الكامل أن يوحد الدول من جديد .

٥ ـ الكامل ناصر الدين

(٦١٥ ـ ٦٣٥هـ / ١٢١٨ ـ ١٢٣٧م)

حكم الكامل مصر نيابة عن أبيه العادل ، فلما مات أبوه استقل بحكمها ، دون معارضة تذكر . وحياة الكامل السياسية هى كفاح عنيف ضد إخوته : الفائز . والأشرف ، والمعظم عيسى ، وابنه الناصر . واستطاع الكامل أن يخرج من هذا الكفاح منتصراً محتفظاً بقوته ،

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ١ ص ١٦٧ .

عيسى ، وابنه الناصر . واستطاع الكامل أن يخرج من هذا الكفاح منتصراً محتفظاً بقوته ، رغم أن بداية حكمه لم تكن تبشر له بالنجاح فى هذا السبيل ، وعمل من جهة أخرى على توسيع ملكه ، مما كلفه كثيراً من الجهد والمال .

تولى الكامل العرش فى ظروف حرجة ، إذ كان الصليبيون منتصرين فى دمياط ، ذلك الانتصار الذى أدى إلى موت أبيه كمداً . وفى الوقت الذى تصدى فيه الكامل لمقاومة خطر الصليبيين قام ضده عدد كبير من أمراء مصر ، بزعامة عماد الدين أحمد بن المشطوب بقصد عزله من السلطنة ، وتولية أخيه الفائز مكانه مما أدى إلى انسحاب السلطان الكامل إلى أشموم طناح[1] ، وبذلك تمكن الصليبيون وسط ذلك الاضطراب الداخلى من أخذ دمياط .

وكان من المتوقع أن تطيح الفتنة بسلطة الكامل وحياته لولا أن أخاه المعظم عيسى تدخل فى صالحه ، وخلصه من ابن المشطوب ، وأرسل الفائز إلى الشام بحجة جلب الأمداد اللازمة لإجلاء الصليبيين عن دمياط وساعده الحظ بموت الفائز ، واستطاع بعد موته أن ينتقم من زعماء الفتنة أنصار أخيه المتوفى[2] .

بذلك صفا الجو للكامل ، فاستعاد نفوذه ، وثبت سلطانه ، إلا أن صداقة المعظم لأخيه الكامل لم تدم ، ودب الخلاف بينهما ، لطمع المعظم فى ملك مصر ، فقطع المعظم الخطبة لأخيه ، ولكنه بعد أن اتخذ هذه الخطوة الجريئة وجد أنه لا يقوى بمفرده على أخيه الكامل ، فطلب مساعدة جلال الدين الخوارزمى ، فلبى طلبه وتحالفا معاً ضد السلطان الكامل ، على أن الحظ ابتسم ثانية للكامل ، فمات المعظم عيسى ، وفرح أخوه لموته وخلاصه من تلك المحنة.

وهنا نلاحظ ظاهرة طالما تكررت فى العصر الأيوبى ، وهى دوام تنازع الإخوة على سلطنة مصر ، على الرغم من حكمها لأقاليم تعد مستقلة استقلالاً ذاتياً ، وذلك لأن مصر كانت تعد مركز الحضارة الإسلامية ومقر السلطنة ، ولذا اشتد تنافس أفراد الأسرة الأيوبية على من يلى الديار المصرية ومن يتولى حكم إقليم من الأقاليم التابعة لها كالشام والعراق ، تلك الأقاليم

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٣٦ .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك جـ١ ص ١٦٩ .

التى يعدها السلطان الأيوبى مكملة لسلطته فى مصر ولا غنى له عنها وعلى الأخص فى كفاحه مع الصليبيين .

واستولى الكامل بمساعدة أخيه الأشرف على آمد وكيفا وبعض قلاع أخرى وبوفاة الأشرف زحف الكامل على دمشق وضمها إلى أملاكه ، وبذلك أصبح تحت سيطرة الكامل ملك أخويه المعظم والأشرف وبعض قلاع اكتسبها من حروبه مع المغول ، واستولى على نابلس وبيت المقدس ، وأرسل ابنه الملك المسعود إلى اليمن فامتلكها ، واستولى على مكة وزبيد والحجاز . وهكذا اتسع ملكه حتى كان أئمة المساجد يدعون له على المنابر بقولهم : «سلطان مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها ، والشام وصناديدها ، والجزيرة ووليدها ، سلطان القبلتين ، ورب العلامتين ، وخادم الحرمين الشريفين ، الملك الكامل[1]» .

ومن أبرز أعمال السلطان الكامل ، إتمامه فى سنة ٦٠٤هـ قلعة الجبل ، الذى بدأ السلطان صلاح الدين فى بنائها وتوفى قبل أن يتمها ، وأصبحت تلك القلعة منذ عهد الكامل مقراً لدور الحكومة . كذلك أنشأ الكامل فى سنة ٦١٦هـ مدينة جديدة على الشاطئ الشرقى لفرع دمياط ، هى مدينة المنصورة وبنى الكلية الكاملية ، التى سميت نسبة إليه .

ورث الكامل عن أبيه صفاته الطيبة : فكان قائداً قديراً ، وسياسياً بارعاً ، وإدارياً نشيطاً حازماً ، يدير أمور دولته بنفسه حتى إنه عندما توفى وزير أبيه لم يعين وزيراً بدله وقام بالأمر بمفرده ، وكان محباً للحديث ، مشجعاً للعلماء والأدباء وكان هو نفسه عالماً ينظم الشعر ويجيده ، كريماً فى عطاياه وصداقته .

ولما كان الكامل فى دمشق ، أصابه برد شديد ، فدخل الحمام وصب على نفسه ماء ساخناً ، عملاً بنصيحة الرازى فى كتابه « طب ساعة » فأصيب بالحمرة . وأصابته نزلة حادة لم يحتملها ، فمات . وهذا الحادث جعل الشعراء يسخرون من حمامات دمشق ، بأبيات فيها الكثير من الزراية والتهكم[2] ، وقد أخفى موت الكامل حتى استتب الأمر لابنه العادل ، واتفق الأمراء على تأييده ، فتولى عرش مصر ولقب « العادل الثانى » .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٤٣ .

(٢) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٨٧ .

وبعد الكامل : أخذت دولة الأيوبيين فى الضعف ، وكانت وفاته بداية عهد الانحلال فى الدولة .

٦ ـ العادل الثانى
(٦٣٥ ـ ٦٣٧ هـ / ١٢٣٧ ـ ١٢٤٠م)

يطلق على هذا السلطان « العادل الصغير » أو « العادل الثانى » تمييزا له عن الملك العادل أخى صلاح الدين وكان العادل الثانى نائباً عن أبيه الكامل فى حكم مصر ، فلما مات أبوه أصبح سلطاناً على مصر ، كما حدث حين اعتلى الكامل العرش بعد نيابته عن أبيه العادل الأول فى حكمها أثناء حياته ، رغم وجود أخوة أحق منه بحكم مصر لأنهم أكبر منه سناً . كذلك مهدت نيابة العادل عن أبيه فى حكم مصر أن يتخطى أخاه نجم الدين أيوب ويحكمها بعد وفاة أبيهما الكامل بالطريقة التى تولى بها كل من العزيز والكامل عرش مصر من قبل . على أن حكمه لم يستمر إلا سنة واحدة وشهرين ، كلها مليئة بالفتن والانقلابات التى انتهت بنزع العرش منه وقتله .

تعرض العادل فى بداية حكمه لمؤامرات دبرها بعض أمراء مصر ترمى لعزله وتولية الناصر ابن الملك المعظم مكانه ، ولكن هذه الحركة فشلت .

أما المنافس الأعظم للعادل الثانى ، فهو أخوه الأكبر الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فقد عزم هذا الملك على أن ينزع من العادل سلطته ، إذ كان يطمع فى ولاية العرش بعد وفاة أبيه الكامل واستاء من ولاية أخيه العادل على العرش رغم صغره عنه فى السن ، ورأى نجم الدين أن يمهد لذلك بالقضاء على الظاهر أخى الكامل ، فزحف بجيشه على دمشق واستولى عليها وعلى نابلس ، ثم أخذ أملاك الناصر كلها واضطره إلى الهرب ، فلجأ إلى مصر حيث أكرمه السلطان العادل الثانى ولكن قبض بعد قليل على الصالح أيوب وسجن فى الكرك ، وعاد الملك الناصر إلى ملكه فى دمشق .

على أن الناصر صاحب دمشق لم يتفق مع العادل ، لأن العادل لم تكن له شخصية

قوية يمكن الاعتماد عليها . ولكنه اتفق مع الصالح أيوب ، لذلك رفض الناصر أن يسلم العادل أخاه أيوباً المسجون فى مقابل مائة ألف دينار يدفعها له العادل . وهكذا اتفق الناصر مع الصالح أيوب على أن يمكنه من تولى العرش ، مقابل أن يأخذ منه دمشق وحمص وحماه وحلب والجزيرة والموصل . ويمكننا القول بأن الصالح أيوب قد اضطر إلى الاتفاق مع الناصر، على اعتبار أنه الوسيلة الوحيدة إذ ذاك لحل الموقف والتخلص من الحبس .

أما العادل ، فكان موقفه فى مصر قد زاد ضعفاً ، لسوء تدبيره وغلظته واستبداده ، فاتفق الأمراء ضده وقبضوا عليه ، وطلبوا من الصالح أيوب الإسراع إلى مصر ، لتولى الحكم ، فسار إليها ومعه الناصر ، وجلس على عرش مصر ، وقبض على أخيه العادل وسجنه فى القلعة ، ثم أمر بنفيه إلى الشوبك ، فلما رفض العادل الإذعان للأمر ، أمر الصالح بشنقه وعهد إلى ثلاثة من المماليك بتنفيذ أمره ، وأذاع أنه مات منتحراً(١) .

٧ ـ الصالح نجم الدين أيوب

(٦٣٧ ـ ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ ـ ١٢٤٩م)

إن العرش الذى بذل الصالح أيوب فى سبيل الوصول إليه ، ذلك المجهود الكبير ، كان عرشاً مضطرباً مزعزع الأركان ، جلب لصاحبه الكثير من المشاكل والمتاعب .

كان أهم ما اعترض الصالح أيوب ، تمرد فرق الجيش الأيوبى عليه ، فقد تمردت عليه فرقة الأشرفية ، فشتتها وسجن زعماءها وقتل كثيرين منهم ، ثم ضم إلى جانبه فرقة الخوارزمية التى طردها جنكيز خان إمبراطور المغول ، وقد استطاعت هذه الفرقة ، فى أول حكمه ، أن تساعده مساعدات جليلة ، ولكنها ما لبثت أن تألبت عليه بعد قليل . ووجد الصالح أيوب أن خير وسيلة لعلاج تلك الحالة هو تكوين جيش جديد ، فاشترى كثيراً من الأتراك المماليك وجعلهم خاصته وبطانته وقضى على غالبية أمرائه ، وعين الأتراك محلهم(٢) .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١١ .

(٢) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٣٠ .

وكان هؤلاء المماليك من أشد الناس احتراماً للصالح أيوب وتقديراً لشخصه ، وبلغ من محبته لهم واعتماده عليهم أن تزوج السيدة شجرة الدر[1] ، من المماليك البحرية . وكان لتلك الزوجة التى تولت حكم مصر فيما بعد ، أبعد الأثر فى سير الحوادث فى أواخر عهد دولة بنى أيوب فى مصر ، وكان هؤلاء الجند المرتزقة ، هم نواة السلطنة المملوكية التى خلفت الأيوبيين فى حكم مصر .

وأهم ما شغل بال الصالح أيوب فى سلطنته هو علاقته بأمراء الولايات ، الذين كثيراً ما أثاروا الفتن فى وجهه ، مما عرض ملكه للزوال . ولكن سلطان مصر ما لبث أن انتصر على هؤلاء الأعداء جميعاً بمساعدة الخوارزمية الذين استولوا على حران وخربوها .

غير أن ابنه المغيث عمر وقع أسيراً فى يد الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك . وانتهى الأمر باتفاق الصالح أيوب مع الصالح إسماعيل ، على أن يطلق إسماعيل سراح المغيث ابن الصالح أيوب فى مقابل أن يستولى اسماعيل على دمشق ويقيم الخطبة لسلطان مصر ، واتفق الاثنان على مقاومة الملك الناصر . على أن ذلك الصلح الذى أبرم بين الصالح أيوب والصالح اسماعيل ما لبث أن نقض . فقد ضبط الصالح اسماعيل خطابا أرسله الصالح أيوب سراً يوصى فيه الخوارزمية ضد الصالح إسماعيل ، معترفاً بأنه لم يتفق معه إلا لكى يطلق سراح ابنه المغيث وكانت النتيجة الطبيعية لذلك ، أن الصالح اسماعيل لم ينفذ الصلح ، بل أرجع المغيث إلى معتقله وقطع الخطبة عن الصالح أيوب وعاد إلى تحالفه مع الملك الناصر .

ولو عرفنا أن الصالح أيوب كان يقاتل الصليبيين إذ ذاك ، تبينا كيف تفاقمت المشاكل أمامه . إلا أن المساعدة التى قدمتها له الفرقة الخوارزمية كان لها أكبر الأثر فى التغلب على تلك المشاكل التى أحاطت به ، وخاصة أنهم انتصروا على الصليبيين واستولوا على بيت المقدس ، وحاصروا دمشق حصاراً عنيفاً ثم استولوا عليها ، وعين عليها المعين وزير الصالح

---

(١) لابن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ صاحب كتاب « مفرج الكروب فى تواريخ بني أيوب » أهمية خاصة فى دراسة العصر الأيوبى ، لأنه عاصر سقوط دولة الأيوبيين وقيام دولة المماليك ، وشاهد بنفسه شجرة الدر ، وأطلق عليها كتابه « شجرة الدر » .

أيوب ، وأصبح موقف الصالح اسماعيل حرجاً حتى إنه طلب الصلح من الصالح أيوب ، فرفض طلبه[1] .

أدركت الخوارزمية أن انتصارات الصالح أيوب فى كل حروبه ، وخاصة استرجاعه بيت المقدس من أيدى الصليبيين ، قامت على أكتافهم ، فسيطر عليهم الغرور وبالغوا فى طلب المنح والأموال ، فلما لم يستطع السلطان إجابة كل طلباتهم ، تألبوا عليه وانضموا إلى أعدائه، ولكن حالة الصالح أيوب تحسنت بانضمام صاحبى حلب وحمص إليه ، كما وصله بناء على طلبه تقليد رسمى من الخليفة العباسى بحكم مصر والشام واستطاع بمساعدة حلفائه الجدد أن يقضى على الخوارزمية .

وهكذا استقرت الأحوال للصالح أيوب ، وحل الوئام والسلام بينه وبين صاحبى حلب وحمص محل الشقاق والخصام ، واستطاع الصالح بعد ذلك أن يتفرغ للصليبيين[2] ومن أبرز الأعمال التى اقترنت باسمه ، تشييده فى سنة ٦٣٨ هـ قلعة الروضة ، التى بناها فى جنوبى جزيرة الروضة ، وانتقل إليها هو ومماليكه البحرية .

كان الصالح أيوب من أعظم خلفاء صلاح الدين : فقد كان زاهداً ، عفيف اللسان ، طموحاً ، يقابل المصائب بجنان ثابت وحيلة واسعة ، له هيبة أبيه الكامل وشجاعته .

ونبغ من المماليك الذين استكثر منهم الصالح نجم الدين أيوب عدة أشخاص ، كان لهم أكبر الأثر فى تغيير مجرى السياسة المصرية ، من أهمهم « شجرة الدر » وهى أرمنية وكانت أم ولد فى حريم الصالح نجم الدين أيوب ، بعثها الخليفة المستعصم بالله من بغداد إلى نجم الدين فى القاهرة . فولدت له ابنه خليلاً ، وكانت فى صحبته ببلاد المشرق فى حياة أبيه السلطان الكامل ، ثم ظلت معه حينما حبسه الملك الناصر داود صاحب الكرك بحلب سنة ٦٣٧هـ واشتهرت هذه السيدة بالذكاء والدهاء والجمال ، وتوطدت مكانتها بمولد ابنها خليل ، حتى

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٤ .

(٢) Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 235

لقد سميت « أم خليل » وغلب عليها هذا اللقب حتى بعد وفاة ولدها ولازمها طول حياتها .

ولما اعتلى الصالح أيوب عرش السلطنة الأيوبية فى مصر ، تبوأت شجرة الدر أسمى مكانة وصارت ملكة غير متوجة ، إذ رأى فيها السلطان أيوب ما حببها إليه ، فأعتقها ، ثم تزوجها .

مات الصالح أيوب ، والحرب دائرة بين المسلمين والصليبيين وتجلى دهاؤها فى أنها أحكمت إخفاء خبر وفاته فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر إذ أمرت بأن يتولى غسل جثمانه أحد أطبائه وضع فى تابوت حمل فى جنح الظلام إلى قلعة الروضة ثم إلى قبره بجوار المدرسة الصالحية حيث دفن ، وكانت تقول للأمراء ـ بعد دفنه ـ « إن السلطان مريض لا يصل إليه أحد » كما كان السماط السلطانى يمد فى مواعيده ، والأوامر تخرج كل يوم بالعلامة السلطانية .

كان نجم الدين من أعظم ملوك مصر وأشجع سلاطين آل أيوب مات وهو على قتال الإفرنج أمام المنصورة فى ليلة النصف من شهر شعبان سنة ٦٤٧ هـ ، ونقل جثمانه فى سفينة إلى جزيرة الروضة حيث وضع فى إحدى قاعات القلعة ذات السنين برجا والتى كانت قائمة مكان سراى المناسترلى الحالية وبقى بها إلى أن نقل فى يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٦٤٨ هـ ولما مرت جنازته بالأحياء أغلق التجار حوانيتهم وتعطلت الأسواق ثلاثة أيام ، ولبس رجال الدولة وقواد الجيش البياض من الثياب حزناً عليه وحلق مماليكه شعور رءوسهم حينما تقدموا لحمل تابوته . وساروا به على أكتافهم حتى وصلوا إلى المدرسة الصالحية التى كانت قائمة فى حى بين القصرين « شارع المعز لدين الله » ودفنوه فى القاعة التى كانت مخصصة لشيخ المالكية ، ولما دفن استمر العزاء ثلاثة أيام بلياليها فى مدرسته وبعثت زوجته شجرة الدر بالسناجق السلطانية ، وأمرت بأن تعلق فى داخل القاعة على الضريح ليرى الزائر آلات الجهاد التى كان يحملها آخر سلاطين بنى أيوب فى قتاله وكفاحه فى معركة المنصورة .

المعظم توران شاه

(٦٤٧ ـ ٦٤٨ هـ / ١٢٤٩ ـ ١٢٥٠م)

قبل أن يعرف خبر وفاة السلطان أيوب ، استدعت شجرة الدر « توران شاه » ابن زوجها . وكان غائباً عن مصر في حصن كيفا ، وأصدرت الأوامر إلى أكابر رجال الدولة ومقدمي الجند بأن يحلفوا له يمين السلطنة كما دعا له خطباء المساجد ، وقبل وصوله استمرت هي في وضع الخطة الحربية والإشراف على تنفيذها ومراقبة المعركة ومد القواد بآرائها وبلغ من حماسها أنها كانت ترقب سير المعركة وتضافر الأهالي مع الجند في التنكيل بالأعداء . وبعد وصول توران شاه إلى مصر تسلم قيادة الحرب وزمام الملك .

لم يزد حكم هذا السلطان عن شهرين ، إذ تولى الملك في وقت كان فيه الصليبيون قد وصلوا إلى المنصورة وأخذوا يتقدمون نحو القاهرة ، فلما حضر من كيفا ، أدار دفة الحرب ضد الصليبيين بمهارة فائقة ، حتى انتصر المسلمون فأحبوه وقدروه .

إلا أن هذه البداية الحسنة ، انقلبت إلى مأساة ، بسبب طباع توران شاه الخشنة فإنه احتجب عن الناس ، وأبعد كثيراً من رجال الدولة(١) وتنكر لشجرة الدر زوجة أبيه ، ولم يذكر لها جميلها في حفظ العرش له ، وكانت قد هربت خوفاً منه إلى بيت المقدس ، فأرسل إليها يهددها ويطالبها بإرجاع ما حملته معها من مال وجواهر . واشتد كذلك في معاملة المماليك البحرية ، ويقال إنه كان إذا سكر يجمع الشموع ويضرب رؤوسها بسيفه ، فيقطعها ويقول « كذا أفعل بالبحرية »(٢) .

اتفق الأمراء والمماليك وشجرة الدر على قتله ، وفشلت أول محاولة في هذا السبيل ، إذ إن الطعنة التي وجهت إليه تلقاها بيده ، وهرب ممن حاول قتله بعد أن عرف أنه من المماليك ،

---

(١) المقريزي : كتاب السلوك جـ ١ ص ٢٥١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧١ .

وأقسم ألا يبقى لهم بقية[1] فخافوا منه ، وصمموا على القضاء عليه ، وبالفعل قتلوه ، وتركوه ملقى على جانب البحر دون دفن ، حتى شفع فيه رسول الخليفة العباسى فدفن .

ويعتبر بعض المؤرخين أن توران شاه ، هو آخر سلاطين الدولة الأيوبية ، على حين أن أغلب المؤرخين اتفقوا على اعتبار شجرة الدر السلطانة الأخيرة فى هذه الدولة .

٩ ـ عصمة الدين أم خليل شجرة الدر
(٦٧٤هـ - ١٢٥٠م)

عقب مقتل توران شاه ، نادى كبار رجال الدولة بشجرة الدر سلطانة على مصر ، على أن يكون الأمير عز الدين أيبك مقدماً للعساكر ، واختارت الصاحب بهاء الدين المعروف بابن حنا وزيراً لها ، واتخذت لنفسها طائفة من الألقاب الطريفة مثل : « الملكة عصمة الدين شجرة الدر» و « الستر العالى والدة خليل » ودعى لها على المنابر بدعوات مبتكرة مثل : « اللهم أدم سلطانة الستر الرفيع والحجاب المنيع ، ملكة المسلمين والدة الملك خليل » و « احفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية (نسبة إلى الخليفة المستعصم) صاحبة الملك الصالح » ونقش اسمها على السكة بالعبارة الآتية : « المستعصمية الصالحية (نسبة للملك الصالح) ملكة المسلمين ، والدة الملك المنصور خليل أم المؤمنين».

وشهد عهد الصالح أيوب وتوران شاه وشجرة الدر ، الحملة الصليبية التى قادها لويس التاسع ملك فرنسا المعروف باسم القديس لويس ، واستطاع لويس أن يستولى على دمياط بسهولة ، ثم سار من دمياط إلى القاهرة ، ولكنه تمهل ستة أشهر حتى تصله الإمدادات ، ووصل إلى منطقة المنصورة ، واستولى عليها رغم دفاع المسلمين المجيد . وفى هذه الأثناء توفى السلطان أيوب وتولى سلطنة مصر توران شاه فأدار دفة القتال بمهارة ونشاط ، وحصر الفرنسيين ومنع عنهم الإمدادات ، حتى طلب لويس الصلح وعرض تنازله عن دمياط مقابل أخذ بيت

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٣٥٩ .

المقدس ولكن توران شاه رفض ذلك وهزم لويس فى فارسكور هزيمة شائنة ، وفى هذه الأثناء قتل توران شاه ، وتولت شجرة الدر زوجة أبيه أيوب سلطنة مصر ، فأقرت أن يدفع لويس الفدية ، فدفعها هو وأنصاره وأطلق سراحهم وأرجعت دمياط المسلمين وهنا يلاحظ أن هزيمة جان دى برين ولويس التاسع ترجع إلى جهلهما بجغرافية الديار المصرية .

حكمت شجرة الدر مصر بعد موت توران شاه مباشرة ، وبلغت مدة حكمها ثمانين يوماً، أظهرت فيها جدارة وكفاية نادرة وحسن تدبير للأمور ، وكانت هذه الملكة على اتفاق تام مع أمراء المماليك ، فلا عجب إذا اتفق الأمراء ـ بعد مقتل توران شاه ـ على توليتها الملك ، تحت رعاية أيبك التركمانى ، وخطب لها على جميع منابر الدولة الإسلامية ، ويقال إن الخليفة العباسى لم يقبل أن تتولى حكم مصر إمرأة ، فأرسل إلى زعماء المماليك يقول لهم «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم ، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً »[1] .

وحاول كثير من أمراء دمشق أن يبايعوا الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز الأيوبى ، وسلمت له دمشق فعلاً ، ولكن تلك المحاولات انتهت بالفشل .

على أن شجرة الدر عندما وجدت أن بقاءها على عرش مصر يثير مشاكل كثيرة ضدها تزوجت عز الدين أيبك التركمانى وتنازلت له عن العرش ، ولكنه كان ضعيفاً فى رأيه وشخصيته وسلطته ، وقد حاول أن يتزوج غيرها ، فتآمرت عليه ودبرت قتله[2] ، وحاولت أن تتزوج غيره وتقيمه على الملك ، فلم تلق تشجيعاً من أحد .

وهكذا أسدل الستار على الدولة الأيوبية ، بل إن حكم الأيوبيين انتهى منذ أن ولى عز الدين التركمانى عرش مصر .

* * *

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٣٦٨ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٨٦ .

انتهى حكم الدولة الأيوبية فى مصر ، بعد أن نالت تلك الدولة مكانة عظيمة فى تاريخ مصر والإسلام ، فقد بدأت عهدها بانقلاب خطير شمل ناحيتين إحداهما دينية والأخرى سياسية .

فمن الناحية الدينية : حولت مصر من مذهب الشيعة ، الذى عمل الفاطميون على نشره فى تلك البلاد ، إلى المذهب السنى الذى يعتنقه العباسيون .

ومن الناحية السياسية : حطم الأيوبيون دولة الفاطميين ، تلك الدولة التى كانت قد هرمت وضعفت من أثر النزاع والانقسام ، فأدى ذلك إلى تدخل الطامعين فيها من جيرانها ، مما أضعف مركزها وقلل من هيبتها وانتهى الأمر بزوالها وقيام دولة الأيوبيين الفتية مكانها ، ووطدت تلك الدولة دعائم ملكها وقضت على أعدائها .

كذلك اهتم سلاطين الأيوبيين بالإصلاحات الداخلية : فأقاموا المنشآت ، ونهضوا بالتعليم ، ووقفوا حجر عثرة فى طريق الصليبيين وحالوا بينهم وبين أطماعهم فى الاستيلاء على سوريا ومصر ، كان ذلك النزاع من أهم ما تميز به عهد الدولة الأيوبية ، وكان انتصارها فى هذا الميدان من أهم عوامل شهرة صلاح الدين وخلفائه ومن دواعى إعلاء مجد الإسلام .

ولكن على الرغم من نشاط الأيوبيين فى ميادين الحروب والإصلاح الداخلى ، فإن عهدهم تميز بكثرة حوادث النزاع على عرش السلطنة ، ما أدى فى النهاية إلى سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك .

وصاحب كتاب شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب وهو قاضى القضاة عز الدين أبو البركات أحمد بن إبراهيم بن نصر بن أحمد بن محمد بن أبى الفتح بن هاشم بن نصر الله ابن أحمد الكنانى العسقلانى الأصل ثم المصرى الحنبلى الإمام العالم العامل المفنن الورع الزاهد المحقق المتفق شيخ عصره وقدوته ، ولد فى ذى القعدة سنة ثمانمائة وتوفى والده وهو رضيع فنشأ هو واشتغل بالعلم وبرع ولقى المشايخ وروى الكثير ودأب فى الصغر وحصل أنواعاً من العلوم ثم باشر نيابة الحكم بالديار المصرية عن ابن سالم عن ابن المغلى ثم عن المحب بن نصر الله ثم ولى قضاء الديار المصرية وكان ورعاً وزاهداً باشر بعفة ونزاهة وصيانة وحرمة مع لين

جانب وتواضع وعلت كلمته وارتفع أمره عند السلاطين وأركان الدولة والرعية وكتب الكثير في علوم شتى ولكن لم ينتفع بما كتبه لاهماله لذلك ودرس وأفتى وناظر وله من التصانيف مختصر المحرر في الفقه وتصحيحه ونظمه ومنظومات متعددة في علوم عديدة فقهاً ونحواً وأصولاً وتصريفاً وبياناً وبديعاً وحساباً وغير ذلك وله من غير النظم توضيح الألفية وشرحها وشروح غالب هذه المنظومات وتوضيحاتها إلى غير ذلك من التواريخ والمجاميع واختصر تصحيح الخلاف المطلق في المقنع للشيخ شمس الدين بن عبد القادر النابلسي ، وكان ينظم الشعر الحسن وكان مرجع الحنابلة في الديار المصرية إليه ولم يزل كذلك إلى أن توفي ليلة السبت حادي عشر جمادى الأولى وصلى عليه السلطان قايتباى والقضاة وأركان الدولة الدولة وكانت جنازته حافلة ودفن بالصحراء من القاهرة .

وقد قمت بتصوير هذا المخطوط من المكتبة المركزية بجامعة القاهرة وتقع في ٣٦٢ ورقة وهناك نقص في الصفحة الأولى وقد اعتمدت في تحقيقي على نسخة ناظم وشعر العراقي مع الاستعانة ببعض التعليقات وله جزيل الشكر على هذا المجهود العظيم .

ونسأل الله المعون والمغفرة

مديحة الشرقاوى

١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

وقائلٍ كيف ما تحوّل الى ادب … من الظريف وطيب عيش فى الادب
فقلت انما من بعض … وقال انصح كل الخلق ذا ادب
لما بعدّت … فى معان فاستباحت خلقى كذب

فصاحب الجنة لى صديق … بالفه النرجس والشقيق
يقول ان اسئله وردة … انت لحو يمنعك الشقيق

سفوف لوجع العلل الارياح وكبروده

سكبينج جاوشير حلتيت نانخوه قرنفل شكر
١ ١ ١ ١ ١ ٥

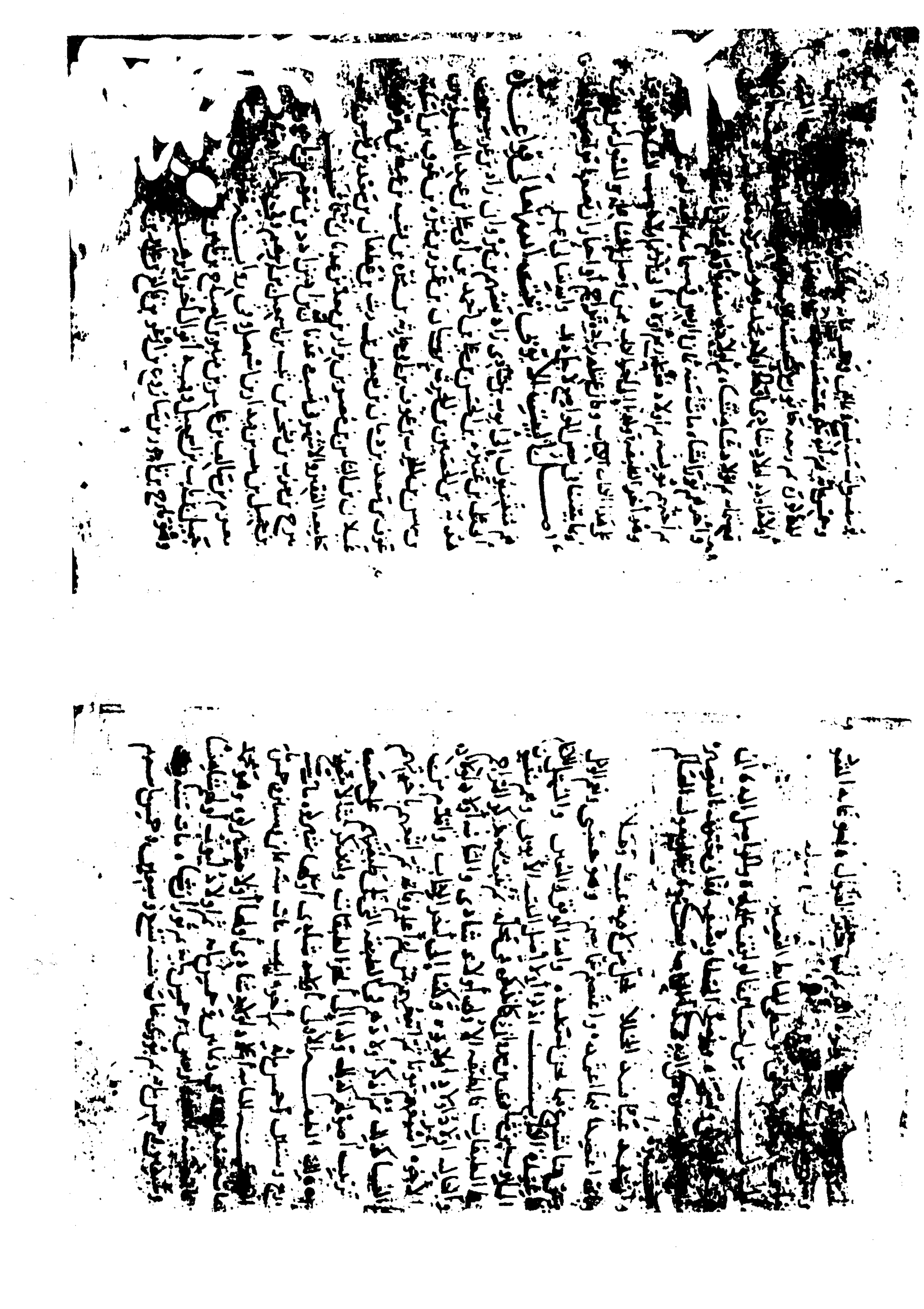
يدقوا ويجمع ويستعمل فانه انشاء الله نافع

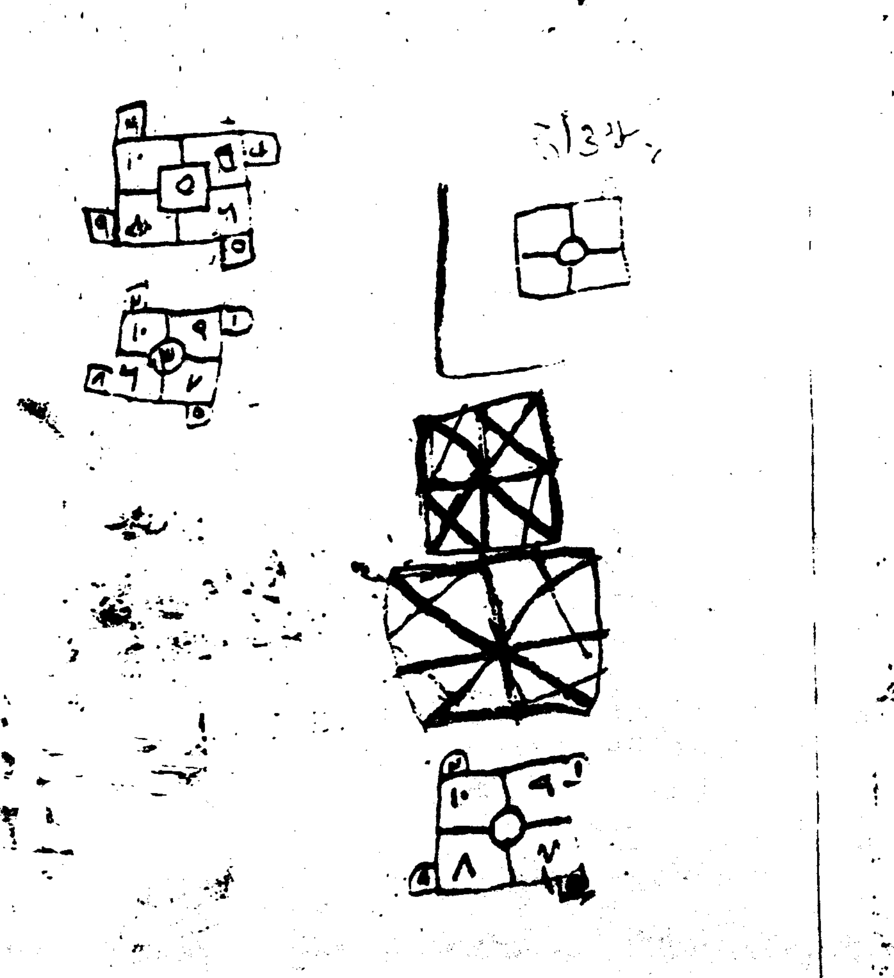
هذا الكتاب … ملا مصطفى … بغداد



فيما يلي

سلفنا الطاهر و أبنائه ويجمع لو الاولى والآخر
والشاهد والغايب والبادي والحاضر [illegible]
بدل [illegible] فقد ارجح حمله وجاى [illegible]
يتنف مايه ألف وما ذلك الا لهذا المعنى [illegible]
لحضرته العليه المقام ورتبته المؤيد للايها [illegible]
يزدادن في [illegible] على مرور الايام جدة ويد [illegible]
الوجوه كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لهرم بن سنان
اعطى ابوك زهيرا [illegible] الات قال ثيابا و [illegible]
افنا ما الدهر قال عمر لكن ما اعطاكم لا يفنيه الدهر [illegible]
اعطاه كذا وكذا واشيا اسيتها فقال لكن ما اعطاكم لا [illegible]
ما تريه الذي زنع على احسن عمادة ومناب اهله الاجواد [illegible]
سلاطين الاسلام واعيان الاعلام وزين الزمان [illegible]
الذين [illegible] عاشوا [illegible] وما [illegible] لما [illegible]
خلت المنابر والاسرة منهم فعليهم حق [illegible]
وختمته بذكر [illegible] التي هي واسطه [illegible]
ومناسبة الشريفة التي هي مثل الختام وقد [illegible]
بذكر [illegible] الملوك اولاد المقام الاشرف [illegible]
الاعيان [illegible] النجوم الزواهر والبدور الزواهر
من [illegible] لا [illegible] النجوم التي [illegible]
اللهم [illegible] وساعه [illegible]
وشاعلم [illegible] شفا القلوب في [illegible]
[illegible] اشتمال الاجاد [illegible]
[illegible] على [illegible] نذكر [illegible]





في أوج السعادة راقيا

لا زلت في أوج السعادة راقيا تعلو بذكراك المديح وتشرف

ومما كتبه [illegible] من نظم المقام الأشرف أعز الله أنصاره وأدام اقتداره

سواك ولو نهدت سواي مولاي أنت من الزمان مناي

لم [illegible] عن محض عهدك والوفا [illegible] رضاك ولو طلبت جفاي

اعطف وحقق كل [illegible] واعز [illegible] أملك [illegible] عناك

[illegible] نصفا وداد بيننا حاشى وكلا أن يخيب رجاي

بالله [illegible] الا [illegible] عنك يا مولاي

[illegible] فصاحة وبلاغة وذكاي

كل المعاني [illegible] على [illegible] ويقول غير شمات الأعداي

[illegible]

وحقك إني طائع للذي تهوى وإني [illegible] لا يهوى

وإني [illegible] وقد [illegible] يا معجي [illegible] السلوى

وقد [illegible] المضنى [illegible] لعلي [illegible] البلوى

[illegible] الهوى [illegible] الهوى رضوى

[illegible] شكوت الحال [illegible] السلوى

إذا غبت عن عيني [illegible] الدعوى

[illegible] وذل [illegible] العفوا

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــــة(١)

... سلفه(٢) الطاهر وأبنائه ، ويجمع له منهم الأول والآخر ، والناقص والوافر ، والشاهد والغائب ، والبادئ والحاضر (وقد بذلت جهدى) وذلك جهد المقل ، ومن بذل جهده فقد أوجب حمده ، وجاء فى الحديث الصحيح « صدقة درهم سبقت ألف درهم » وما ذلك إلا لهذا المعنى ، فجمعت لحضرته العلية المقام ، ورتبته المولية للإنعام على الدوام ، كتاباً يزداد ذكره على مرور الأيام جده ، ويذكر بمحاسن الأهل عند الوحدة ، كما قال عمر بن الخطاب (٣) رضى الله عنه لهرم بن سنان(٤) :

---

(١) إضافة من عندنا .

(٢) هناك نقص فى المخطوطة وخاصة الصفحة التى تخص الملك العادل سليمان ابن الملك الكامل غازى .

(٣) هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أبو حفص العدوى الفاروق وزير رسول الله ﷺ ، ومن أيد الله به الإسلام ، وفتح به الأمصار ، وهو الصادق المحدث الملهم ، وهو الذى سن للمحدثين التثبت فى النقل ، وربما كان يتوقف فى خبر الواحد إذا ارتاب ، واستشهد أمير المؤمنين فى أواخر ذى الحجة من سنة ثلاث وعشرين هجرية ، وعاش نحوا من ستين سنة .

انظر : أسد الغابة ١٤٥/٤ ، الإصابة ٥١١/٢ ، تاريخ الخلفاء ١٠٨ ، تذكرة الحفاظ ٥/١ ، خلاصة تذهيب الكمال ٢٣٩ ، شذرات الذهب ٣٣/١ ، طبقات الفقهاء ٣٨ ، طبقات القراء لابن الجزرى ٥٩١/١ ، العبر ٢٧/١ ، مروج الذهب ٣١٢/٢ ، النجوم الزاهرة ٧٨/١ .

(٤) هو هرم بن سنان ابن أبى حارثة المرى من مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ، من أجواد العرب فى الجاهلية ، يضرب به المثل وهو ممدوح زهير بن أبى سلمى . اشتهر هو وابن عمه الحارث بن عوف بن أبى الحارثة بدخولهما فى الإصلاح بين عبس وذبيان ، قال الحارث بن عوف فى قصة أوردها الأصفهانى . مات سنة ١٥ ق . هـ / ٦٠٨ م .

انظر : الأمثال للميدانى ١٢٧/١ ، الأغانى ١٤١/٩ ـ ١٤٣ ، المحبر ١٤٣ ، شرح ديوان زهير لثعلب ٣٣ .

ما أعطى أبوك زهيراً[١] على قصيدته اللامية[٢] ؟ قال : ثيابا وأثاثا وأشياء أفناها الدهر. قال عمر (رضى الله عنه) لكن ما أعطاكموه لا يفنيه الدهر . وفى رواية أخرى : أعطاه كذا وكذا وأشياء أنسيتها ، فقال : لكن ما أعطاكموه لا ينسى .

(وضعت هذا الكتاب) فى مآثر بيته الذى رفع على أحسن عماد ، ومناقب أهله الأجود الأمجاد ، سلاطين الإسلام ، وأعيان الأعلام ، وزين الزمان ، وفخر الأوان الذين هم كما قال بعضهم :

عاشوا كراماً وقضوا كراماً[٣] وعاش فى فضلهم الكرام

وهناك قول آخر[٤] :

خلَتِ الأسرّةُ والمنابر منهم فعليهمُ حتى الممات سلام[٥]

وختمته بذكر مناقبه التى هى واسطة هذا النظام ، ومحاسنه الشريفة التى هى مسك

---

(١) هو زهير بن أبى سلمى ربيعة بن رباح المزنى من مضر ، حكيم الشعراء فى الجاهلية ، وفى أئمة الأدب من يفضله على شعراء العرب كافة . قال ابن الأعرابى : كان لزهير فى الشعر ما لم يكن غيره ، كان أبوه شاعراً وخاله شاعراً وأخته سلمى شاعرة وابناه كعب وبجير شاعرين ، وأخته الخنساء شاعرة ، ولد ببلاد « مزينة » بنواحى المدينة ، وكان يقيم فى الحاجر « من ديار نجد » واستمر بنوه فيه بعد الإسلام قيل : كان ينظم القصيدة فى شهر وينقحها ويهذبها فى سنة ، فكانت قصائده تسمى « الحوليات » مات سنة ١٣ ق . هـ ـ ٦٠٩ م .

انظر : الأغانى ٢٨٨/١٠ ـ ٢٣٤ ، شرح زهير لثعلب ٥٥ و ٣٢٦ ، معاهد التنصيص ٣٢٧/١ ، شرح شواهد المغنى ٤٨ ، جمهرة الأنساب ٢٥ و ٤٧ ، وصحيح الأخبار ٧/١ و ١١٢ ، آداب اللغة ١/ ١٠٥ ، الشعر والشعراء ٤٤/١ ، خزانة البغدادى ٣٧٥/١ .

(٢) مطلع القصيدة :

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو وأقفر من سلمى التعانيق والثقل

(٣) وردت فى المخطوطة « وماتوا كراماً » .

(٤) إضافة من عندنا للسياق مع المعنى .

(٥) ورد هذا البيت فى نكت الهميان ، والأغانى للأصفهانى ٣٠٠/١٦ ، وهذا البيت لأبى المنصور الأعمى له ترجمة وافية فى الشعر والشعراء لابن قتيبة .

الختام، وقد أردفه المملوك بذكر السادة الملوك ، أولاد المقام الأشرف الذين هم عين الأعيان ، ونخبة الزمان ، ونجوم الزواهر ، والبحور الزواخر .

من تلقَ منهم تقل لاقيت سيدَهُمْ مثل النجوم التى يَسْرى بها السارى[1]

اللهم شُدَّ بهم عضُده [2] وساعِدَه ، وكـن فى الحوادث مُعاضده ومساعـده وسميته « شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب » على أننى لم ألتزم استيعاب الأخبار ولا ذكر جميع الآثار ، ولكن نبهنا بما ذكر على ما لـم يذكر ، فإن عجائب البحر لا تحصى ولا (ق ٢ ب) تحصر، فإن وقع فى خاطره الكريم فى حيِّز القبول ، فذلك غاية المقصود ومنتهى السؤال . وإلا :

فغايتى أن ألوم حظى وحظى الحائط القصير

والمسؤول من إحسان الواقف عليه ، والواصل إليه ، أن يغفر الزلل ويسمح ، ويصلح الخطأ ويصفح ، فإنى معترف بالتقصير ، معتذر إلى حضرة من إليه هذا الكتاب يصير ، ومتمثل بقول العالم الكبير[3] :

وإنْ تجدْ عيباً فَسُدَّ الخللا فجلَّ من لا عيبَ فيه وعلا

وبالله أعتضد فيما أعتمد ، وأعتصم عما يصم[4] وهو حسبى ونعم الوكيل . ومن هنا نشرع فيما نحن بصدده ، والله الموفق والمعين والمسهل للإتمام .

---

(١) هذا البيت من شعر عبيد بن العرندس فى مدح وتمجيد بنى عمرو الغنويين .
انظر : معجم الشعراء ١٧٣ ، أمالى ٢٣٧/١ .

(٢) المقصود هنا عضد الملك العادل سليمان بن الملك الكامل غازى

(٣) المقصود هنا القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرى أبو محمد من أهل البصرة ، كان يسكن بنى حرام إحدى محال البصرة مما يلى الشط ، أحد أئمة أهل الأدب واللغة ، ومن لم يكن له فى فنه نظير ، فاق أهل زمانه بالذكاء والفصاحة وتنميق العبارة وتحسينها ، له عدة مصنفات منها « المقامات » و « درة الغواص فى أوهام الخواص » و « ملحة الإعراب » و « شرح الملحة » . مات سنة ٥١٦ هـ .
انظر : نزهة الألباء ٤٥٣ ـ ٤٥٧ ، النجوم الزاهرة ٢٢٥/٥ ، معجم البلدان ٦١/٨ ، معجم الأدباء ٢٦١/١٦ ـ ٢٩٣ ، الكامل ٣٠٥/٨ ، البداية والنهاية ١٩٣/١٢ ، وفيات الأعيان ٤١٩/١ ـ ٤٢١ ، روضات الجنات ٥٢٧ ـ ٥٢٨ ، شذرات الذهب ٥٠/٤ ـ ٥٣ .

(٤) بمعنى : يعيب .

طبقات البيت الأيوبي

أذكر أولاً : أصل البيت الأيوبي ، وهم منتسبون إلى أيوب بن شاذى بن مروان كما نذكره فى محله ، ثم نتبعه بذكر التراجم فى الطبقات .

فالطبقة الأولى : أولاد شاذى .

والثانية : أولاد أولاده .

والثالثة : أولاد أولاد أولاده ، وكذا إلى آخر الكتاب .

وأقدم من الأخوة أسبقهم موتا ، ثم أتبعهم بمن أعلم وفاته ، ثم أتبعهم بأخواتهم النساء كذلك ، ثم أذكر أولادهم فى الطبقة التى تلى طبقتهم على حسب ترتيب أصولهم كذلك ، وكذا إلى آخر الطبقات ولنذكر مثالا يتضح به ذلك .

الطبقة الأولى :

أولاد شاذى أولها شيركوه . ، مات سنة أربع وستين وخمسمائة ، ثم أخوه أيوب ، مات سنة ثمان وستين وخمسمائة .

الطبقة الثانية :

أولاد شاذى وأولها شيركوه ، وهو محمد مات سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، ثم أولاد أيوب أولهم شاهنشاه . مات سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ثم توران شاه . مات سنة ست وسبعين وخمسمائة ، ثم بورى . مات سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، ثم [ق ٣أ] يوسف ، مات سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، ثم طغتكين . مات سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ، ثم أبو بكر . مات سنة خمس عشرة وستمائة ، ثم ست الشام ماتت فى السنة المذكورة ، ثم ربيعة خاتون . ماتت سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

الطبقة الثالثة :

أولاد أولاد أولاد شاذى . أولها : أولاد محمد وهو شيركوه . مات سنة سبع وثلاثين وستمائة ، ثم أولاد شاهنشاه ، ثم أولاد يوسف وأولهم عثمان . مات سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وآخرهم توران شاه . مات سنة ثمان وأربعين وستمائة ، ثم بقية إخوته ممن لم أعلم وفاته ، ثم أختهم مؤنسة ، ثم أولاد ظغتكين ، ثم أولاد أبى بكر ، ثم أولاد ست الشام وهو محمد وهو آخر الطبقة ، وكذا إلى آخر الكتاب ممن وصل إلينا علمهم ، والمسؤول ممن وقف على هذا الكتاب ، وكان عنده زيادة تراجم أو أخبار أن يضعها مواضعها ، فإنا ربما بيضنا فى بعض المواضع لأجل ذلك والله تعالى أعلم .

بنــو أيــوب

أصل البيت الأيوبي
ثبت الله تعالى قواعده

هم منتسبون إلى أيوب بن شاذى ، زاد بعضهم ابن مروان ، زاد بعضهم ابن عريب بن على بن عتيرة بن الحسن بن على بن أحمد بن أبى على بن عبد العزيز بن هدبة بن الحصين بن الحارث بن سنان بن عمرو بن مرة بن عوف بن أسامة بن نبهش بن الحارث ابن عوف بن أبى حارثة بن مرة بن نشبة بن غيظ بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ديث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

قال جامعه الفقير : والأشهر فى نسب عدنان أنه ابن أُد بن أُدَد بن مُقوم بن ناحور بن تيّرح بن يَعرُب بن يشحب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم .

وفى رواية أخرى : ابن أُدد بن هَمَيّسع بن حمل بن بنْت بن قيدار بن إسماعيل .

وفى رواية أخرى : عدنان بن أُدد بن معرم بن سالب بن عامر بن منير بن الصباح بن تامين بن منير بن حمل بن نابت بن إسماعيل ، وفيه أقوال آخر .

وإبراهيم عليه السلام بن آزر ، وهو تارح بن ناحور بن شاروخ بن أرغو بن قالع بن عابر ابن أرفخشد بن (ق ٣ ب) سام بن نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ ، وهو إدريس عليه السلام ابن يارد بن مهاليل بن قينان بن أنوش بن شيش بن آدم عليهما السلام.

وقيل ناحور بن ساحور بن أرغُو وهو هود عليه السلام بن هونث بن فالخ بن أرفخشد ابن سام ، وقيل غير ذلك ، وفى ضبط الألفاظ اختلاف كبير ليس هذا محله ، انتهى كلام جامعه .

وذكر الحسن بن غريب بن عمران[١] الحرسى أن على بن أحمد يقال إنه ممدوح المتنبى[٢] ويعرف بالخراسانى ، وفيه يقول من قصيد :

شرق الجو بالغُبار إذا سا ر على بن أحمد القمقام[٣]

قال : وحارث بن عوف بن أبى حارثة هو الذى حمل الدماء بين عبس وذبيان وشاركه خارجة بن سنان ، وفيهما يقول زهير بن أبى سلمى قصائد منها :

على مكثريهم حق من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل
وهل ينبت الخطى إلا وشيجة وتغرس إلا فى منابتها النخل

انتهى . ويقال إن مروان من أولاد الخلفاء الأموية ، وادعى ذلك إسماعيل بن طغتكين ابن أيوب ، وأنكره عمه العادل أبو بكر ، وذكر ابن القادسى[٤] أن شاذى كان مملوكا لبهروز الخادم ، وهو غلط ما كان مملوكا قط ، وإنما هو من الأكراد الروادية وهى بطن من الهذبانية ، من بلد دوين[٥] فى آخر أذربيجان من جهة أران[٦] وبلاد الكرج[٧] ، وكان له من الولد « أيوب » وهو الأكبر « شيركوه » فقدم بهما أبوهما العراق ، فخدما شحنتها بهروز ، وكان إقطاعه تكريت [٨] فجعل دزدار قلعتها أى حافظ ، وقيل بل جعل شاذى ، ومات شاذى بتكريت وعليه قبة داخل البلد ، واتفق أن عماد الدين زنكى انهزم إلى تكريت

---

(١) له ذكر فى كتاب مفرج الكروب ٤/١ ، وفيات الأعيان ١٤٠/٦ ، النجوم الزاهرة ١٣/٦ .
(٢) الشاعر المشهور .
(٣) ورد هذا البيت فى ديوان المتنبى ١٥٠ .
(٤) هو الشيخ والمؤرخ أبو عبد الله محمد بن أبى العباس القادسى الكتبى ، ثقة .
مات سنة ٦٢٢ هـ ، له ذيل على المنتظم .
(٥) بلدة فى آخر حدود أذربيجان .
(٦) إحدى فروع أرمينية .
(٧) مدينة بين همذان وأصبهان .
(٨) بلدة مشهورة بين الموصل وبغداد .

فى ربيع الآخر سنة ست وعشرين وخمسمائة فخدمه أيوب وشيركوه ، ثم إن شيركوه قتل إنسانا فأخرجهما بهروز فى حدود سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة .

قال بعض الأيوبية : خرجنا من تكريت ليلة ولادة صلاح الدين ، فتشاءموا به .

فقال بعضهم : لعل فيه الخير وما تعلمون ، وكان ﴿ **فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا** ﴾[1] ولما خرجا لحقا بعماد الدين فأحسن إليهما ، واتصل أبوه بولد (ق ٤ أ) عماد الدين غازى ، وشيركوه بولد نور الدين محمود ، فلما فتح عماد الدين بعلبك[2] فى أوائل سنة أربع وثلاثين وخمسمائة جعل أبوه مستحفظ قلعتها ، ولما حاصرها عسكر دمشق سنة إحدى وأربعين سلمها إليهم على إقطاع كبيرة وبقى أيوب من أكابر أمراء دمشق ، فلما أراد نور الدين أخذ دمشق ساعده أيوب ، وصار شيركوه مقدم عسكر نور الدين ، ثم علا أمرهم إلى أن صاروا ملوكا ، آباء ملوك والله يؤتى ملكه من يشاء .

---

(١) ١٩ م النساء ٤ .

(٢) مدينة قديمة بينها وبين دمشق ثلاثة أيام .

انظر : معجم البلدان ٤٥٣/١ .

الطبقة الأولى
من أولاد شاذى

١ ـ فمنهم الملك المنصور شيركوه :

ومعناها : أسد الغابة ابن شاذى الملك المنصور أسد الدين أبو الحارث .

قال ابن عساكر [١] : ولى دمشق مدة ، وأقام يحارب الفرنج ، وفتح حصونا كثيرة ، وكان شجاعاً مقداماً صارماً مهيباً ، حج سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وله مدرسة بدمشق . انتهى .

ذكر ورود أسد الدين القاهرة فى سنة تسع وخمسين وخمسمائة : وسببه أن شاور [٢]

---

(١) هو الإمام الحافظ الكبير حافظ الشام ثقة الدين أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن الحسين الدمشقى ، صاحب « تاريخ دمشق » و « أطراف السنن الأربعة » و « عوالى مالك » و « غرائب مالك» و « فضل أصحاب الحديث » و « مناقب الشبان » و « عوالى الثورى » و « من وافقت كنيته كنية زوجته » و « مسند داريا » و « تاريخ المزة » ، ولد سنة ٤٩٩ هـ ، وسمع فى سنة ٥٠٥ هـ باعتناء والده ، ورحل إلى بغداد والكوفة ونيسابور ومرو وهراة وغيرها ، وعمل الأربعين البلدانية ، وعدد شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ ونيف وثمانون امرأة سمع من الكبار .

قال ابن النجار : هو إمام المحدثين فى وقته ، انتهت إليه الرئاسة فى الحفظ والإتقان والثقة والمعرفة التامة، وبه ختم هذا الشأن . مات سنة ٥٧١ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ٣٣٥/١ ، النجوم الزاهرة ٧٧/٦ ، المنتظم ٢٦١/١٠ ، مفتاح السعادة ٣٥٢/٢، البداية والنهاية ٢٩٤/١٢ ، تذكرة الحفاظ ١٣٢٨/٤ ، شذرات الذهب ٢٣٩/٤ ، طبقات السبكى ٢١٥/٧ ، العبر ٢١٢/٤ ، مرآة الجنان ٣٩٣/٣ .

(٢) هو شاور بن مجير بن نزار السعدى من بنى هوازن أبو شجاع أمير من الولاة فيه نجابة وفرسية يلقب بأمير الجيوش ، ولى الصعيد الأعلى بمصر فى أيام العاضد ، ثم قام بثورة استولى بها على وزارة مصر بعد أن قتل زريك بن صالح سنة ٥٥٧ هـ ، واتهم بممالأة الإفرنج وأنه استعان بهم على دفع أسد الدين =

وزير العاضدى[١] المصرى وصل إلى نور الدين مستنجدا على من أخذ منصبه قهراً ، وكانت عادة للمصريين أن يوقعوا للغالب ، وكان شاور أخذ الوزارة من بنى رزيك[٢] ثم ولب عليه حاجب الباب ضرغام ، فأخرجه من القاهرة وقتل ولده ، فرحل إلى نور الدين يطلب عسكرا ويبذل له ثلث خراج مصر ، ونور الدين مقدم رِجلاً ومؤخر أخرى ، تارة بجملة رعاية شاور وكشف أحوال مصر ، وتارة يمنعه خطر الطريق ، ثم أرسل عسكراً بصحبة أسد الدين ، وذلك فى جمادى الأولى .

وقال ابن شداد[٣] فى ثانى جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وصلوا مصر ، ثم سار

= شيركوه عن دخول مصر ، فاتفق مع العاضد على قتله وعهد إلى « صلاح الدين » وكان لا يـزال قائداً فتولى قتله أمام قبر الإمام الشافعى سنة ٥٦٤ هـ بالقاهرة ، وبعث برأسه إلى العاضد .

انظر : كتاب الروضتين ١٣٠/١ ، وفيات الأعيان ٢٢٠/١ ، الكامل فى التاريخ ١٢٥/١١ ، العبر فى المبتدأ والخبر ٧٧/٤ ـ ٧٩ .

(١) هو عبد الله العاضد بن يوسف ابن الحافظ العلوى الفاطمى أبو محمد آخر ملوك الدولة الفاطمية « العبيدية » بمصر والمغرب ، بويع له بمصر سنة ٥٥٥ هـ ، بعد موت الفائز ، وكان الضعف قد ظهر على رجال هذه الدولة ، واستبد الوزراء والمستشارون الترك وغيرهم بالأمر ، وفى أيامه قوى السلطان صلاح الدين « يوسف بن أيوب » وتولى وزارته وتصرف فى شئون الملك ، ثم قطع خطبته وأمر بالخطبة للمستضىء بالله العباسى وكان العاضد فى مرض موته ، فمات ولم يعلم بذلك . فهو آخر من دعى بأمير المؤمنين من العبيديين الفاطميين بمصر ، وآخر من ولى الخلافة منهم . وكانت مدتهم ٢٦٨ سنة

انظر : ابن خلدون ٧٦/٤ و ٨١ و ٨٢ ، الكامل ٩٦/١١ و ١٣٧ ، النجوم الزاهرة ٣٠٧/٥ و ٣٣٤ ـ ٣٥٧ ، اتعاظ الحنفا ٢٨٧ ـ ٢٩٣ ، وفيات الأعيان ٢٦٩/١ ، ابن إياس ٦٧/١ .

(٢) هو أبو الغارات طلائع بن رزيك الملقب بالملك الصالح وزير مصر ، كان والياً بمنية بنى خصيب من أعمال صعيد مصر ، كان فاضلاً سمحاً فى العطاء سهلاً فى اللقاء محباً لأهل الفضائل جيد الشعر . مات سنة ٥٥٦ هـ ، وكانت ولادته ٤٩٥ هـ

(٣) هو يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدى الموصلى أبو المحاسن بهاء الدين ابن شداد مؤرخ من كبار القضاة ، ولد بالموصل سنة ٥٢٩ هـ ، ومات أبوه وهو صغير فنشأ عند أخواله « بنى شداد » وشداد جده لأمه ، فنسب إليهم ، وتفقه بالموصل ثم بغداد ، وتولى الإعادة بالنظامية نحو أربع سنين ، وعاد إلى الموصل فدرس وصنف بعض كتبه ، وسافر إلى حلب فحدث بها وبدمشق ومصر وغيرها . ولما دخل =

نور الدين ليشغل الفرنج ، ووصل أسد الدين بلبيس فخرج إليه ناصر الدين أخو الضرغام فهزمه أسد الدين إلى القاهرة ، فقاتله جند القاهرة ، ثم هزمهم أسد الدين آخر النهار وأحرق نواحي من القاهرة ، ثم استاء من جماعة ثاني يوم ، وبقى الضرغام متحيراً ثم قتل عند مشهد السيدة نفيسة(١) وحمل رأسه على رمح ، وخلع على شاور خلعة الوزارة مستهل رجب ، وأجرى الضيافة لأسد الدين وهو نازل بأرض الطبالة(٢) ظاهر القاهرة ، وأقام ثلاثة أيام (ق ٤ ب) ولم يخرج إليه شاور . ثم عزم على قتل أسد الدين لأنه عنف على ما تجريه الغز(٣) على مصر ، فأرسل أسد الدين يطلب من شاور إنجاز الوعد ، فلم يجبه وأمره بالعودة إلى بلاده ، فكر أسد الدين راجعاً ونزل على بلبيس فملكها ، وهى من البلاد الشرقية ، فكتب شاور إلى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين ، فجاءهم فرج عظيم ،

= دمشق كان السلطان صلاح الدين محاصراً قلعة « كوكب » فدعاه إليه ، وولاه قضاء العسكر وبيت المقدس والنظر على أوقافه واصطحبه معه في بعض غزواته فدون وقائعه وكثيراً من أخباره ، ولما توفى صلاح الدين كان حاضراً .

وتوجه إلى حلب لجمع كلمة الأخوة أولاد صلاح الدين وتحليف بعضهم لبعض ، ثم انصرف إلى مصر لاستخلاف الملك العزيز « عثمان بن صلاح الدين يوسف » وعرض عليه الظاهر صاحب حلب الحكم فيها ، فأجاب . مات سنة ٣٦٢ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ٣٥٤/٢ ، ذيل الروضتين ١٦٣ ، طبقات القراء لابن الجزرى ٣٩٥/٢ ، تاريخ ابن الوردى ١٦٠/٢ ، الأنس الجليل ٤٤٧/٢ و ٤٦٣ ، مرآة الجنان ٨٢/٤ ، مفتاح الكنوز ٥١٦/٢ .

(١) هى نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب ، صاحبة المشهد المعروف بمصر . تقية صالحة عالمة بالتفسير والحديث ، ولدت بمكة سنة ١٤٥ هـ ، ونشأت في المدينة وتزوجت إسحاق المؤتمن ابن جعفر الصادق ، وانتقلت إلى القاهرة فتوفيت فيها سنة ٢٠٨ هـ ، حجت ثلاثين حجة ، وكانت تحفظ القرآن وسمع عليها الإمام الشافعى ، ولما مات أدخلت جنازته إلى دارها وصلت عليه ، وكان العلماء يزورونها ويأخذون عنها ، وهى أمية ولكنها سمعت كثيراً من الحديث .

انظر : فوات الوفيات ٣١٠/٢ ، وفيات الأعيان ١٦٩/٢ ، طبقات المناوى ٢٧١ ، الدر المنثور ٥٢١ .

(٢) من أفضل متنزهات القاهرة ، وهبها الخليفة المستنصر بالله أبو تميم معد الفاطمى إلى مغنية المسماة نسب الطبالة فاشتهرت بها .

(٣) نوع من الأجناس الأتراك .

وسارعوا إلى تلبيته طمعاً فى ملك مصر ، فصار ملك القدس بمن حوله وبمن اجتمع عنده بسبب الحج ، والتقاهم شاور بعربانه وسودانه ، فلما سمع أسد الدين تحصن ببلبيس شهرين، وقيل ثلاثة أشهر ، وكان سورها من طين وهو قصير جداً ، وليس له خندق وهو يفاديهم القتال ويراوحهم ، فقتل من الطرفين خلق عظيم ، ولم يبلغوا منه غرضاً . فبينا هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم[1] ومسير نور الدين إلى بانياس[2] ، وكان نور الدين قد بلغه غدر شاور فخاف الفرنج على أسد الدين فخرج إلى حارم ليشغل بالهم . فلما سمع الفرنج بالهزيمة سقط فى أيديهم ، وأرادوا العود إلى بلادهم ليحفظوها ، وراسلوا أسد الدين فى الصلح ، وأن يرجع كل منهم إلى بلاده فأجابهم ، ولم يعلم ما فعل نور الدين وتم الصلح وخرج أسد الدين من بلبيس فى ذى الحجة . قال بعضهم : رأيته يوم خرج وقد قدم أصحابه بين يديه وبيده لت حديد ، والمسلمون والفرنج تنظر إليه فأتاه فرنجى فقال له : أما تخاف غدر هؤلاء وقد أحاطوا بك فلا يبقون لك بقية فقال : يا ليتهم فعلوا . كنت والله أضع فيهم السيف فلا أقتل حتى أقتل رجالاً ثم يقصدها الملك العادل فيفنى من بقى منهم. ووالله لو طاوعنى هؤلاء لخرجت إليهم أول يوم . فصلب الفرنجى على وجهه ، وقال: كنا نعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم فى وصفكم والآن قد عذرناهم ، وكان مع أسد الدين ابن أخيه صلاح الدين يوسف فكان صاحب رأيه لا يفصل أمراً دونه . لما لاح له من آثار السعادة واقتران النصر بحركاته ، ورجع أسد الدين ، فوصل الشام سالماً فى رابع عشرين ذى الحجة . وقال ابن شداد فى سابع عشرين ذى الحجة سنة ثمان وخمسين . وكان الفرنج قد قعدوا له فى الطريق فعلم بهم وعدل عن الطريق وعاد شاور إلى القاهرة . وله يقول ابن الزبير[3] مادحاً من قصيد (ق٥ أ) :

---

(١) حصن فى اتجاه أنطاكية ، وهى من أعمال حلب .
انظر : معجم البلدان ٢/٢٠٥ .

(٢) حصن يقع فى جنوب غرب دمشق .

(٣) هو أبو محمد بن على بن الزبير ، مات سنة ٥٦١ هـ .
انظر : فوات الوفيات ١/١٢٤ .

ليهنك حين استجمع النصر والفخر الـ ـمجيد فلم يسمح بمثلهما الدهر
فلم يمض هذا العشر حتى تبادرت على الناس بالنعمى أنا ملك العشر
وهل يلبث الاظلام والظلم ساعة إذا ما بدا من وجهك الشمس والبدر
ويخدمك الافرنج خدمة طاعة وينفذ فيهم عندك النهى والأمر
وقبلك لم يُسمع بأن خليفة يدين له الإسلام أجمع والكفر

واستصحب معه شرذمة من الفرنج ، وأجرى لهم الأرزاق السنية ، وأطلق لهم الأسرى ، وحملهم على الخيل ، وأخذ يصادر الناس ، لعلمه أن هو أهم مع أسد الدين .

مجىء أسد الدين إلى القاهرة مرة ثانية سنة اثنتين وستين (وخمسمائة)

وذلك أنه لما رجع من بلبيس وبقى فى خاطره أمر عظيم من البلاد لحسنها ، ولعلمه أن الأمور تجرى فيهم بالوهم ، ولما فى نفسه من غدر شاور ، فكان كلما خلا بنور الدين يرغبه فيها ، فأذعن نور الدين لذلك ، لما فى قلبه من شاور فأرسله فى منتصف ربيع الأول فى ألفى فارس غير الحشود ، وصحبه ابن أخيه صلاح الدين فقال عرقلة [(١)] :

أقول والأتراك قد أزمعت مصر إلى حرب الأعاريب
رب كما ملكتها يوسف الصد يق من أولاد يعقوب
تملكها فى عصرنا يوسف الصا دق من أولاد أيوب

ثم إن أسد الدين جد فى المسير فوصل إطفيح [(٢)] وجبى الأموال ونزل الجيزة [(٣)] وأقام قريب الشهرين ، فلما اتصل الخبر بشاور أرسل إلى ملوك الفرنج يستصرخهم ويقول

---

(١) له ترجمة فى فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ١/٢٢٢ .
(٢) بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر .
(٣) بليدة فى غربى فسطاط .

ملككم ولا ملك العدو . وقيل إن شاور لما علم نور الدين بالمكاتبة أرسل أسد الدين ، انتهى .

فأقبل مُرّى (١) فى خيله ورجله ، الرجاء يسوقهم والخوف يقودهم حتى نزل بظاهر الفسطاط ، وذلك بعد وصول أسد الدين. وقيل : إنهم وصلوا قبله ، وقيل : وصلوا مع وصوله ، ثم امتنعوا من التقدم إلا بمال . قال بعضهم : طلبوا أربعمائة ألف دينار وألف دينار مدة إقامتهم ومائة دينار غلة فساروا (ق٥ ب) طالبين أسد الدين حتى انتهوا إلى موقع يقال له « البابين » وقيل : « أبوان » فعزم على لقائهم (وقتالهم) فتوانى العسكر لعلمهم أن كل من فى مصر عدوه ، ولقلتهم وكثرة العدو . فإنهم كانوا عشرات الألوف قال بزغش مملوك نور الدين : من يخاف القتل أو الأسر فلا يخدم الملوك . والله لئن عدتم إلى الملك العادل ليأخذ إقطاعاتكم ويأخذ منكم ما أخذتم . قال أسد الدين : هذا رأى وبه أعمل ، فأقام بمكانة حتى أدركوه ، فجعل الأثقال فى القلب يتكثر بها . وقال لصلاح الدين : نعم إنهم يعتقدون أنى فى القلب فهم يجعلون جمرتهم بإزائه ، فإذا حملوا ، فانهزموا ثم ارجعوا عليهم . ووقف هو بشجعان العسكر فى الميمنة . فلما تلاقوا ، انهزم صلاح الدين فحينئذ حمل عليهم أسد الدين ، فأكثر القتل والأسر ، فقتل الوفا وأسر مائة وسبعين ، فلما عاد الذين طلبوا القلب رأوا مكان المعركة بلقعاً ، فانهزموا ، ولم يتبعهم أسد الدين ومضى إلى الإسكندرية ، فخرج إليه ابن مصال والبهاء وأعيان البلد وسلموها إليه ، وسألوه المقام بها فقال لا يمكننى ورتب صلاح الدين فيها مع خمسمائة فارس ، وخرج نحو قوص(٢) ، فعاد شاور والفرنج وحاصروا البلد ثلاثة أشهر ، وقيل أربعة ، وقاتل أهل البلد مع صلاح الدين وقووه بالأموال ، وسألهم شاور أن يسلموه صلاح الدين ويترك المكوس والخمس . فقالوا : معاذ الله أن نسلم المسلمين إلى الفرنج وبلغ أسد الدين فجمع العرب وعاد ، فلما قارب الاسكندرية ، خاف شاور وأرسل يطلب الصلح على أن يعطى أسد الدين

---

(١) ملك الفرنج بالشام .

(٢) مدينة فى صعيد مصر .

خمسين ألف دينار ، واقطاعاً بمصر . وألا يقيم الفرنج بها، وأن يرجع كل منهم إلى بلاده، فتم الأمر ، وسلموا البلد نصف شوال ، واستقر الصلح بين شاور والفرنج أن يكون لهم كل سنة مائة الف دينار ، وأن يكون لهم بمصر شحنة ، والعاضد ليس عنده خبر . ووصل أسد الدين الشام ثامن عشر ذى القعدة وقيل شوال فامتدحه العماد الكاتب يقول[١] :

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشر ... ونلت ما عجزت عن نيله القدر
سهرت إذ رقدوا بل هجت إذ سكنوا ... وصلت إذ جبنوا بل طلت إذ قصروا
ومن يكون بنور الدين مهتدياً ... فيأمره كيف لا يقوى له المرر
لقد بغت فئة الإفرنج فانتصفت ... منها بأقدامك الهندية البتر
غرست فى أرض مصر من جسومهم ... أشجار خط لها من هامهم ثمر
وسال بحر نجيع فى مقام وغى ... به الحديد غمام والدم المطر
أنهرت منهم دماء بالصعيد جرى ... منها إلى النيل فى واديهم نهر
والساكنون القصور القاهرية قد ... نادى القصور عليهم أنهم قهروا
وشاور شاوروه فى مكائدهم ... فكاده الكيد لما خانه الحذر
وكيف يخذل جيش أنت مالكه ... والقائدان له التأييد والظفر
أجاب فيك الله ذو العرش دعوة من ... يطيب بالليل من أنفاسها لسحر

فلما عاد أقطعه نور الدين حمص وأعمالها زيادة على ما بيده وأعطى صلاح الدين ضيعتين إحداهما بحلب والأخرى بكفر طاب[٢] وفى سنة اثنتين وستين أخذ أسد الدين الشقيق[٣] ثم رحل عنها طالباً حصناً يقال له الغراق[٤] فمدحه عرقلة من قصيد :

---

(١) له ترجمة وافية : وفيات الأعيان ٢٣٣/٤ ، النجوم الزاهرة ١٧٨/٦ ، طبقات السبكى ٩٧/٤ .

(٢) بلدة بين حلب والمعرة .

(٣) قلعة حصينة قرب بانياس من أرض دمشق .

(٤) له ذكر فى النكت العصرية ٣٥ ، ٦٩ .

رحلت من الشقيق إلى الفراق | بعزم كالمهندة الرقاق
بجأشك لا بجيشك نلت هذا | وبالتوفيق لا بالاتفاق

رجوع أسد الدين مرة ثالثة إلى القاهرة ودخوله مصر

في سنة أربع وستين وخمسمائة فتحت الديار المصرية وقتل شاور وتولى أسد الدين مكانه وسبب ذلك يعود إلى أن الفرنج لما دخلوا مصر علموا عوراتها وطمعوا في ملكها ونقضوا ما بينهم من القواعد ، وظنوا أن نور الدين بعيد عن نصرة مصر ، فخرجوا وأظهروا قصد حمص وشايعهم على ذلك قصد مصر جماعة من أعداء شاور كابن الخياط وكاتب الملك « مُرى » فرنج مصر . ولم يكن مثله رأياً وشجاعة . فقال : المصلحة ألا تقصدها فإنها طعمة لنا . وأموالها تساق (ق٦ ب) إلينا نتقوى بها على نور الدين ، وإن قصدناها فإن أهلها لا يسلمونها ويحملهم الخوف منا على تسليمها لنور الدين ، وإن ملكها فهو والله هلاك الفرنج . فقالوا إلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ملكناها وحينئذ يتمنى نور الدين السلامة ، فأجابهم على كره ووصلوا بلبيس أول يوم من صفر فملكوها قهراً وقتلوا وسبوا وأسروا سليمان بن شاور ، وأقاموا بها خمسة أيام ثم أناخوا بالقاهرة في تاسع صفر وحاصروها ، فبذل أهلها الجهد في حفظها وخافوا أن يفعل بهم كما فعل بأهل بلبيس لملوكها . ولكن حسن لهم ذلك ﴿ **ليقضي الله أمراً كان مفعولاً** ﴾[1] وكان شاور لما سمع بهم سقط في يده وأرسل يستنجد بأسد الدين ، وأمر بحفر خندق وبنيان حصن وعسف الخاص والعام ، وجعل الفقهاء مستحثين ليبغضهم العامة فبنى سوراً وحفر خندقاً لا يمنعان الكلاب العاوية ، ونادى في مصر أن لا يسقى بها أحد ، فنفر الناس خارجين لا يلوى أحد على أحد ، يأخذ الرجل من جميع ما يملكه ما يقدر على حمله ونهب

(١) سورة الأنفال الآية ٤٢ .

السودان والجند الناس ، من سلم له شيء أخذوه وطافت بالقاهرة الخلائق وبقوا في طرقاتها، والروافض تلعنهم وبعض الناس أسعد وبعضهم أحذر فلم تر فتنة أعظم منها ، ثم أمر بحرق مصر فبقيت النار فيها أربعة وخمسين يوماً ، وبقيت مدة لا يسمع فيها آذان ولا يوقد فيها مصباح وأحرق جانب من الجامع العتيق ثم اشتد الحصار ، فكان شاور يرد الناس به بؤس في يده ، وكان يحمل إلى الفرنج سراً الأطعمة والأموال واستشار في المهادنة . ثم أرسل إلى الملك يذكر محبته وأن هواه معه وتخوفه من نور الدين ، وأن المسلمين لا يوافقونه على تسليم البلد ، ويشير بالصلح ، على أن يدفع له مالا ، فأجابه إلى ذلك . ووقع الصلح على ألف ألف دينار مصرية فيعضها بأجل ، فقال الفرنج . نأخذ المال نتقوى به ونعود ﴿ **ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين** ﴾ (١) فجعل لهم مائة ألف دينار وسألهم الرحيل ليجمع لهم المال ، فرحلوا قريباً ، وشرع في مصادرات الناس ، وبالجهد حصل خمسين ألف دينار . وكان العاضد قد أرسل إلى نور الدين يستغيث به ، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال له هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج . فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر ، ولما صالح شاور الفرنج على ذلك المال عاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه بما لقي المسلمون من الفرنج ، وبذل له ثلث بلاد مصر ، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيماً في عسكر وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين .

ودخل أسد الدين في الرابع من شهر ربيع الآخر الايوان ، وخلع عليه ولقي الإحسان وتردد شاور إلى أسد الدين وتودد وتجدد بينهما من الوداد ما تأكد وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة والأطعمة الواسعة والحلاوات والميرة ، فقال صلاح الدين : هذا أمر يطول ومسألة فرضها يعول ، ومعنا هذا العسكر الثقيل وإقامته بالإقامة يقصر عنها الأمد الطويل ولا أمر لنا مع استيلاء شاور ولا سيما إذا راوغ شاور وغادر ، فانفذ أسد الدين الفقيه عيسى(٢) إلى شاور يشير عليه بالاحتراز وقال له : أخشى من عندي من الناس فلم يكترث بمقاله ،

---

(١) سورة آل عمران الآية ٥٤ .

(٢) له ترجمة وافية في : الكامل ٤٢/١٢ ، النجوم الزاهرة ١١٠/٦ ، البداية والنهاية ٣٣٤/١٢ .

وركب على سبيل انبساطه واسترساله فاعترضه صلاح الدين فى الأمراء النورية وهو راكب على عادته فى هيبته الوزيرية فبغته وشحنه وقبضه وأثبته ووكل به فى خيمة ضربها له ، وحاول إمهاله فجاء من القصر من يطلب رأسه ، ويعجل من العمر يأسه وأبوا أن يرجعوا إلا ينجح السول ، فحم حمامه وحمل إلى القصر هامه وقد كثر هجاء شاور بغدره ومكره حتى قال عرقلة :

لقد فاز بالملك العقيم خليفة ... له شيركوه العاضدى وزير

كأن ابن شادى والصلاح وسيفه ... على لديه شبر وشبير

هو الأسد الضارى الذى جل خطبه ... وشاور كلب للرجال عقور

ومنها

فلا رحم الرحمن تربة قبره ... ولا زال فيها منكر ونكير

تقلد أسد الدين الوزارة

ولما قتل شاور أنفذت خلعة الوزارة لأسد الدين ، وسار إلى مصر ، ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش ونزل دار الوزارة ، وهى التى كان بها شاور ، وقيل : إنه أقام أياماً بعد ولايته بظاهر القاهرة ثم دخل وسلم على الخليفة ، وقيل إن الخليفة استدعاه فدخل القاهرة ، ورأى اجتماع الناس فخافهم على نفسه ، فقال : إن مولانا العاضد أمركم بنهب دار شاور فتفرقوا عنه ، وحل بين يدى الخليفة ولقبه . ولما رجع إلى دار الوزارة لم يجد ما يجلس عليه وذلك فى سابع عشر ربيع الآخر ، وكتب له القاضى الفاضل تقليداً إلى العاضد بحطه على أعلاه هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله ، فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها ، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت بك بنوة النبوة ، واتخذه للفوز سبيلاً ﴿ **ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً** ﴾[1] .

---

(١) سورة النحل : الآية ٩١ .

مرسوم التقليد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القاهر فوق عباده ، الظاهر على من جاهر بعناده ، القادر الذى يعجز الخلق عن فهم ما أودع ضمائر القلوب من مراده القوى على تقريب ما قضت الهمم باستبعاده ، الملى بحسن الجزاء لمن جاهد فى الله حق جهاده ، مؤتى الملك من يشاء بما أسلفه من ذخائر رشاده ونازعه ممن يشاء بما اقترفه من كبائر فساده ، منجد أمير المؤمنين بمن أمضى فى نصرته العزائم واستقبلته الأعداء بوجوه الندم وظهور الهزائم ، وفعلت له المهابة ما لا يفعل إليهم ، وخلعت اثاره على الدنيا ما تخلعه الأنوار على الظلم وعدمت أنظاره بما وجد من محاسنه التى فاق بها الملوك العرب والعجم ، وانتقم الله به ممن ظلم نفسه وإن ظن الناس أنه ظلم ، وذاد عن موارد الدين من هو منه أولى ، ويأبى الله إلا إمضاء ما حتم ، مؤيد أمير المؤمنين بإمام أقر الله به عينه وقضى على يده من نصرة الدين دينه ﴿ **لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم** ﴾ (١) .

والحمد لله الذى خص جدنا محمداً بشرف الاصطفاء والاجتباء وانهضه من الرسالة بأثقل الأعباء ، وذخر له من شرف المقام المحمود أوفر الأنصباء وأقام به القسطاس، وطهر به من الأدناس وأيده بالصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس وألبس شريعته من مكارم الأفعال والأقوال أحسن لباس ، وجعل النور ساريا منص فى عقبه لا ينقصه كثرة الاقتباس ﴿ **ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس** ﴾(٢) .

والحمد لله الذى اختار أمير المؤمنين لأن يقوم فى أمته مقامه ، ويهدى بمراشد نوره إلى دار المقامة وأوضح به منار الحق وأعلامه ، وجعله شهيد عصره وحجة أمره وباب رزقه وسبيل حقه وشفيع أوليائه ، والمستجار من الخطوب بلوائه والمضمونة لذويه العقبى ،

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٣ .

(٢) سورة يوسف : الآية ٣٨ .

والمسئول له الأجر فى القربى والمفترض له الطاعة على كل مكلف ، والغاية التى لا يقصر عنها لولائه إلا من تأخر فى مضمار النجاة وتخلف ، والمشفوع الذكر بالصلاة والتسليم والهادى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، لا يقبل عمل إلا بحفارة ولائه ولاينجح أمل إلا بسفاره الائه ولا يضل من استضاء بأنجم هدايته اللامعة ولا دين إلا به ولا دنيا إلا معه ليتضح النهج القاصد ولتقوم الحجة على الجاحد ، وليبين لهم اختلفوا فيه وليعلموا أنما هو إله واحد .

يحمده أمير المؤمنين على ما حباه من التأييد الذى ظهر فبهر وانتشر فعم نفعه البشر والاستظهار الذى اشترك فيه جنود السماء والأرض والاظفار الذى عقد الله منه عقداً لا تدخل عليه أحكام النقض ، والانتصار الذى أبان الله به معنى قوله ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض** ﴾[1] .

ويسأله أن يصلى على سيدنا محمد الأمين المبعوث رسولاً فى الأميين الهادى إلى دار الخلود المستقل بيانه استقلال عوائر الجدود والمعدود أفضل نعمة على أهل الوجود والصافية بشريعته مشارع النعمة والواضحة به الحنيفية البيضاء لئلا يكون أمر الخلق عليهم وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين على بن أبى طالب ناصر شريعته وإمام شيعته وباب علمه وسيف نصره ولسان حكمه وقسيمه فى النسب والسبب ، ويد الحق التى حكم لها بالغلب وعلى الأئمة من ذريتهما وسائط الحكم ، ومصابيح الظلم ومفاتيح النعم . ومنه .

وأمير المؤمنين لما فوضه الله تعالى إليه من إياله الخليفة ومنحه من كرم السجية وشرف الخليفة ومنه وظاهر له من (ق ٨ أ) المكرمات التى زادت على أمنية كل متمن وأتمته من أسرار النبوة التى رآه لها أشرف مودع ، وأكرم مؤتمن ، وأجرى عليه دولته من تذليل الصعاب وتسهيل الطلاب وتبديد أحزاب الشرك إذا اجتمعوا كما اجتمع على جده أهل الأحزاب يصل شكر هذه النعم التوام ، ويعترف بعوارفها الفرادى والتوأم ومنه :

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥١ .

ويثق بوعد الله إذا استهلكته المصابر ويفزع إلى الله إذا قرع الضائر فما اعترض ليل كربة إلا انصدع له عن فجر وضاح ، ولا انتقض عهد غادر إلا عاجله الله بأمر فضاح . ولا انقطعت سبل نصره إلا وصلها بمن يرسل إرسال الرياح ولا انصدعت عصا ألفه إلى تدارك الله بمن يجرده تجريد الصفاح ، وإذا عدد أمير المؤمنين هذه النعم الجسيمة والمنح الكريمة واللطائف العظيمة ورد العوارف العميمة والآيات المعلومة والكفايات المحتومة والسعادات المقسومة والعادات المنظومة ، كنت أيها السيد الأجل أعظم نعم الله أثراً وأعلاها خطراً وأقضاها للأمة وطرا . ومنه فليهنئك أنك حزب الله الغالب ، وشهاب الدين الثاقب ، وسيف الله القاضب ، وظل أمير المؤمنين الممدود ومورد نعمته المورود ، والمقدم فى بيته وما تأخرت إلا لأجل معدود، نصرته حين تناصر أهل الضلال ، وهاجرت إليه هاجراً برود الزلال وبرد الظلام ، ومنه :

وكشفت الغماء وهى مطبقة ورفعت نواظر أهل الإيمان وهى مطرقة وغضضت أعنة الطغيان وهى مطلقة وأعدت بحركتك على الدولة بهجة شبابها المونقة ، وأنفذت الإسلام وهو على شفا جرف هار ونفذت حين لا تنفذ السهام عن الأوتار ، وسمعت دعوته على بعد الدار وبصرت حق الله بنصرتك له ، وكم من أناس لا يرونه بأبصار ، وأجليت طاغية الكفر وسواك اجتذبه ، وصدقت الله سبحانه حين داهنه من لا بصيرة له وكذبه ومنه :

وما يومك فى نصرة الدين بواحد ولا أمسك مجحود وإن رغم أنف الجاحد بل أوجبت الحق بهجرة بعد هجرة ، واوجبت دعوة الدين قائماً بها فى غمرة بعد غمرة وافترعت صهوة هذا المحل الذى رقاك إليه أمير المؤمنين باستحقاقك وأمات (ق١٩أ) الله العاجزين بما فى صدورهم من حسرات العجز عن لحاقك . وكنت البعيد القريب نصحه ، المحجوب النافذ بحجته المذعورة أعداء أمير المؤمنين به إن فوق سهمه أو أشرع رمحه ومنه :

وقد استشرفتك الصدور وتطلعت إليك عيون الجمهور ، واستوجبت عقيلة النعم بما قدمت من المهور ونصرت الإسلام بأهله وأظهرت الدين بمظاهرتك على الدين كله،

وناهضت الكفرة بالباع الأشد ، ونادتهم سيوفك ولا قرار على زار من الأسد – فأدال الله بك ممن قدم على قدم ، وندم فما أغنى عنه الندم ، حين لج فى جهالته وتمادى فى ضلالته ، واستمر على استطالته وتوالت منه عثرات ما أتبعها باستقالة ، فكم أباج للدولة رجالاً ، وضيق من أرزاقهم مجالاً ، وسلب من ذخائرها ذخائر وأسلحة وأمولاً ، ونقلها من أيدى أوليائها إلى أعداء الله تبارك وتعالى ، واتسعت هفواته عن التعديد وما العهد منها ببعيد، وقد نسخ الله بك من حوادثها ، فواجب أن تنسخ أحاديثها وأنى الأئمة منك بمن هو وليها، والأمة بمن هو مغيثها ودعاك إمام عصرك بقلبه ولسانه وخطه على بعد الدار ، وتحقق أنك ممن تتصرف معه حيث تصرف وتدور معه حيث دار واختارك على بينه من أن الله بحمد له فيك عواقب الاختيار . ومنه :

وكنت حيث رجا وأفضل ووجدت حيث دعا وأعجل وقدمت فكتب الله لك العلو ، وكبت بك العدو وجمع على التوفيق لك فى طرفى الرواح والغدو ولم يلبس الكافر لسهامك جنة إلا الفرار وكان ﴿ **كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها قرار** ﴾ (١) فلله درك حين قاتلت بخبرك قبل عسكرك ونصرت بإثرك قبل طلوع عيثرك وأكرم بك من قادم خطواته مبرورة ، وسطواته للاعداء مبيرة ، وكل يوم من أيامه بعد سيرة ، وإنك لمبعوث إلى بلاد أمير المؤمنين بعث السحاب المسخر والمقدم فى تقدم النية وإن كنت فى الزمان المؤخر . ومنه :

ولما جرى من جرى ذكره على عادته فى إيحاشك والإيحاش منك بكواذب الظنون ، ورام رجعتك عن الحضرة ، وقد قرت بك الدار وقرت بك العيون ، وكان كما قال الله فى كتابه المكنون ﴿ **لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون** ﴾(٢) ومنه :

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٢٦ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٤٨ .

وأخذه من أخذه أليم شديد وعدل فيه من قال ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾[1] ، ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾[2] .

وقيل إن نسخة التقليد من عبد الله ووليه أبى محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولى الأئمة مجير الأمة أسد الدين أبى الحارث شيركوه العاضدى، عضد الله به الدين ، وأمتع بطل بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته ، سلام عليك فإنه يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين ، والأئمة المهتدين ويسلم تسليماً كبيراً ، ثم ذكر تفويض الوزارة إليه .

ووصل أسد الدين مديح العماد الكاتب قصيدة أولها[3] :

بالجـد أدركت مــا أدركت لا اللعب	**كم راحــة جنيت من دوحــة التـعب**
يا شيركوه بن شادى الملك دعوة من	**نادى ، فـعرف خـيـر ابن بخـيـر أب**
جـرى الملوك ومــا حــازوا بركـضـهـم	**من المدى فى العلا ما حزت بالخبب**
ثمل من ملك مـصـر رتبـة قـصرت	**عنهــا الملوك فطالت ســائر الرتب**
قـد أمكنت أسد الدين الفـريسـة من	**فـتح البــلاد فـبــادر نحـوها وثب**
رد الخــلافــة عـبــاسـيـة ودع الد	**عى فــيــهــا يصــادف شــر منقلب**
لا تقـطـعن ذنب الأفــعى وترسله	**فــالحـزم عندى قطع الرأس كــالذنب**

قال جامعه الفقير : أصله قول الآخر[4] :

لا تقطعن ذنب الأفــعى وترسلهــا	**إن كنت شـهـمـاً فـأتبع رأسها الذنبا**

---

(١) سورة الآية ٤٦ .

(٢) سورة ق الآية ٨ .

(٣) انظر : مفرج الكروب ١٦٥/١ ، المختصر ٤٦/٣ .

(٤) ورد هذا البيت فى المختصر فى أخبار البشر ٧٤/١ ، البيت لأبى أذينة ابن عم الأسود بن المنذر بن النعمان .

وفاة أسد الدين

كان يكثر أكل اللحوم الغليظة فكانت تتواتر عليه التخم والخوانيق ، فأخذه مرض شديد فقتله وقيل : بل سم فى حلل الخلعة ، وكانت وفاته يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ، فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام . وقيل شهران وحين دخل إلى دار الوزارة رأى على بابها ، المدة قصيرة فادخل على بصيرة وقد كتبت (ق٩ ب) بالقبطى وتحتها عشرين .

قال جامعه الفقير : ولشبه هذا أن المهدى اتخذ قصراً عظيماً فلما دخله سمع صوتاً من جانبه يقول :

كأنى بهذا القصر قد باد أهله ... وقد درست أعلامه ومنازله

فأجابه المهدى :

كذاك أمور الناس يبلى جديدها ... وكل فتى يوماً ستبلى أنامله

فأجابه الهاتف :

فخذ أهبة للموت إنك ميت ... وإنك مسئول فما أنت قائله

فأجابه المهدى :

أقول بأن الله لا شك واحد ... وذلك أمر ليس تخفى فضائله

فأجابه الهاتف :

تزود من الدنيا فإنك راحل ... وقد قرب الأمر الذى بك نازله

فأجابه المهدى :

متى ذاك خبرنى - هديت - فإننى ... سأفعل ما قد قلته وأعالجه

فأجابه الهاتف :

تهيأ ثلاثا بعد عشرين ليلة ... إلى منتهى شهر فما أنت كامله [1]

---

(١) وردت هذه الأبيات فى البداية والنهاية ٧/ ١٥٦ .

فما أتى عليه شهر حتى مات . انتهى

وقيل إن وفاته كانت يوم الأحد ثالث عشرين رمضان ، وإنه أشهد على نفسه أنه مات بقضاء وقدر ، ولم يسمه أحد . وأن مدة وزارته ثمانية وخمسون يوماً . وأنه أوصى بالوزارة لابن أخيه . انتهى .

وكانت جنازته عظيمة وصلى عليه العاضد ودفن بظاهر القاهرة إلى أن مات أخوه فحملا فدفنا برباطهما بالمدينة النبوية . فسبحان من لا زوال لملكه ولا عز إلا لسلطانه لما أن صنفت له البلاد ، وهلك أغداؤه واستعمل أصحابه على الأعمال ، أتاه أجله ﴿ **حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة** ﴾[1] .

٢ ـ الملك الأفضل(*)

وقيل الأوحد أيوب ابن شاذى نجم الدين الملك الأفضل ، وقيل الأوحد أبو الملوك الأيوبية ، وهو أكبر من أخيه ، وقيل إنه مولود بقرية يقال لها أجدا يقال على باب دَوِين وكان من أعيان أمراء دمشق ولم يكن يجلس فى مجلس نور الدين غيره ولم يزل بالشام حتى ولى ابنه شيركوه مصر ، وسأل نور الدين فى إرساله فأرسله وخرج لوداعه بعساكره إلى رأس الماء[2] ، ولم يستصحب نجم الدين معه شيئاً من المال ، بل فرقه كله ، وخرج إلى مصر بجماعته وأهله ، وخرج العاضد للقائه ولقبه وزينت البلد وذلك فى صفر سنة خمس وستين وخمسمائة ، وسأله ولده أن يكون هو السلطان ، فأبى ، وكان حازماً عاقلاً (ق١٠أ) شجاعاً حليماً رحيماً جواداً ، عاطفاً على الفقراء ، محبا لهم ، قليل الكلام جداً ، لا يتكلم إلا عن ضرورة يلعب بالكرة دائماً شديد الركض بالخيل ، ومن رآه يلعب يقول :

---

(١) سورة الأنعام الآية ٤٤ .

(*) انظر : ترويح القلوب ٣٨ ، مرآة الزمان ٢٩٥/٨ ، زبدة الحلب ٣٣٩/٢ ، الروضتين٥٣٣/١ ، شذرات الذهب ٢٧١/٤ ، وفيات الأعيان ٢٣٢/١ ، العبر ٢٠٣/٤ .

(٢) مكان فسيح للحرب .

ما يموت إلا من وقعة عن ظهر فرس . ركب يوماً وخرج من باب النصر يريد الميدان فشب به فرســه فوقع على رأسه . فحمل إلى داره ، فأقام ثمانية أيام فى داره ، وتوفى ليلة الثلاثاء ، سابع عشرين ذى القعدة ، سنة ثمان وستين وخمسمائة ، ودفن إلى جانب أخيه فى بيت بدار السلطان ، كذا قال فى المرآة ثم نقلا إلى المدينة النبوية كما ذكرنا ، وبينهما وبين النبى - ﷺ - قدر عشرة أذرع وقال الدوادار[1] إنهما دفنا بمكة . وكان ولده صلاح الدين بالكرك[2] عند وفاته ، فحزن عليه ، وكان له من الذكور ستة : الناصر يوسف ، العادل أبو بكر ، توران شاه وهو أكبرهم ، شاهنشاه ، طغتكين ، بورى وهو أصغرهم . ومن الاناث : ست الشام ، وربيعة خاتون . وللعماد الكاتب فى نجم الدين أيوب - وكان أخوه وابنه بمصر - من قصيد أولها :

يوم النوى ليس من عمرى بمحسوب ... ولا الفـراق إلى عـيشى بمنسـوب
أخوك وابنك صدقاً منهما ، اعتصما ... بالله . والنصـر وعـد غـيـر مكذوب
همـا هامـان فى يومى وغى وقـرى ... تعـودا ضـرب هام أو عـراقـيـب
غـداً يشـبـان فى الكفـار نار وغى ... بلفـحـهـا يصبح الشبـان كـالشـيب
ويسـتـقـر بمصـر يوسف ، وبه ... تقـر بعـد التنائى عين يعـقـوب
ويلتـقى يوسف فـيـهـا بإخـوته ... والله يجـمـعـهم من غـيـر تثـريب[3]

ولعمارة اليمنى مرثية [4] :

صفـو الحـيـاة وإن طال المدى كـدر ... وحـادث الدهر لا يبـقى ولا يذر
ومـا يزال لسـان الدهر يُنذرنا ... لـو أثـرت عـنـدنـا الآيـات والـنـذر

---

(١) الدوادار : هو الأمير ركـن الدين بيبرس بن عبد الله المنصـوري صاحب التاريخ المتوفـى سنة ٧٢٥ هـ (النجوم الزاهرة ٩ : ٦٣) .

(٢) الكرك : اسم لقلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحى البلقاء (معجم البلدان ٤ : ٤٥٣) .

(٣) وردت فى الروضتين ١ : ٣٩

(٤) انظر النكت العصرية ٢٦٩ ، الروضتين ١ : ٥٤١ ، مفرج الكروب ١ : ٢١ .

كم شامخ العز ذاق الموت من يدها ما أضعف القدر إن ألوى به القدر
أودى على وعثمان بمخلبها ولم يفتها أبو بكر ولا عمر
ومن أراد التأسى فى مصيبته فللورى برسول الله معتبر (١٠ب)
لا قدست ليلة كادت مصيبتها الـ ـأكباد حزناً على أيوب تنفطر
كأنما صور الله الكمال بهم شخصاً . ويوسف منه السمعُ والبصرُ
إذا الليالى تجافت عن هشاشته فالجرح مندمل والذنب مغتفرُ
يا ناصر الحق ، والأيام خاذلة إن الغريب بغير الدمع ينتصرُ
ما مات أيوب إلا بعد معجزة فى المجد لم يؤتها من جنسه بشرُ
مضى سعيداً من الدنيا وليس له فى رُتبة أرب منها ولا وطرُ
صلى الاله على نجمٍ أضاء لنا من نسلِه النيران : الشمس والقمرُ

الطبقة الثانية :

ومنهم الملك القاهر محمد[١]

ابن شيركو بن شاذى ، الملك القاهر ، ابن المنصور ، ناصر الدين ، صاحب حمص ، وكان ابن عمه السلطان صلاح الدين يعظمه ويهابه ، وكان يدعى أنه أحق بالسلطنة منه ، وكان يبلغ السلطان ذلك فيحتمله ، وكان عنده بحران [٢] سنة إحدى وثمانين لما كان السلطان ضعيفاً ، ففارقه وسار إلى حمص ، واجتاز حلب ، ووعد أهلها وأعطاهم مالاً ، وارسل الدماشقة فى تسليم البلد إليه عند موت صلاح الدين ، وأقام بحمص ينتظر موته :

---

(١) انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٢ : ١٧٥ ، العبر ٤ : ٢٤٦ ، الوافى بالوفيات ٣ : ١٥٤ ، البداية والنهاية ١٢ : ٣١٧ ، النجوم الزاهرة ٦ : ١٠٠ ، الدارس في تاريخ المدارس ١ : ٢١٧ ، القلائد الجوهرية ٥٨ ، تاريخ أبي الفداء ٥ : ٩٣ ، شذرات ٤ : ٢٧٣ ، كنز الدرر ٨٠ ، ترويح القلوب ٣٩ .
(٢) حرّان : مدينة قديمة فى ديار مصر ، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان (معجم البلدان ٢ : ٢٣٥)

فبقى السلطان ومات هو عن قليل ، وقيل : إن السلطان اغتاله بسم ، وقيل : مات فجأة يوم عرفة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة . قال ابن واصل : شرب خمراً كثيراً فأصبح ميتا . ومات بحمص وتناثر لحمه ، فنقلته زوجته ست الشام بنت أيوب بن شاذى إلى تربتها بدمشق ، وأبقى السلطان على ولده شيركوه إقطاع والده وهى حمص والرحبة[1] وتدمر[2] وسلمية[3] وخلف من الأموال شيئاً كثيراً ، فحضر صلاح الدين واستعرضها، وأخذ أكثر ما عنده ، وأحضر ولده شيركوه وقال له : إلى أين بلغت فى القرآن ؟ فقال له : إلى قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً** ﴾[4] فعجب من ذكائه (١١أ) .

أولاد أيوب :

منهم نور الدولة شاهنشاه[5]

ومعناه ملك الملوك ، وفى الحديث الصحيح : أخنع الاسماء عند الله ـ عز وجل ـ رجل تسمى بشاهنشاه ، يعنى ملك الملوك . ومعنى الحديث : أنه أبغض الأسماء إلى الله تعالى . انتهى . ابن أيوب بن شاذى ، نور الدولة . شقيق السلطان صلاح الدين ، وأسن منه وهو والد المظفر عمر صاحب حماة . وفروخ شاه صاحب بعلبك . قتل فى ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، قتله الفرنج لما كانوا منازلين دمشق ، وجرى بينهم وبين المسلمين قتال قُتل فيه .

---

(١) الرحبة : قرية من قرى دمشق (معجم البلدان ٣ : ٣٣) .

(٢) تدمر : مدينة قديمة في برّية الشام بينها وبين حلب خمسة أيام (معجم البلدان ٢ : ١٧) .

(٣) سلمية : بليدة في ناحية البرية من أعمال حلب (معجم البلدان ٣ : ٢٤٠) .

(٤) سورة النساء : الآية ٩ .

(٥) انظر ترجمته في مرآة الزمان ٨ : ٣٦٢ ، وفيات الأعيان ٢ : ١٦٢ ، البداية والنهاية ١٢ : ٢٢٤ ، الروضتين ١ : ١٤٤ ، الدارس فى تاريخ المدارس ١ : ٢٧٨ ، تاريخ أبي الفداء ٥ : ١٣١ ، كنز الدرر ٦٨ ، الكامل ١١ : ٤٦٨ ، ترويح القلوب ٤٨ .

ومنهم الملك المعظم توران شاه (١)

ومعناه ملك الشرق ، وصحفه بعضهم (الى) مروان شاه ، وبعضهم الى شروان شاه ، ابن أيوب بن شاذى ، الملك المعظم ، ابن الأفضل شمس الدولة ، شقيق صلاح الدين ، وأكبر أخوته ، وكان السلطان يحترمه ويرجحه على نفسه ، وكان فى نفسه من الملك ، ويرى أنه أحق من أخيه ويقع فى حق أخيه منه فى حال سكره كلمات . وأغزاه أخوه النوبة (٢) فى جمادى الأولى سنة ثمان وستين وخمسمائة ليفتحها فوجدها لا تساوى التعب ، فرجع منها بغنائم كثيرة ، والسبب فى ذلك أن صلاح الدين كان يخشى أن يخرجه نور الدين من مصر ، فأراد أن يحصل بلداً يلتجئ إليه عند الخوف ، فلم تعجبهم النوبة ، فسيره إلى اليمن بعد أن استأذن نور الدين ، وكان عُمارة (٣) خصيصاً بشمس الدولة . فمدحه بقصيدة حرضه فيها على اليمن وهى (٤) :

العالم مذ كان محتاج إلى العلم ... وشفرة السيف تستغنى عن القلمِ
لم يترك البيض فى الأجفان ظامئة ... إلى الموارد فى الأعناق والقممِ
ومقلة العزم نحو المجد شاخصة ... فاترك قعودك عن إدراكها وقُمِ
أمامك الفتح من شام ومن يمنٍ ... فلا ترد رؤوس الخيل باللجمِ

---

(١) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ٨ : ٣٦٢ ، الروضتين ٢ : ١٨ ، وفيات الأعيان ١ : ٢٧٣ ، البداية والنهاية ١٢ : ٣٠٦ ، النجوم الزاهرة ٦ : ٨٧ ، تاريخ أبي الفداء ٥ : ٨٤ ، العقود اللؤلؤية ١ : ٢٩ ، شذرات ٤ : ٢٥٥ ، ترويح القلوب ٤٨ .

(٢) النوبة : بلاد واسعة فى جنوب مصر (مراصد الاطلاع ٣ : ١٣٩٤) .

(٣) هو الفقيه أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان بن أحمد ، الشاعر المشهور ، صلب فى سنة ٥٦٩ هـ (الخريدة قسم الشام ٣ : ١٠١ ، وفيات الأعيان ٣ : ١٠٧) .

(٤) انظر النكت العصرية ٣٥٢ ، الروضتين ١ : ٥٥٣ ، مفرج الكروب ١ : ٢٣٨ ، السلوك ١ : ٥٢ ، والبداية والنهاية ١٤ : ٢٧٦ ، النجوم الزهرة ٦ : ٧٠ .

فعمك الملك المنصور سومها　　　من العراق إلى مصر بلا سأمِ
طال التردد فى إبرام منتقض　　　فى هذه الحالِ أو فى نقض منبرمِ
فكيف إن نهضت فيما هجمت به　　　أسد تسير من الخطى فى أجمِ
لا يدرك المجد إلا كل مقتحم　　　فى موج ملتطمٍ أو فوج مضطرمِ
إذا تقدم ذنب الدهر ما حسنت　　　عندى مواقع ما تولى من النعم (١١ب)
وكم يدً لك صانت وجه منقبض　　　عن السؤال واهدت أنس محتشمِ
وما مدحتك فى بأس وفى كرم　　　إلا بما حدثتنى ألسن الشيمِ

وفي هذه القصيدة بيت فظيع جداً ، ذكرناه ليتنبه عليه ، وكان أحد أسباب قتله وهو :

وكـــان أول هذا الدين من رجل　　　سعى إلى أن دَعوهُ سيد الأممِ

فقيل : إن هذه القصيدة هي السبب لمسيره (الى) اليمن ، وقيل : بل أراد أخوه إبعاده ، فتوجه من مصر ، وقيل : من قوص ، وكانت إقطاعه ، وكان ارتفاعها مئة الف دينار، في رجب سنة تسع وستين ، فلما وصل مكة صعد صاحبها الجبل وأخذ مفاتيح الكعبة معه ، فجاء شمس الدولة فطاف وصعد على باب الكعبة وقال : اللهم إن كنت تعلم أني إنما جئت هذه البلاد لإصلاح البلاد وتمهيدها ، فيسر على فتح الباب ، ومسك القفل فانفتح ، فنزل إليه صاحب مكة فطيب قلبه ، ثم سار إلى اليمن فالتقاه عبد النبى بن المهدى[1] ويلقب بالداعى ، وكان المهدى قد فتح البلاد ، وقتل خلقاً كثيراً وشق بطون الحوامل ، وذبح الأولاد على صدور أمهاتهم ، وكان يرى رأى ... ، ويتستر بالإسلام، وإنه داعية صاحب مصر ، فلما مات فعل ولده عبد النبى أعظم ما فعل أبوه ، واستبعد الناس وبنى على أبيه قبة عظيمة ، صفح جدرانها ظاهراً وباطناً بالذهب والجواهر ، بحيث لم يعمل فى الدنيا مثلها ، وجعل بها قناديل الذهب وستور الحرير ، ومنع الناس من الحج إلا

---

(١) عبد النبي بن علي بن مهدي ، ثالث حكام الأسرة المهدية وآخرهم حكم بين سنتي ٥٥٨ ـ ٥٦٩ هـ وكان حكم الزسرة قد بدز سنة ٥٥٤ .

إليها ، ومن لم يحج حمل المال ، فاجتمع عنده أموال عظيمة ، كانوا يطوفون بالقبر ، فتم على فجوره ، إلى أن جاء شمس الدولة فانهزم ورجع إلى زبيد[1] وقيل إنه طلب الأمان ، فأسره ووكل به ، ثم ذهب إلى صنعاء وقيل : قتل ، وقيل : بل انهزم إلى صنعاء، فحلف أنه لا ينتهي عنه حتى يحرقه كما فعل بأبيه ، وكان قد وصل إلى قبر أبيه فهدمه (ونبش القبر) وأحرق عظامه ، وحمل ما فيه فكان ستمائة جمل فرجع إلى زبيد فعاد شمس الدولة وراءه فظفر به وقتله وحرقه ، واستولى على بلاد اليمن وأموالها ، فيقال : إنه فتح ثمانين حصناً ومدينة، وقيل : إنه لما قتله سَيَّرَ نواب القلاع مفاتيحها إليه وهي إحدى وأربعون حصناً ، ثم سار إلى عدن [2] فجرى بينه وبين صاحبها ياسر [3] قتال ، أسره فيه . وقال بعضهم : فلما حكم ظلم وسفك الدماء (١٢ أ) وقتل الأماثل وأخذ الأموال ، ولما فتحت سير نور الدين البشائر إلى بغداد .. ولم تطب اليمن لشمس الدولة ، وكره المقام بها ، فجاء إليه رسول أخيه يُرغبه في المقام بها ، فلما أدى طلب شمس الدولة ألف دينار ، وقال للغلام : امض إلى السوق واشتر لنا بهذه قطعة ثلج ، قال : ومن أين ههنا الثلج ؟ قال : فطبق مشمس ، قال : من أين يوجد ؟ وأخذ يذكر أنواع الفاكهة والغلام يقول : ما يوجد . فقال للرسول : ليت شعرى ما أصنع بالمال إذا لم انتفع به فى شهوتى ؟ فكتب إليه أخوه يأذن له فى القدوم ، وصدر الكتاب أبيات من إنشاء القاضى الفاضل [4]:

---

(١) مدينة شهورة باليمن (معجم البلدان ٣ : ١٣١) .

(٢) مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن (معجم البلدان ٤ : ٨٩) .

(٣) ياسر بن بلال بن جرير بن الحبش ، توفي سنة ٥٧٩ (معجم الانساب ١ : ١٨١) .

(٤) هو أبو علي عبد الرحيم بن علي بن محمد بن الحسن بن الحسين بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمي ، العسقلاني المولد ، المصري الدار . ولد سنة ٥٢٩ هـ وتوفي سنة ٥٩٦ هـ ، وزر لصلاح الدين وكان أثيراً عنده (انظر الخريدة قسم شعراء مصر ١ : ٣٥ ، وفيات الأعيان : ٣١٣ ، طبقات الشافعية ٤ : ٢٥٣ ، شذرات الذهب ٤ : ٣٢٥) .

لا تضجرن مما أتيت فإنه ... صدر لأسرار الصبابة ينفث
أما فراقك واللقاء ، فإن ذا ... منه أموت ، وذاك منه أبعث
حلف الزمان على تفرق شملنا ... فمتى يرق لنا الزمان ويحنثُ ؟
حول المضاجع كتبكم ، فكأنني ... ملسوعكم ، وهي الرقاة النفث[1]

فسار من اليمن ، وكتب من الطريق إلى أخيه يُعلمه بوصوله ، بأبيات من شعر المنجم[2] وهي :

والى صلاح الدين أشكو أنني ... من بعده مضنى الجوانح مولع
جزعاً لبعد الدار منه ، ولم أكن ... لولا هواه، لبعد دارٍ أجزعُ
فلأركبن إليه متن عزائمي ... ويخُب بي ركب الغرام ويوضع
ولاقطعن من النهار هواجراً ... قلب النهار بحرها يتقطع
ولأسرين الليل لا يسرى به ... طيف الخيال ولا البروق اللمع
وأقدمن إليه قلبي مخبراً ... أني بجسمي من قريب أتبع
حتى أشاهد منه أسعد طلعةٍ ... من أفقها صُبح السعادة يَطلعُ[3]

وقدم دمشق في ذي الحجة سنة إحدى وسبعين ، وكان أخوه علي حلب ، وقيل : في رمضان ، فلما رجع السلطان إلى مصر استنابه على الشام وهو ..... السلطان . وفي سنة أربع وسبعين قدم مصر ، وسأل السلطان بعلبك، وكانت لشمس الدين بن المقدم ، أعطاها إياه السلطان لما سلم إليه دمشق فلم .. وأرسل (١٢ب) إلى ابن المقدم فامتنع ، فأرسل السلطان من حصرها تسعة أشهر فأجاب إلى أن يعوض بارين (٤) وكفر طاب . وفي ذي القعدة سنة خمس (وسبعين) نزل عن بعلبك ، وطلب الاسكندرية، فأجابه السلطان ،

(١) ديوان القاضي الفاضل : ٢ ك ٤٨٢ .

(٢) هو نشو الدولة علي بن مفرج المنجم توفي سنة ٦٣٠ هـ (انظر ترجمته في الخريدة ـ قسم شعراء مصر ١ : ١٦٨ ، حسن المحاضرة ١ : ٢٢٦) .

(٣) وردت الأبيات في الروضتين ١ : ٦٧٠ ، مفرج الكروب ٢ : ٤٨ ، الكامل ١١ : ٤٣٤ . وتاريخ أبي الفداء ٣ : ٦٢ ، وتاريخ ابن الوردي ٢ : ١٢٤ .

(٤) بارين : والعامة تقول بعَرين ، مدينة بين حلب وحماة (معجم البلدان ١ : ٣٢١) .

وسلم بعلبك إلى فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب . وسار توران شاه إلى الأسكندرية فأقام بها إلى أن توفى ، وكان بها ، وله أكثر اليمن ، ونوابه تحمل إليه الأموال من زبيد وعدن وما بينهما ، وكان منعكفا على لهوه ، ولم يحضر حروب السلطان وأغفل الشام لما وليه . وكان أجود الناس وأسخاهم ، حسن الأخلاق ، يخرج كل ما تحمل إليه ، ومع هذا مات وعليه مائتا ألف دينار دين فأوفاها أخوه . قال ابن الأثير : كان فيه شر وظلم ، توفى بالاسكندرية فى صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة ، فنقلته شقيقته ست الشام إلى تربتها بظاهر دمشق ، ورثاه أبو فراس الصنهاجي بقصيدة أولها :

أرى طلل العلياء أصبح بلقعا وكنا ألفناه مصيفا ومربعا

ومنها :

وكنا إذا جار الزمان ، أجارنا به أروع ، يأبى لنا أن نروعا
ولما توارت شمسنا بحجابها وددنا جميعا أن فى الخلق يوشعا

قال جامعه الفقير : معنى البيت أنه كان يود ، لما مات هذا ، أن يوشع بن نون النبى - عليه السلام - حاضر ليرده ، فإن هذا الميت شمس وهو رد الشمس، كما فى الحديث الصحيح . ومثل قول الآخر :

ووالله ما أدرى أأحلام نائم ألمت بنا أم كان فى الركب يوشع (١)

ومن القصيدة الأولى :

وعهدى بأن السحب للشمس برقع فكيف ارتضت باللحد فى الترب بُرقعا

قال محمد بن على الخيمى (٢) الأديب : رأيت فى النوم شمس الدولة بعد موته ، فمدحته بأبيات ، فلف كفنه ورمى به الى ، وقال :

---

(١) البيت لأبى تمام ، انظر ديوانه ٢ : ٣١٢ .

(٢) هو مهذب الدين أبو طالب محمد بن علي المعروف بابن الخيمي الحلي نزيل مصر ، توفي ٦٤٢ هـ (وفيات الأعيان ١ : ٢٧٦ ، فوات الوفيات ٢ : ٨٤) .

لا تستقلن معروفاً سمحت به ... ميتاً فأمسيت منه عارى البدن
ولا تظنن جودى شأنه بخل ... من بعد بذلى مُلك الشام واليمن
إنى خرجت من الدنيا وليس معى ... من كل ما ملكت كفى سوى كفنى[1]

ومنهم تاج الملوك بورى[2]

ابن أيوب بن شاذى ، تاج الملوك ، أبو سعيد بن الأفضل ، أصغر (١٣أ) إخوته ، ولد فى ذى الحجة سنة ست وخمسين وخمسمائة ، وكان كريم الطباع ، لطيف الأخلاق ، له كرم وشجاعة ، وفضل وفصاحة ، وله ديوان شعر ، قال بعضهم : فى شعره الغث والسمين لكنه بالنسبة إلى مثله جيد ، فمن شعره :

آه من ورد على خد ... ك بالمسك منقط
بين أجفانك سلطا ... ن على ضعفى مسلط
قد تصبرت وإن بر ... ح بى الشوق وأفرط
فلعل الدهر يوماً ... بالتلاقى منك يغلط[3]

وقال :

أيا حامل الرمح الشبيه بقده ... ويا شاهراً سيفاً حكى لحظه عضباً

---

(١) انظر الأبيات في وفيات الأعيان ١ : ٢٧٦ ، ثمرات الأوراق ٢ : ١٤٩ ، شذرات ٤ : ٢٥٦ الخطط المقريزية ٣ : ٦٠) .

(٢) انظر ترجمته في مرآة الزمان ٨ : ٣٧٥ ، زبدة الحلب ٣ : ٦٤ ، الروضتين ٢ : ٤٤ ، وفيات الأعيان ١ : ٢٦١ ، العبر سنة ٥٦٨ ، مرآة الجنان ٣ : ٤١٤ ، مضمار الحقائق ١٤٤ ، الكامل ١١ : ٤٩٨ ، النجوم ٦ : ٩٦ ، الشذرات ٤ : ٢٦٥ ، كنز الدرر ٧٧ ، كشف الظنون ٧٨٠ ، هدية العارفين ١ : ٢٤٣ .

(٣) انظر الأبيات في وفيات الأعيان ١ : ٢٦١ ، الشذرات ٤ : ٢٦٥ .

ضع الرمح واغمد ما سللت فربما قتلت وما حاولت طعناً ولا ضرباً[1]

وقال :

شربت من الفرات ، ونيل مصر أحب الى من ماء الفرات
ولى فى مصر من أصبو إليه ومن فى قربه أبداً حياتى
فقلت ، وقد ذكرت زمان وصلٍ تمادى بعده ، روح الحياة
أرى ما أشتهيه يفر منى وما لا أشتهيه إلى يأتى[2]

قال جامعه الفقير : ويشبه البيت الأخير قول الآخر :

تعاندنى الأيام فيمن أحبه كأنى خصيم للزمان عبيد
يفارقنى من لا أريد فراقه ويصحبنى فى الناس من لا أريد

وقال وبالغ ، واثمه عليه ، والله يسامحه :

يا غزالاً يميت طوراً ويحيى وهو برء السقام سقم الصحيح[3]
هذه المعجزات ليست لظبى إنما هذه فعال المسيح

قتال جامعه الفقير : وقريب من هذا قول نجم الدين الطوفى ارتجالاً :

وشاقنى من بنى النصارى سهامٌ لحظيه بها رُميت
خالف فى المعجزات عيسى فذاك يحيى وذا يميت

وقال وهو سائر ، وربما لغيره :

أقبل من أعشقه راكبا من جانب الغرب على أشهب (١٣ب)
فقلت : سبحانك يا ذا العلا اقبلت الشمس من المغرب[4]

---

(١) انظر البيتين في وفيات الأعيان ١ : ٢٦١ ، أعلام النبلاء ٢ : ١٣٤ .
(٢) وردت في مرآة الزمان ٨ : ٣٧٩ .
(٣) وردت في مرآة الزمان ٨ : ٣٧٩ .
(٤) وردت في وفيات الأعيان ١ : ٢٦١ .

وقال وأثم ، والله يسامحه :

رمضان ، بل مرضان ، إلا أنهم غلطوا إذن فى قولهم وأساءوا
مرضان فيه تحالفا ، فنهاره عطش ، وسائر ليله استسقاء[1]

وقال :

رأيت من أعشقه راكباً ووجهه كالكوكب الثاقب
فقلت من يوم جُنونى به يالبتنى راكبُ ذا الراكب

وقال وكان فألاً عليه :

بُليت بمن لا يعرف العطف قلبُهُ ولا يسمعِ الشكوى لمن كان شاكيا
من الترك ميَّاسُ القوام كأنه يجردُ لى لحظا من السيف ماضيا
يعاندنى فيه الزمان تعمدا فيا عجباً ما للزمان وما ليا ؟
يخالفنى فى كل شيء أُريدهُ فلا القلب مسروراً ولا العيش صافيا
فلولا شقائى ما بليت بخائنٍ عهودى ، ولا صافيتُ من لا صفا ليا
فيا رب إن لم تقض لى فيه بالمُنى فكن يا إلهى بالمنية قاضيا
وإنى لأستشفُى من الموت بالردى وحسبك داء أن ترى الموت شافيا

قال جامعه الفقير : ومثل ذلك في الفأل ، أن فارس المسلمين ، أخا الصالح بن رُزيك[2] ، عمل دعوة في شعبان سنة ست وخمسين وخمسمائة ، وحضر عنده أخوه ، فأنشد القوّال :

أنِستُ بكمْ دهرًا فلما ظعنتُمْ اسـ ـتقرتُ بقلبى وحشةٌ للتفرق

ومنها :

---

(١) ينظر البيت في مرآة الزمان ٨ : ٣٧٨ ، مفرج الكروب ٢ : ١٤٤ ، كنز الدرر ٧٧ ، النجوم الزاهرة ٦ : ٩٦ .

(١) الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك ، وزير العاضد العلوى ، كان فاضلا شاعراً توفى سنة ٥٥٦ هـ .

انظر : الخريدة ــ قسم شعراء مصر ١ : ١٧٣ ، وفيات الأعيان ٢٠٨/٢ ، النجوم الزاهرة ٣٥٩/٥ .

وأعجب شيء أنني يوم بينكم بقيتُ ، وقلبي بين جنبي ما بقي
أرى البعد ما بيني وبين أحبتي كبُعد المدى ما بين غربٍ ومشرقِ
ألا جددي يا نفسُ وجداً وحسرة فهذا فراق بعدهُ ليس نلتقي[1]

فقتل الصالح في رمضان من هذه السنة ، ومنه أن علاء الدين بن غانم[2] قال : بلغ الشهاب محمود[3] أن جماعة الديوان ذموه فعتبني فكتبت إليه :

ومن قال إن القوم ذموك كاذبٌ وما منك إلا الفضلُ يوجدُ والجود
وما أحدٌ إلا لفضلكَ حامدٌ وهل عِيب بين الناس أو ذم محمود

فكتب إلى بأبيات منها :

علمت بأني لم أذمّ بمجلسٍ وفيه كريمُ القوم مثلكَ موجودُ
ولستُ أزكي النفس إذ ليس نافعي إذا ذُم مني الفعلُ والاسم محمودُ
وما يُكرهُ الإنسان من أكلِ لحمِهِ وقد آن أن يبلى ويأكله الدود[4]

فلم يبق إلا أياما قلائل حتى مات ، ومثله ما جرى لي ، وهو أني صنفت كتاباً سميته (تسلية المصاب بفقد الأحباب) حتى جاء الطاعون فرق لنا شملاً وقيل : إن المجنون[5] لما قال :

قضاها لغيري وابتلاني بحبها فهلاً بشيء غير ليلى ابتلانيا

---

(١) انظر الأبيات في الروضتين ٣١٢/١ ، والخريدة ـ قسم شعراء مصر ١٨٤/١ .
(٢) علاء الدين بن غانم أحد الكتاب المشهورين بحسن الترسل وكثرة الأدب توفي سنة ٧٣٧ هـ .
انظر : الوفيات ١٠٩/٢ ، الدرر الكامنة ٢٦٧/١ .
(٣) هو محمود بن سليمان بن فهد بن محمود الحلبي ، كان كاتبا شاعرا ، توفي سنة ٧٢٥ هـ .
انظر : الدرر الكامنة ٣٣٦/٤ ، النجوم الزاهرة ٢٦٢/٩ ، شذرات الذهب ٧٠/٦ .
(٤) ورد الخبر والأبيات في الغيث المسجم في شرح لأمية العجم ١٢١/٢ .
(٥) هو قيس بن الملوح بن مزاحم ، توفي في حدود الثمانين من الهجرة .
انظر : الأغاني ٢ :١ ، المؤتلف والمختلف ٢٨٩ ، تزيين الأسواق ٦٢/١ .

فحصل له برص فى الحال . انتهى .

توفى على حلب من طعنة أصابت ركبته ، سادس عشر محرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، وقيل : من سهم أصاب عينه ، ثالث عشرين صفر ، وكان أخوه صلاح الدين قد أعد ضيافة للصالح عماد الدين صاحب حلب ، بعد الصلح وهو على السماط إذ جاءه الحاجب فأسر إليه موته ، فلم يتغير وأمر بتجهيزه ودفنه ، وأعطى الضيافة حقها وكان يقول : ما أخذنا حلب رخيصة ، وقيل : إنه قال : ما غلت حلب ببورى ، وعاش ثلاثا وعشرين سنة ، وقيل : وشهور ، وعلى ما حكينا من مولده فإنه عاش اثنتين وعشرين سنة وأياما .

ومنهم الملك الناصر(١)

ابن أيوب بن شاذى السلطان الأعظم العالم العادل المجاهد أبو المظفر صلاح الدين الملك الناصر بن الأفضل سيد ملوك عصره ، ومن لم يأت بعده مثله ، صاحب المآثر والمناقب والتراجم ، ومن دونت فى محاسنه الأكابر ، وجمع جمع من العلماء أخباره ليقتفى الملوك عدله ، وهو الذى فتح معظم بلاد الإسلام مصر والشام والساحل والمغرب والنوبة واليمن ، وخطب له على المنابر شرقا وغربا ، عجما وعربا ، وهو عماد البيت الأيوبى وفخره ورئيس ... قال ابن أبى شامة(٢) رأيته هو ونور الدين الشهيد فى المتأخرين كالمعمرين فى المتقدمين ، فلا أبعد أنهما من الله حجة الملوك المتأخرين فرحمهما الله (١٤ ب) :

---

(١) انظر ترجمته فى النوادر السلطانية ٢٤٦ ، مرآة الزمان ٤٢٥/٨ ، الروضتين ٣١٥/٢ ، وفيات الأعيان ١٣٩/٦ ، مفرج الكروب ١٦٨/١ ، وما بعدها ، تاريخ أبى الفدا ١١٢/٥ ، البداية والنهاية ١٣٩/١٣ ، مفرج الكروب ١٦٨/١ ، السلوك ٤٤/١ ، النجوم الزاهرة ٥١/٦ ، الدارس ١٧٨/٢ ، طبقات الشافعية ٣٢٥/٤ ، الكامل ٩٥/١٢ ، ابن الفرات ٥٥/٤ ، ابن خلدون ٧٩/٤ ، ٢٥٠/٥ ، تاريخ الخميس ٣٨٧/٢ ، ابن اياس ٦/١ ، شذرات ٢٩٨/٤ ، كنز الدر ٤١١٣ .

(٢) هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسى الملقب بأبى شامة ، مؤلف الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، توفى سنة ٦٦٥ هـ .

وألبس الله هانيك العظام ، وإن يلين تحت الثرى ، عفواً وغفراناً
سقى ثرى أودعوه رحمة ملأت مثوى قبورهم روحاً وريحاناً (١)

ولد بتكريت[٢] سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة ، ونشأ فى حجر أبيه ، ونشأ فى الدولة النورية ، وناهيك بها ، ومنها تعلم العدل والإحسان على ما جبله الله من محاسن الشيم ، وكمال الفضائل .

وكان ـ رحمه الله ـ شجاعا سمحا جوادا مجاهدا ، قطع أيامه بالغزوات والجهاد وفتح ما لا تيسر لغيره ، وسترى من فتوحه ما يتعجب له الناظر ويدهشه ، يجود بالمال قبل أن يصل إليه ، ومتى علم بوصول حمل وقع عليه بإضعافه ، وما أجاب أحدا بالرد ، وإن لم يكن عنده شيء لطف به كأنه غريم يستمهله ، وكان مغرما بالإنفاق فى سبيل الله ، وحسب ما أنفقه على عكا فى رجب سنة خمس وثمانين إلى انفصاله فى شعبان سنة ثمان وثمانين فكان اثنى عشر ألف رأس من الخيل الجياد ، غير ما أطلقه من أثمان الخيول ، قال العماد: لم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب ، وتصرف أثمان أغالى كسوته فى المعروف ، ومجالسه منزهة عن اللهو والهزل ، ومحافله حافلة بأهل العلم الفضل ، ولا سمعت منه كلمة فحش ، ولا لفظ تسخط ، مؤثر سماع الأحاديث بالإسناد ، ويتكلم عنده فى العلم ويلين للمؤمنين ، ويغلظ على الكافرين ، ومن جالسه لا يعلم أنه جالس سلطانا وإنما هو أخ من الإخوان ، حكيما مقيلا للعثرات متجاوزا نقيا صفيا ولياً ، شكا بعضهم إليه دينا مبلغه اثنى عشر ألف دينار فقضاه عنه ، وكتب إليه سيف الدولة ابن منقذ نائبه بمصر أن بعض العمال انكسر عليه مال كثير وربما وصل إلى باب وتمحل ، فأرسل إليه السلطان يقول : احذر أن تقع فى يد ابن منقذ ، قال العماد : ورأى معى يوما دواة محلاة فأنكر

---

(١) هذان البيتان لأسامة بن منقذ .
انظر الروضتين ١/٧ ص ٣٠٩ .

(٢) بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، وهى إلى بغداد أقرب .
انظر : معجم البلدان ٢/٣٨ .

على وقال : ما هذا؟ فلم اكتب بها عنده بعدها أبدا ، وكان محافظاً على الصلوات فى جماعة ، قال ابن شداد : كان إذا جاء وقت الصلاة وهو راكب نزل فصلى ، وما قطع الصلاة إلا فى مرض موته ثلاثة أيام ، اختلط فيها عقله ، وكان حسن العقيدة قرأ عقيدة القطب النيسابورى وعلمها أولاده ، أما الزكاة فلم تجب عليه ، وأما صدقة النافلة فاستنفدت أمواله ، اجتاز يوما بصبى يقرأ على أبيه القرآن فأعجبه فوقف عليه وعلى أبيه مزرعة ، وكان شديد الحياء (١٥ أ) خاشع الطرف ، رقيق القلب سريع الدمعة شديد الرغبة فى سماع الحديث ، وإذا بلغه عن شيخ رواية عالية استحضره وسمع عليه ، وأسمع أولاده ومماليكه وإن لم يحضر الشيخ تردد هو إليه ، سافر إلى الإسكندرية فسمع السلفى(١) وابن عوف(٢) وكان مبغضا لكتب الفلاسفة ، وأرباب المنطق ، ولما بلغه عن السهروردى(٣) ما بلغه ، أمر ولده الظاهر بقتله ، وكان محبا للعدل ، يجلس له الاثنين والخميس مجلسا عاما يحضره الفقهاء والقضاة ، وما استغاث به أحد إلا وأجابه ، واستغاث به بعضهم(٤) على ابن أخيه المظفر تقى الدين عمر وقال : ما يحضر معى مجلس الشرع فأمره بالحضور معه ، وكان من أعز الناس عنده ، وادعى رجل أن سنقر الخلاطى(٥) مات على ملكه ، فتزحزح عن طراحته(٦)

---

(١) هو الحافظ السلفى أبو الطاهر عماد الدين أحمد بن محمد بن أحمد المحدث المشهور ، توفى سنة ٥٧٦ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ٨٧/١ ، طبقات الشافعية ٤٣/٤ ، النجوم الزاهرة ٨٧/٦ ، البداية والنهاية ٣٠٧/١٢ .

(٢) هو إسماعيل بن مكى بن إسماعيل توفى سنة ٥٨١ .

انظر : النجوم الزاهرة ١٠٠/٦ .

(٣) هو أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميراك ، الملقب شهاب الدين ، قتل بحلب سنة ٥٨٧ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ٣١٢/٥ ، النجوم ١٠/٦ .

(٤) هو ابن زهير الدمشقى . انظر : النجوم ١٠/٦ .

(٥) حسام الدين سنقر الخلاطى أحد مماليك صلاح الدين ، توفى سنة ٥٨٥ هـ .

انظر : الفتح القدسى ص ٣٠٥ .

(٦) الطراحة : مرتبة تفرش للسلطان إذا أراد الجلوس .

انظر : الروضتين ٥٣٩/١ حاشية ١ .

وساواه فى الجلوس ، فلما ادعى الرجل رفع رأسه إلى جماعة الشيوخ وقال لمن يعرفون سنقر قالوا : نشهد أنه مات على ملكك ، ولم يكن للرجل المدعى بينة فأسقط فى يده ، قال ابن شداد : فقلت له : يامولاى هذا رجل غريب جاء من خلاط[1] فى طمع ونفدت نفقته وما يحسن أن يرد عن المولى خائبا ، فقال : يا قاضى هذا إنما يكون على غير هذا الوجه ، ووهب له خلعة ونفقة وبغلا وأحسن إليه .

فتح آمد ووهبها لابن قرة أرسلان[2] و واجتمع عنده وفد بالقدس ولم يكن عنده مال، فباع ضيعة من بيت المال وفرقها عليهم ، وكان فى حصار عكا[3] يدور على الأطلاب ويقول لهم : أنا واحد منكم ، وكان فى الشتاء يعطى العساكر دستورا[4] ويقيم هو فى نفر يسير وكان العدو خمسمائة ألف إلى ستمائة ، قتل أكثر من مائة ألف وغرق معظمهم ، وجاء الخبر بوفاة تقى الدين وهو على الرملة[5] فقال : وقد خنقته العبرة ، اكتموا الخبر عن العدو ، وكلمه الجناح[6] على يافا[7] كلاما غليظاً فما رد عليه ، ثم استدعاه فأيقن بالهلاك ، فأطعمه فاكهة جاءت من الشام وسقاه ماء وثلجا ، وكان له لصوص يسرقون من الافرنج فسرقوا ليلة صبيا فباتت أمه تبكى ، فقال لها الفرنج : إن سلطانهم رحيم القلب فاذهبى إليه ، فجاءته وعفرت وجهها بالتراب فسأل عنها فأخبر بقصتها فدمعت عيناه فأمر بإحضار الطفل ، ولم تمض ساعة حتى أحضر فلما رأته شهقت وضمته إليه وأشارت إلى

---

(١) خلاط : وهى قصبة أرمينية الوسطى .
انظر : معجم البلدان ٣٨٠/٢ .

(٢) هو محمد بن قرة أرسلان صاحب حصن كيفا ، توفى سنة ٥٨٠ هـ . انظر : النجوم ٩٨/٦ .

(٣) بلد على ساحل بحر الشام من عمال الأردن . انظر : معجم البلدان ١٤٣/٤ .

(٤) الدستور : الإجازة أو الإذن ، يقال أعطى السلطان الأمراء دستورا ، أى أعطاهم إذناً بكذا (العصر المملوكى ٤١٦) .

(٥) مدينة عظيمة فى فلسطين ، وكانت رباطاً للمسلمين . معجم البلدان ٦٩/٣ .

(٦) هو الجناح بن على بن أحمد الهكارى ، وكان من أمراء صلاح الدين . الكامل ٨٥/١٢ .

(٧) مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين . معجم البلدان ٥ : ٤٢٦ .

ناحية الفرنج فأمر أن تحمل على فرس ثم عادت ، وكان حسن العشرة طيب القلب حافظاً لأنساب العرب عارفاً بخيولهم طاهر اللسان (١٥ ب) والقلم ، ما شتم أحدا قط ، ولا كتب بيده أذى لمسلم ، ولا حضر عنده يتيم إلا ترحم على والديه ، وأعطاه ما يكفيه إن كان له كافل سلمه إليه وإلا كفله ، وذكر من مناقبه الغرر ما بيّن فى التواريخ والسير ، وحكى سنقر الحلبى[١] أن الحجاب كانوا يزدحمون على طراحته قال : فجئته ومعى قصة[٢] وكان السلطان قد مد يده ليستريح عليها ، فدستها ولم أعلم ، وقلت له : علم عليها فلم يجبنى ، فكررت عليه ، فقال : يا طواشى[٣] أُعلم بيدى أو برجلى ؟ فنظرت فرأيت يد السلطان تحت رجلى فخجلت ثم أخذها وعلم عليها ، ولم يزل على هذا الأخلاق حتى توفاه الله تعالى ، وكان لا يلتفت إلى قول منجم ، ولم يزل ممدحاً محبوباً إلى الناس معظماً عند ملوك الأرض ، وكان فى زمانه ابن عُنين[٤] الشاعر هجاء خبيث اللسان ، لم يسلم منه أحد فهجا السلطان ودولته فقال[٥] :

سلطاننا أعرج وكاتبه أعمش والوزير مُنحدبُ
وصاحب الأمر خلقه شرس وعارض الجيش داؤه عجب
والدولعى الخطيب معتكف وهو على قشر بيضة يَثب
ولابن باقى وعظ يغر به الناسَ وعبد اللطيف محتسب

---

(١) هو مبارز الدين سنقر الحلبى من الأمراء المصريين . انظر : مفرج الكروب ٢٥٠/٣ .

(٢) القصة : هى الطلب أو الالتماس يرفعها صاحب الحاجة أو الشكوى إلى السلطان . انظر : صبح الأعشى ١٥٤/١٣ .

(٣) وجمعه طواشية : وهم الخصيان الذين استخدموا فى الطبقات المملوكية ، وفى الحريم السلطانى ، كانت لهم حرمة وافرة وكلمة نافذة ، ويعد شيخهم من أعيان الناس .
انظر : المواعظ ٢١٩/٤ .

(٤) أبو المحاسن : شرف الدين محمد بن نصر الله بن عُنين ، ولد بدمشق سنة ٥٤٩ هـ ، وتوفى سنة ٦٣٠ هـ .
انظر : وفيات الأعيان ١٠٦/٤ ، النجوم الزاهرة ٢٩٣/٦ .

(٥) ديوان ابن عنين ص ٢١٠ .

فنفاه السلطان إلى الهند فأرسل يقول[1] :

فعلام أبعدتم أخا ثقة لم يجترم ذنبا ولا سرقا
انفوا المؤذن من بلادكم إن كان ينفى كل من صدقا

وهذه النبذة كالمقدمة لسيرته ، وتذكر سيرته بعد ذلك على مر السنين ، على ما يحضرنا ، ففى سنة إحدى وستين وخمسمائة ولاه نور الدين شحنة دمشق وقيل : بل ولاه دمشق ، فأظهر السياسة وهذب الأمر فقال عرقلة[2] :

رويدكم يا لصوص الشام فإنى لكم ناصح فى مقالى
وإياكم وسمى النبى يوسف رب الحجا والجمال
فذاك يقطع أيدى النساء وهذا يقطع أيدى الرجال

ومن هنا نسرد السنين على التوالى (١٦ أ) .

سنة أربع وستين وخمسمائة : ذُكر وزارة الملك الناصر للعاضد العبيدى بمصر .

لما مات عمه أسد الدين طمعت نفوس الأمراء النورية إلى الوزارة وهم عين الدين الياروقى ، وسيف الدين المشطوب ، وشهاب الدين الحارمى خال السلطان وغيرهم ، فأشار نصحاء العاضد عليه بوزارة صلاح الدين لطواعيته ، ولما جرت به الأقدار من سعادته وحمله على ذلك أن صلاح الدين ليس له عسكر فيبقى تحت حكم الخليفة قال جامعه : اجتهد العاضد رأيه وظن أن فى صلاح الدين بقاء ملكه ، فكان فيه إسراع هلكه :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه وليس عليه أن يساعده الدهرُ

ولكن :

وطالما سلك الإنسان شاكِلةً يظن فيها نجاة وهى تُتلفُه[3]

---

(١) ديوان ابن عنين ٢١٠.

(٢) ديوان عرقلة ٨٧ .

(٣) الشاكلة : الناحية والطريقة والمذهب واللسان . انظر : اللسان ٣٥٧/١١ .

فطلبه الخليفة فامتنع فأكره على ذلك وخلع عليه ، ولقب بالناصر ، وقيل : إنما ملكه المستضيء ويأتى ذلك ، فلما ولى لم يلتفت إليه أحد ممن كان يريدها لنفسه ، وكان الفقيه عيسى الهكارى معه ، فسعى إلى أن جمعهم عليه بأنواع من الترغيب والترهيب فأجمعوا إلا الياروقى فإنه عاد إلى نور الدين فأنكر عليه ، وصلاح الدين فى ذلك نائب عن نور الدين والخطبة فى البلاد له ، ولا يتصرفون إلا عند أمره ، كان يكتب إليه : الأمير الأسفهسلار[1] ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيما أن يكتب اسمه ، وكان لا يفرد صلاح الدين بكتاب بل الأمير صلاح الدين ، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا ، ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أهله وأن يرسلهم إليه فأعطاهم الإقطاعات وتمكن من البلاد وضعف أمر العاضد قال المؤيد[2] ـ صاحب حماة ـ لما فوض إليه الأمر تاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص لباس الجد ودام على ذلك حتى توفاه الله ، قال ابن الأثير : رأيت كثيرا ممن ابتدأ بالملك ينتقل الملك إلى غير عقبة ، فإن معاوية تغلب بالملك وانتقل الملك إلى بنى مروان ، ثم ملك السفاح وانتقل الملك إلى أخيه المنصور، ثم السامانية أولهم نصر بن أحمد فانتقل إلى أخيه إسماعيل بن أحمد ثم بنى بويه ، فانتقل إلى عقب أخيه ركن الدولة ، ثم طغرلبك ، ثم انتقل إلى (١٦ ب) عقب أخيه داود ، ثم شيركوه ، فانتقل إلى ابن أخيه ، ولما قام صلاح الدين بالملك انتقل إلى أخيه العادل وأولاده، ولم يبق لأولاد صلاح الدين غير حلب قال : وكان سبب ذلك قتل من تولى أولا وأخذه الملك وعيون أهله وقلوبهم معلقة به ، فتحرمه عقبة لذلك .

قال جامعه الفقير : وقل من أقام دولة إلا وكانت تلك الدولة سبباً لزواله ، فإن أبا مسلم الخراسانى أقام الدولة العباسية فقتله المنصور ، فأتى الخلفاء منهم ، والمهدى الفاطمى قتل داعياه ، وصلاح الدين أزال الدعوة الفاطمية :

---

(١) الأسفهسلار : اصطلاح عسكرى مركب من كلمتين : اسفه : وهى فارسية ، وسلار : عسكر وهى تركية ، معناه : مقدم الجيش. انظر : صبح الأعشى ٦/٣ .

(٢) المؤيد : هو عماد الدين إسماعيل بن على بن محمود أبو الفدا ، المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ، وهو صاحب كتاب المختصر فى أخبار البشر .

نسخة تقليد الوزارة
بالإنشاء الفاضلى

من عبد الله وليه أبى محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين ، إلى السيد الأجل الناصر مصطفى الأئمة منجد الأمة صلاح الدين ، كافل قضاة المسلمين ، هادى دعاة المؤمنين ، أبى المظفر يوسف العاضدى ، عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، سلام عليك فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين ، وعلى آله الطاهرين المهديين ، وسلم تسليما كثيراً كبيراً ، أما بعد فالحمد لله مصرف الأقدار ومحصر الأعمال والأعمار ، وعالم سر الليل وجهر النهار ، وجاعل دولة أمير المؤمنين فلكا دواراً تتعاقب فيه أحوال الأقمار ، بين انقضاء سرار واستقبال سرار ، وروضا إذا ذوت فيه الدوحات أينعت فروع سابقة النوار ، باسقة الثمار ومنجد دعوته بالفروع الشاهدة بفضل أصولها ، والجواهر المستخرجة من أمضى نصولها ، والقائم بنصرة دولته فلا تزال حتى يرث الله الأرض ومن عليها قائمة على أصولها .

والحمد لله الذى اختار أمير المؤمنين ودله على مكان الأخيار ، وأغناه باقتضاب إلهام عن رؤية الاختبار ، وعضد به الدين الذى ارتضاه وعضده بمن ارتضاه ، وانجز له من وعد السعد ما قضاه قبل أن اقتضاه ، ورفع محله عن الخلق فكلهم مضاف إلى الخلق غير مضاه، وجعل مملكته عرين الأسد وشبله ، ونعمته ميراثا أولى به (١٧ أ) ذوى الأرحام من بنى الولاء وأهله ، وأظهر فى هذه القضية ما أظهر فى كل القضايا من فضل أمير المؤمنين وعدله ، فأولياؤه كالآيات التى تتسق درارى أفقهـا المنير ، ويسق درر عقدها النظيم النضير : **﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير ﴾**(١) .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٠٦ .

والحمد لله الذى تم له الرشاد وجعله أولى من للخلق ساد ، وللحق شاد ، وآثره بالمقام الذى لا ينبغى إلا له فى عصره ، وأظهر له المعجزات لنصره ما لا يستقل العدد بحصره ، ورفع له ولمن والاه من رفع قدره ووضع إصره وجعل الإمامة محفوظة فى عقبه والمعقبات تحفظه بأمره ، وأودعه من الحكم التى رآه لها أحوط ما أودعه وأطلع من وجهه أنوار الفجر الذى جهل من ظن أن من غير نوره مطلعه ، وآتاه ما لم يوت أحداً وأمات به غيا وأحيا رشدا ، وأقامه للدين عاضداً فأصبح به معتضدا .

يحمده على ما آتاه من توفيق يذلل له الصعب الجامح ، ويدنى منه البعيد النازح ، ويخلف على الدين من صلاحه الخلف الصالح ، ويلزم آراءه جدد السعود الواضح ، ويؤتيه آيات الإرشاد فأيه نار قدح القادح ، ويصلى على النبى محمد الذى أنجى أهل الإيمان ببعثه ، وطهر بهديه من رجس الكفر وخبثه ، وعلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى جادلت يده بلسان ذى الفقار ، وأولاده ، وعلى الأئمة من ذريته الذين أذل الله بعزهم أهل الإلحاد ومنه:

وإن الله سبحانه وتعالى ما أخلى دولة أمير المؤمنين التى هى مهبط الهدى من لطف يتلافى الحادثة بشعبها ولما لم تكن اسمى الحادثة فى الأجل الملك المنصور أسد الدين شيركوه رضى الله عنه ، نظر أمير المؤمنين فى اصطفائك أيها السيد الأجل الملك الناصر لخدمة بعد فى تقديمه خير من سند ، وسحق به فى المجد أولك ويحمد منه العواقب ولك فاعلم هذا من أمره ورسمه واعمل بموجبه وحكمه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

غير ذلك ، وكان السلطان وعد عرقلة متى ملك مصر يعطيه ألف دينار ، فلما فتحها كتب إليه من دمشق ، وقيل : بل قصده إلى مصر (١٧ ب) :

قل للصلاح مُعينى عند إقتارى ... يا ألف مولاى أين الألف دينار؟
أخشى من الأسر إن حاولت أرضكم ... وما تفى جنة الفردوس بالنار

فجد بها عاضديات مُسطرة من بعض ما أخلف الطاغى أبو الطارى[1]
حُمراً كأسيافكم ، غرا كخيلكم عُتقا ثقالاً كأعدائى وأطمارى [2]

فبعث له ألف دينار ، وأخذ له من أخوته مثلها ، وما أحسن قول عرقله وكان أعور فله من قصيد :

أقول والقلب فى هم وتعذيب أى كل يوسف ارحم نصف يعقوب

ذكر قتل مؤتمن الخلافة جوهر وحرب السودان

وشرع صلاح الدين فى نقص إقطاع المصريين من أجل من معه ، وكان بالقصر خصى يُدعى « مؤتمن الخلافة » وكان مقدم السودان وهو متحكم على القصر فأجمع هو ومن معه على أن يكتبوا للفرنج ، فإذا جاءوا خرج إليهم السلطان ، فيؤخذ من تأخر بالبلد ، وتأتى الفرنج من ورائهم ، فتكون الدائرة عليهم، واتفق أن تركمانيا عبر البئر البيضاء فرأى مع إنسان ذى خلقان نعلين جديدين ليس فيهما أثر مشى فأنكرهما وأتى بهما صلاح الدين ، ففتحهما فوجد بهما مكاتبة للفرنج فسأل عن الكاتب فإذا هو يهودى ، فلما أحضره لمعاقبته أسلم وأيد أنه كتبه لمؤتمن الخلافة فعلم المؤتمن بذلك فاختفى بالقصر فتلاهى عنه السلطان فلما طال الأمر خرج ذات يوم إلى بستان بقليوب فوجه إليه من احتز رأسه وأتى به إليه ، فاستعمل على القصر قراقوش[3] مملوك عمه أسد الدين ، ليطالب بما

---

(١) عاضديات : نسبة إلى العاضد الخليفة الفاطمى ، أبو الطارى .

انظر : جاء فى الروضتين ٤٤٩/١ ، حاشية ٥ يعنى بالطاغى شاورا وله ابن اسمه الطارى ، وفى الديوان والخريدة : أبو العار .

(٢) انظر الأبيات فى ديوان عرقلة ص ٤٩ .

(٣) قراقش : أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدى ، الملقب بهاء الدين ، توفى سنة ٥٩٧ هـ بالقاهرة .

انظر : وفيات الأعيان٢٥٤/٣ .

يحوى القصر ، وكان قتل جوهر سبباً لزوال ملك الفاطميين ، وكان سبب ملكهم فى الأول جوهر العبد ، ولما قتل ثار السودان وكانوا أكثر من خمسين ألفا وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه فحسبوا أن كل بيضاء شحمة ، وأن كل سواد فحمة فثار السلطان ومقدمهم أبو الهيجاء(١) واتصل الحرب بين القصرين يومين ، وقيل أربعة وقتل من الفريقين خلق كثير ثم انهزما ، فكانوا كلما لجأوا إلى محلة أحرقوها عليهم ، ثم هربوا إلى الجيزة فتلقاهم توران شاه بن أيوب فقاتلهم فلم ينج منهم إلا الشريد ، وأرسل إلى ولاة البلاد لقتل من وجد منهم وكانت محلة على باب زويلة(٢) تسمى المنصورة فأخربه (١٨ أ) بعض الأمراء وجعلها بستانا ، ووصل إلى السلطان التهانى من كل جانب فمن ذلك(٣) :

هنيئاً لمصر حوز يوسف ملكها ... بأمر من الرحمن قد كان موقوتا
وما كان فيها قتل يوسف شاوراً ... يماثل إلا قتل داود جالوتا
وقلت لقلبى : أبشر اليوم بالمنى ... فقد نلت ما أملت ، بل حزت ما شيتا

سنة خمس وستين
ذكر نزول الفرنج على دمياط

لما ملك أسد الدين مصر خاف فرنج الساحل فكاتبوا أهل الأندلس وغيرهم ، وأرسلوا القسوس يحرضون الناس فاعتدوا على دمياط(٤) فوصلوها يوم الجمعة ثالث صفر ، فحاصروها ونصبوا عليها المجانيق(٥) فأرسل السلطان إليها العساكر مع خاله وابن أخيه تقى

(١) هو حسام الدين أبو الهيجاء السمين ، مقدم الأكراد الأسدية ، شجاعاً مقداماً عارفاً متجملاً ، توفى سنة ٥٩٤ هـ . (النجوم الزاهرة ١٤٥/٦) .

(٢) باب زويلة : من أبواب القاهرة (معجم البلدان ١٦٠/٣) .

(٣) من نظم العماد الأصبهانى . انظر : الروضتين ٤٥٥/١ ، مفرج الكروب ١٧٨/١ ، ابن الفرات ٧٣/٤ .

(٤) من ثغور مصر القديمة على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل . انظر : معجم البلدان ٤٧٢/٢ .

(٥) المنجنيق : آلة خشب لها دفتان بينهما سهم طويل ورأسه ثقيل وذنبه خفيف وفيه كفة المنجنيق التى يجعل فيها الحجر ، يجذب حتى ترفع على أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه ما أصاب شيئاً إلا أهلكه : صبح الأعشى ١٣٧/٢ .

الدين ، وأرسل إلى نور الدين يقول : إن تخلفت عن دمياط ملكها الفرنج ، وإن خرجت ما آمن الشيعة ، فجهز نور الدين العساكر يتلو بعضها بعض ، ثم سار نور الدين إلى بلاد الفرنج فوصلت غاراته إلى ما لم تكن تبلغ ، فلما رأى الفرنج ذلك كروا خائبين ، ودامت مدة مقامهم نحو خمسين يوما ورحلوا فى ربيع الأول ، قال صلاح الدين : ما رأيت أكرم من العاضد ، أرسل إلى فى نوبة دمياط ألف ألف دينار سوى الثياب ، وفيها قدم والد السلطان وأهله وزينت البلدين ، وفيها أبطل من الأذان « حى على خير العمل » وأمر أن يذكر الخلفاء الأئمة .

سنة ست وستين

ذكر خروج الملك الناصر إلى بلاد الفرنج

خرج السلطان بعساكره إلى الشام فى جمادى الأولى ، فأغار على غزة[١] وعسقلان[٢] والرملة وكان يقول : لما يسر الله لى فتح مصر علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه فتح فى قلبى ذلك ، وعاد إلى القاهرة فى جمادى الآخرة ، وفيها فتح أيلة[٣] وهى على جانب البحر الشرقى عمل قلعة من خشب قبالة قلعتها ، والتقاه الأسطول فى البحر فأفتتح قلعتها فى العشر الأول من ربيع الآخر ، وقيل : فى جمادى الأول ، وفيها مضى إلى الإسكندرية ليشاهدها ويرتب قواعدها ، وفيها فى عشرين جمادى الآخرة عزل قضاة مصر وولى القضاء عبد الملك (١٨ ب) بن درباس[٤] الكردى ، وفيها كان بمصر حبس يعرف بـ « دار المعونة »[٥] فعمره مدرسة للشافعية .

(١) غزة : مدينة فى أقصى الشام من ناحية مصر ، وهى فى نواحى فلسطين : معجم البلدان ٢٠٢/٤ .

(٢) عسقلان : مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر : معجم البلدان ٦٩/٣ .

(٣) أيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم ، وقيل هى آخر الحجاز وأول الشام : معجم البلدان ٢٩٢/١ .

(٤) هو صدر الدين أبو القاسم عبد الملك بن درباس ، توفى بمصر سنة ٦٠٥ هـ : النجوم الزاهرة ١٩٦/٥ .

(٥) وهى بالفسطاط ويقال لها دار المعونة لأنها بنيت بمعونة المسلمين ، وكانت واقعة قبلى جامع عمرو بن العاص : الخطط المقريزية ١٨٧/٢ .

وعمر « دار الغزل » للمالكية ، وفيها فى شعبان اشترى المظفر عمر ابن أخى السلطان « منازل العز » بمصر وعمرها مدرسة للشافعية ووقف عليها حمام الذهب والروضة وغيرها.

سنة سبع وستين

ذكر قطع خطبة العبيدية والخطبة للمستضىء العباسى

كتب نور الدين إلى السلطان يأمره بإقامة الخطبة لبنى العباس ، فاعتذر بالخوف من الشيعة ، فلم يصغ إليه وقيل : إن الخليفة أرسل لنور الدين يأمره بذلك فأرسل نور الدين كتب الخليفة وكتبه يأمره بذلك فاستشار صلاح الدين الأمراء فمنهم من سهله ومنهم من صعبه ، فحضر الفقيه أبو يحيى بن اليشفع الجامع يوم الجمعة سابع محرم وصعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضىء ، فلم ينكر أحد ، فلما كانت الجمعة الثانية خطب للمستضىء وقيل : بل خطب فى الجمعة الأولى بمصر ، وفى الثانية بالقاهرة ، ومن العجب أن العاضد رأى عقربا خرج من مسجد فلان فلدغته ففسر أن ذلك أذى يحصل بالمسجد فأمر الوالى بإحضار من فى المسجد ، فأحضر له شخص صوفى يقال له « نجم الدين الخبوشانى » فاستخبره العاضد عن مقدمه ، وسبب بقائه بالمسجد فأخبره فرآه العاضد أحقر من أن يناله بمكروه ، فوصله بمال وقال : ادع لنا .فلما أراد السلطان قطع خطبتهم استفتى العلماء ، فامتثله بذلك جماعة ، منهم الخبوشانى ، وبالغ فى الحط عليهم ، وأخرجهم من الاسلام، فصح بذلك رؤيا العاضد . واتفق أن العاضد مرض ومات قبل أن يعلم بقطع خطبته ، وقيل: بل علم فمرض ، فلما علم اشتد مرضه فمات ، وقيل : إن ذلك سبب مرضه ، قيل : إنه جلس بعيد الأرجاف فقطع خطبته ، وهو عليه ضعف القوى ، فلما اشتد مرضه تخاذل عنه حتى طبيبه الذى كان ببلاطه ، وما أحسن قول القائل :

جـريت فى شـدتى أن لا صـديق لمن أضحى كعصف عليه الدهر قد عصفا
خُلق الصـديق كـخلق الدهر مـتـبع فـإن صـفا لك صفى أو جـفاك جـفا

وتوفى يوم عاشوراء ، قال الفاضل : كان بين وضع اسمه على أعواد المنابر ووضع جثته (١١٩ أ) على أعواد النعش ثلاثة أيام، فمشى السلطان بين يديه ، وعمل له العزاء شهراً ، وهو آخر الملوك الفاطمية ، وعدتهم كعدة بنى أمية أربعة عشر ، وإن طال أيام هؤلاء فكانت مائتى سنة واثنتين وسبعين تقريباً ، وفى المرآة مائتى سنة وثمانى سنين ، ولعل الكاتب صحف كلمة ثمانين ، ومع هذا فهو غلط ، وهذا دأب الدنيا لم تعط إلا استردت ، ولم تحل إلا تمررت ، ولم تصف إلا تكدرت ، بل صفوها لا يخلو من الكدر . واعتقل السلطان أقاربه والزامه ، واستولى على ما فى القصر من الأموال والتحف ، وكان عنده من الجواهر ما لا يملكه خلق مثله ، فمنه القضيب الزمرد ، طوله قبضة ونصف ، والحبل الياقوت الأحمر ، والدرة اليتيمة مثل بيضة الحمامة ، والياقوتة الحمراء وتسمى الحافر ، وسبعة عشر مثقالا ، وقيل : درهماً ، وقيل : أربعة عشر مثقالاً ، وثلاث قطع بلخش ، قطعة نيف وثلاثين مثقالاً وقطعة ثمانية عشر ، وأخرى دونها، وطبل للقولنج إذا ضرب به الإنسان ضرط ، ولم يعلم له إلا بعد أن كسر ، ومن الكتب النفيسة مائة ألف مجلدة ، وعمامة القائم وطيلسانه بعث بهما البساسيرى [1] إلى المستنصر ، وأموالاً لا تحصى وأخرج جميع ما فى القصر من عبدٍ وأمةٍ ، فباع البعض ووهب البعض ، وعتق البعض ، وخلا القصر من سكانه ﴿ **كأن لم تغنَ بالأمس** ﴾[2] ، قال جامعه : فكذا دأب الدنيا لم تبق على أحد كما قال بعضهم : رأيت الدنيا فى صورة عجوز مزينة فقلت لها : كم تزوجت ، قالت :

(١) هو أرسلان بن عبد الله ، أبو الحارث البساسيرى ، قائد ثائر تركى الأصل ، خطب للمستنصر الفاطمى صاحب مصر سنة ٤٥٠هـ وأخذ له بيعة القضاة والأشراف ببغداد قسراً ، ولم يثق به فاهمل أمره قتل سنة ٤٥١هـ (وفيات الأعيان ١ : ٦١ النجوم ٥ : ٦٤) .

(٢) سورة يونس ، الآية ١٠ .

ما لا أحصى ، قلت : فكلهم طلقك ، قالت : لا بل كلهم قتلت ، فقلت تباً لخاطبك بعد هذا :

بالله ربك كم بيت مــــررت به قــد كــان يعــمــر باللذات والطرب
طارت عُقــاب المنايا فى جــوانبــه فــصــار من بعــدها للويل والحــرب

انتهى . ورثاهم عُمارة اليمنى بقصيدة أولها (١) :

رمــيت يا دهر كُف المجــد بالشلل وجــيــدهُ بعــد حــسن الحُلى بالعطل
سعيت فى منهج الرأى العثــور فــإن قــدرت من عــثــرات الدهر فــاسـتــقل
جــدعت مــارِنك الأقنى فــأنفك لا ينفك مــا بين نقص الشين والخــجل
هدمت قــاعــدة المعــروف عن عــجل سُقيت مهلاً ، أمــا تمشى على مــهل ؟
لهــفى ولهف بنى الآمــال قــاطبــة على فجيعتها فى أكرم الدول (٢٠ب)
يا عــاذلى فى هوى أبناء فــاطمــةٍ لك الملامــة إن قــصــرت فى عــذلى
بالله زُر ساحــة القــصرين وابك معى عليــهـــا لا على صــفين والجــمل
وقل لأهليــهــمــا والله مــا التــحـمت فــيكم جــروحى ولا قــرحى بمندمل
مــاذا تُرى كــانت الافــرنج فــاعلة فى نسل آل أمــيــر المؤمنين على؟
هل كان فى الأمر شىء غير قسمة ما ملكتم بين حُكم الســـبى والنفل
وقــد حــصلتم عليــهــا واسم جــدكم مــحــمــد ، وأبوكم خــيــر منتــعل
مــررت بالقــصــر ، والأركــان خــاليــة من الوفــود وكــانت قــبلة القــبل
فــملت عنهــا بوجــهٍ ، خــوف مُنتــقــدٍ من الأعــادى ، ووجــه الود لم يمل
أسـبلت من أسف دمــعى غــداة خلت رحــابكم ، وغــدت مــهــجــورة السبل
أبكى على مـــأثرات من مكارمكم حــال الزمــان عليــهــا ، وهى لم تحل
دارُ الضــيــافــة كــانت أنس وافــدكم واليـــوم أوحش من رسم ومن طلل
والله لا فــاز يوم الحــشــر ظالمكم ولا نجــا من عــذاب النار غــيــر ولى
ولا رأى جنة الخلدِ التى وُعــــدت من خان عــهد الإمام العاضد بن على

وكانت هذه الأبيات أحد أسباب قتله مع غيرها ، ولما مرض العاضد ، أرسل يستحضر السلطان ، فخشى أن يكون مكيدة ، فلم يحضر ، فلما مات أسف إذ لم يحضر ، وأرسل إلى

نور الدين البشارة بذلك وهو بحلب ، فدقت البشائر ، وزينت البلد ، وأرسل إليه هدية ، من جملتها مائة ألف دينار ، وطيباً وتحفاً وعمامة القائم وطيلسانه ، فقال : والله ما كان بنا حاجة إلى هذا ، وما وصل إلينا غير معشار ما أنفقنا على العساكر التى جهزناها لمصر ، وما فقدنا بفتح مصر والساحل .

نسخة كتاب التهنئة للمستضىء بخط القاضى الفاضل

﴿ سلامٌ قولاً من رب رحيم ﴾ [1] ، **﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ﴾**[2] وصلواته التى تنزل بها الروح الأمين ، وتُشيعها الملائكة بالتأمين ، على مولى النعمة ، ووالى الأمر المصون فى عقبه ، وولى الله الذى لا خوف عليه ولا خوف به ، الخليفة على الخليقة ، والامام الذى يحمى من دين الله الحقيقة على الحقيقة ، ووارث السقائين (٢٠أ) : زمزم والكوثر والولايتين : السرير والمنبر ، والدعاءين : اليوم وفى المحشر ، والشرفين : المشعر والمعشر ، والطرفين : المشهد الأول والمشهد الأكبر ، والفريقين : البادى والحاضر ، والطاعتين : ممن أسر القول ومن جهر، والمقامين : مقام إبراهيم ومقام محمد صلى الله عليهما أبداً سرمداً ، والشعارين : الأبيض فى القلب والأسود فى اليد ، والخلدين : فى دار السلام ودار السلامة والموطنين : مقام الامامة ودار المقامة ، والشفاعتين: سالماً فى أهل الغمام وآمناً فى أهل النار ، والسلامين : سلام لكم من الأبرار ، وسلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ، على الخليفة بن الخلائف ، على رغم من رضى أن يكون مع الخوالف ، وابن الأئمة المشهورين فى المناظر والمواقف ، مولينا ومولانا المستضىء بالله أمير المؤمنين ، صلوات الله على ملك الأنوار القديسة ، تتضوع عن نسيم الأنفاس الفردوسية ، والحمد لله الذى جعل الدين دينه المسئول وأغمد عن أهله سيف الفتنة

---

(١) سورة يس ، الآية ٣٦ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١٩ .

المسلول، فأورث أمير المؤمنين حقاً كان به ممطولاً ، وأطال يده إلى استيفاء طائلة كان دم الحق بها مطلولا ، ودأب المملوك صادر إلى مقر الشرف الأصيل ، ومن شرفه لشرف الرسول رسيل والاسم الشريف المستضيء به قد صدحت منابره وعروشه ، وطرزت المدائن والملابس والدنانير والدراهم رقومه ورقوشه ، وجهزت إلى بلاد الكفار في الكرام مرة أو مرتين بعوث نصره وجيوشه ، والزمن قد وقرته السكينة لا الوجوم والكواكب قد همت بأن تتساقط إيثار الطرب لا إيثار الرجوم . ونشأة الدعوة المنيفة قد أشبهت ولاية النبوة الشريفة ، وقد طالع وزير أمير المؤمنين بتفصيل ما أخلده ، وتحصيل ما منعته الجلالة أن تستوفيه وتستكمله ، راجياً أن تناله من الملاحظات النبوية ، ما يجعل له سلطاناً ، ويمكن له في قلوب الأعداء والأولياء مكاناً حتى يحفظ على الخلافة من لا يعينه إلا إياها ، وينفذ على الثقلين في الخافقين أوامرها وقضاياها ، والتكيف لها نصراً إلى نصر ويستنجد لها ما كتب في الزبور من بعد الذكر ... باسم أمير المؤمنين في الملأ الأعلى ، وطبق بدعوته المعمورة حتى لا .. وقلص به عن الأمة ضلالة ومد عليه ظلاً ، إن شاء الله تعالى .

... (٢٠ب) ببغداد وزينت ، وبعث الخليفة اكبر الخدم صندل المقتفوى إلى نور الدين بالخلع وفيه الطوق فيه ألف دينار ، والعمامة وسيفين واحد للشام وآخر لمصر ، وبعث لصلاح الدين خلعة دون ذلك .

سنة ثمان وستين :

فيها أرسل السلطان إلى نور الدين بهدية ، فيها فيل وحمار عتابى فبعث بها نور الدين إلى بغداد ، وعجب الناس من خلقة الحمار ، وكان من العتابيين رجل يدعى النحو في غاية من الجهل ، فخرج مع الناس يتفرج مع بعض الظرفاء وقال : يا قوم ليس بعجب حمار عتابى ، فعندنا عتابى حمار فضحك الناس منه .

ذكر خروج الناصر إلى الكرك
والوحشة بينه وبين العادل

وفيها ، وقيل : سنة سبع بدت الوحشة بين العادل والناصر الباطن ، وذلك أن الناصر سار ونازل الكرك والشوبك[1] قال بعضهم : إنها أول غزوة غزاها ، وقد ذكر خروجه إلى أيلة وغيرها، ثم رحل خوفاً من أن يملكه ، فلم يبق ما يعوق نور الدين عن قصد مصر ، فبلغ ذلك نور الدين فكتمه وقيل : إن صلاح الدين استغنم خروج نور الدين إلى الموصل فأعلم نور الدين بذلك . وقيل : بل تقرر أن يجتمع الملكان على قصد الفرنج ، فوصل صلاح وخرج نور الدين ، فأوجس الناصر فى نفسه خيفة ، أن يعزله عن مصر ، فرجع عائداً ، بعد أن بقيت بينه وبين الكرك مسافة قريبة ، وأرسل مع الفقيه عيسى هدايا كثيرة ، وكتب يعتذر أن والده ضعيف فلاطف الفقيه نور الدين فأظهر قبول العذر ، وقال : يحفظ مصر عندنا أهم من غيرها ، ونقم عليه ذلك فى الباطن ، فلما رجع صلاح الدين ، جمع أقاربه وقال : بلغنى أن نور الدين يقصدنا ، فما الرأى ؟ فقال ابن أخيه تقى الدين : نقابله وذلك بحضور نجم الدين ، فأنكر على تقى الدين ذلك ، وقال : أنا والدكم ، ولو رأيت نور الدين قبلت الأرض بين يديه ، بل اكتب لنور الدين: لو جاءنى من عندك إنسان واحد وربط المنديل فى عنقى وجرنى إليك سأترك له ذلك واتفقوا على ذلك . ثم اجتمع أيوب بابنه خلوة وقال : لو قصد نور الدين كنت أول من يقاتله ، ولكن إذا أظهرنا ذلك يترك نور الدين جميع ما هو فيه ويقصدنا ولا ندرى ما نفعل ، وإذا أظهرنا الطاعة تمادى الوقت بما تحصل به الكفاية من الله ، فكان كذلك (٢١أ) .

سنة تسع وستين :

فيهـا وصل قراقوش - غلام تقى الدين عمر - مع طائفة من الترك والعرب إلى طرابلس ، فاستولى عليها بعد أن حاصرها مدة ، وعلى كثير من بلاد أفريقيا ، ما خلا

---

(١) الشوبك : قلعة حصينة في أطراف الشام بين عَمّان وأيلة (معجم البدان ٣ : ٣٧٠) .

المهدية[١] وسفاقس[٢] وقفصة[٣] وتونس[٤] وقيل : إن تقى الدين بعث مملوكه « بزناه » فالتقاه عسكر عبد المؤمن فهزمه ، بعد أن أقام الدعوة بأفريقية ، وعاد إلى القاهرة منهزماً .

وفيها اجتمع جماعة من دعاة الدولة المصرية وتماروا فيما بينهم ، وعينوا خليفة ووزيراً ، وأحكموا أمرهم بليل ، وكان عمارة اليمنى من أحكمهم ، وأدخلوا عندهم ابن نجا[٥] الواعظ ، فأطلع السلطان على ذلك ، وطلب ما لابن كامل[٦] من المال والذخيرة فأعطاه السلطان ذلك ، ثم اعتقل مقدمهم ، وصلب يوم السبت ثانى رمضان جماعة منهم بين القصرين[٧] منهم عُمارة والقاضى العويرس[٨] وعبد الصمد الكاتب وداعى الدعاة عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوى ، وقد جمعوا الشباب وكاتبوا الفرنج ، وكاد أمرهم أن يتم. ووصل إلى الشام كتاب بالقصة يوم وفاة نور الدين ، ولكل واحد من المصلوبين تراجم مطولة .

وفيها أكثر نور الدين من الصدقات ، وزاد فى العدل ، بحيث لم يبق ببلاده مظلمة ، وبعث خالداً القيسرانى[٩] أميناً على حواصل البلاد ، فأكرمه صلاح الدين وقال له : نحن

---

(١) المهدية : مدينة بأفريقيا بينها وبين القيروان مرحلتان (معجم البلدان ٥ : ٢٣٠) .

(٢) سفاقس : مدينة من نواحي أفريقيا على ضفة الساحل بينها وبين المهدية ثلاثة أيام (معجم البلدان ٣ : ٢٢٣) .

(٣) قفصة : بلدة صغيرة في أفريقية من ناحية المغرب بينها وبين القيروان ثلاثة أيام (معجم البلدام ٤ : ٣٨٢) .

(٤) تونس : مدينة كبيرة بأفريقيا علي ساحل بحر الروم (معجم البلدان ٢ : ٦٠) .

(٥) هو زين الدين أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجا الواعظ توفي سنة ٦٠٠ بمصر (النجوم الزاهرة ٦ : ١٨٣ ، البداية والنهاية ١٣ : ٣٥ ، شذرات ٤ : ٤٣١) .

(٦) محلة بالقاهرة ، وهي بين قصرين عمرها الملوك المتعلوية في وسط المدينة (معجم البلدان ١ : ٥٣٤) .

(٧) هو أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل الداعي توفي سنة ٥٦٩ هـ (الخريدة ـ شعراء مصر ١ : ١٨٦ ، الروضتين ١ : ٥٧١ ، البداية والنهاية ٢ : ٢٧٥ ، شذرات ٤ : ٢٣٥) .

(٨) كان قد تولى ديوان النظر ثم القضاء في عهد العاضد (الروضتين ١ : ٥٦١) .

(٩) هو أبو البقاء موفق الدين خالد بن محمد بن نصر القيسراني استوزره نور الدين الشهيد بدمشق ومات بها سنة ٥٨٨ هـ (البداية والنهاية ١٤ : ٣١) .

مماليك نور الدين ، افعل ما آمرك ، إلا أن جماعة من أكابر الدولة قد تصرفوا فى أماكن كان نزعها منهم ، فعلم خالد أن طاعته مخادعة فسكت ، ومات نور الدين فى شوال وبطل ذلك كله .

سنة سبعين وخمسمائة :

فيها ، وقيل : فى سنة اثنتين وسبعين خالف « الكنز »[١] بأسوان ، وهو مقدم من المصريين ، جمع السودان ، وخطب لداود بن العاضد ، وقصد قوص ، وانتهى خبره إلى الناصر ، فجرد عسكراً ، قدم عليه أخاه العادل ، والتقوا فقتل الكنز ، وتفرق جمعه ، وكان معه مائة ألف ، قتل منها ثمانون ، قال العماد : قتل الكنز وما انتطح فيها عنز ، وقيل : إن جماعة من غلمان العادل نادوا بشعار داود ، فخرج إليهم العادل ، وقتل منهم . وفيها جاء الفرنج إلى الاسكندرية فى مائتى شينى[٢] فأخرج السلطان العسكر ، وتحرك ليخرج ، فألقى فى قلوبهم الرعب ، فعادوا خائبين ، بعد أن ضايقوا البلد ، وخلفوا مجانيقهم وآلاتهم .

ذكر مُلك الملك الناصر دمشق وحمص وحماة وحلب

وسبب ذلك أن شمس الدين بن الداية[٣] ، المقدم بحلب ، أرسل يستدعى الصالح إسماعيل (٢١ب) وقد ولى بعد أبيه، وحلف له أرباب الممالك وذلك فى شوال سنة تسع وستين ، فسار الصالح إلى حلب ، وتمكن كمشتكين[٤] ، وقبض على ابن الداية وأخوته

---

(١) فى النوادر السلطانية ص ٤٧ ، الكنز انسان مقدّم من المصريين كان قد انتزح إلى أسوان فأقام بها ، ولم يزل يدبر أمره ، ويجمع السودان عليه ، ويخيّل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة المصرية) .

(٢) الشيني : السفينة الحربية الكبيرة . كانت تقام فيها الأبراج والقلاع وكانت تنزلق على الماء بمساعدة مائة وأربعين مجدافاً (السلوك ١ : ٥٦ ، مفرج الكروب ٢ : ١٣ ، حاشية ١) .

(٣) هو شمس الدين علي بن الداية من كبار أمراء حلب (النجوم ٦ : ٢٤) .

(٤) هو خادم السلطان نور الدين ، وكان ولاه الموصل نيابة عنه ، فلما مات نور الدين هرب إلى حلب ، وخدم شمس الدين بن الداية ، ثم جاء إلى الملك الصالح ابن نور الدين الشهيد فاعطاه حازم ، ثم غضب عليه وقتله سنة ٥٧٣ (النجوم الزاهرة ٦ : ٨١) .

واستبد بتدبير المصالح ، فخافته الأمراء الذين بدمشق ، فراسلوا الناصر ، ومن كتابه القاضى كمال الدين الشهرزورى[1] وابن الداية ، فسار جريدة[2] فى سبعمائة فارس ، وخلف على مصر أخاه العادل ، ووصل إلى دمشق فى سلخ ربيع الأول ، فخرج كل من بها من العسكر وخدموا ، ونزل بدار والده وتعرف بـ « دار العقيق »[3] وامتنعت عليه القلعة أياماً ثم سلمها ريحان الخادم ، وأحسن السلطان إلى ابن المقدم ، ومشى إلى دار القاضى . وقال : كانت بيننا مشاحنات ، وما مشيت إليك إلا لأزيل ما فى خاطرك فطب نفساً ، وأكثر الشعراء القول فى أخذ دمشق ، وأسكن أخاه طغتكين قلعة دمشق . قال (القاضى) الفاضل : ملكنا دمشق عناية لا عنوة . ثم كتب الناصر إلى الصالح كتاباً يتواضع فيه ويخاطبه بمولانا وابن مولانا ، ويقول : إنما جئت خدمة لك لأؤدى ما يجب من حقك ، فلا تسمع ممن حولك فيفسد حالك ، وما قصدى إلا جمع الكلمة . فعرض الصالح كتابه على كبار الدولة وفيهم خالد القيسرانى ، فأشار عليه أن يكاتبه بالغلظة ، فكتب إليه ، ينكر عليه ، وينسبه إلى كفر النعمة، وجحد إحسان والده ، ووعده وهدده وبعث الكتاب مع « ينال »[4] صاحب منبج[5] ، فأغلظ للسلطان ، وقال : السيوف التى ملكتك مصر هى التى تردك ، وأشار إلى سيفه ، فغضب السلطان ، وقال : والله لولا أن الرسول لا يُقتل لقتلتك ، فوالله ما جئت طمعاً ، وإنما جئت لاستنقذ هذا الصبى من يد أمثالك ، فأنتم زوال نعمته ، وطرده بغير جواب . ولما قرر أمر دمشق استخلف أخاه طغتكين ، وسار إلى حمص مستهل

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن القاسم ، أبو الفضل كمال الدين الشهرزوري قاضي دمشق ولد سنة ٤٩٢ هـ وتوفى سنة ٥٧٢ هـ (النجوم الزهرة : ٦ : ٧٩ ، والكامل ١١ : ٤٤١) .

(٢) الجريدة الفرقة من العساكر الخيّالة لا رجالة فيها .

(٣) العقيق : هو الشريف أحمد بن الحسين بن أحمد العلوي صاحب الدار المشهورة بدمشق ، توفي سنة ٣٧٨ هـ (انظر النجوم الزهرة ٤ : ١٥٣) .

(٤) هو قطب الدين ينال بن حسان ، كان من قواد نور الدين ، تعصب للملك الصالح بعد وفاة نور الدين ، وأخذ السلطان منه منبج سنة ٥٧١ هـ . (سنا البرق ١ : ٦٩ حاشية ٤) .

(٥) منبج : بلد قديم كبير بينه وبين الفرات ثلاثة فراسخ وإلى حلب عشرة فراسخ (معجم البلدان ٥ : ٢٠٥) .

جمادى الأولى ، وكانت حمص وحماة وقلعة بارين[١] وسلمية وتل خالد[٢] والرها[٣] فى إقطاع مسعود بن الزعفرانى وله البلاد بدون قلاعها إلا بارين ، فنزل السلطان على حمص وتسلمها ، قيل : إنه قاتل يوماً واحداً وامتنعت عليه القلعة، فخلف من يحصرها ، وسار إلى حماة ، فملكها مستهل جمادى الآخرة ، وكان يحكمها « جُرديك»[٤] مملوك نور الدين ، فامتنع فأرسل إليه السلطان يذكر أنه فى طاعة الصالح ، وإنما خرج لحفظ البلاد من الفرنج وقصد من جرديك المسير إلى حلب فى رسالة ، فاستحلفه على ذلك ، وسار إلى حلب واستخلف (٢٢أ) بالقلعة أخاه ، فلما وصل إلى حلب قبض على كمشتكين وسجنه ، فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة إلى الناصر ، فملكها ثم سار إلى حلب وحصرها، فجمع أهل حلب وقاتلوه وصدوه ، وأرسل كمشتكين إلى الاسماعيلية أموالاً عظيمة ليقتلوا الناصر ، فأرسل « سنان »[٥] جماعة لقتله ورآهم صاحب أبى قُبيس[٦] فعرفهم ، وسبق إلى السلطان ، فأدركوه على باب الخيمة ، فقتل خمارتكين[٧] أمير جاندار[٨] واحداً منهم ، واجتمع الغلمان فقتلوا الباقين ، واستمر الحصار إلى مستهل رجب ، ثم رحل عنها ، بسبب نزول الفرنج على حمص ، ووصل إلى حماة ، ثامن

---

(١) بارين : مدينة بين حلب وحماة من جهة الغرب (معجم البلدان١ : ٣٢١) .

(٢) تل خالد : قلعة من نواحى حلب (معجم البلدان : ٢ : ٤١) .

(٣) الرها : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام (معجم البلدان ٣ : ١٠٦) .

(٤) هو جُرديك بن عبد الله النوري ، كان من أكابر أمراء الملك ، العادل نور الدين محمود ، ثم خدم السلطان صلاح الدين فى جميع غزواته ، توفى سنة ٥٩٤ هـ (النجوم ٦ : ١٤٣) .

(٥) هو سنان بن سليمان صاحب دعوة الاسماعيلية بقلاع الشام توفى سنة ٥٨٨ هـ (النجوم ٦ : ١١٧) .

(٦) أبو قُبيس : حصن يقابل شيزر فى بلاد الشام (معجم البلدان ١ : ٨٠) .

(٧) خمار تكين : هو الأمير ناصح الدين خمار تكين صاحب أبى قبيس : كان مشاغراً للاسماعيلية قتل سنة ٥٧٠ هـ (الروضتين ١ : ٦١٣) .

(٨) جاندار : فارسية تتركب من كلمتين ، جان بمعنى سلاح ، ودار بمعنى ممسك ، وأمير جاندار هو الذى يستأذن فى دخول الأمراء على السلطان (صبح الأعشى ٤ : ٢٠) .

رجب، وسار إلى حمص ، فرحل الفرغ عنها ، فحضر القلعة وملكها فى حادى عشرين شعبان ، ثم سار إلى بعلبك فملكها فى رمضان من الخادم يُمن الريحانى ، ولما استقر ملك لهذه البلاد أرسل الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازى - صاحب الموصل - يستنجده فجهز جيشه مع أخيه عز الدين مسعود ، وطلب من الأكبر عماد الدين زنكى - صاحب سنجار - ليسير فى النجدة ، مصانعة لصلاح الدين ، لأنه وعده أن يملكه، فسار سيف الدين إليه وهو بسنجار، ووصل عسكر الموصل إلى حلب صحبة عز الدين محمود أحد أمراء الموصل ، فأرسل الناصر يبذل لهم حمص وحماة ، وأن تقر بيده دمشق ويكون بها نائباً للصالح ، فلم يجيبوه وساروا إلى قتاله، فاقتتلوا عند حماة ، فانهزم عسكر الموصل إلى حلب وغنم الناصر أثقاله وأسر أبطاله وتبعهم إلى حلب ، وهذه المرة الثانية لحصار حلب ، والأولى لكسر المواطن وقطع خطبة الصالح (ابن نور الدين) فراسلوه على أن يكون لكل واحد ما بيده ، فصالحهم على ذلك ، ورحل عن حلب ، فى العشر الأول من شوال وقيل : إنه صالحهم على أن يطلقوا ابن الداية وأن يكون بدمشق ما للصالح . وإنه جاءته الخلع من الخليفة ولقب بالناصر ، وإنه استعمل على حلب خاله ، وقيل : ابن خاله ، وهذا كله ليس بصحيح . وأقطع السكة حمص ناصر الدين بن شيركوه ، وحماة خاله ، وقيل : ابن خاله. وفى الوقت الآخر من شوال أخذ قلعة بارين من صاحبها مسعود الزعفرانى (وهو) من أكابر الأمراء النورية ، قيل : نازلها ، وقيل : إن صاحبها نزل عنها واتصل بالسلطان وظن أنه يكرمه ويشاركه فى الملك ، فلم ير ذلك ففارقه . وفيها العادل إلى بلاد الاسماعيلية (٢٢ب) وأحرق سرمين[١] ومعرة مصرين[٢] وجبل السماق[٣] وقتل معظم أهله .

---

(١) سرمين : بلدة مشهورة من أعمال حلب (معجم البلدان ٣ : ٢١٥) .

(٢) معرة مصرين : وهي بليدة بنواحي حلب (معجم البلدان ٥ : ١٥٥) .

(٣) جبل السماق : وهو جبل عظيم من أعمال حلب الغربيـة ، يشتمـل على مـدن كثيـرة وقـرى وقلاع (معجم البلدان ٢ : ١٠٢) .

سنة احدى وسبعين :

ذكر محاصرة حلب وأخذ غيرها من البلاد : لما انهزم عسكر الموصل ورجعوا إلى سيف الدين لامهم وأرسل صالح أخاه عماد الدين ، وجمع عسكره وعسكر أخيه ومعهم أخوه عز الدين ، واستنجد صاحب الحصن[1] وصاحب ماردين[2] فاجتمع قريب العشرين ألفاً ، وقيل : ستة آلاف وليس صحيح ومن سعد الناصر أن سيف الدين بعث رسولاً ومعه كتابين ، أحدهما إلى الناصر ليأخذ منه عهداً للمواصلة ، والآخر إلى الحلبيين يلومهم على الصلح ، ويخبرهم أنه واصل إليهم بعساكر الشرق ، وكان السلطان بدمشق ، فجاء به الرسول، وكان قد ربط الكتابين في منديله ، فلما دخل عليه ، غلط فناوله كتاب الحلبيين، فتأمله السلطان ، وعلم أن الرسول قد غلط ، فلم يقل له كلمة ، وفهم الرسول ، ولم يمكنه الاستدراك . قال جامعه الفقير : ومما يُشبه هذا في الغلط أن ابن سكرة الهاشمي[3] دخل على القاضي عتبة بن عبيد[4] ومعه ورقتان ، إحداهما فيها طلب حاجة ، والأخرى فيها هجو القاضي على أن القاضي لم يقض حاجته ، ناوله الهجو ، فلما دخل عليه ناوله الورقة التي فيها هجوه ، ظنا منه أنها التي فيها الحاجة ، فرأى القاضي يوقع فيها بقضاء حاجته ، فلما تم الكتابة أخذها فرآها تلك الورقة فخجل ، ونسك ذلك :

يا عتبة بن عبيد حوشيت من كل عيب
القاضي
وأنت فحوشيت من كل عيب .

---

(١) الحِصْن : موضع بين حلب والرقْة (معجم البلدان ٢ : ٢٦٤ ٩ .

(٢) ماردين : قلعة مشهورة مشرفة على دُنَيسِر ودارا ونصيبين (معجم البلدان ٥ : ٣٩) .

(٣) هو محمد بن عبد الله بن محمد ، أبو الحسن ، المعروف بابن سكّرة الهاشمي ، البغدادي ، توفي سنة ٣٨٥ هـ (يتيمة الدهر ٣ : ٣ ، تاريخ بغداد ٥ : ٤٦٥ ، وفيات الأعيان ٤ : ٤٤٠) .

(٤) هو عتبة بن عبيد بن عبد الله بن موسى الهمذاني ، كان قاضي القضاة في بغداد سنة ٣٣٨ هـ ، واستمر إلى أن توفي سنة ٣٥٠ هـ .

انظر : طبقات الشافعية للسبكي ٢٤/٢ ، تاريخ بغداد ٣٢/٢ ، شذرات الذهب ٥/٣ .

ابن سكرة:

قـــالوا بانك تهـــوى   زُبيب بنت شـــعـــيب

القاضى :

كذبوا قبحهم الله.

ابن سكرة :

أقـــول هذا مـــحـــال   أصـــبـــوة بعـــد شـــيب

القاضى :

جزاك الله خيراً.

ابن سكرة :

اتفـــعلون بشـــيـــخ   نقى عـــرض وجـــيب

القاضى :

قل ما يشبهك .

ابن سكرة :

رأيـــتم الأير فـــيـــه   فلم شـــهـــدتم بغـــيب

القاضى :

جهلاً منهم بطريق الشهادة .

انتهى . وكتب السلطان إلى أخيه العادل بتجهيز العساكر بسرعة ، وسار سيف الدين إلى حلب فالتقاه الصالح ، فاعتنقه سيف الدين وبكى وصعد القلعة ، وكان أمراء حلب ينزلون كل يوم إلى خدمته ، ثم رحل إلى تل السلطان بعساكره وكانت عشرين (٢٣ أ) ألفا ، والسلطان فى ستة آلاف فما رأى التخلف عنهم ، فسار ونزل حماة ، وترك أثقاله بها، وجاء إلى جبال التركمان ، وجاء رسول الحلبيين يخوفونه بأسهم ويأمرونه بالرجوع إلى مصر، قال الرسول : فرأيته فى خيمة صغيرة على بساط لطيف وتحته سجادة وبين يديه مصحف ، وهو مستقبل القبلة ، وإلى جانبه زرديته ، وسيفه بين يديه ، وقوسه وتُركشه

معلق فى عمود الخيمة ، فلما رأيته وقع فى خاطرى أنه منصور لأنى قد فارقت أصحابى وهم على طنافس الحرير ، والجُبول تعمل ، وليس فى خيامهم خيمة إلا وفيها أنواع من المحرمات ، فأديت الرسالة وجاء وقت الظهر فضج العسكر بصوت الأذان ، وفى كل خيمة إمام ، فقال لى الحق بأصحابك وقل لهم يستعدوا للقائى ، وعند طلوع الشمس نازل إليهم و ﴿ يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾ [1] ففارقته وأنا على بصيرة ، ومشيت عامة الليل ، فوافيتهم وقت الفجر وهم سكارى فطلبت سيف الدين ، فقيل : نائم ، فوالله ما بسطت الشمس إلا وأعلام صلاح قد أقبلت ، والكوسات[2] وأصحابنا نيام ، فقاموا وذلك يوم الخميس عاشر شوال وقيل : إن السلطان وصل قبل وأصحابه فى تعب وعطش ، فألقوا أنفسهم على الأرض وليس فيهم فتأخر إلى الغد . انتهى ، فلما التقوا حمل ميمنة الحلبيين على ميسرة السير فطحنوها ، ثم ميسرتهم على ميمنته فتعتعوها ، فنزل السلطان وباشر القتال بنفسه ، ووصل عسكر مصر مع تقى الدين (عمر) وناصر الدين بن شمس فى تلك الساعة ، فهال ذلك الحلبيين وساق خلفهم ، وأسر أبطالهم ، ولم ينج من الفريقين سوى رجل واحد ، ونجا سيف الدين بنفسه إلى الموصل ، ثم بمفارقتهم من الوهم ، فثبته وزيره ، ورجع السلطان إلى خيامهم فوجدها مفروشة بالرياحين المغانى جلوس فى انتظاره ، والخمور، ومطابخه تعد وأنواع المأكولات فيها ، فأرسل السلطان الخمور والطيور إلى سيف الدين وقال : اشتغالك بها الذ من مباشرتك للحرب . ثم سار السلطان إلى بزاعة[3] فحصرها وتسلمها ، وسار إلى منبج فحصرها فى آخر شوال ، وصاحبها ابن حسان ، وكان شديد البغض للسلطان ، فاتفق وقوع سلمه فى السر وطلب الأمان فأمنه ، وقيل : بل أسره ثم أطلقه فسار إلى الموصل وأعطى السلطان ثلاثمائة ألف دينار ، ثم سار إلى إعزاز(٤) ونازلها

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٨٧ .

(٢) الكوسات : هى صنجوات من نحاس شبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بايقاع خاص : صبح الأعشى ٤٩/٤ .

(٣) بزاعة : من أعمال حلب بين منبج وحلب : معجم البلدان ٤٠٩/١ .

(٤) إعزاز : بليدة فيها قلعة شمالى حلب : معجم البلدان ١١٨/٤ .

ثالث ذى القعدة وتسلمها حادى عشر ذى الحجة ، وقيل (٢٣ ب) بل أقام عليها ثمانية وعشرين يوما ، ووثب على السلطان باطنى فى خيمة جاولى[١] فضربه بسكين فى رأسه ، وكان عليه الزردية فأمسك يده ، إلا أنه لم يقدر على منعه بالكلية ، إنما كان يضربه الإسماعيلى فى رقبته فيرده الكازغند[٢] ، وقتل الإسماعيلى ثم وثب آخر فقتل ، ثم آخر فقتل ، وجاء السلطان إلى خيمته وهو مذعور ، لا يصدق النجاة ، وأعرض عسكره وأبعد من أنكره ، ورحل من إعزاز إلى حلب فنازلها فى منتصف ذى الحجة ، وقامت العامة فى حفظ البلد ، حتى منعوا السلطان من القرب منه ، وانقضت السنة ، وهو محاصر لحلب ، وسألوه فى الصلح ، وأن يكون له من حماة وما فتحه إلى مصر ، فأجابهم ، وأفرجوا إليه بنت نور الدين وهى صغيرة ، فأكرمها وأعطاها شيئاً كثيراً ، وقال لها : ما تريدين ؟ قالت : قلعة عزاز ، وكانوا علموها فسلمها السلطان إليهم ، ورحل عن حلب عشرين محرم .

سنة اثنتين وسبعين :

فى المحرم قصد السلطان بلاد الإسماعيلية فنهبهم ، وخرب بلدهم ، وحصر قلعة مِصياف[٣] فأرسل إليه سنان مقدم الإسماعيلية يطلب الأمان ، فرحل عنها ، وقيل : إنه بعث إلى خال السلطان شهاب الدين الحارمى يقول : المصلحة رحيلة ، فاشفع ما أمكنك ، فقال : ارحل فإنى أخاف عليك ، فرحل إلى دمشق ، واستناب أخاه شمس الدولة على الشام ، وفيها قدم السلطان مصر وأمر قراقوش ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة ودور ذلك ، وقيل : بل سور البلدين خاصة ، تسعة وعشرين ألف ذراع بالهاشمى ، ولم يزل العمل فيها إلى أن مات السلطان ، ولم ينتفع به أحد ، وفيها عمر المدرسة الملاصقة لقبة الإمام الشافعى ، ودرس فيها الخُبّوشانى ، وعمل المارستان بالقاهرة ، وفيها أبطل ما

(١) جاولى الأمدى وهو أحد أمراء السلطان صلاح الدين . انظر الكامل ٤٣٠/١١ .

(٢) الكازغند : المعطف القصير يلبس فوق الزردية يصنع من القطن أو الحرير المبطن . انظر الروضتين ٦٥٩/١ حاشية ١ .

(٣) مصياف : حصن مشهور للإسماعيلية بالساحل الشامى قرب طرابلس . انظر معجم البلدان ١٤٤/٥ .

كان يؤخذ من الحاج بجدة ، مما يحمل فى البحر لفقراء الحرمين مثلها ، وفيها تزوج السلطان الخاتون عصمة الدين بنت معين الدين أنر .

سنة ثلاث وسبعين

فيها سار السلطان من مصر للغزو ، فوصل عسقلان رابع عشرين جمادى الأولى ، وقيل : الآخرة ، فنهب وأسر ، وتفرق عسكره فى الإنمارة فلم يبق معه إلا طائفة يسيرة ، فلم يشعر إلا بالفرنج قد طلعت ، فقاتل قتالاً شديداً وتمت الهزيمة على المسلمين ، وكانوا زيادة على عشرين ألفا ، ولولا أن الليل حجز بينهم ، لم يبق من المسلمين أحد ، وتُعرف بـ « وقعة الرملة » وسار السلطان فى البرية بلا دليل ، ومضى العسكر فى الرمل فتبعهم الفرنج قتلاً وأسراً ، وممن أسر الفقيه عيسى الهكارى ، قيل : وأخوه الظهير ، وافتداه السلطان بعد سنتين بستين ألف دينار ، ومن سلم من الناس مات جوعا وعطشا ، ووصل السلطان إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة ، بعد أن قاسى الشدائد ، وكتب إلى أخيه توران شاه كتاباً بخطه يذكر الوقعة أوله[1] :

ذكـــرتك والخطئ يخطر بيننا　　　وقـد نهلت منا المثـقـفـة السـمـر

ويقول فيه : لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما نجانا الله سبحانه منه إلا لأمر يريده سبحانه وتعالى.

وما ثبتت إلا وفى نفسها أمرُ

قال جامعه : ويشبه قوله ذكرتك والخطئ ، البيت ، قول الآخر :

ولقـد ذكـرتك والسـياط تنوشنى　　　عند الإمـام وسـاعـدى مـغلولُ
ولقـد ذكـرتك والذى أنا عـبـده　　　والسـيف بين جـوانحى مـسلول

وفيها وصل من الفرنج كند[2] كبير فى البحر ، فرأى السلطان ، وقد عاد منهزما إلى

---

(١) البيت لأبى عطاء السندى . انظر : كتاب الزهرة لأبى بكر محمد بن سليمان الأصفهانى ص ٢٠٠ .

(٢) كند : فيه اشتقاقات ، الأول وهو لغة فى القومص ، الثانى وهو فارسى الأصل بمعنى الفارس الباسل الشاكى السلاح . انظر : سنا البرق ٦١/١ حاشية ٣ .

مصر فاغتنم ذلك ونزلوا على حماة فى جمادى الأولى ومقدمهم أرناط كان نور الدين قد أسره واعتقله بحلب فأطلقه ولده الصالح ، وكان بحماة خال السلطان شهاب الدين محمود ابن تُكش الحارمى ، وهو شديد المرض ، وكان بها المشطوب[1]، ولولاه لملكوها ، وكان بالقرب منها طائفة من عسكر السلطان ، أعانوا أهل البلد وأزاحوا الفرنج ، وكانت إقامتهم أربعة أيام ، وتوفى شهاب الدين بعد رحيلهم بأيام قلائل ، وكان له ابن من أحسن الشباب مات قبله بثلاثة أيام ، فأعطى السلطان حماة لمنكورين بن خمارتكين[2] وقيل : لتقى الدين وكان منكورين نائبا عنه ، وقيل : بل أعطاه لتقى الدين فى سنة أربع وسبعين فسار السلطان إلى الشام واستخلف على مصر أخاه العادل ، فوصل دمشق فى شوال وبها أخوه توران شاه مشغول بلذاته فلامه السلطان على ذلك .

سنة أربع وسبعين

فيها سير السلطان ابن أخيه تقى الدين إلى حماة ، وابن عمه محمد بن شيركوه إلى حمص (٢٤ ب) .

سنة خمس وسبعين

فيها خرج السلطان وشن الغارات على بلاد الفرنج ، فطلع عليه عدة من ملوكهم فنصر الله المسلمين على مُرج العيون[3] وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأسر منهم صاحب رملة ، وصاحب طبرية [4] ، وصاحب القدس ، وصاحب عسقلانى ، وصاحب جُبيل[5] ،

---

(١) هو سيف الدين على بن أحمد المشطوب ، كان من أكابر أمراء صلاح الدين ، توفى سنة ٥٨٨ . انظر النجوم ١١٧/٦ ، البداية والنهاية ٣٥٢/١٢ ، شذرات ٢٩٤/٤ .

(٢) منكورين بن خمارتكين : كان صاحب قلعة أبى قبيس ، وكان أحد أصحاب صلاح الدين ، سلمه صلاح الدين قلعة صهيون سنة ٥٨٤ ، وكذلك حصن برزية . تاريخ أبى الفدا ٧٤/٣ .

(٣) مرج العيون : موضع بسواحل الشام . انظر : معجم البلدان ١٠١/٥ .

(٤) طبرية : بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية ، وهى فى طرف جبل ، وهى من أعمال الأردن . انظر : معجم البلدان ١٧/٤ .

(٥) جبيل : بلد فى سواحل دمشق . انظر : معجم البلدان ١٠٩/٢ .

وصاحب طرابلس (١) فخلص بعضهم نفسه ، ومات بعضهم فى الأسر ، وفتح حصناً كانوا بنوه ، وأطلق من فيه من المسلمين ، وذلك فى ربيع الأول ، وقيل : فى المحرم ، ثم سار فى ربيع الأول إلى حصن يعقوب ، ويسمى قصر يعقوب وبيت الأحزان(٢) فنصب عليها المجانيق ، وخلع على النقابين ، وباشر القتال بنفسه ، فطلبوا الأمان وعاجلوهم المسلمون ففتحوه عنوة ، وعرض سوره عشرة أذرع ، وارتفاعه أربعون ذراعاً ، فقتل منهم ألفاً وخمسمائة ، وخلص مائة أسير ، وكان بيت الأحزان الذين يزعمون أن يعقوب كان يبكى على يوسف فيه عليهما السلام ، بيعة فجعلها السلطان مسجداً ، وفى فتحه يقول ابن الساعاتى(٣) :

وقفت على حصن المخاض وإنه ... لموقفُ حق ما يوازيه موقفُ
وما رفعت أعلامك الصفر ساعة ... إلى أن غدت أكبادها السود ترجفُ
أتسكن أوطان النبيين عُصبة ... تمين لدى أيمانها حين تحلفُ
نصحتكم والنصح فى الدين واجبٌ ... ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسفُ

وقال أحمد بن نفادة(٤) :

هلاك الفرنج أتى عاجلاً ... وقد آن تكسير صُلبانها
ولو لم يكن قد دنا حتفها ... لما عمرت بيت أحزانها

وفيها كان الحرب بين عسكر السلطان ، ومقدمهم تقى الدين ، وبين عسكر قليج

(١) طرابلس : بلدة بالشام على شاطئ البحر . انظر معجم البلدان ٢٥/٤ .

(٢) بيت الأحزان : بلد بين دمشق والساحل . انظر : معجم البلدان ٥١٩/١ .

(٣) هو أبو الحسن على بن رستم بن هردوز ، المعروف بابن الساعاتى ، شاعر مبرز فى حلبة المتأخرين ، توفى سنة ٦٠٤ هـ . انظر : وفيات الأعيان ٧٣/٣ ، انظر الأبيات فى ديوانه ٤٠٩/٢ .

(٤) هو الرئيس الشاعر شمس الدولة أحمد بن نفادة السلمى الدمشقى ، كان عند صلاح الدين فى عداد الأجناد الذين يسمونهم الأمراء ، توفى سنة ٦٠١ هـ . انظر : الغصون اليانعة ٢٦ ، فوات الوفيات ٨٦/١ أحمد بن نفاذة .

أرسلان[1] ، وسببه أن حصن رعبان[2] كان بيد ابن المقدم ، فطمع فيه قليج أرسلان ، فأرسل إليه عسكراً قريبا من عشرين ألفا ، فسار تقى الدين فى ألف فارس فهزمهم ، وكان تقى الدين يفتخر بذلك ، ويقول : هزمت بألف عشرين ألفاً ، وفيها ختن السلطان ولده العزيز وجعل ابن المجاور[3] معلما له .

سنة ست وسبعين :

ذكر مسير السلطان إلى نجدة صاحب حصن كيف[4] (٢٥ أ) فيها سار السلطان إلى الروم ، وذلك أن محمد بن أرتق[5] صاحب حصن كيفا انتمى إلى السلطان ، وكان تزوج ابنة قليج أرسلان[6] صاحب الروم ، فأساء العشرة ، وأحب مغنية وتركها نسياً منسياً فأرسل إليه : إما أن تحسن عشرتها وإما أن تفارقها ، فلم يلتفت ، فوعده أن يقصد بلاده فاستنجد محمد بالسلطان ، فسار السلطان إلى رعبان ، وأرسل إليه قليج أرسلان رسولاً، فلما أدى الرسالة قال : أريد أن أقول للسلطان كلاماً من عندى ولى الأمان ، قال : قل . قال : يا مولانا قبيح بمثلك ، وأنت أعلى السلاطين قدراً ، وأكبرهم شأنا أن تسمع الناس أنك صالحت الفرنج وتركت الغزو ومصالح المملكة ، وأعرضت عما فيه صلاحك وصلاح رعيتك ، وخسرت أنت وعسكرك الأموال العظيمة لأجل قحبة مغنية ، ما يكون عذرك عند الله ، ثم عند الخليفة ، وملوك المسلمين ، وهب أن أحداً يواجهك بهذا أما تعلم أن الأمر كذا ، ثم احسب أن قليج كأب وهذه ابنته أرسلتنى إليك تستجيرك أفيحسن أن تردها ؟

---

(١) هو قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان السلجوقى صاحب الروم ، توفى سنة ٥٨٨ هـ .
انظر : النجوم ١١٧/٦ ، الكامل ٥٧/١٢ ، البداية والنهاية ٣٥٢/١٢ .

(٢) حصن رعبان : بين حلب وسميساط قرب الفرات : معجم البلدان ٥١/٣ .

(٣) هو نجم الدين أبو الفتح يوسف بن الحسين بن المجاور ، الشاعر الدمشقى ، توفى سنة ٦٠١ : الغصون اليانعة ٣٥/١٩ .

(٤) كيفا : مدية بين حلب والرقة : معجم البلدان ٢٦٤/٢ .

(٥) توفى سنة ٥٨٠ هـ : النجوم ٩٨/٦ .

(٦) وهى سلجوقة خاتون بنت قلج أرسلان ، توفيت سنة ٥٨٤ : سنا البرق ٣٤٤/١ .

فقال السلطان : الحق معك ، ولكنى أصلح بينهم ، ثم أصلح بينهم ، وعبر إلى بلاد ابن ليون[١] وذلك أنه استمال قوما من التركمان ، حتى نزلوا بلاده ثم نهبهم ، فنزل السلطان على النهر الأسود[٢] وبعث الغارات وأخرب ابن ليون حصن النفير ، وهو حصن له على الجبل فأسرع إليه السلطان قبل أن ينقل ما فيه فغنم ذلك ، وصالح ابن ليون على مالٍ ورد ما عنده للتركمان ، وعاد السلطان إلى مصر واستخلف ابن أخيه فروخ شاه على الشام .

سنة سبع وسبعين

فيها سار السلطان إلى الإسكندرية وقال : نغتنم حياة الشيخ أبى طاهر ، فسمع هو وأولاده « الموطأ » عليه ، وفيها زور خطيب المِزة[٣] كتاباً على السلطان بزيادة فى جامكيته[٤] فهم فروخ شاه بالإيقاع به ، فهرب إلى مصر واستجار بالسلطان فأجاره ووقع له توقيعاً بما طلب ولم يخيبه .

سنة ثمان وسبعين

فيها سار السلطان عن مصر إلى الشام ، ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة وخرج أعيان الدولة لوداعه ، أخذ كل واحد منهم يقول أبياتاً فى (٢٥ ب) الوداع وفى الحاضرين معلم لأولاده فقال :

تمتع من شميم عرار نجدٍ   فما بعد العشية من عرار[٥]

وقيل : بل سمع قائلاً ظاهر الخيمة ، فطلب القائل فلم يوجد فتطير السلطان ، وكان كذلك فلم يعد بعدها إلى القاهرة مع طوال المدة ، فلما سمع الفرنج برحيله اجتمعوا

---

(١) فى سنا البرق ٣٤٧/١ ، والروضتين ١٦/٢ ، النجوم ٢٨/٦ ابن لاون .

(٢) نهر فى بلاد الروم فى طرف بلاد المصيصة وطرسوس : معجم البلدان ٣١٧/٥ .

(٣) قرية كبيرة غناء فى وسط بستان دمشق : معجم البلدان ١٢٢/٥ .

(٤) الجامكية : الراتب المربوط لشهر أو أكثر : العصر المملوكى ٤٠٤ .

(٥) البيت للشاعر الصمة بن عبد الله القشيرى ، وهو شاعر غزل بدوى من شعراء العصر الأموى ، توفى نحو سنة ٩٥ هـ . انظر البيت فى حماسة المرزوقى ص ١٢٤٠ ، وزهر الأدب ص ٦٨٥ ، ولسان العرب ٥٦٠/٤ .

ليكونوا على طريقه فخرج فروخ شاه من الشام إليهم ، ففتح الشقيف وحصن جلدك وساق فالتقى بالسلطان على بصرى [١] ففرح به ، وقدما دمشق حادى عشر صفر ، وأغار السلطان فى طريقه على بلادٍ فغنم وحصل ، وذكر ذلك الدوادار فى سنة سبع ، وفيها سار السلطان من دمشق فى ربيع الأول ونزل قرب طيبة وشن الغارة على بلاد الفرنج مثل : بيسان[٢] وجنين[٣] واللجون[٤] والغور[٥] ، فقتل واسر وغنم وعاد إلى دمشق ، ثم عاد إلى بيروت وحاصرها وأغار عليها ، ثم رجع إلى دمشق ، وقيل : إن ذلك فى سنة سبع .

ذكر ملك السلطان البلاد الجزرية[٦] وفيها ، وقيل فى سنة سبع سار السلطان من دمشق إلى البلاد الجزرية ، وسبب ذلك أن مظفر الدين كوكبرى[٧] صاحب حران كتب له : إنى محب لك وأنا معك ، ووعده أخذ البلاد فرحل من الشام ، وقيل : من بيروت ، وأظهر أنه يريد حلب وسار إليه مظفر الدين فقصد البيرة[٨] ودخلاها ، وكان صاحبها مع صلاح الدين ، ولما بلغ عز الدين مسعود[٩] وقايمار[١٠] وصول الناصر إلى الشام جمعا

---

(١) بصرى : موضع بالشام من أعمال دمشق ، مشهورة عند العرب قديما وحديثًا : معجم البلدان ٤٤١/١

(٢) بيسان : مدينة بالأردن بين حوران وفلسطين : معجم البلدان ٥٢٧/١ .

(٣) جنين : بليدة بين نابلس وبيسان من أرض الأردن : معجم البلدان ٢٠٢/٢ .

(٤) اللجوان : بفتح أوله وضم ثانيه ، بلد بالأردن : معجم البلدان ١٣/٥ .

(٥) الغور : غور الأردن بين بيت المقدس ودمشق ، وهو منخفض عن أرض دمشق والبيت المقدس ، ولذلك سمى بالغور : معجم البلدان ٢١٧/٤ .

(٦) الجزرية : هى التى بين دجلة والفرات مجاورة الشام ، تشمل على ديار مصر وديار بكر : معجم البلدان ١٣٤/٢ .

(٧) مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على كوجك ، صاحب حران ثم إربل ، توفى باربل سنة ٦٣٠ هـ. انظر : وفيات الأعيان ٢٧٠/٣ ، البداية والنهاية ١٣٦/١٣ ، النجوم ٢٨٢/٦ .

(٨) البيرة : بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية : معجم البلدان ٥٢٦/١ .

(٩) هو عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى ، الذى صار صاحب الموصل بعد وفاة أخيه ، توفى سنة ٥٨٩هـ بالموصل . وفيات الأعيان ٢٩٠/٤ ، الروضتين ٢٢٦/٢ .

(١٠) هو أبو منصور مجاهد الدين قايماز بن عبد الله الزينى ، صار نائب الموصل من سنة ٥٧١ إلى أن توفى سنة ٥٩٥ هـ . انظر : وفيات الأعيان ٢٤٦/٣ ، البداية والنهاية ٢١/١٣ .

عسكراً ونزلا إلى دارا(١) خوفا على حلب فجاءهما أمر لم يكن فى حسابهما وبلغهما عبوره الفرات ، فعادا إلى الموصل وأرسلا عسكرا إلى الرها ، وكاتب السلطان ملوك الأطراف فأجابه صاحب الحصن ، ونزل السلطان على الرها وقال الدوادار : آمد واعلم أن الدوادار حسن الخطة ، كثير الخبط فحصرها وتسلمها من صاحبها مسعود الزعفرانى بالأمان ، وصار فى خدمة الناصر ، ثم زحف على القلعة وتسلمها من صاحبها على مال ، وسلمها إلى صاحب حران ، ثم سار إلى الرقة(٢) فملكها من صاحبها ينال بن حسان المنبجى ، ثم سار إلى الخابور(٣) وملك قرقيسيا(٤) وماكسين(٥) وعربان(٦) والخابور جميعه ، ثم سار إلى نصيبين(٧) فملك المدينة (٢٦ أ) لوقته ، وحصر القلعة أياما ففتحها ، ثم أقطعها أبا الهيجاء السمين ، ثم استشار أمراءه أيبدأ بالوصول أو بسنجار أو بآمدا ؟ فأشار صاحب حران(٨) بالموصل ، وكذلك ناصر الدين بن شيركوه ، وبذل للسلطان مالا على أن يقطعه إياها إذا ملكها ، فسار السلطان إليها ، وقد استعد صاحبها فرأى ما هاله من كثرة المقاتلة ، ونصب منجنيقاً فنصبوا من داخل السور تسعة وتردد الرسل فى الصلح ، فطلب صاحب الموصل إعادة البلاد التى أخذت منه ، فقال له السلطان : بشرط تسليم حلب ، فلم يتم أمر، وذلك فى رجب ، فلما رأى أن حصار الموصل يطول وأن من بسنجار من المواصلة يقطعون

---

(١) دارا : بلدة بين نصيبين وماردين : معجم البلدان ٤١٨/٢ .

(٢) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام : معجم البلدان ٥٩/٣ .

(٣) الخابور : اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ، ولاية واسعة وبُلدان جمة عليها اسمه : معجم البلدان ٣٣٤/٢ .

(٤) قرقيسيا : بلد على نهر الخابور ، وعندها مصب الخابور فى الفرات : معجم البلدان ٣٢٨/٤ .

(٥) ماكسين : بلد بالخابور قريب رحبة مالك بن طوقى فى ديار ربيعة : معجم البلدان ٤٣/٥ .

(٦) عربان : بليدة بالخابور من أرض الجزيرة : معجم البلدان ٩٦/٤ .

(٧) نصيبين : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام : معجم البلدان ٢٨٨/٥ .

(٨) هو مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين : الكامل ٤٨٥/١١ .

طريق من يقصده من عسكره سار عن الموصل إليها ، فسير صاحب الموصل إليها نجدة فأوقع بهم السلطان وأخذ عُددهم وحصر البلد وكاتبه بعض الأمراء الذين بها أن يقصدها من جهةٍ فسار إليها وطرقها ليلا فملكها ، واستناب بها سعد الدين بن معين الدين وعاد إلى حران ، فلما وصل نصيبين شكا أهلها أبا الهيجاء السمين فعزله ، وأقام بحران ليستريح عسكره ، وفيها أجمع صاحب الموصل وشاه أرمن[1] ، فأرسل شاه أرمن إلى السلطان يشفع فيما يتعلق بصاحب الموصل فغالطه ، فأرسل إليه أخيراً مملوكه بكتمر[2] فأتاه وهو يحاصر سنجار ، فطلب منه أن يتركها وقال له : إن لم يرحل عنها وإلا تهدده بقصده فأبلغه بكتمر الشفاعة فسوفه في الإجابة رجاء أن يفتحها ، فلما رأى بكتمر هذا أبلغه التهديد وفارقه غضباً ولم يقبل له خلعة ، فاجتمع صاحب الموصل وصاحب خلاط وصاحب بدليس[3] وأرزن[4] ، فلما سمع السلطان باجتماعهم سير ابن أخيه يستدعيه من حماة وسار إلى رأس عين[5] فلما سمعوا برحيله تفرقوا ، وفيها عمل صاحب الكرك مراكب وأرسلها ليفسدوا بالحرمين وأرسل جيشاً في البر ، فلما سمع العادل وهو نائب أخيه بمصر سير جيشا صحبة لؤلؤ الحاجب[6] وكان مظفراً شجاعاً فسار مجداً في طلبهم ، فوجد فرقة محاصرين أيلة فقتلهم وأسرهم ، ووجد فرقة ساروا في نحو عيذاب[7] ولم يعهد بهذا البحر فرنجيا قط فسار يقفو أثرهم ، فأدركهم بساحل الجوزاء وقاتلهم (٢٦ ب) أشد القتال ، فأظفر الله بهم

---

(١) شاه أرمن : هو ناصر الدين سُكمان الثاني بن إبراهيم ، توفى سنة ٥٨١ : النوادر السلطانية ٦٩ .

(٢) بكتمر بن عبد الله مملوك شاه أرمن بن سُكمان صاحب خلاط ، توفى سنة ٥٨٩ هـ : النجوم الزاهرة ١٣٢/٦ .

(٣) بدليس : بلدة من نواحي أرمينية قرب خلاط : معجم البلدان ٣٥٨/١ .

(٤) أرزن : مدينة مشهورة قرب خلاط ، وكانت من أعمر ناحي أرمينية : معجم البلدان ١٥٠/١ .

(٥) رأس عين : مدينة كبيرة من مدن الجزيرة بين حران ودنيسر : معجم البلدان ١٤/٣ .

(٦) لؤلؤ الحاجب : من كبار رجال الدولة الصلاحية ، خدم مع صلاح الديـن وأخلص له ، مات سنة ٥٩٧ هـ .

(٧) عيذاب : بليدة على ضفة بحر القلزم : معجم البلدان ١٧١/٤ .

وقتل أكثرهم ، وأخذ الباقين أسرى وأرسل البعض إلى منى[1] لينحروا بها ، والبعض إلى المدينة ، وعاد بالباقين إلى المدينة فقتلوا عن آخرهم وكان الأسرى اثنين وسبعين أسيراً .

وكتب الفاضل إلى الخليفة كتاباً فيه ، وكان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكراً واقتضوا من البحر بكراً ، وعمروا مراكب شحنوها بالمقل والأزراد ، وضربوا بها سواحل تهامة ، وأوغلوا فى البلاد ، وما ظن المسلمون إلا وأن الساعة قد نشر مطوى أشراطها ، وطوى منشور بساطها ، وقد غضب الله لفناء بيته الحرام ومقام أنبيائه المعظم ، وضريح نبيه المفخم ﷺ ، وحرس من فضل الله كما حرس إذا قصده أصحاب الفيل ، ووكل أهله الأمور إلى الله فكان حسبهم ونعم الوكيل ، ولم يبق من العدو مخبرا ولا أثرا ﴿ **وسيق الذين كفروا إلى جهنم زُمراً** ﴾ [2] .

سنة تسع وسبعين

ذكر ملك السلطان آمد وغيرها من البلاد : سار السلطان إلى البلاد فحاصرها وتسلمها بعد قتال شديد يوم الأحد عاشر محرم ، وسلمها لصاحب الحصن لأنه وعده بها لما جاء إلى خدمته ، ولما ملكها السلطان خرج محمد بن على ومحمد بن كيكملدى منها بأموالهما إلى الموصل ، وأعانهما السلطان بدواب فحملا ما خف ، وعجزا عن كثير من الذخائر ، ثم سار فى شهر محرم إلى الشام وقصد تل خالد من عمل حلب فملكه ، فأنشده ابن الساعاتى على التل[3] :

ما بعد لقياك للعافين من أمل ... ملك الملوك وهذى دولة الدول
من حاتم عندما كفاك واهبة ... حتى غدا مثلاً ناهيك من مثل
من يطلق الألف بعد الألف فى طلق ... ما بين طل الندى والوابل الهطل
ذر الصوارم فى أغمادها فلقد ... جلوتها من برود الهام فى حُللِ

---

(١) منى : فى درج الوادى الذى ينزله الحاج ويرمى فيه الجمار من الحرم : معجم البلدان ١٩٨/٥ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٧٣ .

(٣) ديوان ابن الساعاتى ٣٨٢/٢ .

ومنها :

ما خفت مذ كنت إلا الله من أحدٍ لذاك خافك حتى النوم فى المقلِ

قال جامعه الفقير : من خاف الله خافه كل شىء ، ومن لم يخف الله أخافه من كل شىء ولهذا قيل :

وما العز إلا خيفة الله وحده فمن خاف منه خافه كل ما طلب

انتهى .

فلو توخيت هدم السد معتزماً لذل خوفاً وطوعاً أن تقول زل
فانهض إلى حلب فى كل سابقة سروجها قلل تغلى عن القلل
بكر المعاقل فاخطبها مكاثرة بكل أصمى أصم الكعب معتدلِ
فما سواك لها بعلٌ وقد عطلت فحلها وتلافنها من العطل

ومنها :

فليعلم القدس أن الفتح منتظرٌ حلوله وعلى الآفاق فليطل
وأفاك يوسف يا بيت الخليل فلا تيأس وأمل ففيه صادق الأمل

ثم سار إلى عين تاب [1] وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ إسماعيل [2] فحاصرها ثم تسلمها وابقى صاحبها عليها .

ذكر أخذ السلطان حلب وحارم وذكر غير ذلك

واستدعى السلطان جميع العساكر فاجتمع عنده خلق عظيم ، ونزل الميدان الأخضر ، قال ابن شداد فى سادس عشر محرم ، وباشر القتال بنفسه بكرة وعشية ، فلما طال الحصار

---

(١) عين تاب : قلعة حصينة بين حلب وأنطاكية : معجم البلدان ١٧٤/٤ .

(٢) كان خازن نور الدين محمود زنكى وصاحبه : الكامل ٤٩٥/١١ .

ضجر صاحبها عماد الدين زنكى بن مودود[1] وكثرت اقتراحات أهل حلب عليه فأرسل حسام الدين طمان[2] فى الصلح ، ولم يعلم أحداً فخرج وقرر الأمور ، فلما أصبح عماد الدين قال لأهل حلب : دبروا أنفسكم وأعلمهم بما تم فأرسلوا عز الدين جرديك[3] عن الرعية فاستحلف السلطان ، وخرج عماد الدين والعسكر إليه بالميدان وسير معه ، وقدم له السلطان خلعة سنية وخلع على أمرائه وعمل له وليمة عظيمة ، مات تاج الملوك يومها على ما ذكرنا فى ترجمته ، وتعوض عن حلب سنجار[4] ونصيبين والخابور والرقة وسروج[5] ، وسار عماد الدين من يومه إلى سنجار ، وكان أهل حلب قد جعلوا له تحت القلعة صابوناً وثياباً ، وصاحوا يا فاعل ، يا صانع ، انزل اغسل الثياب مثل المخانيث وعملوا الأشعار وغنوا بها فى الأسواق ومنها :

وبعت بسنجار خير البقاع ثكلتك من بائع مشترى[6]

وجعلوا ينادون : يا حمار ، بعت حلب بسنجار . وصعد السلطان القلعة سلخ صفر ، ومن العجب أن القاضى محيى الدين بن الزكى[7] مدح السلطان بقصيدة منها :

---

(١) عماد الدين زنكى بن مودود بن آق سنقر ، وهو ابن أخى نور الدين الشهيد ، توفى سنة ٥٩٤ : النجوم الزاهرة ١٤٤/٦ .

(٢) الأمير حسام الدين طمان بن عبد الله النورى ، صاحب الرقة ، كان شجاعاً جواداً ، بنى مدرسة بحلب للحنفية ، توفى سنة ٥٨٥ هـ ، وحزن السلطان صلاح الدين عليه والمسلمون لحرصه على الجهاد ولمواقفه المشهودة : النجوم الزاهرة ١٠٩/٦ .

(٣) عز الدين جرديك بن عبد الله النورى ، خدم السلطان صلاح الدين فى جميع غزواته وحروبه ، توفى سنة ٥٩٤ هـ . النجوم الزاهرة ١٤٣/٦ .

(٤) سنجار : من نواحى الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام : معجم البلدان ٦٢/٣ .

(٥) سروج : بلدة قريبة من حران من ديار مصر : معجم البلدان ٢١٦/٣ .

(٦) ورد البيت فى مرآة الزمان ٣٧٦/٨ .

(٧) هو محمد بن على بن محمد بن يحيى أبو المعالى محيى الدين ، المعروف بابن زكى الدين ، قاضى القضاة بدمشق وأعمالها ، كان فاضلاً مترسلاً ، وله النظم والنثر البديعان ، توفى سنة ٥٩٨ هـ : وفيات الأعيان ٣٦٤/٣ ، طبقات السبكى ٩٩/٤ ، النجوم ١٨١/٦ .

وفـتـحكم حلبـاً بالسـيف فى صـفـر　　مبشر بفتوح القدس فى رجب[1] **(٢٧ب)**

فوقع ذلك بعد أربع سنين ، وكان القاضى هو الخطيب به . قال جامعه الفقير : وهذا من السعد العظيم ، ولكن قيل : إنه وجد ذلك فى بعض التفاسير عند قوله تعالى ﴿ **الم غلبت الروم** ﴾[2] . انتهى .

ومدحه ابن سناء الملك [3] بقصيدة أولها :

بدولة التُرك عـــزت دولة العـــرب　　وبابن أيوب ذلت شـيـعـة الصلب
وفى زمـــان ابن أيوب غـــدت حلب　　من أرض مصر وعادت مصر من حلب
ولابـن أيـوب دانـت كـل مملـكـة　　بالصفح والصُلح ، أو بالحرب والحرب
مُظفر النصـر ، مـبـعـوث بهـمـتـه　　إلى العـزائم ، مـدلول على الغلب
والدهر بالقـدر المحـتـوم يخـدمـه　　والأرض بالخلق ، والأفـلام بالشـهب
ويجـتلى الخلق من راياته همـمـاً　　مُبيـضة النصر من مُصفرة العذب
تبدو الفـوارس منهـا فى سـوابغـهـا　　بين النقـيـضين من مـاء ومن لهب
مـستلـمين ، ولولا أنهم حـفـضـوا　　عـوائد الحـرب لاسـتـغنوا عن اليلب

ومنها :

فـافـخر فـفـتحك ذا فـخر لمفـتخـر　　ذُخـر لمدخـر ، كـسب لمكتـسب
بك العـواصم طابت بعدمـا خـبـثت　　بمالكيـهـا ، ولولا أنت لم تطلب
وافى الفـرات فـالق فـيـه ذا لجبِ　　يظل يهـزأ من تيـاره اللجب
إلى بلاد أجـابت قـبل أن دُعـيت　　للخـاطبين ولولا الخـوف لم تُجب

---

(١) ورد البيت فى مرآة الزمان ٣٧٦/٨ ، مضمار الحقائق ١٤٣ ، الكامل ٤٩٧/١١ ، تاريخ أبى الفداء ٦٦/٣ ، تاريخ ابن الوردى ١٣٣/٢ .

(٢) سورة الروم : الآيتان : ١ ، ٢ .

(٣) هو هبة الله بن جعفر بن محمد بن هبة الله بن محمد ، القاضى السعيد المشهور بابن سناء الملك ، توفى سنة ٦٠٨ هـ (الخريدة ـ قسم شعراء مصر ٦٤/١ ، وفيات الأعيان ١١٢/٥ ، شذرات ٣٥/٥ ، انظر الأبيات فى ديوانه ص ١ .

ومنها :

ثم استجابت فلا حصن بممتنع منها عليه ، ولا مُلك بمحتجب
أتى إليها يقود البحر ملتطماً فالبيض أمواجه والبيض كالحبب

قال الدوادار : وقيل : إنها لابن الزكى ، وذكر منها : ففتحكم حلباً ، البيت . قال جامعه : ففهم من نظمها أن البيت لابن سناء المُلك ، وقيل : لابن الزكى ، ولم يحك أحد خلافاً إنها لابن الزكى . انتهى .

ورحل السلطان عن حلب يوم السبت ثانى عشرين ربيع الآخر ، ورتب بحلب ولده الظاهر غازى ، وأنقذ إلى سرخك مُتولى حارم [1] فى تسليمها ، فلم ينتظم أمر ، وكاتب سرخك الفرنج ، فوثب عليه أهل القلعة وسلموها إلى السلطان ، وقد كان سار إليها ، ثم عاد إلى حلب واقطع إعزاز سليمان بن جندر[2] ثم عاد إلى دمشق ، فوصلها(٢٨أ) ثالث جُمادى الأولى ، فجهز منها للغزو ، فعبر نهر الأردن تاسع جمادى الآخرة ، فأغار على بيسان وأحرقها ، وأسر مائة أسير ، ثم رحل إلى الطور[3] وقد كان طلب منهم المصاف[4] ، فلم يخرج إليه أحد ، فلما جاء الليل ، ساروا إلى عكا ، وسار السلطان خلفهم يقابل المسافة، ثم عاد إلى دمشق . وكلام الدوادار أن ذلك كان فى مجيئه من حلب . ثم تجهز إلى الكرك ثالث رجب ، وقد كان العادل أرسل يطلب حلب عوض مصر ، فأجابه وأمره أن يوافيه بأهله ، فالتقيا على الكرك فى رابع شعبان ، فضيق عليها ، ثم رحل عنها ، فى نصف شعبان ، وسار إلى نابلس[5] فأحرقها ، ونهب كل ما فى طريقه ، ثم سلك الغور ،

---

(١) حارم : حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية : معجم البلدان ٥٠٢/٢ .

(٢) سليمان بن جندر : كان من أكابر أمراء حلب ، ومشايخ الدولتين النورية والصلاحية ، شهد مع السلطان صلاح الدين حروبه كلها ، توفى سنة ٥٨٧ هـ . النجوم ١١٣/٦ ، السلوك ١٠٧/١ .

(٣) الطور : جبل مطل على طبرية الأردن على رأس بيعة واسعة محكمة البناء موثقة الأرجاء : معجم البلدان ٤٧/٤ .

(٤) المصاف : جمع مصف ، وهو الموقف فى الحرب والاصطفاف للقتال . اللسان ١٩٤/٩ .

(٥) نابلس : مدينة مشهورة بأرض فلسطين : معجم البلدان ٢٤٨/٥ .

وعاد إلى دمشق ، فدخلها رابع عشرين شعبان ، وأرسل ابن أخيه تقى الدين إلى مصر ، وسير أخاه العادل إلى حلب فى رمضان ، وأحضر ولده الظاهر فأقام فى خدمة أبيه راضياً فى الظاهر ساخطاً فى الباطن ، وقيل : إن العادل أعطى الظاهر ثلاثمائة ألف دينار عوض حلب.

وحكى الدوادار أن فى هذه السنة قصد السلطان الموصل ، لما بلغه من الخلف الواقع بين صاحبها وبين نائبه ، وأنه رحل عن الموصل إلى سنجار وتسلمها ، وكتب إلى الخليفة يلتمس تقليداً بآمد ، فوصله التقليد ، فسار إليها ونازلها سابع عشرين ذى الحجة، وافتتحها فى المحرم سنة ثمانين ، وسلمها إلى صاحب الحصن بذخائرها . وخبط فى هذا المحل ، فإنه ذكر محاصرة الموصل ، وأخذ آمد سنة سبع ، وأخذ سنجار سنة ثمان .

سنة ثمانين وخمسمائة

فيها كتب زين الدين بن نجا الواعظ من مصر إلى الشام كتاباً منه[1] « أدام الله تعالى أيام مولانا السلطان الملك الناصر ، وقرنها بالتأييد ، والنصر والتسديد ، أترى ما يشتاق مولانا إلى مصر ونيلها ، وخيرها وسلسبيلها ، ودار ملكه ، ودارة فُلكه ، وبحرها وخليجها ، ونشرها وأريجها ، ومقسمها ، وأنيس أبياتها ، وقصور معزها ، ومنازل عزها ، وجيزتها وجزيرتها ، وبركتها وبركها ، وتعلق القلوب بقليوبها ، واستلاب النفوس لأسلوبها ، وملتقى البحرين ، ومرتقى الهرمين ، وروضة جناتها ، وجنة رضوانها ، ومشاهدها ومجامعها (٢٨ب) ، ومساجدها وجوامعها ، ونواظر بساتينها ، ومناظر ميادينها ، وساحات سواحلها ، وآيات فضائلها » .

وذكرها ما يطول . قال جامعه الفقير : صدق - يرحمه الله - فيما وصف به مصر ، ويكفيها فضلاً قوله تعالى ﴿ **فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم** ﴾[2] وفى الحديث « مصر كنانة الله فى أرضه ، ما ظلمها عدو إلا أهلكه الله » وهو حديث مأثور ،

---

(١) ورد فى مرآة الزمان ٨/ ٣٨٠ ، الروضتين ٥٨/٢ .

(٢) سورة الشعراء : الآيتان ٥٧ ، ٥٨ .

مصداقه أن التتر الذين ملكوا الدنيا صرفهم الله عنها . وكذلك ... وغيرهم . ورأيت فى كتاب عن كلب الأحبار أن الله تعالى قائل للمال : أين تختار؟ قال : مصر ، قال : أبشر وأنا معك ، وقال الجاحظ : اتفقت أشياء ، فقال الغناء واليسار : أسكن مصر . قال ابن زولاق[1] ومصر من أقدم البلدان ، فإنها أسست قبل الطوفان واختارها نوح لولده ، ودعا لهم . ومن محاسنها نيل مصر وحلاوته ومنافعه ، وإنه من الجنة ، وما يقل من الأموال ، وإن من شرب منه زادت قوته ، وقد ذكرها الله فى ثمانية عشر موضعاً ، وذكرها فى غير موضع من كتابه ، فقال : ﴿ **وقال نسوة فى المدينة** ﴾[2] ، وقـــال : ﴿ **فلن أبرح الأرض** ﴾[3] وثبت أن النبى - ﷺ - قال : « استوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمة ورحماً» . قال جامعه : الذى فى الحديث الصحيح « استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً » واختلف العلماء ، فقيل : كما أراد بالرحم هاجر أم إسماعيل عليه السلام لأنها منهم . وقيل : مارية القبطية أم إبراهيم ابن النبى ﷺ وعليهما . ومارية أهداها المقوقس ملك الإسكندرية للنبى ﷺ ، هى واختيها سيرين وقيسر ، وخصياً يقال له : مابور ، وقيل : إنه ابن عم مارية، وجارية أخرى ، وبغلة شهباء ، وهى الدلدل ، وحماراً أشهب ، وهو عُفير ، وفرساً ، وهو اللزاز ، والف مثقال ذهباً ، وعشرين ثوباً من قباطى مصر ، وقدحاً من زجاج، وعسلاً من عسل بنها[4] فأعجب النبى - ﷺ - العسل ، ودعا فيه البركة .

قال ابن زولاق : ومن محاسنها أن حرها وبردها لا يمنعان التصرف ، وأنها تمير الحجاز

---

(١) ابن زولاق : أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين بن الحسن بن على بن خالد بن راشد بن عبد الله ابن سليمان بن زولاق ، الليثى المصرى ، كان فاضلاً فى التاريخ وله فيه مصنف جيد ، له كتب فى خطط مصر ، وكتاب أخبار قضاة مصر ، توفى سنة ٣٨٧ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ٣٧٠/١ ، البداية والنهاية ٣٢١/١١ ، لسان الميزان ١٩١/٢ .

(٢) سورة يوسف : الآية ٣٠ ، وقد أخطأ المؤلف فقال : بالمدينة .

(٣) سورة يوسف : الآية ٨٠ .

(٤) بنها : من قرى مصر ، وأكثر عسل مصر الموصوف بالجودة مجلوب منها : معجم البلدان ٥٠١/٢ .

واليمن والهند والشام والجزيرة وغيرها من البلاد لا تمير أهلها فضلاً عن غيرها ، وما يعمل بها من الثياب الدبيقى والشرب والقصب ، وليس فى الدنيا بلد يبلغ قيمة الحلة فيها ألف دينار وغيرها ، وأن بعض الملوك أرسل يطلب منها من كل نوع من الثمار (٢٩أ) ثمرة فأرسل إليه وجبة من الثمر ومنها علماؤها كالشافعى [١] والبويطى [٢] والطحاوى [٣] وفى القضاء بكار بن قتيبة [٤] وفى الزهاد ذو النون [٥] قال جامعه : وما أحسن قول ابن الفارض [٦] :

---

(١) الشافعى : محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، وإليه تنسب الشافعية ، توفى بمصر سنة ٢٠٤ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ٣٠٥/٣ ، المحمدون من الشعراء للقفطى ١٣٧ ، تذكرة الحفاظ ٣٢٩/١ ، تهذيب التهذيب ٢٥/٩ ، تاريخ بغداد ٥٦/٢ ، حلية الأولياء ٦٣/٩ ، صفوة الصفوة ١٤٠/٢ .

(٢) البوطى : يوسف بن يحيى البوطى ، صاحب الإمام الشافعى ، وقام مقامه فى الدرس والإفتاء بعد وفاته، هو من أهل مصر ، نسبته إلى بويط (من أعمال الصعيد الأدنى) حمل إلى بغداد فى أيام الواثق وأريد منه القول بأن القرآن مخلوق فامتنع فسجن وتوفى فى سجنه ببغداد سنة ٢٣١ هـ : تاريخ بغداد ٢٩٩/١٤ ، طبقات السبكى ٢٧٥/١ .

(٣) الطحاوى : أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدى الطحاوى المصرى ، ولد ونشأ بطحا من صعيد مصر ، مجتهد محدث حافظ مؤرخ ، توفى بالقاهرة سنة ٣٢١ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ٥٣/١ ، البداية والنهاية ١٧٤/١١ ، النجوم الزاهرة ٢٤/٣ .

(٤) بكار بن قتيبة بن أسد . قاضى فقيه محدث ، ولى القضاء للمتوكل العباسى سنة ٢٤٩ هـ ، لما صار الأمر إلى أحمد بن طولون بمصر أمره بخلع الموفق من ولاية العهد فامتنع فاعتقله ، وتوفى فى سجنه بمصر سنة ٢٧٠ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ١١٣/١ ، تهذيب ابن عساكر ٢٨٢/٣ .

(٥) هو ثوبان بن إبراهيم . أحد الزهاد المشهورين من أهل مصر ، كانت له فصاحة وحكمة وشعر ، توفى سنة ٢٤٥ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ٢٨٠/١ ، تاريخ بغداد ٣٩٣/٨ ، ميزان الاعتدال ٣٣١/١ .

(٦) هو عمر بن على بن المرشد بن على المصرى ، المعروف بابن الفارض ، شاعر صوفى يلقب بسلطان العاشقين ، توفى سنة ٦٣٢ هـ انظر : وفيات الأعيان ١٢٦/٣ ، شذرات ١٤٩/٥ .

وطنى مصر وفيها وطرى ولعينى مُشتهاها مُشتهاها

الأبيات الأربعة وقول ابن الصائغ(٢) :

إن مصراً لأطيب الأرض عندى ليس فى ذلك الكلام التباسُ
وإذا قستها بأرض سواها كان بينى وبينك المقياسُ

وقوله الآخر :

من شاهد الدنيا وأقطارها والناس أنوعاً وأجناسا
وما رأى مصر ولا أهلها فما رأى الدنيا ولا الناسا(١)

انتهى . فكتب السلطان إلى ابن نجا المذكور(٣) : ورد كتاب الفقيه زين الدين ، أدام الله توفيقه ، لا ريب أن الشام أفضل ، وأن أجر ساكنه أجزل ، وأن القلوب إليه أميل ، وأن زلاله البارد أغلى(٤) وأنهل ، وأن الهواء فى صيفه وشتائه أعدل ، وأن الجمال فيه أكمل ، والكمال به أجمل ، وأن القلب به أروح ، الروح به أقبل ، ودمشق فعاشقها مستهام ، وما على مُحبها ملام ، وما فى ربوتها ريبة ، ولكل نور فيها شبيبة ، وساجعاتها على منابر الورق خطباً تُطرب ، وهزاراتها وبلابلها تعرب وتعجم ، وكم فيها من جوارٍ ساقيات ، وسواق جاريات، وثمار بلا أثمان ، وروح وريحان ، وفاكهة ورمان ، وخيرات حسان ، وكون الله أقسم به فقال : ﴿ **والتين والزيتون** ﴾(٥) يدل على فضله المكنون . وقال ﷺ : « الشام صفوة الله من بلاده ، يسوق إليها خيرته من عباده » وأن الصحابة اختاروا المقام بالشام وفتح

---

(١) الأبيات الأربعة فى ديوانه ص ١٨٢ .

(٢) محمد بن حسن بن سباع بن أبى بكر المعروف بابن الصائغ ، مصرى الأصل ، دمشقى المولد والوفاة ، توفى سنة ٧٢٠ هـ . النجوم الزاهرة ٢٤٨/٩ ، فوات الوفيات ٢٣٨/٢ ، الدرر الكامنة ٤١٩/٣ .

(٣) البيتان لصلاح الدين الصفدى . انظر : تاريخ مصر لابن إياس ٨/١ .

(٤) ورد الكتاب فى مرآة الزمان ٢٨١/٨ ، الروضتين ٥٩/٢ .

(٥) سورة التين : الآية ١ .

دمشق بكر الإسلام ، وما يُنكر أن الله ذكر مصر ، ولكن على لسان فرعون بقوله : **﴿ أليس لي ملك مصر ﴾**[1] ألا ترى أن يوسف نقل منها إلى الشام ، والمقام بالشام أقرب للرباط وأوجب للنشاط . وأين قطوم المقطم من سناء سنين ، وأين دار ابن منيف من ذروة الشرف المبين ، وأين لبانة لبنان من الهرمين ، وهل هما إلا مثل السلعتين ، وهل للنيل من طول نيله وطول ذيله ، برد بردى في نقع الغليل ، وما لذاك الكثير (من طلاوة هذا القليل ، لو كان لهم مثل بانياس لما احتاجوا إلى قياس المقياس ، ونحن لا نجفو الوطن كما جفاه ، ولا نأبى فضله كما أباه ، وحب الوطن من الإيمان (٢٩ب) ونحن لا ننكر أن إقليم مصر إقليم عظيم الشأن ، ولكن نقول كما قال المجلس الفاضلي : إن دمشق تصلح أن تكون بستاناً لمصر ، ولا شك أن أحسن ما في البلاد البستان ، لعل زين الدين رجع إلى الحق ، ووافقني على ما هو الأحق . نقلت هذا الفصل من نسخة سقيمة .

وفيها سار السلطان إلى الكرك في ربيع الآخر ، وانفذ العساكر ، وحصر الكرك ، وضيق عليه ، وملك رُبضها ، وبقي الحصن ، وله خندق عظيم ، عمقه ستون ذراعاً ، وطلب طمه فلم يقدر لكثرة المقاتلة ، فلما عجز الفرنج أرسلوا يستمدون الملك ، فجمع فارسهم وراجلهم، فلما بلغ السلطان رحل عن الكرك إلى طريقهم ، فقرب منهم ، لم يُمكنه الدنو لعورة الأرض ، وانتظر خروجهم فلم يخرجوا ، فرحل إلى بانياس [2] فأحرقها ، وقتل وأسر ونهب ، ثم سار إلى سبسطية[3] ، وبها مشهد زكريا ، بها الأقساء والرهبان ، وعندهم الودائع ، فطلبوا الأمان ، وأن يطلقوا ما عندهم من الأسرى ، فأمنهم وسلك الغور ، وعاد إلى دمشق .

---

(١) سورة الزخرف : الآية ٤٣ .

(٢) بانياس : بلدة قرب دمشق : مراصد الإطلاع ١٥٨/١ .

(٣) سبسطية : بلدة من نواحي فلسطين بها قبر زكريا ويحيى بن زكريا : معجم البلدان ١٨٤/٣ .

سنة إحدى وثمانين

ذكر حصار الموصل ، وهو الحصار الثانى ، وأخذ ميافارقين : قطع السلطان الفرات ، ووصل حران سادس عشرين صفر ، وسار فوصل الموصل وضايقها ، وخرج إليه أهلها أجمعون فقاتلوه وظهروا عليه ، وكانوا يخرجون إليه عُراة ، وجاءه الملوك ، فبينما هو فى الحصار ، جاء الخبر بوفاة شاه أرمن صاحب خلاط ، وكتب مقدموها يطلبونه ، فشاور الأمر، فأشاروا عليه بقصدها ، فسار ونزل ميافارقين[1] وكان بها يرنقش[2] فامتنع ، وقال: وصى الأيتام ، والأمر إلى والدتهم ، فأرسل السلطان يطمعها أن يتزوجها ويزوج ابنه بنتها ، فسلمت إليه فى سلخ جمادى الأولى ، فأعطاها الهتاخ وأعطى يرنقش جبل جور[3] وأعطى زوجه شاه أرمن قلعة هفتاج ، وكان الحكم على خلاط للوزير مجد الدين بن الموفق، وهو الذى كاتب السلطان فبعث السلطان إليه الفقيه عيسى ليكشف له الحال ، فغالطه الوزير ، وقال إن زوجة صاحبها بنت البهلوان[4] ، وربما جاء البهلوان ، وإن المصلحة إبقاء المودة ، فرجع السلطان إلى قصد الموصل ، فجاءته رسل صاحبها يسأل الصلح ، وكان السلطان بالإسماعيلات ، وقيل : كفر زمان ، وكان (قد) عزم على أن يشتى بذلك المكان ، وأقطع جميع بلاد الموصل ، وأخذ غلالها أيضاً (٣٠أ) وخرجت النساء الأتابكيات يشفعن، ومعهن والدة عز الدين صاحب الموصل ، وابنة عمه نور الدين الشهيد ، فاكرمهن ووعدهن ، وقيل : إن بعثهن كان فى الحصار الثانى ، واستقبح الناس ردهن ، ولا سيما وفيهن بنت نور الدين، ثم ترددت الرسل فى الصلح على أن يسلم صاحب الموصل

---

(١) ميافارقين : أشهر مدينة بديار بكر : معجم البلدان ٢٣٥/٥ .

(٢) يرنقش : مجاهد الدين يرنقش بن طلمان غازى ، كان مملوكا لعماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى صاحب سنجار والخابور والرقة ، توفى سنة ٥٩٤ هـ . أبو الفداء ٩٣/٣ .

(٣) جبل جور : كورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحى أرمينية . معجم البلدان ١٠٢/٢ .

(٤) البهلوان : هو محمد بن أيلدكز الأتابك صاحب أذربيجان ، وكان يلقب بالبهلوان ، توفى سنة ٥٨١هـ . النجوم الزاهرة ١٠٠/٦ .

شهرزور[1] وأعمالها ، وولاية القرابلى ، وما وراء الزاب ، وأن يُخطب للسلطان على المنابر ، وقيل : إن الرسول لحقه بذلك على حران ، وهذا الكلام يدل على أن السلطان لم يحاصر الموصل ثالثاً . وذكر ابن شداد : أنه حاصرها ، وأقام عليها شعبان ورمضان، وكان السلطان قد لازم قراءة القرآن فى رمضان ، واشتد الحر ، وندم على رد النساء ، فمرض مرضاً شديداً، فتناثر شعر رأسه ولحيته، وقيل : إنه سقى وأرجف بموته ، وأقام على نصيبين ميئوساً منه ، ثم تماثل ، فحمل فى محفة[2] إلى حران ، ونزل ظاهرها ، فعوفى وبنى داراً سماها « دار العافية » وقيل : بل شدة مرضه كان بحران ، وكان عنده ولده العزيز ، وأخوه العادل ، فحلف الناس لأولاده ، وقسم البلاد بينهم ، وجعل أخاه وصياً، وقيل : قسمها فى السنة الآتية وذلك برأى الفاضل.

سنة اثنتين وثمانين

فيها قطع السطان الفرات ، ووصل إلى حلب ، وخرج يريد دمشق ، فوصلها فى المحرم، وأطلق المكوس والضمانات ، وفيها سير يستدعى ابن أخيه تقى الدين من مصر ، وذلك أنه كان نائباً بها ، ومعه الأفضل ولد السلطان ، فأرسل تقى الدين يشتكى من الأفضل أنه ما يمكننى من استخراج المال ، فإننى إذا أحضرت من عليه الخراج وأردت عقوبته يطلقه ، فأخرج السلطان ولده الأفضل من مصر وأقطعه دمشق ، وتغير فى الباطن على تقى الدين ، وظن أنه إنما أخرج ولده ليستولى على مصر ، إذا مات السلطان .

وأشار بعض الأمراء على السلطان بإخراجه من مصر ، فوقعت هذه الاشارة من نفسه موقعاً . وفيها استدعى أخاه العادل من حلب ، فخرج جريدة ليلة السبت رابع عشرين ربيع الأول ، وفاوضه فى أمور وأوصى ولده الظاهر أن يلتمس من عمه حلب ، فسأله ، فأجابه إلى ذلك ، والسبب فى ذلك أن الأمير علم الدين سليمان بن جندر قال للسلطان ، وكان

---

(١) شهرزور : كورة واسعة بين أربيل وهمذان . معجم البلدان ٣/٣٧٥ .

(٢) المحفة : سرير يحمل عليه المريض أو المسافر .

بينهما مؤانسة قبل الملك ، وقد سايره يوماً ، وكان من أمراء حلب ، والعادل لا ينصفه ، وكان السلطان قد مرض على حصار الموصل (٣٠ب) وأوصى أخاه ، فقال: بأى رأى كنت تظن أن وصيتك تمضى ! كأنك كنت خارجاً إلى صيد ، وتعود فلا يخالفوك ! أما تستحى أن يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة ! قال (صلاح الدين) وكيف ذاك ؟ وهو يضحك ، قال : إذا أراد الطائر أن يعمل عشاً لفراخه قصد إلى أعالى الشجر ليحمى فراخه ، وأنت سلمت الحصون إلى أهلك ، وجعلت أولادك على الأرض ، هذه حلب - وهى أم البلاد - بيد أخيك وحماة بيد ابن أخيك ، وحمص بيد (ابن عمك) أسد الدين، وابنك الأفضل مع تقى الدين بمصر يخرجه متى شاء ، وابنك الآخر مع أخيك فى خيمة يفعل به ما أراد ، فقال له (صلاح الدين) : صدقت ، واكتم الخبر ثم استدعى أخاه ، وأخذ منه حلب لولده الظاهر ، فسار الظاهر ودخل قلعتها يوم السبت، وقيل : إنه دخل فى مثل يوم وفاته ، وأرسل يستدعى تقى الدين كما قدمنا ، فقيل : إنه توقف عن الحضور ، وأراد أن يلحق بمملوكه قراقوش المستولى على برقة[1] فبلغ السلطان ذلك ، فأرسل يستعطفه ، فحضر إليه فزاده على حماة منبج وميارفارقين وجبل جور ، وقلد ولده العزيز مصر ، وجعل العادل أتابكه، وعوضه عن حلب حران والرها . قال العادل : فلما استقر الأمر جلست بين العزيز والظاهر ، وقلت للعزيز : اعلم يا مولانا أن السلطان أمرنى أن أسير فى خدمتك إلى مصر ، وأنا أعلم أن المفسدين كثير ، ولا يخلو أن يقال لك عنى ما لا يجوز ، ويخوفوك منى ، فإن كان لك عزم أن تسمع منهم فقل لى حتى لا أجيء ، فقال : كيف يتهيأ لى أن أسمع منهم وأرجع إلى رأيهم ، والتفت إلى الظاهر وقلت : أنا أعرف أن أخاك ربما سمع فى أقوال المفسدين وأنا فما لى إلا أنت ، فذكر لى كل خير .

وفيها غدر البرنس صاحب الكرك ، وقطع الطريق على قافلة جاءت من مصر ، فيها

---

(١) برقة : اسم صُقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية . معجم البلدان ٣٨٨/١ .

خلق وأموال ، فأرسل السلطان يطلب منه ذلك بحكم الهدنة فلم يفعل ، فنذر السلطان إن ظفر به أن يقتله بيده .

وفيها قال الدوادار : حضر القمص صاحب طرابلس إلى السلطان واتفق معه أن يفتح له جميع الساحل ، فأطلق له جميع الأسرى ، وجرد معه عسكراً ، وفتح الطريق من مصر إلى الشام ، ثم إنه نافق وأخذ قافلة ودخل بلاد الفرنج ، فحلف السلطان إن ظفر به أن يقتله بيده، وكان ذلك سبب فتوح الساحل ، وهذا ما اشتبه على الدوادار على عادته ، والغادر إنما هو البرنس (٣١ أ) .

سنة ثلاث وثمانين

ذكر وقعة حطين المباركة على المسلمين : خرج السلطان من دمشق غُرة المحرم ، فترك بُصرى يرتقب وصول الحاج ، وكانت معهم أخته ست الشام ، وابنها محمد بن لاجين ، وكان بلغه أن البرنس يرتقب وصولهم فوصل الحاج أواخر المحرم ، فسار إلى الكرك ، فقطع الأشجار ، ورعى الزرع ، وكذلك فعل بالشوبك ، وقام ينتظر عسكر مصر ، وكان عند مسيره إلى الكرك قد أمر ولده الأفضل أن ينزل على رأس الماء ، ينتظر باقي العسكر الشرقي ، فأرسل الأفضل طائفة أغار بهم على طبرية ، وقيل : عكا ، فأسروا وغنموا شيئاً كثيراً ، واجتمع السلطان بولده الأقحوانة[1] وكان بلغه أن العدو اجتمع في عدة كبيرة بمرج صفورية[2] عندما بلغه اجتماع العساكر الإسلامية ، فسار السلطان ونزل على بحيرة طبرية، ينتظر قصد الفرنج له ، فلم يتحركوا ، وعرض السلطان العسكر فكان اثنى عشرة ألف فارس ، وأما الرجالة فيقال : إنهم كانوا ثمانين ألفاً ، فلما رآهم لا يتحركون نزل جريدة على طبرية، وترك الأطلاب مقابل العدو ، وحصر مدينتها ، وأخذها لوقته بالسيف ، وكانت لصاحب

---

(١) الأقحوانة : موضع بالأردن على ساحل بحيرة طبرية . معجم البلدان ١/ ٢٣٤ .

(٢) مرج صفورية : كورة وبلدة من نواحي الأردن قرب طبرية . معجم البلدان ٣/ ٤١٤ .

طرابلس ، وكان ينتمى إلى السلطان ، فأرسل البطرك والفرنج توبخوند فعاد إلى عداوته ، وبقيت القلعة محتمية ، ولما بلغ العدو ما جرى على طبرية ، قلقوا ورحلوا نحوها ، فبلغ ذلك السلطان فترك على القلعة من يُحاصرها ولحق بالعسكر ، والتقى بالعدو على سطح جبل طبرية الغربى ، يوم الخميس ثانى عشرين ربيع الآخر ، وحال الليل بين العسكرين ، فباتا على مصاف إلى يوم الجمعة ، وكان السلطان يقصد لقاء العدو يوم الجمعة ، تبركاً بأدعية المسلمين، فتصادموا ، والتحم القتال ، وذلك بأرض قرية تُعرف بلوبيا[1] فلما يبق إلا الظفر ووقوع الخذلان على من كفر ، (و) حال الليل بينهما أيضاً ، وكان يوماً حاراً ، واضطرم الغور عليهم ، واشعل المسلمون النيران ، فأيقنوا بالويل والثبور ، وأحست أنفسهم أنهم فى غد يومهم من زوار القبور ، فلما كان يوم السبت قاتلوا إلى الظهر ، ثم صعدوا إلى تل حطين[2] ، والنار تضطرم عليهم ، فهلكوا وتساقطوا ، وكان القومص[3] معهم ، فحمل وفتح له السلطان درباً فصعد إلى صفد واحتاط السملمون بالفرنج من كل جانب ، وفوق إليهم السهام الصوائب ، وبسطوا فيهم أيدى السيوف القواضب، فاستسلموا ، وأسر من الملوك جفرى وأخوه كابى ، وصاحب الكرك (٣١ب) وابن الهنفرى وأخوه ، وصاحب جبيل وبيروت وصيداً ، وابن صاحب طبرية ، ومقدم الداوية[4] ومقدم الأسبتار[5] قال

---

(١) لوبيا : أرض بالقرب من طبرية . مفرج الكروب ٨٩/٢ .

(٢) حطين : قرية بين أرسوف وقيسارية . معجم البلدان ٢٧٣/٢ .

(٣) القومص : تعريب حرفى للفظة اللاتينية(Comes) أى : الأمير ومعناها الأصلى فى اللاتينية « الرفيق » لأنه كان فى بادئ الأمر يرافق الملك فى حروبه وتنقلاته ، ثم سمى بالأمير . مفرج الكروب ٧٣/١ ، هامش ١ .

(٤) الداوية : قوم من الفرنج يحبسون أنفسهم لجهاد المسلمين ، ويمنعون أنفسهم عن النكاح وغيره ، ينسبون إلى حصن بنواحى الشام . معجم البلدان ٢٦٤/٢ .

(٥) الأسبتار : جماعة من فرسان الصليبيين حبسوا أنفسهم على حروب المسلمين . الروضتين ٤٢١/١ ، هامش ٢ .

بعضهم : رأيت مع شخص واحدٍ بحوران[1] نيفاً وثلاثين أسيراً ، فقد ربطهم فى طُنب خيمة ، لما وقع لهم الخذلان ، ووصل القومص الذى هرب إلى طرابلس فمات غماً ، وقيل: بذات الجنب ، وقيل : من الجراح ، وقيل : بل سمته امرأته . وجيء بالملوك الأسرى إلى السلطان ، ومعهم صليب الصلبوت[2] وهو مرصع بالجوهر والياقوت ، فى غلاف من ذهب ، وهو عند النصارى مثل المسيح ، فلما رآهم نزل وسجد شكراً ، وجاء إلى خيمته واستدعاهم ، وجلس وأجلس الملك عن يمينه ، وصاحب الكرك إلى جانبه ، ونظر فرأى الملك يلهث عطشاً ، فأمر له بقدح من ماء ثلج فشربه ، وسقى صاحب الكرك ، فقال السلطان : ما أذنت لك ، ثم أرسلهم إلى بعض الخيم فأكلوا شيئاً ثم عادوا بهم ، وأوقف صاحب الكرك بين يديه ، وشرع يُعدد عليه ذنوبه ، ثم عرض عليه الإسلام ، فلم يفعل ، فضربه بالسيف حل كتفه . وكان (قد) نذر إن وقع له أن يقتله بيده ، وكان (قد) وقع فى حق الجناب الرفيع المحمدى ، وقال له : ها أنا انتصر لمحمد ، وتمم المماليك قتله ، وقطعوا رأسه ، وأطعموا جثته الكلاب ، فلما رآه الملك جُفرى خاف وطار عقله ، فقال له السلطان : لم تجر عادة الملوك أن تقتل الملوك ، ولكن هذا غدار كذاب . وعرض الإسلام عليهم فمن أسلم استبقاه ، ومن لم يسلم قتله ، فقتل خلقاً كثيراً ، منهم المقدمان ، وأرسل باقى الملوك مع القاضى ابن أبى عصرون [3] إلى دمشق ، فدخل والصليب منكس بين يديه، والأسرى فحبسهم بالقلعة ، وبيع الأسرى بأبخس الأثمان ، حتى إن بعض الفقراء

---

(١) حوران : كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة . معجم البلدان ٣١٧/٢ .

(٢) صليب الصلبوت : قطعة من الخشب يعتقد المسيحيون أن المسيح عليه السلام صلب عليها . مفرج الكروب ١٨٩/٢ .

(٣) هو عبد الله بن محمد بن هبة الله بن المطهر بن على ، القاضى شرف الدين ابن أبى عصرون ، كان إماماً مُصنفا ، اقتضى به السلطان صلاح الدين وضر قبل وفاته بعشر سنين ، وتوفى سنة ٥٨٥ هـ . النجوم الزاهرة ١٠٩/٦ .

اشترى أسيراً بنعل ، فعتب السلطان ، فقال : أردت هوانهم . وعاد السلطان إلى قلعة طبرية ، فتسلمها يوم الأحد خامس عشرين ربيع الآخر وأمن صاحبتها زوجة القومص ، وكانت هذه الوقعة سبباً لفتح الساحل وهلاك دين النصرانية .

ذكر فتح عكا والمجدل ويافا

سار السلطان بعد فتح طبرية ، فنازل عكا ، يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر ، وليس بها من يحميها ، وكان بها ثلاثون ألفاً ، فطلبوا الأمان على نفوسهم ، وما يقدرون على حمله ، فأمنهم ، ودخلها يوم الجمعة ، عاشر جمادى الأولى ، وكان بها من أسرى المسلمين أربعة آلاف فاستنقذهم ، وجعل الكنيسة جامعاً ، وأعطى الخطابة غبد اللطيف بن أبى النجيب السهروردى[1] وأعطى(٣٢ أ) البلد ولده الأفضل ، وغنم أموالاً لا تُحصى ، لأنها كانت مظنة التجار . وقال : من ركز رمحه على دار فهى له بما فيها . وأعطى الفقيه عيسى ما بُحصن الداوية[2] ولم يحضر العادل هذا الفتح لأنه كان بمصر . فجاء وفتح فى طريقه مجدل[3] ويافا ، ثم مضىء العادل إلى مصر ، ولما عاد العزيز اجتمع بوالده .

وكتب العماد إلى بغداد كتاباً[4] أوله : ﴿ **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون** ﴾[5] والحمد لله على إنجاز الوعد ، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف ، من قبل ومن بعد ، وجعل بعد عُسر يسرا وأحدث بعد أمر أمراً ، وهون الأمر

---

(١) عبد اللطيف هو ابن الشيخ العلامة أبو النجيب بن عبد الله السهروردى المتوفى سنة ٥٦٣ هـ . النجوم الزاهرة ٣٨٠/٥ .

(٢) حصن الداوية : حصن حصين بنواحى الشام بين الرقة ونواحى حلب . معجم البلدان ٢٦٤/٢ .

(٣) مجدل : بلد طيب بالخابور إلى جانبه تل عليه قصر . معجم البلدان ٥٦/٥.

(٤) ورد هذا الكتاب فى الروضتين ٨٩/٢ ، كنز الدرر ٩٥ ، صبح الأعشى ٥١٧/٦ .

(٥) سورة الأنبياء : الآية ١٠٥ .

الذى ما كان الإسلام يستطيع عليه صبراً ، وخوطب الدين بقوله : ﴿ **ولقد مننا عليك مرة أخرى** ﴾ فالأولى فى عصر النبى والصحابة ، والأخرى فى هذه الدولة ، التى عُتق فيها من رق الكآبة، والزمان كهيئته قد استدار ، والحق ببهجته قد استنار ، والكفر قد رد ما عنده من السفار .

والخادم يشرح هذا الفتح العظيم ، والنصر الكريم ، ما يشرح صدر المؤمنين ، ويسود وجوه الكافرين ، ويورد من البشرى ما أنعم الله به فى يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر (إلى يوم الخميس منسلخه) وتلك ﴿ **سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً** ﴾[1] عدموا فيها نفوساً وجسوماً ، فأصبحوا وقد هووا فى الهاوية ﴿ **كأنهم أعجاز نخل خاوية** ﴾[2] وأصبحت البلاد إلى الإسلام ضاحكة ، وكانت بالكفر باكية ، ففى يوم الخميس فُتحت طبرية ويوم الجمعة والسبت كانت الكسرة التى ما أبقت منهم باقية ، لا يقوم لهم بعدها قائمة ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القُرى وهى ظالمة** ﴾[3] وفى يوم الخميس سلخ الشهر، فتحت عكا بالأمان ، ورفعت بها أعلام الإيمان ، وهى أم البلاد ، وأخذت إرم ذات العماد . وصليب الصلبوت عندنا مأسور ، وقلب (ملك) الكفر لجيشه المنكسر مكسور ، وأنصار الصليب وأعوانه قد أحاطت بهم يد القبضة ، وغلق رهنه فلا تُقبل فيه القناطر المقنطرة من الذهب والفضة . وطبرية قد رُفعت أعلام الاسلام عليها . ونكصت من عكا (ملة) الكفر على عقبيها ، وعمرت حتى شهدت يوم الاسلام ، وهو خير يوميها وصارت البيع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر ، وصارت المفاتح مواقف لخطباء المنابر .

ومنه : وما يتأخر النهوض إلى البيت المقدس ، وهذا أوان فتحه وقد دام عليه ظلام الضلال ، وقد آن أن يُسفر عن صبحه رمز السلام (٣٢ب) .

---

(١) سورة الحاقة : الآية ٧ .

(٢) سورة الحاقة : الآية ٧ .

(٣) سورة هود : الآية ١٠٢ .

ذكر ما فتح من البلاد بعد عكا

وتفرقت العساكر فى البلاد ، يأخذون الحصون والقلاع ، فأخذوا حيفا[١] وقيسارية[٢] وصفورية ، والناصرة[٣] ومعليا[٤] والفولة[٥] وغيرها وسارت فرقة إلى نابلس ، ففتحوا قلعتها بالأمان ، ثم سار السلطان إلى جنين فنزل عليها يوم الأحد ، حادى عشر جمادى الأولى ، وهى قلعة منيعة ، فنصب عليها المجانيق ، وكان بها الأبطال ، فقاتلوا قتالاً شديداً ، وتسلمها يوم الأحد ، ثامن عشرة عنوة ، وقيل : إنه أخذها بالأمان ، ثم رحل فنزل على صيدا ، وتسلمها فى غد يوم نزوله ، وهو يوم الأربعاء ، عشرين الشهر وقيل : إن صاحبها أخلاها ، ثم سار إلى بيروت ، فنازلها ليلة الخميس ، ثانى عشريه ، وركب عليها المجانيق ، وداوم القتال عليهما ، حتى أخذها يوم الخميس ، تاسع عشرين . وكان صاحب جُبيل من جملة الأسرى ، فبذلها فى أن يطلق ، فأجيب إلى ذلك ، وكان من أعظم الفرنج وأشدهم عداوة للمسلمين ، ولم تكن عاقبة إطلاقه حميدة . وأرسل السلطان فتسلم جُبيل وأطلقه ، ولما فرغ من هذا الجانب رأى قصد عسقلان ، ولم ير الاشتغال بصور[٦] بعد أن نزل عليها، ثم رأى أن العسكر قد ذهب فى الساحل وذهب كل واحد يُحصل لنفسه ، وكانوا قد ضُرسوا من ملازمة القتال ، فرأى أن عسقلان أيسر من صور ، فأتى عسقلان ، ونزل عليه يوم الأحد ، سادس عشر جمادى الآخرة .... وتسلم فى طريقه مواضع كثيرة ، كالرملة

---

(١) حيفا : حصن على ساحل بحر الشام قرب يافا . معجم البلدان ٣٣٢/٢ .

(٢) قيسارية : بلد على ساحل بحر الشام يعد فى أعمال فلسطين معجم البلدان ٤٢١/٤ .

(٣) الناصرة : قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلاً . معجم البلدان ٢٥١/٥ .

(٤) معليا : من نواحى الأردن . معجم البلدان ١٥٨/٥ .

(٥) الفولة : بلدة بفلسطين من نواحى الشام . معجم البلدان ٢٨٠/٤ .

(٦) صور : مدينة مشهورة مشرفة على بحر الشام . معجم البلدان ٤٣٣/٣ .

والداروم[1] ونصب على عسقلانى المجانيق ، وقاتلها قتالاً شديداً ، وتسلمها يوم السبت سلخ الشهر ، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة ، وبيت جبريل[2] ، وبيت الخليل[3] عليهما السلام ، والنطرون[4] بغير قتال ، وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة . وقال الدوادار : خمس وأربعون . وفوض القضاء والخطابة إلى جمال الدين عبد الله بن عمر قاضى اليمن . وتسلم السلطان هذه الأماكن فى أربعين يوماً ، آخرها ثامن رجب .

وكتب القاضى الفاضل من مصر يهنئ بفتح عسقلان « المملوك يقبل الأرض ويهنئ مولانا بفتح عسقلان ، عروس الشام . فيما ورد الخبر المسند عن النبى عليه السلام ، ودار الاسلام القريبة العهد ، فلو استطاعت لقالت : أهلاً وسهلاً بالإسلام ، ولو اتصل الإسلام بلسان ناطق لقال فيها كما قيل فى سمى (٣٣ أ) مولانا : ﴿ **يا بشرى هذا غلام** ﴾[5] ، ومع أن مولانا- عز نصره - أوردها النار ، لأنها كانت تصون أهل النار ، ورجمها بالمنجنيقات حد الزانى ، كأنها كانت عصمة الكفار ، وما بقى المملوك يرتاب فى أن بين مولانا وبين مدن الفرنج أمارة ، فلذلك إذا رأت وجهه خرت بين يديه ساجدة ، وألقت ما فيها ، وتخلت فى واحدة .

ومنه : وكان المملوك بأعلام المولى ـ أعز الله نصره ـ وقد طلعت فى هاجرة الحرب على القدس بأصيلها ، وكأنه النواقيس المُرغمة لأنوف المسلمين وقد أخرستها سيوفه بصليلها ، والمملوك قد سمع يخبر عسقلان طائحاً ، ولم يقف عليه من كتاب من مولانا

---

(١) الداروم : ويقال لها الدارون ، وهى بعد غزة للقاصد إلى مصر . معجم البلدان ٤٢٤/٢ .

(٢) بيت جبريل : بليدة بين بيت المقدس وغزة . معجم البلدان ٥١٩/١ .

(٣) بيت الخليل : اسم موضع بقرب البيت المقدس فيه قبر الخليل إبراهيم عليه السلام . معجم البلدان ٣٨٧/٢ .

(٤) النطرون : موضع بالشام قرب دمشق . معجم البلدان٤٢/٥ .

(٥) سورة يوسف : الآية ١٩ .

يكون مشروحاً شارحاً ، وقد ضيق عوائد الانعام صدره ، وتغير على رسم ما كان يخشى عليه دهرة » .

وقال ابن الساعاتى[1] يمدح السلطان ويذكر ما فتحه ، وبعث بها من مصر أيضاً ، وهى [2] :

جلت عـزمـاتك الـفـتـح المبـينا ... فـقـد قـرت عـيـون المؤمنينا
رَددت أخـيـذة الإسـلام لما ... غـدا صـرف الـقـضـاء بهـا سنينا
وهان بك الصليب وكـان قـدمـاً ... يعـز على العـوالى أن يهـونا

ومنها :

وصـرت بوجنة الأيام خـالاً ... وفى جـيـد العُلا عـقـداً ثمـينا
ومـا طـبـرية إلا هـدى ... ترفـع عن أكـف اللامـسـينا
فـضضت ختـامـهـا قـسراً ومن ذا ... يرد الليث أن يرد العـرينا
لقـد أنكحـتـهـا سـمـر العـوالى ... فكان نتـاجـهـا الحـرب الزبونا
قـست حـتى رأت كـفـاً فـلانت ... وغـايـة كل قـاسٍ أن يلينا

ومنها :

تهـز مـعـاطف القـدس ابتـهـاجـاً ... وترضى عنك مكة والحـجـونا
فلو أن الجـهـاد يُطيق نُطقـاً ... لـنـادتـك : ادخـلـوهـا آمـنـيـنـا

ومنها :

---

(١) هو أبو الحسن على بن محمد بن رستم المعروف بابن الساعاتى ، المتوفى فى القاهرة سنة ٦٠٤ هـ . الغصون اليانعة ص ١١٨ .

(٢) وردت فى ديوانه ٤٠٦/٢ ، الروضتين ٨٤/٢ ، مفرج الكروب ١٩٨/٢ .

فـفى بيسـان ذاقـوا منك بوسـاً
وفى صـفـد أتوك مُصـديـنا
لقـد جـاءتهم الأحـداث جـمـعـاً
كـأن صـروفـهـا كـانت كـمـينا

ومنها :

وقـد جـردت عـزمـاً ناصـرياً
يُحـدث عن سناه طور سـينا
وأذعـن كـوكـب لما تهـادت
نجوم ملوكـهـا لك مـذعنينا (٣٣ب)
فكنت كـيـوسـف الصـديق لما
له هـوت الكواكـب سـاجـدينا
لقـد فـضلت قـوافـيك القـوافى
كـمـا فـضل العـبـير الياسـمـينا
فـأحـسـن واثقـاً بالله صُنعـاً
فليس يضـيـع أجـر المؤمنينا

ذكر فتوح القدس الشريف

لما فتح الأماكن المحيطة بالقدس ، شمر عن ساق الجد فى قصد القدس الشريف ، واجتمعت إليه العساكر المتفرقة ، فسار نحوه عملاً بقوله عليه السلام : « من فُتح له باب خير فلينتهزه ، فإنه لا يعلم متى يُغلق دونه » . ونزل عليه يوم الأحد خامس عشر رجب وكان المنجمون قد قالوا له تفتح القدس ، وتذهب عينك الواحدة ، فقال : رضيت أن أفتحه وأعمى فنزل بالجانب الغربى ، وكان مشحوناً بالمقاتلة ، ثم انتقل إلى شماله ، من باب العمود إلى برج الزاوية ، ومن هذا المكان أخذه الفرنج . وكان بالقدس ما يزيد على ستين ألفاً ، غير النساء والصبيان ، ونصب المجانيق ، وتعلق النقابون ، وقاتل الفرنج قتالاً شديداً ، فلما رأوا أن المسلمين ظهروا عليهم سُقط فى أيديهم ، وطلبوا الأمان ، واستقر الأمر أن يخرجوا بأموالهم ، سوى الخيل الحربية والسلاح وأن يؤدى كل واحد عشرة دنانير ، وقيل : عشرين وعن المرأة خمسة ، وعن الصبى أربعة ، وعن الطفل ديناراً ، وقيل : بل عن الأمة والطفل دينارين ، وقيل : بل استقر الحال على مائتى ألف وعشرين ألف دينار، وأن

---

(١) قمامة : هى كنيسة بيت المقدس ، يقولون إن بها قبر المسيح عليه السلام . معجم البلدان ٣٩٦/٤ .

تكون المهلة أربعين يوماً ، وأن تقر بأيديه قُمامة(١) وأماكن يزورونها ، ومن عجز أخذ رقيقاً، ومن أقام أخذت منه الجزية . وسلموا البلد يوم الجمعة سابع عشرين رجب ليلة المعراج ، وهذا من الاتفاق العجيب ، وكان استيلاؤهم عليه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، فكانت المدة اثنتين وتسعين سنة ، وكان فتحاً عظيماً شهده من أهل العلم وأرباب الخرق خلق عظيم ، بحيث لم يتخلف معروف من الصلحاء والعلماء ، وارتفعت الأصوات بالدعاء والتهليل ، ودخل السلطان الصخرة ، وغسلها بالماء ورد . وقال بعضهم : غسلها بلحيته ، وهو يبكى ، ومحا الصور منها ، وكسر الصلبان ، وخرب الداوية ، وعمرالمسجد الأقصى، وفرق ما أخذ من الفرنج ، وكان نيفاً وثلاثمائة ألف دينار ، على العلماء والصوفية ، وكان معه زهاء عشرة آلاف عمامة ، وخلص(٣٤ أ) من الأسر ثلاثة آلاف أسير . وانتقل معظم الفرنج إلى صور وكان اجتماعهم سبباً لأخذهم البلاد فيما بعد . وبقى منهم خمسة عشر ألفاً لم يقدموا بما عليهم ، فملكهم المسلمون ، ومنهم سبعة آلاف رجل ثمانية آلاف امرأة ، وذلك بعد أن بذل ملكهم عن الفقراء ستين ألف دينار ، وكان أصحاب السلطان يُخرجونهم في زى الجند ويأخذون منهم شيئاً يسيراً فى الخفية ، وبعض الأمراء يستوهب جماعة ، وبعد ذلك أسر ما أسر . وقيل : إن المأسورين كانوا ستة آلاف ، وكان على رأس قبة الصخرة صليب عظيم من الذهب ، فتسلق المسلمون وقلعوه ، والفرنج تنظر ، فصاح المسلمون والفرنج صيحة عظيمة كادت الأرض أن تميد ، وكانوا (قد) عملوا فى غربى الأقصى مستراحاً ، فأمر السلطان بإزالته ، وكان نور الدين الشهيد قد عمل منبراً بحلب ، وتعب عليه مدة ، وقال : هذا لأجل القدس ، فأرسل السلطان وجاء به من حلب، وجعله فى الجامع الأقصى . وكان السلطان يرى فتح القدس بالسيف ، وكان به باليان بن بارزان صاحب الرملة ، فاجتمع بالسلطان بعد أن طلب الحضور ، وقال له : أيها الملك إننا فى هذه المدينة أمم لا تُحصى ، وما فترت نياتنا عن القتال ، إلا رجاء فى الإيمان ، وكراهية الموت ، فإذا علمنا أن الموت لا بد منه ، فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ودوابنا ، ونحرق جميع أموالنا ، ونخرب الصخرة والأقصى، ثم نقتل الأسرى ، وهم ستة آلاف أسير ، ثم نقاتلكم قتال من يحمى دمه ، فلا

يُقتل منا رجل حتى نقتل أمثاله ، ونموت أعزاء ، ولا نموت أذلاء ، فاستشار أصحابه ، فقالوا : نحسب أنهم أسرى بأيدينا ، فنبيعهم نفوسهم فرجع السلطان إلى ذلك . وخطب بالقدس يوم فتحه ، قيل : بل ثانى جمعة، وقال الفاضل : رابع شعبان . وتطاول جماعة للخطبة ، فذكر السلطان قول ابن الزكى :

وفتحكم حلباً بالسيف فى صفر مُبشر بفتح القُدس فى رجب

فاستدعاه فخطب به . وقال ابن القادسى : إن السلطان خطب به ، وهو وهم .

نسخة الخطبة[1] التى خطب بها ابن الزكى فى ذلك اليوم : ﴿ **فقطع دابر القوم الذين ظلموا** ﴾[2]﴿ **الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين** ﴾[3] ، ﴿ **الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾[4]﴿ **الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من (٣٤ب) الذل وكبره تكبيراً** ﴾[5] ، ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً * وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا** ﴾[6] ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾[7] ، ﴿ **الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير * يعلم ما يلج فى**

---

(١) وردت فى الروضتين ٢١٩/٢ ، وفيات الأعيان ٣٦٤/٣ ، كنز الدرر ٨٧ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٤٥ .

(٣) سورة الفاتحة : الآيات ٢ ـ ٤ .

(٤) سورة الأنعام : الآية الأولى .

(٥) سورة الإسراء : الآية ١١١ .

(٦) سورة الكهف : الآيات ١ـ ٥ .

(٧) سورة النمل : الآية ٥٩ .

الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾[1] ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رُسُلاً ﴾[2] .

الحمد لله مُعز الدين بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذى قدر الأيام دولاً بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاض على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع .

أحمده على إظفاره ، وإعزازه لأولياء الله ونصره لأنصاره ، وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الواحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربه .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، دافع الشرك ، وداحض الإفك ، الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعرج به منه إلى السموات العُلى ، إلى سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، ما زاغ البصر وما طغى .

صلى الله عليه وعلى خليفته أبى بكر الصديق ، السابق إلى الإيمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان ، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذى النورين جامع القرآن ، وعلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، مزلزل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان .

يا أيها الناس : أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى ، والدوحة العليا لما يسره عليكم من استرداد هذه الضالة ، من الأمة الضالة ، وردها إلى مقرها من الإسلام ، بعد

---

(١) سورة سبأ : الآيتان ١ ، ٢ .

(٢) سورة فاطر : الآية الأولى .

ابتذالها في أيدى المشركين قريباً من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإماطة الشرك عن طريقه ، بعد أن امتد عليه رواقه ، واستقر فيها رسمه ، ورفع قواعده على التوحيد ، فإنه بنى عليه (٣٥أ) ، وأنه أسس بالتقوى من خلفه ومن بين يديه، وهو موطن أبيكم ابراهيم ، ومعراج نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ، وقبلتكم التى كنتم تصلون إليها فى ابتداء الإسلام ، وهو مقر الانبياء ، ومقصد الأولياء ، ومقر الرسل ، ومهبط الوحى ، ومنزل ينزل فيه الأمر والنهى ، وهو فى أرض المحشر ، وصعيد المنشر ، وهو فى الأرض المقدسة التى ذكرها الله فى كتابه المبين ، وهو المسجد الذى صلى فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذى بعث الله منه عبده ورسوله ، وكلمته التى ألقاها إلى مريم ، وروحه عيسى ، الذى شرفه الله برسالته ، وكرمه بنبوته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته ، فقال تعالى : ﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله** ﴾[1] وقال : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾[2] .

وهو أول القبلتين ، وثانى المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تُشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه ، لولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم فى شرفها مبارٍ ، فطوبى لكم، من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية ، والوقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوحات العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية ، جددتم للاسلام أيام القادسية ، والوقعات اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية ، فجازاكم الله عن محمد نبيه أفضل الجزاء وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم فى مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء ، وأثابكم الجنة ، وهى دار السعداء ، فأقدروا - رحمكم الله - هذه النعمة حق قدرها ، وقوموا لله

---

(١) سورة النساء : الآية ١٧٣ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٧٢ .

تعالى بواجب ذكرها ، فله المنة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة، فهذا هو الفتح ، الذى فتحت له أبواب السماء ، وسلخت بأنواره وجوه الظلماء وابتهج به الملائكة المقربون ، ومرت به أعين الأنبياء المرسلين ، فماذا له عليكم من النعمة ، بأن جعلكم الجيش الذى يفتح على يديه البيت المقدس فى آخر الزمان ، والجند الذى يقوم بسيوفهم بعد فترة من الرسل أعلام الإيمان فيوشك أن تكون التهانى به بين أهل الخضراء أكثر من التهانى به بين أهل الغبراء ، أليس هو البيت الذى ذكره الله فى كتابه ، ونص عليه فى خطابه ؟ فقال تعالى : **﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾**[1]. أليس هو البيت الذى عظمته الملوك (٣٥ب) وأثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الأربعة (المنزلة) من إلهكم عز وجل ؟ أليس هو البيت الذى أمسك الله عز وجل فيه الشمس على يوشع لأجله أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ليتيتسر فتحه ويقرب؟ أليس هو البيت الذى أمر الله تعالى موسى أن يأمر قومه باستنقاذه ، فلم يجبه إلا رجلان ، وغضب عليهم لأجله فألقاهم فى التيه ، عقوبة العصيان؟ .

فاحمدوا الله الذى أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل ، وقد فضلهم على العالمين ، ووفقكم لما خذل عنه من كان قبلكم من الأمم الماضين، وجمع كلمتكم ، وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته كان وعن وسوف وحتى . فليهكنم أن الله قد ذكركم (به) فيمن عنده ، وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم جنده ، وشكر لكم الملائكة المنزلون ، على ما أهديتم إلى هذا البيت : من طيب التوحيد ، ونشر التقديس ، والتمجيد والتحميد ، وما أمطتم عن طرقه من اذى الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاسد الخبيث ، والآن تستغفر لكم أملاك السموات ، وتصلى عليكم الصلوات المباركات ، واحفظوا ـ رحمكم الله ـ هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا نعمة الله عندكم ، بتقوى الله تعالى التى من تمسك بها سلم، ومن اعتصم بعروقها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ، وموافقة الردى ،

---

(١) سورة الإسراء : الآية الأولى .

ورجوع القهقرى ، والنكول عن العدا ، وخذوا فى انتهاز الفرصة ، وإزالة ما بقى من الغصة، وجهدوا فى الله حق جهاده ، وبيعوا - عباد الله - أنفسكم فى رضاه ، الذى جعلكم من عباده وإياكم أن يستزلكم الشيطان ، وأن يتداخلكم الطغيان ، فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد ، وبخيولكم الجياد ، وبجلادكم فى موضع الجلاد والله ما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم ، واحذروا - عباد الله - بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل، والمنح الجزيل ، وحكم بهذا النصر المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ، أن تقترفوا كثيراً من مناهيه ، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه فتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، أو كالذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين ، والجهاد الجهاد فهو أفضل عباداتكم ، وأشرف عاداتكم ، فانصروا الله ينصركم ، واذكروا الله يذكركم، واشكروا الله يشكركم ، فخذوا فى حسم الداء ، وقطع شأفة الأعداء ، وطهروا بقية الأرض التى (١٣٦أ) اغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر ، واجتثوا أصوله ، فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية ، والملة المحمدية ، الله اكبر ، فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر ، أذل الله من كفر ، واعلموا ـ رحمكم الله ـ أن هذه فرصة فانتهزوها ، وفريسة فناجزوها ، ومهمة فاخرجوا إليها هممكم وأبرزوها ، وسيروا إليها سرايا عزماتكم وجهزوها ، فالأمور بأواخرها ، والمكاسب بذخائرها ، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول ، وهو مثلكم أو دون ، وكيف وقد أضحى وفى قبالة الواحد منكم عشرون ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين** ﴾(١) أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره ، والازدجار بزواجره، وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده ﴿ **إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده** ﴾(٢) .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٥ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٦٠ .

ثم أتم الخطبة الأولى . الخطبة الثانية : ذكر الحمد والشكر كما جرت العادة ، ثم دعا للخليفة الناصر .

ثم قال :

اللهم وأدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك ، الشاكر لنعمتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، المحامى عن دينك المدافع والذاب عن حرمك وحرم رسولك الممانع ، السيد الأجل ، والكهف الأظل ، الملك الناصر ، جامع كلمة الإيمان ، وقامع عبدة الصلبان والأوثان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مطهر البيت المقدس من أيدى المشركين : أبى المظفر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، محيى دولة أمير المؤمنين.

اللهم عم بدولته البسيطة ، واجعل ملائكتك المقربين براياته محيطة ، وأحسن عن الدين الحنيفى جزاءه ، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه .

اللهم ابق للإسلام والمسلمين مُهجته ، ووق للإيمان حوزته، وانشر فى المشارق والمغارب دعوته .

اللهم وكما فتحت به البيت المقدس بعد أن ظنت به الظنون ، وابتلى المؤمنون ، فافتح على يديه دانى الأرض وقاصيها وملكه بفضلك وكرمك صياصى الكفر ونواصيها ، فلا يلقى كتيبة إلا مزقها ، ولا جماعة بعزتك إلا فرقها ، ولا طائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها .

اللهم اشكر له عن محمد ﷺ سعيه ، وانفذ فى المشارق والمغارب أمره ونهيه ، واصلح به أوساط البلاد واطرافها ، وأرجاء البلاد واكنافها .

اللهم ذلل به معاطس آناف الكفار ، وأرغم (٣٦ب) به أنوف الفجار ، وانشر ذوائب ملكه برحمتك على الأمصار ، واثبت سرايا جنوده فى سبُل الأقطار .

اللهم ثبت الملك فيه وفى عقبه إلى يوم الدين ، واحفظه فى بنيه وبنى أبيه الملوك الكرام الميامين ، واشدد عضده ببقائهم ، واقض باعزاز أوليائه وأوليائهم .

اللهم وكما أجريت على يديه بمعونتك هذه الحسنة التى تبقى على الأيام ، وتتخلد على مرور الشهور والأعوام ، وارزقه الملك الأبدى الذى لا ينفد فى دار المتقين ، وأجب دعاءه فى قوله : ﴿ **رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين** ﴾[1] .

غير ذلك : ولما فُتح القدس لم يكن الفاضل حاضراً ، فكتب العماد الكاتب إلى بغداد [2] :

﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً** ﴾ [3].

الحمد لله الذى أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف ، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف ، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة ، وبذل الأمن به من المخافة ، وادخر هذا الفتح الأسنى ، والنصر الأهنى ، لخادم المقام النبوى ، ومنحه أخلص أوليائه ، وأخص أصفيائه ، بعد أن انقرض من الملوك الماضية ، والقرون الخالية ، على حسرة تمنيه ، وفوت ترجيه وتقاصرت عنه الهمم ، وتخاذلت عنه ملوك الأمم . فلله الحمد الذى حقق بفتحهما كان فى النفس ، وبدل وحشة الكفر(فيه) من الإسلام بالأنس وجعل عز اليوم ماحياً ذل الامس ، وأسكنه العالم والفقيه بعد البطرك والقس وعباد الصليب والشمس ، وأخرج أهل يوم الجمعة من أهل الأحد ، وقمع من (كان) يقول بالتثليث أهل قل هو الله أحد ، وقد فتح المملوك (بأمر الله) من الداروم إلى طرابلس ، وجميع ما حوت مملكة الفرنج إلى نابلس ، وغُسلت الصخرة بدموع الباكين من المؤمنين ، ونزع لباس اليأس عنها

---

(١) سورة النمل : الآية ١٩ .

(٢) ورد هذا الكتاب فى مرآة الزمان ٣٩٨/٨ .

(٣) سورة النور : الآية ٥٥ .

بإضافة ثواب المحسنين ، ورجع الإسلام الغريب منه إلى داره ، وطلع قمر الهدى من سراره وعادت الأرض المقدسة إلى ما كانت عليه من التقديس ، وأمنت المخاوف بها وفيها فصارت صباح السرى ومناخ التعريس ، وأقصى من المسجد الاقصى الأقصون من الله الابعدون ، وتوافد إليه المصطفون المقربون ، وخرس الناقوس برحيل المسيحيين وخرج المفسدون بدخول المصلحين ، وقال المحراب لأهله : مرحباً وأهلاً (٣٧أ) وشمل جماعة المسلمين ، فجمع الله لهم فيه شملاً ورفعت الأعلام الإسلامية على منبره ، وأخذت من بره أدنى نصيب ، وتلت بألسنة الحال : ﴿ **نصر من الله وفتح قريب** ﴾(١) وغسلت الصخرة بدموع المتقين من دنس الكافرين ، وبعد أهل الإلحاد عن قربها بقرب الموحدين ، وذكر بها ما نسى من عهد المعراج النبوى ، والاعجاز المحمدى ، وعاد الإسلام بإسلام البيت المقدس إلى تقديسه ، ورجع بنيابه من التقوى إلى تأسيسه وذكر (العماد) فصولاً .

وذكر ابن خلكان : أن القاضى الفاضل كتب إلى بغداد نسخة الكتاب الفاضلى(٢) أدام الله أيام الديوان العزيز النبوى ، ولا زال مظفر الحد بكل جاحد، غنياً بالتوفيق عن رأى كل رائد ، موقوف المساعى على اقتناء مطلقات المحامد ، مستيقظ البصر والنصل فى جفنه راقد ، وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد ، متعدد مساعى الفضل وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد ، ماضى حكم العدل بعزم لا يمضى إلا بنسل غوى وريش راشد ولا زالت غيث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المراتع ، وأنواراً إلى المساجد ، وبعوث رُعبه إلى الأعداء خيلاً (إلى المراقب) ، وخيالاً إلى المراقد .

كتب الخادم هذه الخدمة ، تلو ما صدر عنه مما كان يجرى مجرى التباشير ، لُصبح هذه العزمة ، والعنوان لكتاب وصف النعمة ، فإنها بحر للأقلام فيه سبح طويل ، ولطف لحمل الشكر فيه عبء ثقيل ، وبشرى للخواطر فى شرحها مآرب ، ويسرى للأسرار فى

---

(١) سورة الصف : الآية ١٣ .

(٢) وفيات الأعيان ١٨٠/٦ ، وورد الكتاب فى صبح الأعشى ٢٨٢/٨ ـ ٢٨٩ ، ٤٩٦/٦ ـ ٥٠٤ .

إظهارها مشارب ، ولله فى إعادة شكره رضا ، وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه : هذا مضى ، وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها ،وقد استتبت عقائد أهله على أبين بصائرها ، وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط ، وصدق الله أهل دينه ، فلما وقع الشرط وقع المشروط ، وكان الدين غريباً فهو الآن فى وطنه ، والفوز معروضاً فق بذلت الأنفس فى ثمنه ، وأمر أمر الحق وكان مستضعفاً ، وأهل ربعه وكان قد عيف حين عفا ، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة وأدلجت السيوف إلى الآجال وهى نائمة ، وصدق وعد الله فى إظهار دينه على كل دين ، واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عند جنان الجنين واسترد المسلمون تراثاً كان عنهم آبقا ، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا (٣٧ب) أنهم يظفرون به طيفاً على النأى طارقاً ، واستقرت على الأعلى أقدامهم وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها وإن كانت صخرة قلوبهم كما يشفى الماء غللهم ، ولما قدم صلاح الدين عليها عرف منها سويداء قلبه ، وهنا كفوها الحجر الأسود بيت عصمتها من الكافر بحربه ، وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه العظمى، ولا يقاسى تلك البوسى إلا رجاء هذه النعمى ، ولا يفاخر من يستمطله فى حربه ، ولا يعاتب بأطراف القنا من يتمادى فى عتبه ، إلا لتكون الكلمة مجموعة والدعوة إلى سامعها مرفوعة فتكون كلمة الله هى العليا ، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا ، وكانت الألسن ربما سلقته فأنضج قلوبها بالاحتقار ، وكانت الخواطر بما غلت عليه مراجلها ، فأطفأها بالاحتمال والاصطبار ، ومن طلب خطيراً خاطر ، ومن رام صفقة رابحة جاسر ، ومن سما لأن يُجلى غمرة غامر ، وإلا فإن العقود تلين تحت نيوب الأعداء المعاجم فتعضها ويُضعف فى أيديها مهز القوائم فيفضها ، هذا إلى كون القعود به فرض الجهاد ، ولا يرعى به حقه فى العباد ، ولا يُوفى به واجب التقليد الذى تطرقه الخادم من أئمة قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون ، وخلفاء كانوا فى مثل هذا اليوم لله يسألون ، لا جرم أنهم أورثوا سرهم وسريرهم خلفهم ونجلهم الأكبر ، وبقيتهم الشريفة ، وطليعتهم المنيفة ، وعنوان صحيفة فضلهم لا عدم سواد القلب ، وبياض الصحيفة ، فما غابوا لما حضر ، ولا غضوا لما نظر ، بل وصلهم الأجر لما كان به موصولاً ، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولاً ، ومنه مقبولاً وخلص إليهم

إلى المضاجع ما اطمأنت به جنونها ، والى الصفائح ما غنيت به جيوبها ، وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميراً ، والنهار به بصيراً ، والشرق يهتدى بأنواره ، بل إن بدا نور من ذاته هتف به الغرب بأن واره ، فإنه نور لا تكنه أغساق السدف ، وذكر لا توازيه أوراق الصحف .

وكتاب الخادم هذا ، وقد أظفر الله بالعدو الذى تشظت قناته (شفقاً) وطارت فرقه فرقاً ، وفُل سيفه فصار عصاً ، وصدعت حصاته وكان الأكثر عدداً وحصاً ، وكلت حملاته وكان قدراً يضرب فيه العنان بالعنان ، وعقوبة من الله ليس لصاحب يديها يدان ، وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة ، وغُضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كثيفة ونام جفن (٣٨ أ) سيفه وكانت يقظته تريق نُطف الكرى من الجفون ، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو زاعقة بالمنون وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث ، والرب الفرد الواحد وكان عندهم الثالث ، وبيوت الكفر مهدومة ، ونيوب الشرك مهتومة ، وطوائفه المحامية ، مجمعة على تسليم القلاع الحامية ، وشجعانه المتوافية ، مذعنة لبذل القطائع الوافية ، لا يرون فى ماء الحديد لهم عصرة ، ولا فى نار الأكفة لهم نُصرة ، قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وبذل الله مكان السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من أيدى أصحاب المشأمة إلى أيدى أصحاب الميمنة .

وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى ، فأمده (الله) بمداركته ، وأنجده بملائكته ، فكسرهم كسرة ما بعدها جبر ، وصرعهم صرعة لا ينتعش بعدها بمشيئة الله كفر ، وأسر منهم من أسرت به السلاسل ، وقتل منهم من قتلت به المناصل ، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار ، وعن المصاف يخيل بأنه قتلهم بالسيوف الأفلاق والرماح الأكسار، قتلوا بثأر من السلاح ، ونالوه أيضاً بثأر، فكم أهلة سيوف تقارضن الضراب بها حتى عادت كالعراجين ، وكم أنجم قنا تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين ، وكم فارسية ركض عليه فارسها الشهم إلى أجل فاختلسته ، وفغرت تلك القوس فاها فإذا قد نهش القرن على بعد المسافة وافترسته .

وكان اليوم مشهودا ، وكانت الملائكة شهوداً ، وكان الضلال صارخاً ، وكان الإسلام مولوداً ، وكانت (ضلوع) الكفار لنار جهنم وقوداً ، وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه ، وآكد وصله للدين وعلائقه ، وهو صليب الصلبوت، وقائد أهل الجبروت ، ما دهموا قط بأمر إلا وقام بين دهمائهم يبسط لهم باعه ، وكان مد اليدين فى هذه الدفعة وداعه ، لا جرم أنهم تتهافت على ناره فراشهم ، ويجتمع على ضل ضلاله خشاشهم ، ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتالٍ وأصدقه ، يرونه ميثاقاً ينون عليه أشد عهد وأوثقه ، ويعدونه سوراً تحفر حوافر الخيل خندقه .

وفى هذا اليوم أسرت سراتهم ، ودُهيت دهاتهم ، ولم يُفلت منهم معروف إلا القومص، وكان ـ لعنه الله ـ ملياً يوم الظفر بالقتال ، ومليا يوم الخذلان بالاحتيال ، فنجا ولكن كيف، وطار خوفاً من أن يلحقه منسر الرمح أو جناح السيف ، ثم أخذه الله بعد أيام بيده ، وأهلكه لموعده ، فكان لعدتهم فذلك ، وانتقل من ملك الموت (٣٨ب) إلى مالك وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغاً ، البيضاء صُنعاً ، الخافقة هى وقلوب أعدائها ، الغالبة هى وعزائم أوليائها المستضاء بأنوارها إذا فتح عينها النشر وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر ففتتح بلد كذا وكذا ، وهذه كلها أمصار ومدن ، وقد تسمى البلاد بلاداً وهى مزارع وفُدن ، وكل هذه ذوات معاقل ومعاقر ، وبحار وجزائر ، وجوامع ومنابر ، وجموع وعساكر ، يتجاوزها الخادم بعد أن يحرزها ، ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها ، ويحصد منها كفراً ويزرع إيماناً ، ويحط من (منابر) جوامعها صلباناً يرفع أذاناً ، يبدل المذابح منابر والكنائس مساجد ، ويبوئ أهل القرآن بعد أهل الصلبان للقتال عن دين الله مقاعد ، ويُقر عينه وعين أهل الإسلام أن يعلق النصر منه ومن عسكره بجار ومجرور ، وأن يظفر بكل سور ، ما كان يخاف زلزاله ولا زواله إلى يوم النفخ فى الصور .

ولما لم يبق إلا القدس ، وقد اجتمع إليه كل شريد منهم وطريد واعتصم بمنعته كل قريب منهم وبعيد ، وظنوا أنها من الله مانعتهم ، وأن كنيستها إلى الله شافعتهم ، فلما نزلها الخادم رأى بلداً كبلاد ، وجمعاً كيوم التناد ، وعزائم قد تألبت وتألفت على الموت فنزلت لعرصته ، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته ، فزاول البلد من (كل) جانب، فإذا أودية عميقة ، ولجج وعرة غريقة ، وسور قد انعطف عطف السوار ، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار ، فعدل إلى جهة أخرى كان للمطالع عليها معرج ، وللخيل فيها متولج ، فنزل عليها واحاط بها ، وقرب منها ، وضرب خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه ويزاحمه السور باكتافه ، وقابلها ثم قاتلها ونزلها ثم نازلها (وبرز إليها ثم بارزها) وحاجزها ، ثم ناجزها وضمها ضمة ارتقب بعدها الفتح ، وصدع جمعها فإذا هم لا يصرون - على عبودية الحد - عن عتق الصلح ، فراسلوه ببذل قطيعة إلى مدة . وقصدوا نظرة من شدة والتظاراً لنجدة ، فعرفهم الخادم في لحن القول ، وأجابهم بلسان الطول ، وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها ، وأوتر لهم قسيها التي ترمى (فلا تفارقها سهامها) ولايفارق سهامها نصالها فصافحت السور (بأكتافه) فإذا سهمها في ثنايا شرفاتها سواك ، وقدم النصر نسراً من المنجنيق يُخلد إخلاده إلى الأرض ، ويعلو علُوه إلى السماك ، فشج مرادع أبراجها (٣٩أ) وأسمع صوت عجيجها صُم أعلاجها ، ورفع مثار عجاجها ، فأخلى السور من السيارة ، والحرب من النظارة ، وأمكن النُقاب أن يسفر للحرب النقاب ، وأن يُعيد الحجر إلى سيرته الأولى من التراب ، فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله ، وحل عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة أنمله ، وأسمع الصخرة الشريفة أنينه واستغاثته ، الى أن كادت ترق لمقتله ، وتبرأ بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن يبرح الأرض ، وفتح من السور باباً سد من نجاتهم أبواباً ، وأخذ يُنقب في حجره ، قال عنده الكافر : ﴿ ياليتني كنت تراباً ﴾ فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور ، كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور .

وفى الحال خرج طاغية كفرهم ، وزمام أمرهم ، ابن بارزان سائلاً أن يؤخذ البلد بالسلام لا بالعنوة ، وبالأمان لا بالسطوة ، والقى بيده إلى التهلكة ، وعلاه ذل الملكة بعد عز المملكة ، وطرح جنبه إلى الأرض وكان جنباً لا يتعاطاه طارح ، وبذل مبلغاً من القطيعة لا يطمح إليها أمل طامح ، وقال : ههنا أسارى مسلمون يتجاوزون الألوف ، وقد تعاقد الفرنج على أنه إن هجمت عليهم الدار ، وحملت الحرب على ظهورهم الأوزار ، بدئ بهم فعجلوا ، وثنى بنساء الفرنج وأطفالهم فقتلوا ، ثم استقتلوا بعد ذلك ، فلا يُقتل خصم إلا بعد أن ينتصف ولا (يُفك) سيف من يد إلا بعد أن تقطع أو ينقصف ، فأشار الأمراء بالأخذ الميسور، من البلد المأسور ، فإنه لو أخذ حرباً فلا بد أن يقتحم الرجال والأنجاد ، ويقال كفوا عنها فى آخر أمر قد نيل من أوله المراد ، وكانت الجراح فى العساكر قد تقدم منها ما اعتقل الفتكات ، وأثقل الحركات ، فقبل منهم المبذول عن يد وهم صاغرون ، وانصرف أهل الحرب عن قدرة وهم ظاهرون ، وملك الإسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان، فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان ، لا جرم أن الله أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضى أهل الحق وأسخطهم ، فإنهم ـ خذلهم الله ـ حموها بالأسل والصفاح ، وبنوها بالعمد والصفاح ، وأودعوا الكنائس بها وبيوت الديوية والاسبتارية منها كل غريبة من الرخام الذى (لا) يطرد ماؤه ، ولا ينطرد لألاؤه ، وقد لطف الحديد فى تجزيعه ، وتفنن فى توشيعه، إلى أن صار الحديد الذى فيه بأس شديد ، كالذهب الذى فيه نعيم عتيد ، فما ترى إلا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقراق وعمداً كالأشجار لها من التنبيت (٣٩ب) أوراق ، وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود ، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود .

وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شعبان فكادت السموات ينفطرن للسجوم لا للوجوم ، والكواكب منها تنتثر للطرب لا للرجوم ، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد ، وكانت طريقها مسدودة وظهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدودة ، وأقيمت الخمس وكان التثليث يُقعدها ، وجهرت الألسن بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها ، وجهر باسم أمير المؤمنين فى

وطنه الأشرف من المنبر ، فرحب به ترحيب من بر بمن بر ، وخفق علماء فى حفافيه ، فلو طار سروراً لطار بجناحيه .

وكتاب الخادم وهو مُحد فى استفتاح بقية الثغور ، واستشراح ما ضاق بتمادى الحرب من الصدور ، فإن قوى العساكر قد استنفدت مواردها ، وأيام الشقاء قد مردت مواردها ، البلاد المأخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها ، ونهبت ذخائرها ، وأكلت غلالها ، فهى بلاد تُرفد ولا تُسترفد ، وتجم ولا تُستنفد ، ينفق عليها ولا ينفق منها ، وتجهز الأساطيل لبحرها ، وتقام المرابط بساحلها ، ويذاب فى عمارة أسوارها ، ومرمات معاقلها ، وكل مشقة بالإضافة إلى نعمة الفتح مُحتملة ، وأطماع الفرنج بعد ذلك غير مُرجئة ولا معتزلة ، فإن يدعوا دعوة يرجو الخادم من الله أنها لا تُسمع ، ولن يكفوا أيديهم من أطواق البلاد حتى تُقطع ، وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص ، ولا (بما) سوى المشافهة تتخلص ، فلذلك نفذ الخادم لساناً شارحاً ، ومبشراً صادحاً ، يطالع بالخبر على سياقته ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته ، وهو فلان ، والله الموفق .

آخر الرسالة الفاضلية . وعمل ابن الأثير رسالة ، وكذا كل واحد من أرباب صناعة الانشاء . وللعماد الكاتب كتاب سماه « الفتح القسى فى الفتح القدسى » فى مجلدين ، وله ـ أعنى العماد ـ قصيدة فى ذلك أولها[1] :

أطيب بأنفاس تطيب لكم نُفسا   وتعتاض من ذكراكم وحشتى أنسا
وأسأل عنكم عافيات دوارس   غدت بلسان الحال ناطقة خُرسا
أرى حدثان الدهر يُنسى حديثه   وأما حديث الغدر منكم فلا ينسى
تزول الجبال الراسيات وثابت   رسيس غرام فى فؤادى لكم أرسى
بكيت على مستودعات قلوبكم   كما قد بكت قدماً على صخرها الخنسا

(١) وردت فى الروضتين ١٠١/٢ ، معجم الأدباء ٨٨/٧ .

فلا تحبسوا على الجميل فإننى
جعلت على حبى لكم مهجتى حبسا
رأيت صلاح الدين أفضل من غدا
وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى
سجيته الحُسنى وشيمته الرضا
وبطشته الكبرى وعزته القسعا
جنودك أملاك السماء، تظلهم
عداتك جن الأرض فبالفتك لا الانسا
ولا يستحق القدس غيرك فى الورى
فأنت الذى من دونهم فتح القُدسا
وطهرتهم من رجسهم بدمائهم
فأذهبت بالرجس الذى ذهب الرجسا
وعادت ببيت الله أحكام دينه
فلا بطركاً أبقيت فيها ولا قسا
فدمر على الباقين واجتث أصلهم
فأنت الذى صيرت دينارهم فلساً

ولابن سناء الملك يهنئ السلطان[1] :

ليت شعرى بأى فتح تهنا ؟
يا مُنيل الإسلام ما قد تمنى
أنهنيك إذ تملكت شاماً؟
أو نهنيك إذ تملكت عدنا ؟
قد ملكت الجنان قصرا فقصراً
إذ فتحت الشام حصناً فحصناً

ذكر قصد السلطان صور:

رحل السلطان عن القدس يوم الجمعة خامس وعشرين شعبان، وحسن عنده قصد صور فوصلها غرة رمضان، وقيل : خامسه ، وسير لاحضار آلات القتال ولما تكاملت عنده نزل عليها فى ثانى عشر الشهر وقابلها وضايقها واستدعى أسطول مصر ، فكان محاصرها فى البر والبحر ، ثم سير من حاصر « هونين »[2] فسلمت فى الثالث والعشرين من شوال ، ثم خرج أسطول صور فكبس أسطول المسلمين فى الليل وأخذ المقدم والرئيس وخمس قطع للمسلمين ، وقتلوا خلقاً كثيراً وذلك فى سابع عشرين رمضان ، فعظم ذلك على السلطان

---

(١) وردت فى ديوانه ص ٣٤٠ ، ومفرج الكروب ٢/٢٣٤ ، وكنز الدرر ص ٩١ .

(٢) هونين : بلد فى جبال عاملة مطل على نواحى مصر القرية منها . معجم البلدان ٥/٤٢٠ .

وكان الشتاء قد هجم ، والعساكر قد ضجروا ، والبلد حصين ، وهي في البحر مثل السفينة ولها طريق في البر وبها المركيس ، وكان شجاعاً حازماً ، وقد انضوى إليه جميع من بالساحل ، فرحل السلطان سلخ شوال ، وقيل : في ثاني ذي القعدة ، وحمل من الآلات ما قدر عليه واحرق الباقي ، وفي أثناء ذلك أتت السلطان (٤٠ ب) معاتبة من الخليفة بأمور منها : إرسال الرشيد بن البوشنجي ، ومنها أن من هرب والتجأ الى السلطان ألجأه ، ومنها : مشاركة الخليفة في اللقب ، ثم قال في الآخر : يفتخر علينا بالقدس ، وهل فتحها إلا بعساكر الديوان وتحت راياته ، فاستشاط السلطان غضباً ، وقد كان ينتظر أن تأتي الكتب أمرها ورد الميمنة ، وأحدق بها ، وهي مدينة راكبة على البحر ، ولها برجان كالقلعتين ، فما تم نصب الخيام حتى أخذوها بالسيف ، وقيل : إنهم طلبوا الأمان ، وقيل : إنهم أخلوها لما سمعوا بوصول السلطان ، وأحرق البلد وأقام عليها إلى رابع عشر الشهر ، وجاء ولده الظاهر ثم سار يريد جبلة فمر على المراقب[1] فوجد أهله قد أخلوها فسار تحت المرقب وهو للأسبتار فوجده لا يرام ولا أحد فيه مطمع ، وكان أسطول الفرنج قد جاء من صقلية اصطف المراكب ومنعوا العسكر من العبور ، فصف الدرق ، وعبروا وساروا إلى جبلة ، وكان بها مسلمون وقاض اسمه منصور بن نبيل ائتمنه صاحب أنطاكية[2] لحفظ البلد ، فخرج إلى السلطان وقيل : بل أرسل فهون عليه أمرها ، فساعة وصوله تسلمها بالأمان يوم السبت تاسع عشر الشهر ، قيل : بل نازلها ثاني عشره ، وامتنع الحصن ، ثم سلم يوم السبت بالأمان ، وقيل : بل نزل عليه ثامنه ، وجعل عليها سابق الدين بن الداية[3] ، ثم سار إلى اللاذقية[4] فوصلها رابع عشرين وهو بلد كبير ، له قلعتان متصلتان على تل ، وهي من أحسن البلاد وأطيبها ، ففتحها يوم وصوله ، وقيل : بل أقام عليها أياماً وغنم المسلمون

---

(١) بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام . معجم البلدان ١٠٨/٥ .

(٢) ثغر من الثغور الشامية . معجم البلدان ٢٦٦/١ .

(٣) سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيراز . النجوم الزاهرة ٥٩/٦ .

(٤) مدينة ساحل بحر الشام تُعد في أعمال حمص . معجم البلدان ٥/٥ .

غنيمة عظيمة لأنها كانت بلد التجار ، وجد السلطان فى محاصرة القلعتين حتى بلغ النقب طولاً ستين ذراعاً فى عرض أربعة أذرع ، فلما رأوا الغلبة لاذوا بالأمان وذلك عشية يوم الجمعة خامس عشريه ، فخرجوا بأموالهم وأهليهم ما خلا الغلال والآلات الحربية ، ورفع العلم الإسلامى يوم السبت ، وسلمها إلى ابن أخيه تقى الدين وكان عظيم الهمة فى تحصين القلعة ، وقيل : بل إلى سنقر الخلاطى، وشرع المسلمون فى تشويهها وقلع رخامها .

قال العماد : لقد كثر تأسفى على تلك العمارات كيف زالت ، وعلى تلك الأحوال كيف حالت ، ولكن عاد سرورى بأنها عادت للإسلام مراتع ولشموسه مطالع .

وكتب إلى اليمن يصفها فقال : هى مدينة جامعة ، وخطة واسعة ، معاقلها لا ترام ، وأعلامها لا تسام ، وهى جنة وكان يسكنها أهل الجحيم ، وطالما كانت بالكفر دار بؤس فعادت بالإسلام دار نعيم .

ثم سار السلطان إلى صهيون[1] فنزل عليها يوم الثلاثاء تاسع عشرينه سنة ، وضايقها فطلبوا الأمان فلم يجبهم إلا على أمان أهل القدس ، على الرجل عشرة دنانير وعلى المرأة خمسة وعلى كل صغير دينار من الذكر أو الأنثى ، فتسلمها يوم الجمعة ثانى جمادى الآخرة ، ثم حاصر القلعة فتسلمها بالأمان كأمان أهل البلد ، وسلم القلعة إلى ناصر الدين منكورس[2] وهى قلعة (٤١ ب) حصينة فى طرف البلد ، خنادقها أودية هائلة ، ولا خندق من ناحية واحدة طوله ستون ذراعاً ، نقر فى الحجر ، ولها ثلاثة أسوار وكان عليها علم عليه صليب ، فلما نازلها المسلمون وقع الصليب فاستبشر المسلمون ، ثم فرق السلطان

---

(١) حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام . معجم البلدان ٤٣٦/٣ .

(٢) ناصر الدين منكورس بن خارتكين : كان صاحب قلعة أبى قيس ، وكان أحد أصحاب صلاح الدين ، سلمه صلاح الدين قلعة صهيون سنة ٥٨٤ هـ وكذلك حصن برزية . تاريخ أبى الفداء ٧٤/٣ .

عساكره فملكوا حصن بِلا طُنُس(١) وكانوا قد أخلوه ، وحصن العبد ، وحصن الجماهرتين ، ثم سار عن صهيون فى جمادى الآخرة فوصل إلى قلعة بكاس(٢) ، فنزلها يوم الثلاثاء سادس الشهر ، وهى قلعة حصينة على العاصى ولها نهر يخرج من تحتها وقاتلوها قتالا شديداً فسلمت يوم الجمعة تاسعه ، فقتل أكثر من بها ، وأسر الباقون ، وغنم المسلمون جميع ما فيها ، وقيل : بل أخلوها وتحصنوا بقلعة الشغر(٣) ، وهى فى غاية المنعة يعبر منها إلى قلعة بكاس بجسر ، وليس لها طريق فسلطت المجانيق عليها من جميع الجوانب فطلبوا الأمان وذلك يوم الجمعة ثالث عشره ، وقيل سادس الشهر ، وسألوا المهلة ثلاثة أيام، وصعد العلم الإسلامى يوم الجمعة سادس الشهر ، وأرسل ولده الظاهر إلى سرمينية(٤) فملكها ، واستنزل أهلها على قطيعة وهدم الحصن وكان بهذه الحصون الجم الغفير من أسارى المسلمين ، فأطلقوا وأعطوا الكسوة والنفقة وسار السلطان إلى برزية(٥) وهى من الحصون المنيعة ويضرب بها المثل ، تحيط بها أودية من جميع جهاتها ، وعلوها خمسمائة ونيف وسبعون ذراعاً ، ونزل عليها يوم السبت رابع وعشرين فأخذوها عنوة يوم الثلاثاء سابع عشرين ، وأسر وقتل ، وكان بها زوج أخت صاحب أنطاكية ، وكانت عينا للسلطان فأسرها وزوجها وأولادها ثم أطلقهم وأحسن إليهم ، وبعث من وصلهم إلى أنطاكية فعظمت محبتها للسلطان .

ثم سار إلى درباسك(٦) ونزل عليها يوم الجمعة ثامن رجب ، وهى قلعة منيعة وقاتلها

---

(١) حصن منيع بسواحل الشام من أعمال حلب . معجم البلدان ٤٧٨/١ .

(٢) قلعة من نواحى حلب على شاطئ نهر العاصى . معجم البلدان ٤٧٤/١ .

(٣) قلعة حصينة مقابلها أخرى يقال لها بكاس على رأس جبلين وهما قرب أنطاكية . معجم البلدان ٣٥٢/٣ .

(٤) بليدة مشهورة من أعمال حلب أهلها إسماعيلية . معجم البلدان ٢١٥/٣ .

(٥) هى قلعة منيعة من أنطاكية . النوادر السلطانية ص ٩٣ .

(٦) مدينة بينها وبين أنطاكية أربع فراسخ . معجم البلدان ٤٧٦/١ .

قتالا شديداً فطلبوا الأمان فلباهم بشرط ألا يخرج أحد إلا بثيابه ، وصعد العلم تاسع عشر ، وقيل يوم الجمعة ثانى عشريه وسلمها إلى علم الدين سليمان بن جندر ، وسار إلى بغراس(١) وهى قلعة حصينة بالقرب من أنطاكية وتسلمها بالأمان على حكم أمان دربساك .

ثم سار يطلب أنطاكية وقد ضجر العسكر فأرسل صاحبها يطلب الأمان وأن يطلق كل أسير عنده ، فأجابه ، واصطلحوا ثمانية أشهر وقيل : سبعة ، ثم رحل فسأله ولده الظاهر أن يجتاز حلب ، فدخلها ثالث شعبان ، وقيل : حادى عشره ، فأقام بالقلعة ثلاثة أيام ، وقيل: ليلة ، وودعه عماد الدين زنكى(٢) ومظفر الدين(٣) والأمراء ، فقدم لهم التحف ، وعاد السلطان طالباً دمشق فاعترضه ابن أخيه تقي الدين وأصعده قلعة حماة ، وعمل له سماعاً (من جنس ما يعمل الصوفية) فبات ليلة وأعطاه جبلة واللاذقية ، وجعل السلطان طريقه إلى المعرة(٤) فزار عمر بن عبد العزيز(٥) والشيخ أبا زكريا يحيى المغربى ، وكان حياً من أصحاب الكرامات وكان مع السلطان أبو فليته الحسينى(٦) صاحب المدينة ، وكان يتبرك به ويتيمن بطلعته ، ويرجع إلى قوله (٤٢ أ) ودخل دمشق فى رمضان ، وقيل : قبله ، ثم سار فى أوائل شعبان إلى صفد(٧) فقابلها وتسلمها بالأمان فى رابع عشر شوال ، ثم سار إلى كوكب وضايقها والأمطار متوالية فلما أيقنوا بالغلبة طلبوا الأمان ، وكان بها الشجعان فأمنهم فساروا إلى صور وندم بعد ذلك على إطلاقهم ، واتفق أن مائتى فارس من الفرنج

---

(١) مدينة بينها وبين أنطاكية أربع فراسخ . معجم البلدان ٤٦٧/١ .

(٢) عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى ، ابن أخى نور الدين محمود ، صاحب سنجار ، كان عاقلاً جواداً ، وكان صلاح الدين يحبه ويحترمه ، توفى سنة ٥٩٤ هـ . النجوم الزاهرة ١٤٤/٦ .

(٣) مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل .

(٤) مدينة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة . معجم البلدان ١٥٦/٥ .

(٥) هو الخليفة الأموى المتوفى سنة ١٠١ هـ بقرية دير سمعان من أعمال معرة النعمان . أبو الفداء ٢٠١/١ .

(٦) فى الكامل ٢٠/١٢ ، أبو الفليتة القاسم بن المهنا العلوى الحسينى .

(٧) مدينة فى جبال عاملة المطلة على حمص بالشام . معجم البلدان ٤١٢/٣ .

كمنوا للمسلمين فلقى رجل من المسلمين رجلاً منهم فأخذه ، وهيب عليه فأقر فأعلم السلطان بهم فأسرهم عن آخرهم ، ثم مَنَّ عليهم وتسلمها نصف ذى القعدة ، ثم نزل بالغور وأقام بالمخيم بقيته ، وأعطى العساكر دستورا مع أخيه العادل إلى زيارة القدس ، فدخلها ثامن ذى الحجة ، وخرج منها حادى عشر إلى عسقلان ، وأخذها مع أخيه وعوضه عنها الكرك ، وقد كان لما رحل إلى البلاد الشامية قد جعل عليها من يحصرها وهو الأمير سعد الدين كمشبا ، فلما فنيت أزوادهم طلبوا الأمان ، فتسلموا الكرك والشوبك وما بتلك البلاد ، قال ابن شداد : فى رمضان سلمت الكرك ، سلمها نواب صاحبها ، وخلصوه بذلك من الأسر، وكان فى الأسر من وقعة حطين .

قال جامعه : وفى هذا نظر ، فإنه تقدم أن صاحب الكرك قتله السلطان يوم حطين بيده. انتهى .

ثم سار السلطان إلى بلاد الساحل متفقداً أحوالها ثم دخل عكا فأقام بها إلى آخر السنة وودع أخاه العادل فإنه سار إلى مصر .

سنة خمس وثمانين

فيها رحل السلطان من عكا إلى دمشق فدخلها مستهل صفر وأقام بها إلى ربيع الأول ثم خيم بمرج عيون وحاصر شقيف أرنون(١) وهو موضع حصين وذلك سابع عشر ربيع الأول ، وأقام أياما يباشر القتال والأمداد تصل إليه فلما تحقق صاحبه(٢) أنه لا طاقة له به نزل بنفسه فلم تشعر به إلا وهو قائم على باب خيمته ، فأذن فى دخوله وأكرمه وكان من أكبر الفرنج وعقلائهم ، ويعرف بالعربية وعنده اطلاع على التواريخ والأحاديث ، حسن التأنى ، فأكل مع السلطان ثم خلا به وذكر أنه مملوك السلطان ومحبه ، وأنه يسلم الحصن

---

(١) قلعة حصينة قرب بانياس من أرض دمشق . معجم البلدان ٣/٣٥٦ .

(٢) اسمه أرناط . الفتح القسى ٢٨٥ .

من غير تعب بشرط أن يعطى مكاناً بدمشق يسكنه فإنه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الفرنج وإقطاعا يقوم به فأجابه السلطان وقال : أهلى بصور وأشتهى أن تمهلنى حتى أتوصل إلى تخليصهم ، وأقام ينتظر الميعاد وهو قلق لقرب مدة الهدنة بينه وبين صاحب أنطاكية فسير ابن أخيه إلى مقابل أنطاكية وبلغ السلطان أن الفرنج اجتمعوا بصور ، وأنهم خرجوا فى أمم لا تحصى ، وكان يخشى أن تترك الشقيف وراء ظهره فتنقطع عنه الميرة ، وبلغه أن كلام صاحب الشقيف خديعة وأنه ممهد فى تحصين حصنه فأحضره قبل انقضاء المدة بثلاثة أيام فقال : سلم الحصن . فقال : أهل الحصن لا يمكنونى ، فأمسكه السلطان ، فقال : اطلب القسيس إلى أسلم البلد ، فلما حضر إليه (٤٢ ب) ساره ، فلما راح إلى الحصن أظهر العصيان فسيره السلطان إلى سجن دمشق ، بعد الإهانة الشديدة ، ثم رحل السلطان لما بلغه خبر عكا ، ورتب من يمنع عن الشقيف الميرة .

ذكر محاصرة الفرنج عكا

كان قد اجتمع بصور أهل البلاد التى أخذها السلطان ، فأرسلوا إلى البحر يستنجدون وصوروا صورة المسيح وصورة عربى يضربه ، وقد أدماه وقالوا : هذا نبى العرب يضرب المسيح فخرجت النساء من بيوتهن ووصل من الفرنج فى البحر عالم لا يحصى ، فلما أخذ السلطان القدس عظم عليهم فأخذ البطرك الذى فيه من معه من القساوس ، وخرج يحرض الملوك على الاجتماع ، لأخذ الثأر وتجهيز جميع الناس حتى النساء ومن لم يقدر أخرج عوضه أو أخرج مالاً ، وكانت المراكب فى البحر كالجراد المنتشر ونزلوا على عكا ثامن رجب وقيل : نصفه .

وساروا من صور على طريق الإسكندرية فعز ذلك على السلطان فاستشار أصحابه وخرج يلحق عكا قبل وصولهم ، فوجدهم قد سبقوه ونزل السلطان على تل كيسان[1] وكتب إلى

(١) موضع فى مرج عكا من سواحل الشام . معجم البلدان ٤٣/٢ .

المسلمين يستنجدهم فاسرعوا فأول من جاء تقى الدين ، ثم ابن زين الدين بعساكر الشرق ، ثم عسكر مصر فزحف عليهم مستهل شعبان وضايقهم ، ولم يكن للمسلمين إلى عكا طريق فخلى طريق ، فدخلها المسلمون ومنهم أبو الهيجاء السمين ، وأرسل كمينا من العرب للحطابة ففعلوا وأخذوا منهم جماعة وأحضروا رؤوسهم إلى السلطان فأنعم عليهم وعزم على مقاتلة السلطان قبل تكملة العسكر ، فإن بعضهم كان فى مقابلة طرابلس ، وشىء فى أنطاكية ، وشىء فى دمياط والإسكندرية ، فلما كان يوم الأربعاء حادى وعشرين شعبان خرج الفرنج بالراجل الفارس وكانوا ألفى فارس وثلاثين ألف رجل ، وقيل : كانوا مائة ألف، وعبأ السلطان أصحابه ، وحملت الفرنج على المسلمين فنالوا منهم وهزموهم ، وانتهت الهزيمة إلى الأقحوانة[1] واستشهد الأمير مجلى بن مروان ، والظهير أخو الفقيه عيسى وجماعة ، ونحو مائة وخمسين ممن لا يؤبه إليه ، وانتهوا إلى التل وعليه خيمة السلطان ، فقتلوا بعض الحاشية ، وحملت عليهم طائفة من المسلمين فاوقعوا بهم وقتل منهم عشرة آلاف نفس ، وكان الذين ثبتوا مع السلطان يقدر بألف نفس فردوا مائة ألف ، وجافت الأرض بعد ذلك وأتى بعضهم يعزى الفقيه عيسى فقال : هذا يوم هناء لا يوم عزاء وأمر السلطان بالقتلى فألقوا فى الماء الذى يشرب منه الفرنج ، وأسر مقدم الداوية الذى أسره السلطان ومن عليه ، وكان مع العدو نساء فى ذى الرجال ، وعزم السلطان على الحملة عليهم ، فرأى العسكر مشغولاً بما نهب من أموالهم ، فإن الأوباش[2] نهبوا الوطاق[3] عند الحروب وبقى اليزك[4] (٤٣ آ) السلطانى مانعاً للفرنج ، واتضح الطريق إلى عكا ودخلها السلطان بنفسه ودخل السوقية بالحوائج ، وكان السلطان يباشر القتال بنفسه ويصافحها بذاته،

---

(١) موضع بالأردن على شاطئ بحيرة طبرية . معجم البلدان ٢٣٤/١ .

(٢) الأوباش : سفلة الناس وأخلاطهم .

(٣) الوطاق : لفظ تركى معناه الخيمة (محيط المحيط) .

(٤) اليزك : لفظ فارسى معناه : طلائع الجيش . مفرج الكروب ٤٨/٣ حاشية ١ .

ثم رأى التوسعة عليهم لعله يظفر بهم فارتفع إلى تل العياضية وبطل القتال ، وبقى بعضهم يتحدث مع بعض ، وخرج الصبيان يتصارعون .

وحكى الدوادار وقعة هائلة بعد ذلك في الشهر ، ولعله خبط ولحق السلطان قولنج فتأخر إلى الخروبة(١) رابع عشر رمضان ، فلما رحل تمكن العدو وحضروا الخنادق وجدوا فى حصار عكا ، وقدم أسطول مصر ومقدمه الحاجب لؤلؤ ، فأحرق عدة مراكب ودخل عكا ، وقدم العادل بعساكر مصر والأسلحة فقويت نفوس المسلمين ، وأتى السلطان حديث ملك الألمان وقيل : قدوم الأسطول والعادل وحديث الألمان فى السنة الآتية .

سنة ست وثمانين

ذكر عود السلطان إلى مقاتلة الفرنج بعكا وحديث ملك الألمان(٢) وفيها بعد انقضاء صفر رحل السلطان عن الخروبة ، وعاد إلى قتال الفرنج على عكا ، فوجدهم قد عملوا قرب سورها ثلاثة أبراج ، طول البرج ستون ذراعاً جلبوا خشبها من الجزائر وشحنوها بالمقاتلة ولبسوا جلود البقر والطين بالخل ، لئلا يعمل فيه النار ، وطموا خندق عكا وسحبوا الأبراج على العجل فأقبلت أمثال الجبال فى كل برج خمسمائة مقاتل ، فأيس المسلمون من البلد وركب السلطان واجتهد أن يصل إلى البلد فلم يقدر ، ورموا النفط فلم يؤثر ، وكان بعكا شاب دمشقى يقال له على بن النحاس ، ليس له فى الديوان اسم فهيأ ثلاثة قدور وقال لقراقوش : انصب لى منجنيقاً فانتهره ، وقال : قد عجز الصناع ، فمن أنت ؟ فقال : قد عملت شيئاً لله تعالى وما أريد منكم شيئاً وما يضركم أن أرمى بها فى سبيل الله فإن نفعت وإلا فاحسبنى واحدا منهم ، فنصبوا المنجنيق فرمى البرج فاحترق بما فيه ، ثم فعل كذلك بالثانى والثالث فكبر المسلمون وكبر السلطان ، وطموه بالخلع فلم يأخذ شيئاً وقال : إنما فعلت هذا لله وكان ذلك يوم الجمعة عشرين ربيع الأول ، وقويت نفس المسلمين ، وفى

---

(١) الخروبة : حصن بسواحل بحر الشام مشرف على عكا . معجم البلدان ٣٦٢/٢ .

(٢) هو فردريك بربروس (ذو اللحية الحمراء) ، وهو أول من تحرك للحرب بعد هزيمة حطين .

ربيع الآخر قدم على السلطان العساكر : عسكر حلب وحمص وشيزر[1] وسنجار[2] والموصل وغيرهم ، وقدم رسول الخليفة نقيب العلويين ومعه خمسة أحمال نفط ، وتوقيع بعشرين ألف دينار على التجار فشق ذلك على السلطان وقال : أنا فى يوم واحد (٤٣ ب) أخرج أضعاف هذا ورد الجميع فأشير عليه بأخذ النفط ورد التوقيع ، وقال : رحم الله العاضد ، وصل إلىّ منه فى عشرين يوماً ، ونحن على دمياط ألف ألف دينار ومثلها عُروض .

وفى أثناء ذلك بلغ السلطان وصول ملك الألمان وذلك أنه قطع القسطنطينية فى ستمائة ألف مقاتل ، وقيل : مائة ألف ، فخاف ملك القسطنطينية فقال : إنما جئنا نخلص القدس والصليب ، فاحتاج إلى مُسالمتهم وكتب إلى السلطان يعلمه بهم ويتعذر بالعجز عن منعهم ، وساروا طالبين الشام فوقع فيهم الوباء والغلاء فدفنوا كثيراً من سلاحهم ظناً منهم أنهم إذا عادوا أخذوه فأخذه المسلمون ، فلما قاربوا تونية[3] خرج إليهم ملك شاه لمنعهم فلم يمكنه، وساروا إلى أنطاكية فنزلوا على نهر انطرسوس ، فنزل الملك ليسبح فنهوه فلم ينته ، سبح فيه فأخذته الحمى ، وأقاموا عليه أياما وأوصى إلى ولده ومات ، وقيل : إنه غرق ، فرجع بعض العساكر وبعضهم مال إلى ابن الملك الآخر ، فبقى الابن فى قلة ، قيل : إنه نيف وأربعون ألفاً ووقع فيه الوباء وتخطفهم عسكر حلب ، ووصل ابن الملك إلى عكا فى ألف نفس ثم مات فى ذى الحجة وقيل : إنهم ركبوا البحر فغرقوا ولم ينج منهم أحد فحزن الفرنج عليه ، وأشعلوا النيران وكفى الله شرهم وأقام السلطان والمسلمون على عكا فى قوة وجدل، والفرنج فى ضعف ووجل ، والسلطان مستمر الاهتمام بالقول والعمل ، والوفود إلى أبوابه متواترة وصلاته إلى الخاصة والعامة متكاثرة ، وامتدحه الشعراء وذكروا مواقفه ،

---

(١) شيزر : قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة . معجم البلدان ٣٨٣/٣ .

(٢) سنجار : مدينة مشهورة من نواحى الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام . معجم البلدان ٢٦٢/٣ .

(٣) من أعظم مدن الإسلام بالروم . معجم البلدان ٤١٥/٤ .

وشكروا عوارفه فمن ذلك قصيدة الرشيد عبد الرحمن النابلسى[1] أنشده إياها بمرج عكا، وأولها:

حدق الغانيات فى القلب أنكى   من شفار الظُّبى وأعظم فتكا

ومنها:

ويك يا قلب إن هفا بك وجد   فهو أمضى حكماً وأعظم ملكا
أو تبدلت بالوصال صدودا   طالما أضحك الزمان وأبكى
وعسى فى لقائك الملك النا   صر روح يفرج الهم عنكا
أشرف العالمين حضراً وبدواً   وأبر الأنام عجماً وتركا
خير من طبق البرية ملكاً   واسترق الأحرار بالجود ملكا
ناصر الحق فهو ينقض ما تبر   م أيدى عداه شزراً وحبكا[2]
ذو السطا يُرعب الأسود تحامت   والندى يخجل العهاد أركا[3]
من صلاح الأنام والدين والدنـ   ـيا بقاؤه فطال عمراً ومُلكاً
أيها الناصر الذى خذل الكفا   ر فما يستفيق بؤساً وضنكاً
والذى مده الاله بقدس   نهكت قوة الضلالة نهكا
ما تراه العضب المهند حداً   أنت أمضى شباً وأسرع بتكا[4]
ما عساه الطود الأشم ثباتاً   أنت اسمى هضباً وأمتن سمكا
قد قتلت الزمان يا ملك خبراً   وعركت الأيام بالرأى عركا
وأنارت لك السعود فلو رمت   اعتلاقاً بنجمها لم يفتكا
ليس ينفك عن رضى الله إن زحـ   ـزح ملك عنه العُرى وأنفكا

---

(١) عبد الرحمن بن بدر الحسن بن المفرج بن بكار، رشيد الدين النابلسى، الشاعر المجيد، توفى سنة ٦١٩ هـ . فوات الوفيات ٥٣٢ .

(٢) شزراً : فتلاً ، يقال جبل مشزور : أى مفتول ، مما يلى اليسار وقيل إلى فوق .

(٣) العهاد : المطر ، أرك السحاب ، جاء بالمطر القليل الضعيف .

(٤) البتك : القطع .

طاب فـيك الثناء والناس لا شـ ... ـك دمـاء من بينهـا كلت مسكا
يا مميت الأمحـال يا محى الآ ... مـال يا أطهـر ابن أنثى وأزكى
مـا لجيش الضلال فى بحر هلك ... لا يحلون للنجـا منه فُلكا
صـاح فيهم داعى البوار فللأعـ ... ـين قـذى وللسامع سكى
فتراهم من التضاؤل كالوهـ ... ـم خيالاً وكانوا تلع المناكب تمكا[1]
بعيـون بيض يرون بها الـ ... أيام مسـودة ترى اللون حلكا
بهم يا همـام قد ضاقت الأر ... ض فأوسعته بواراً وهلكا
أيقنوا بالبلاء وقد كا ... ن يقين الأوغاد من قبل شكا
وعدتهم بل أوعدتهم للنفوس ... كان ميعادها غروراً وإفكا
ولبيض الهند الرقاق وسمر الـ ... ـخط أتت رؤوسهم دون عكا[2]
فقتيل معفر ليس يؤذى ... وأسيـر مكبل لن يفكا
أنجـاة وقد طرحت عليهم ... كلكلا يهدم الجبال ويركا
وتوخيتهم ببيض ظُبات ... كلها تهتك الضرائب هتكا
ظللتهم سماء جيشك تضليـ ... ـلاً .... فدكت الأرض دكا

وقال أيضاً ، وقيل قالها فى فتح القدس ، وهو الصحيح (٤٤ ب) :

هذا الذى كانت الآمال تنتظر ... فليـوف لله أقوام بما نذروا
هذا الفتوح الذى جاء الزمان به ... إليك من هفوات الدهر يعتذرُ
يجل علياه عن مدح يحيط به ... وصف وإن نظم المداح أو نثروا
يا نعمة كبرت عند الأنام له ... قدراً ففى كل شكر عندها صغر
لا ترويين للفتوح بعدها قصصاً ... وإن تعاظم منها الخبر والخبر
توضح الدهر عن يوم أغر به ... يزهى ويفتخر الأصال والبكر
يوم تعالى محلاً واستنار سنا ... فدون مرتبتيه الأنجم الزهر

---

(١) تلع : طلع . تمك : جمع تامك وهو المرتفع .
(٢) الخط : مرفأ للسفن بالبحرين تنسب إليه الرماح .

يوم به التأم الكفار فى عددٍ | جم ولكن لكسر ليس ينجبر
فالروع متصل والصبر منفصل | والنقع مرتفع والنصر منحزر
جاءوا كما أقبل الطود الأشم له | من حيث ما سرت فيه مسلك وعر
وجئتهم مثلما انقض القضاء فلا | والله لم يغنهم بأس ولا وزر
بنفس حانٍ على الإسلام محتمل الـ | ـآلام لم يثنه الخوف ولا حذر
حسنى إلى الخلق أهداها مليكهم | نعمى من الله مرحوماً بها البشر
وعصبةٍ من بنى أيوب كاشفة الـ | ـكروب ساعة وجه النصر مستتر
مدوا كما مد فيض البحر ملتطم الـ | ـأمواج حتى إذا قابلتهم جزروا
لقد فتحت عصيا من ثغورهم | لولاك ما هد من أركانها حجرُ
تركت أرضهم من طول ما عمرت | منه بلاقع لا أنثى ولا ذكرُ
نقضت ما أبرموا ، أبرمت ما نقضوا | عمرت ما هدموا . هدمت ما عمروا
الآن قرت جنوب فى مضاجعها | ونام من لم يزل حلفاً له السهرُ
الآن طاب إلى البيت المقدس كالـ | ـبيت المحرم إحرامٌ ومعتمرُ
يا بهجة القدس إن أضحى به علم الـ | ـإيمان من بعد طى وهو منتشرُ
يا نور مسجده الأقصى وقد رفعت | بعد الصليب به الآيات والسورُ
يا مالك الأرض مهدها فما أحد | سواك من قائم للهدى يُنتظرُ
أضحى بنو الأصفر الأنكاس موعظة | فيها لأعدائك الآيات والنذرُ
صاروا حديثاً وكانوا قبل حادثة | على الورى يتقيها البدو والحضرُ
هذا الهمام صلاح الدين أشرف من | به الممالك والأملاكُ تفتخرُ
دانت ودامت له الدنيا فما أحد | فى الأرض إلا إلى نعماك يفتقرُ
يا خاطباً جنة الفردوس مُمهرها | أجرِ الجياد لنعم الصهر والمهرُ

ثم انقطعت أخبار عكا عن السلطان ، فندب أقواماً للسباحة وأعطاهم المال فى أوساطهم والطيور فى أعناقهم ، فنصب الفرنج الشبك فى البحر ، فإذا جاء سابح وقع فيها ، فامتنع الناس وبعث قراقوش يشكو قلة الميرة ، فرتب السلطان بطسة[1] كبيرة وجعل فيها نصارى

---

(١) البطسة : ذكر صاحب (محيط المحيط) أنها مأخوذة من الأسبانية ، ومعناها : السفينة الكبيرة .

من أهل بيرون[1] كانوا أسلموا ، وقال : ارفعوا الصلبان كأنكم قاصدون الفرغ ففعلوا ، فخرج الفرغ من الشوانى فقالوا : نراكم قاصدين البلد ، قالوا : وما اخذتموه بعد ! قالوا : لا . قالوا : ووراءنا بطسة أخرى ردوها عن البلد ، فذهبوا عنهم فردوا القلوع إلى البلد ودخلوا الميناء وكبر المسلمون ووقع الباء والموت فى الطائفتين فلما أعلموا السطان أنشد :

اقتلانى ومالكا واقتلا مالكا معى[2]

يريد أنه رضى أن قد يتلف إذا أتلف الله أعداءه ، وطلبت العساكر الشرقية العودة إلى بلادها فقال السلطان : اصبروا إلى الشتاء فأقام صاحب سنجار ، وأما صاحب الجزيرة[3] فأصر على الرحيل ودخل وقبل يد السلطان وسار من ساعته وكتب السلطان إليه كتاباً أوله :

من ضاع مثلى من يديه فليت شعرى ما استفادا[4]

فلم يلتفت وسار ، فلقيه تقى الدين عند عقبة فيق[5] فأخبره الخبر فقال : ارجع ياصبى إلا رجعت مقهوراً فرجع ، وبقى السلطان والفرغ يتنازعون القتال إلى العشرين من جمادى الآخرة ، فخرجت الفرغ بالفارس والرجال ، فأزالوا العادل عن موضعه ، فعطف عليهم المسلمون وقتلوا منهم خلقاً عظيماً فعادوا إلى خنادقهم ، وحصل للسلطان مغص فانقطع ، ولولا ذلك لكان الفيصل ﴿ ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ﴾[6] .

---

(١) بيرون : مدينة بين الديبل وبين المنصورة . تقويم البلدان ٣٤٨ .

(٢) البيت لعبد الله بن الزبير بن العوام . النجوم الزاهرة ١٤٥١ .

(٣) وهو سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى . النوادر السلطانية ص ١٤٥ .

(٤) ورد البيت فى النوادر السلطانية ص ١٤٦ ، مرآة الزمان ٤٠٤/٨ .

(٥) مدينة بالشام بين دمشق وطبرية ، وعقبة فيق ينحدر منها إلى غور الأردن ومنها يشرف على طبرية وبحيرتها . معجم البلدان ٢٨٦/٤ .

(٦) سورة الأنفال : الآية٤٢ .

ولما قوى الشتاء ، أرسل الفرنج مراكبهم إلى صور خوفاً عليها أن تنكسر ، فانفتح الطريق إلى عكا فى البحر ، وأرسل البدَل إليها ، وكان العسكر الخارج أضعاف الواصل ، فحصل التفريط بذلك وكتب السلطان إلى يعقوب[١] أمير المغرب يستنجده ، وأقام فى جماعة يسيرة وفيها (٤٥ ب) استشهد بعكا جمال الدين محمد ، خرج فى شانى يقاتل فأحاطت به مراكبهم وعرضوا عليه الأمان فقال : ما أضع يدى إلا فى يد مقدمكم فجاء المقدم فأخذ بيده وعانقه وألقى نفسه فى البحر فغرقا .

وفيها فى ثامن شوال توفى زين الدين يوسف[٢] صاحب إربل بعسكر السلطان فأقطع إربل أخاه مظفر الدين كوكوبرى ، وأضاف إليه شهرزور وأعمالها ، وأرجع حران[٣] والرها وأقطعها ومعهما سميساط[٤] والمور تقى الدين ابن أخيه زيادة على ما بيده .

وفيها ، فى ربيع الآخر تسلم السلطان الشقيف بالأمان بعد أن ضيق على صاحبها بدمشق ثم أطلقه فمضى إلى صور .

وفيها تسلم الشوبك أيضاً ، بعد حصار شديد بالأمان ، وقيل : بل فى سنة أربع .

سنة سبع وثمانين

ذكر استيلاء الفرنج على عكا ، فيها اشتد الحصار على عكا ، وكانوا قد أحاطوا بها من البحر إلى البحر وحفروا عليها خندقا فلم يتمكن السلطان من الوصول إليهم ، وكانوا

---

(١) هو أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن المنصور بالله ، بويع له بمراكش بعد وفاة أبيه سنة ٥٨٠هـ ، وتوفى سنة ٥٩٥ هـ . وفيات الأعيان ٤/٦ .

(٢) هو يوسف بن على بن بكتين صاحب إربل ، وكان أميراً كبيراً شجاعاً مدبراً . النجوم الزاهرة ١١٢/٦ ، الكامل ٥٦/١٢ .

(٣) مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور ، وهى قصبة ديار مصرية ، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان . معجم البلدان ٢٣٥/٢ .

(٤) مدينة على شاطئ الفرات فى طرف بلاد الروم . معجم البلدان ٢٥٨/٣ .

محاصرين لها شبه محصورين ، واشتد حصارهم لها فى جمادى الآخرة ونصبوا المجانيق والسلالم ومل المسلمين من التعب والسهر ، وكان الفرنج قد صنعوا تلا من التراب يقاتلون خلفه ، فلما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة خرج من عكا رجل عوام ومعه كتب إلى السلطان من المسلمين يذكرون حالهم وما هم فيه وأنهم قد أيقنوا بالهلاك ، ومتى أخذوا البلد عنوة ضربوا رقابهم . وأنهم صالحوا على أن يسلموا البلد ، وجميع ما فيه من الآلات والأسلحة ومائتى ألف دينار وخمسمائة أسير مجاهيل ، ومائة (أسير) معينين (من جماعتهم) وصليب الصلبوت ، على أن يخرجوا بأنفسهم ، وما معهم من الأملاك المختصة بهم وأهليهم ، ويضمنوا للمركيس - لأنه كان الواسطة - أربعة آلاف دينار ، فلم يرد علي السلطان خبر أشد منه ، لأنه كان نقل إليها سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر . وقال : إنى هاجم على القوم ، ويخرج المسلمون من البلد ،فقالوا : ما هذا مصلحة، فركب السلطان لنجدتهم ، وإذا بأعلام الفرنج على السور ، وعلى القلعة ، وعلى الجامع ، وقد كانوا ركبوا ركبة وصاحوا صيحة عظيمة ، وهجموا البلد ، وجاءت إلى الفرنج نجدة أخرى فى البحر ، فخرج إليهم ابن المشطوب وطلب منهم الأمان فما أجابوه ، وقيل : بل أجابوه ، فلما ملكوا البلد كتبوا إلى السلطان ، فحصل ما أمكنه تحصيله ، وطلب منهم إطلاق المسلمين ، فقالوا سلموا إلينا المال والأسرى ، واقنعوا بأتماننا ، فقال السلطان : أى أمانة لكم ونخاف من غدركم والبلد بأيديكم وتوقف الحال ، فلما كان يوم السبت سابع عشرين رجب خرج الفرنج من عكا ووقفوا وسط المرج ، وأحضروا (٤٦ أ) المسلمين ، وكانوا زهاء ستة آلاف ، وحملوا عليهم حملة رجل واحد ، ضرباً وطعناً فقتلوهم ، والمسلمون يشاهدونهم ، فعادوا وأخبروا السلطان فبكى ، يقال : إنه لطم على رأسه ونتف لحيته ، ووقع العويل والبكاء فى العسكر ، وقيل : إنهم دخلوا البلد سابع عشر رجب ، وإنهم قتلوا أهل البلد ، وكانوا زهاء ثلاثين ألفاً ، وقيل : إنهم قتلوا البعض ، وأسروا البعض، فلما كان غرة شعبان يوم الأحد رحلوا من عكا ، فساروا فى البر ، ومراكبهم فى البحر ،

وهم ثلاثة أقسام، فنزلوا نهر القصب ، وجرى بينهم وبين المسلمين قتال ، قتل فيه إياز الطويل[١] وكان شجاعاً فى دبوسه[٢] عشرة أرطال حديد ، قتل منهم جماعة ثم تقنطر[٣] فقتلوه ، وحزن عليه السلطان ، وقيل : بل قتل فى وقعة أرسوف[٤] .

وقعة أرسوف

لما كان يوم السبت رابع عشر شعبان ، أصبح الفرنج على تعبئة ، وحصل بينهم قتال أزالوا المسلمين عن مواضعهم ، ووصلوا إلى السوق ، وقتلوا جماعة من السوقية ، وقتلوا خلقاً عظيماً . وثبت العادل ، وعسكر الموصل ومقدمهم علاء الدين بن مسعود ، فلقبه السلطان ذلك اليوم الملك السعيد ، ثم عاد عليهم المسلمون . ذكر ابن القادسى : أن السلطان انهزم ذلك اليوم ، وأنه رجع فى عسكر الموصل ، وكانوا ألف فارس ، فقتل من الكفار مائة ألف وأربعين ألفاً . قال سبط ابن الجوزى : أما قوله إنه انهزم ، فما انهزم الناصر قط . وقد حكى ابن شداد - وكان حاضر الوقعة - قال : ثبت مع السلطان سبعة عشر رجلاً ، وأعلامه واقفة ، وكوساته تخفق ، فلما رأى ما نزل بالمسلمين صاح فيهم ، فلما رآه المسلمون ثابوا إليه ، فتراجع الفرنج إلى منازلهم ، وقتل من الفريقين جماعة . وأما قوله : قتل مائة واربعين ألفاً فإنهم كانوا دون الثلاثين ألفاً . قال : ابن شداد : قُتل خمسون افرنجياً : وقيل : أقل ، ثم سار الفرنج إلى يافا ، فوجدوا أهلها قد أخلوها ، فعزموا على عمارتها .

---

(١) اياز بن عبد الله الطويل ، أحد مماليك السلطان صلاح الدين ، كان بطلاً شجاعاً مقداماً فعل على عكا ما لم يفعله غيره ، وتوفى سنة ٥٨٨ هـ . ابن الفرات المجلد الرابع ٩٧/٢ .

(٢) عصا من حديد فى رأسها شيء كالكرة ، وهى فارسية .

(٣) تقنطر : سقط عن ظهر فرسه .

(٤) أرسف : مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا . معجم البلدان ١٥١/١ .

ذكر تخريب عسقلان والرملة ولُدّ

خاف السلطان أن تحدث بعسقلان ما حدث بعكا ، فاستشار أصحابه ، فأشاروا عليه بخرابها ، لعدة أمور ، منها : أن ينقطع الطريق إلى مصر ، وأن يستنزلوا على القدس ، فسار إليها ثامن عشر رمضان ، وقسم السور على الناس ، وبكى (٤٦ ب) وقال : والله فقد أولادى أهون على من هدمها ، فجعلوها دكاً ، واباح المسلمين ما فيها ، ثم رحل عنها ثانى رمضان ، وقيل غير ذلك . وتأسف الناس على عسقلان وباعوا المتاع بأبخس الأثمان ، حتى باعوا اثنتى عشرة دجاجة بدرهم ، وتشتتوا فى البلاد ، وذهب السلطان فخرب حصنها، وكنيسة لد . قال الدوادار : وأمر السلطان بخراب غزة والداروم ، انتهى . ثم عاد السلطان إلى القدس ، وقرر أمره ، وعاد إلى مخيمه ثامن رمضان ، وقيل : غير ذلك . وفيها طلب الانكتار[1] من العادل رسولاً فعاد بالجواب : إن الفريقين قد هلكوا ، وخربت البلاد بينهما فتعيدوا لنا القدس والصليب ، ويكون من الأردن ، ومغرب لنا . وطلب اجتماعه بالسلطان ، فقال العادل : إن الملوك إذا اجتمعوا يقبح الحرب بينهم بعد ذلك . وقيل : إن العادل والانكتار اجتمعا ، وقال : إنما جئت لنصرة فرغ الساحل فردوا عليهم ما أخذتم واحقنوا الدماء ، فقال العادل : حتى اجتمع بالسلطان ، فلما وقف السلطان على الرسالة قال : القدس عندنا أعظم ما هو عندكم ، والبلاد فى الأصل لنا ، والصليب هلاكه قُربة عندنا ، فسير الانكتار إلى العادل : أن تتزوج بأختى ويكون مستقرها القدس ، يهبها أخوها البلاد ، وكذلك يهبك أخوك . فأجاب السلطان على ذلك ، فلما اجتمعوا للزواج ، وقد كان العادل والانكتار بهما كل وقت ويتهاديان ، وكانت خديعة منهما قال القسيسون : لا يمكن هذا إلا أن يتنصر العادل ، وإلا غضب المسيح على الانكتار ، فتوقف الحال ، فبقى كل يوم يقع بين الفريقين مناوشات ، فلقوا من ذلك شدة ، وأقبل الشتاء ، فأعطى السلطان العساكر

---

(١) الانكتار : هو ريجارد قلب الأسد ملك الإنجليز ابن هنرى الثامن . الفتح القس ٤٧٧ حاشية ١ .

دستوراً ، وسار إلى القدس لسبع بقين من ذى الحجة ، وكان هو وأولاده والعلماء ينقلون الحجارة ، فكان يجتمع عند العمالين فى اليوم الواحد (ما) يكفى لعدة أيام .

وفيها أرسل السلطان إلى ولده الظاهر يأمره بخراب حصن بغراس[1] فبلغ ذلك ابن كيفون فسار وأخذها بلا قتال .

وفيها قدم على السلطان قيصر شاه بن قلج أرسلان صاحب الروح وذلك أن والده فرق بلاده على أولاده ، وأعطى هذا ملطية[2] ، فألزم بعض إخوته والده بأخذها منه فالتجأ إلى السلطان ، فزوجه بنت أخيه العادل ، وعاد إلى ملطية ، وخرج السلطان ليودعه ، فلما ركب عضده قيصر شاه وسوى عليه ثيابه صاحب الموصل ، فقال بعض الحاضرين فى نفسه : ما بقيت تبالى يا بن أيوب ، أى موتة تموت ؟ يركبك ملك سلجوقى ، ويصلح قماشك ابن اتابك زنكى . وفيها عزل أبا حامد بن أبى عصرون وولى محيى الدين بن الزكى (٤٧أ) .

سنة ثمان وثمانين :

قال فى المرآة : فيها خرجت قافلة عظيمة ، وكان يرتقب مجيئهم ، فبعث السلطان يحذرهم،وخرج الأنكتار فى ألف فارس وألف راجل ، فكبسهم قبيل الصبح ، فالسعيد منجا بنفسه ، وكانت نوبة عظيمة ، ساقوا ثلاثة آلاف جمل ، وألفاً وخمسمائة فرس ، ومن البغال مثلها ، وخمسمائة أسير ، وألف ألف دينار ، ومن الثياب مثلها ، وكان فى القافلة فلك الدين أخو العادل لأمه ، فنجا على فرس ، وذلك فى جمادى الآخرة ، وبلغ السلطان فأسقط فى يده .

وعزم الفرنج على قصد مصر ، ثم عدلوا إلى القدس ، وشاهدوه ، ورجعوا إلى بيت نوبة[3] ، وجاءهم خلق عظيم ، وكان السلطان بالقدس ، فجاءه الأمراء وطيبوا قلبه ، فلما

---

(١) بغراس : مدينة بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ . معجم البلدان ١٤٧/١ .

(٢) ملطية : إحدى مدن أرمينية . ١٩٢/٥ .

(١) بليدة من نواحى فلسطين . معجم البلدان ٥٢٣/١ .

كان الليل اختلفوا ، وقالوا : لا نقيم إلا أن يكون السلطان معنا ، وإلا جرى علينا كما جرى على أهل عكا ، وبلغ السلطان ذلك فبعث إليهم (يقول)[1] : هذا مجد الدين بن فروخ شاه ابن أخي يكون عندكم ، وأكون أنا من وراء ، أذب عنكم ، فقالوا : إنما نخرج ونصدقهم الحملة ، فعز ذلك عليه بات ليلة الجمعة ساجداً باكياً ، وبعث الصدقات ، فلما كان الفجر دخل الأقصى ، فجاءه اليزك فأسروه أنهم ركبوا بأسرهم ، وبات السلطان ليلة السبت قلقاً ، فلما طلع الفجر جاء جرديك مسرعاً فقال : نهنيك (إنهم) رحلوا نحو الرملة، فسجد ، وكشف أخبارهم ، فكان سبب رحيلهم أن السلطان طم ما حول القدس من الصهاريج والآبار ، فقال (لهم الانكتار) : من أين نشرب ؟ قالوا : من العيون قال : يتخطفوننا ، فحكموا (فيهم) ثلاثمائة نفس من علمائهم ، وحكم الثلاثمائة اثنى عشر ، وحكم الاثنى عشر ثلاثة ، على عادتهم فى التحكيم ، فباتوا يتشاورون ، ثم ترجح عندهم الرحيل ، فرحلوا نحو عكا ، وخرج السلطان فنزل على يافا ، وحصرها وملك المدينة ، وأشرف على أخذ القلعة ، فطلبوا الأمان ، ونهب المسلمون البلد ، فوقف مماليك السلطان على أبواب البلد ، من خرج ومعه شيء أخذوه ، فعز ذلك على الأمراء ، وكان (قد) بقى بالقلعة أربعون رجلاً ، فبينما هم كذلك إذ لاحت مراكب الفرنج ، فرأوا أعلام السلطان (عليها) فظنوا أنه قد أخذها ، فتوقفوا ، وقويت نفوس الذين بالقلعة ، فرمى واحد نفسه إلى الماء وأعلمهم ، فأرسوا إلى الميناء ، وكانت خمسة وثلاثين مركباً ، وصل الانكتار فهرب المسلمون ، وجاء الانكتار فنزل منزلهم ، ولم يكن معه سوى عشرين فارساً وثلاثمائة رجل، فبعث إلى السلطان يقول : أنت سلطان عظيم ، ومعك هذا الجيش ، فكيف رحلت عند وصولى ، وليس معى أحد ؟ فغضب السلطان ، وبات على ذلك ، فلما أصبح ركب العساكر ، والانكتار[2] على حالة لم يصل إليه أحد من الفرنج ، فحمل عليه المسلمون ،

---

(١) هو مجد الدين بهرام شاه بن فروخ شاه صاحب بعلبك ، والمتوفى سنة ٦٢٨ هـ ، وستأتى ترجمته .

(٢) الانكتار : ملك انجلترا .

فلم يتحرك ، فعظم على السلطان ، وصاح ويحكم ، وكم معه ؟ وأنتم عشرة آلاف وزيادة ، فلم يجبه أحد ، فقال له الجناح : قل هذا لمماليكك الذين ضربوا الناس أمس وأخذوا كسبهم[1] ، ويقال : إن الانكتار أخذ رمحه وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة فلم يتعرض له أحد، وساق السلطان إلى الأطراف ونزل فى خيمة صغيرة وحده ، ولم يتجاسر أحد أن يكلمه ، وجاءت رسل الانكتار فى طلب الصلح .

ذكر عقد هدنة
وعود السلطان إلى دمشق وغير ذلك

وسبب ذلك أن الانكتار مرض وطال مرضه ، وأرسل إلى العادل أن يسأل السلطان فى الصلح ، فلم يجبه ، وقال : متى حدث لى الموت لم تجتمع هذه العساكر ، ورأى أن نتم على الجهاد إلى أن نطهر البلاد منهم ، فرجعه عن ذلك الأمراء لنفاد نفقاتهم ، وطول تعبهم ، واجتمعوا للأيمان يوم الأربعاء ثانى عشرين شعبان ، ولم يحلف الانكتار ، بل أخذوا يده وعاهدوه ، واعتذر بأن الملوك لا تحلف ، وحلف ابن أخيه وعظماء الفرنج ، وكذلك لم يحلف السلطان، بل حلف أخوه وأقاربه وعقدت هدنة عامة فى البر والبحر مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، أولها أيلول الموافق حادى عشرين شعبان . وقال الدوادار : إن المدة ثلاث سنين وثمانية أشهر، أولها آخر شعبان . وإن السلطان حلف ، انتهى . على أن تستقر بيد الفرنج يافا[2] وقيسارية[3] وأرسوف وحيفا وعكا وأعمال ذلك ، وتكون عسقلان خراباً والرملة ولد[4] مناصفة .

---

(١) كسبهم : أى ما كسبوه فى الحرب .

(٢) مدينة على ساحل بحر الشام من أعامل فلسطين . معجم البلدان ٤٢١/٤ .

(٣) بلد على ساحل بحر الشام تعد فى أعمال فلسطين . معجم البلدان ٤٢١/٤ .

(٤) قرية قرب بيت المقدس من ناحية فلسطين . معجم البلدان ١٥/٥ .

واشترط السلطان دخول بلاد الاسماعيلية[1] فى الهدنة ، واشترط الفرنج أنطاكية وطرابلس ، وألا يفسخها مجيء نجدة ، وطلبوا زيارة القدس ، فأذن لهم ، ثم رحل فى رابع رمضان إلى القدس ، وأمر بتشييد أسواره ، وزاد فى وقف مدرسته التى به ، وهذه المدرسة كانت قبل الإسلام تُعرف با « صند حنة » يذكرون بأن فيها قبر (٤٨ أ) حنة أم مريم ، ثم صارت فى الإسلام دار علم ، فلما ملك الفرنج سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة أعادوها كنيسة ، فلما فتحه السلطان صيرها مدرسة ، وفوض تدريسها ووقفها إلى القاضى بهاء الدين بن شداد .

ولما استقرت الهدنة أمر السلطان مائة حجار بتخريب عسقلان ، وأن يخرج من بها من النصارى ، وعزم على الحج والاحرام من القدس ، وكتب إلى أخيه صاحب اليمن بذلك، فقال له الأمراء : لا تعتمد على الهدنة ، فانقطع شوقه عن الحج ، وأقام بالقدس ، وتأهب للمسير إلى مصر ، وأعطى البلاد دستوراً ، فلما بلغ السلطان رحيل الانكتار إلى بلاده مستهل شعبان ، قوى عزمه على أن يُدخل الساحل جريدة ، فرحل من القدس خامس شوال إلى نابلس ، ثم إلى بيسان [2] ، ثم إلى كوكب ، فبات بقلعتها ، ثم رحل إلى طبرية، ثم إلى بيروت ، ووصل إلى خدمته بيمند صاحب أنطاكية حادى عشرين شوال ، فأكرمه السلطان ، وفارقه غد ذلك اليوم . ودخل السلطان دمشق يوم الأربعاء لخمس بقين من شوال وفرح الناس به ، لأن غيبته عنهم كانت أربع سنين ، وزاد فى العدل والاحسان ، وأعطى العساكر دستوراً ، فودعه ولده الظاهر وداعاً لا لقاء بعده ، وبقى عنده ولده الأفضل .

وكان العادل قد سار من القدس إلى الكرك ، ثم عاد إلى دمشق طالباً البلاد الشرقية التى له ، فخرج السلطان إلى لقائه .

---

(١) سميت كذلك لأنها كانت بيد الإسماعيلية من الشيعة المنتسبين إلى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وهم يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية ، ولهم عدة قلاع مضافة إلى طرابلس ، وقد أوضحها صاحب صبح الأعشى وبين موقعها . انظر صبح الأعشى ١٤٦ ـ ١٤٧ .

(٢) مدينة بالأردن بالغور الشامى . معجم البلدان . ٥٢٧/١ .

وفيها قال الدوادار : وصلت قافلة من مصر فخرج عليها الفرنج فجرد السلطان عسكراً صحبة يازكج[1] وسلم المسلمون بعد محاربة . قال : وفيها هربت جماعة من العرب إلى الفرنج ، ثم أرسلوا يطلبون الأمان على أن يسوقوا بما قدروا عليه ، فساقوا خمسمائة فرس . قال : وفيها جهز الانكتار اسلحة المسلمين التى نهبها فى مركب ، وكانت شيئاً كثيراً ، فأرسل الله عليها ريحاً فغرق بما فيه ومن فيه .

وفيها توفى سيف الدين على بن المشطوب بنابلس ، وكانت إقطاعه ، فوقف السلطان ثلثها على صالح القدس ، وأقطع الباقى ولده عماد الدين أحمد وأميرين معه .

وفيها وصل إلى السلطان كتاب من اليمن أن ثلاثة أنهار بالحبشة تغيرت ، كانت عذبة، فصار الواحد أجاجاً والآخر لبناً والثالث دماً .

سنة تسع وثمانين

ذكر وفاة الملك الناصر تغمده الله بالرحمة والرضوان (٤٨ب) :

دخلت السنة والسلطان بدمشق على أحسن ما يكون من المسرة ، وخرج إلى شرقى دمشق يتصيد ، وغاب خمسة عشر يوماً ، وصحبه أخوه العادل ، ثم عاد إلى دمشق ، وودعه أخوه داعاً لا لقاء بعده ، ومضى إلى الكرك ، وأقام فيه حتى مات السلطان . وركب السلطان يوم الجمعة خامس عشر صفر ، وتلقى الحاج ، وبكى وتأسف لفوات الحج ، ووصل مع الحاج ولد أخيه سيف الإسلام . ثم عاد بين البساتين ، ودخل القلعة ، وكانت هذه آخر ركباته ، فلحقه ليلة السبت سادس عشر صفر كسل عظيم ، وغشيته نصف الليل حُمى صفراوية ، وأجمع الأطباء على أنه لا يفصد[2] فخالفهم الرحبى وفصده فكان سبب وفاته . ومن امارات حضور الأجل غيبة طبيبه الذى عرف مزاجه وكان يتغلب عليه اليُبس ،

---

(١) سيف الدين يازكج الأسدى : أحد أمراء السلطان صلاح الدين ، توفى بمصر سنة ٥٩٥ . ذيل الروضتين ص ٣٤ .

(٢) الفصد : شق العِرق .

ولم يزل مرضه في تزايد حتى انتهى إلى غاية (الضعف) ويغيب ذهنه ، فلما كان (اليوم) التاسع من مرضه حدثت له غشية ، وامتنع من تناول المشروب ، واشتد الارجاف في البلد، وغشي الناس من الحزن ما لا يمكن حكايته ، وحُقن في (اليوم) العاشر حقنتين فحصلت له راحة ، ثم عرق حتى نفذ من الفراش ، واشتد المرض ليلة الثاني عشر من مرضه، وهي ليلة السابع والعشرين من صفر ، واستحلف الأفضل الناس لنفسه ، وكان عند السلطان الفقيه أبو جعفر إمام الكلاسه[1] يقرأ القرآن فلما انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ **هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة** ﴾[2] وكان قد غاب ذهنه ، فقال : صحيح . وتوفي يوم الأربعاء سابع عشرين صفر ، وقيل : خامس عشرين ، وقيل : رابع عشرين بعد صلاة الصبح وحضر وفاته القاضي الفاضل ، وغسله الخطيب الدولعي[3] خطيب الجامع ، وأخرج بعد صلاة الظهر ، وجميع ما احتاجه من الثياب أحضره الفاضل من جهة حل ، ودفن بدار البستان موضع جلوسه ، وقيل : موضع مرضه ، قيل : ودفن معه سيفه ، وإن الفاضل قال هذا يتوكأ عليه في الجنة ، وليس بصحيح . فإن الأفضل أرسله مع بقية سلاحه إلى بغداد ، وعاب الناس عليه ذلك . ونزل قبره وقت العصر ، وعمل الأفضل العزاء ثلاثة أيام ، وحزن الناس عليه حزناً لم يحزن قبله مثله ، ثم إن الأفضل عمل لوالده تربة مقابل الكلاسة ، وكانت داراً لرجل صالح ، ونقل إليها يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين

---

(١) الكلاسة : هي مدرسة بجوار الجامع الأموي من شمال ، ولها باب إليه ، عمرها نور الدين الشهيد في سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

وسميت بهذا الاسم لأنها كانت موضع عمل الكلس أيام بناء الجامع ، ولما ملك صلاح الدين دمشق أمر بتجديدها وأول من صلى بها أبو جعفر أحمد بن علي القرطبي المتوفى سنة ٥٩٦ هـ .

انظر : الدارس في تاريخ المدارس ٤٤٨/١ .

(٢) سورة الحشر : الآية ١٢ .

(٣) هو عبد الملك بن زيد بن يس التغلبي الدولعي ، خطيب دمشق .

والدولعية قرية من قرى الموصل ، قدم دمشق واستوطنها وسار خطيبها ، توفي سنة ٥٩٨ . وفيات الأعيان ٢٠٢/٦ ، النجوم الزاهرة ١٨١/٦ .

ومشى بين يدى تابوته ، ووضع فى (٤٩ أ) الجامع ، وصلى عليه القاضى محيى الدين بن الزكى ، وجلس ابنه للعزاء ثلاثة أيام ، وأنفقت أخته ست الشام أموالاً عظيمة .

قال العماد(١) : « مات بموته رجاء الرجال ، وأظلم لغروب شمسه فضاء الأفضال ، وغاضت الأيادى ، وفاضت الأعادى ، وانقطعت الأرزاق ، وأظلمت الآفاق ، وفجع الزمان بواحده وسلطانه ، ورزئ الإسلام بمشيد أركانه » .

ورثاه الشعراء ، وبكاه الفصحاء ، فمن ذلك قصيدة للعماد ، مائتان وعشرون بيتاً أولها:

شمل الهدى والملك عم شتاته ... والدهر ساء وأقلعت حسناته
بالله أين الناصر الملك الذى ... لله خالصة صفت نياته ؟
أين الذى كانت له طاعاتنا ... مبذولة ولربه طاعاته ؟
أين الذى ما زال سلطاناً لنا ... يرجى نداه وتتقى سطواته ؟
أين الذى شرف الزمان بفضله ... وسمت على الفضلاء تشريفاته ؟
أعلاق أعناق العدا أسيافه ... أطواق أجياد الورى مناته
لم يجد تدبير الطبيب وكم وكم ... أجدى لطب الدهر تدبيراته
من فى الجهاد صفاحه ما أغمدت ... بالنصر حتى أغمدت صفحاته
من فى صدور الكفر صدر قناته ... حتى توارت بالصفيح قناته
منصورة غدواته محمودة ... روحاته ميمونة ضحواته
لا تحسبوه مات شخص واحد ... بل عم كل العالمين مماته
ملك عن الإسلام كان محامياً ... أبداً ، لماذا أسلمته حماته ؟
قد أظلمت مذ غاب عنا دوره ... لما خلت من بدره داراته
دفن السماح فليس يُنشر بعدما ... أودى إلى يوم النشور رُفاته
ما كنت أعلم أن طوداً شامخاً ... يهوى ولا تهوى بنا مهواته
ما كنت أحسب أن بحراً طامياً ... فينا يُطم وتنتهى زخراته

---

(١) انظر الفتح القسى ١٥٤/٢ ، مرآة الزمان ٤٣١/٨ ، تاريخ ابن الوردى ١٥٤/٢ .

الدين بعد أبى المظفر يوسف أقوت قواه اقفرت ساحاته
بحر خلا من ورديه ولم تزل محفوفة موفودة حافاته (٤٩ب)
من لليتامى والأرامل راحم متعطف مفضوضة صدقاته ؟
لو كان فى عصر النبى لأنزلت فى ذكره من ذكره آياته
بكت الصواهل والصوارم إذ خلت من سلها وركوبها عزماته
يا وحشة الإسلام حين تمكنت من كل قلب مؤمن روعاته
ما كان أسرع عصره لما انقضى فكأنما سنواته ساعاته
يا راعياً للدين حين تمكنت منه الذئاب وأسلمته رُعاته
ما كان ضرك لو أقمت مُراعياً ديناً تولت مذ رحلت ولاته
فارقت مُلكاً غير باق مُتعباً ووصلت مُلكاً باقياً راحاته
فعلى صلاح الدين يوسف دائماً رضوان رب العرش بل وصلاته

وقال ابن الساعاتى يرثيه ويمدح ولده العزيز :

لئن كان ليل الحرب عرى غياهبه فقد بان عن بدر السماء كواكبه
وإن كان ليث الغاب خلى عرينه وغاب ، فهذا شبله وكتائبه
وإن فارق الغمد المحلى حسامه فهذا حسام لا تُفل مضاربه
وإن أقفر الفسطاط منه فإنه منازله مأهولة وملاعبه
أقام عماد الدين رفع بنائه فما ضل مسعاه ولا ذل جانبه
يرد العيون الشوس عنه كليلة من الحق نور ليس يعدوه لازبه
كأن شعاع الشمس يلقاك دونه ولم تر ملكاً حاجب الشمس حاجبه
ومن كان فى السعى أبوه دليله تدانت له أسبابه وسياسته
هو البحر حدث عنه غير مُكذب فما تنقضى أيامه وعجائبه

وقال ابن شمس الخلافة[1] :

---

(١) هو أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة أبو عبد الله محمد بن شمس الخلافة مختار الأفضلى الملقب بمجد الملك ، ولد سنة ٥٤٣ هـ ، وتوفى سنة ٦٢٢ هـ . وفيات الأعيان ٣١٣/١ .

هو الدهر فاعلم ما على الدهر من عتب يشوب الرضى بالسخط والسلم بالحرب
يغص ولم يشبع بأطيب مطعم ويشرق قبل الرى بالبارد العذب
وإن هو أعطى أو كسا متكلفاً فلا بد من أخذ ولا بد من سلب(٥٠ أ)
فلا تأمنن الموت شيخاً ويافعاً فللموت مَن ربى ، وللموت مَن رُبى
بكيت من الأيام لو ينفع البكا وعاتبت دهرى لو غدا مُجدياً عتبى
فيأمرنى بالصبر ، والصبر معوز إليك فما سمعى إلى ولا قلبى
ألست ترى كيف انبرى الخطب ثائراً ومد يداً منه إلى دافع الخطب
إلى الناصر الملك الذى ملئت به قلوب البرايا من رجاء ومن رعب
كريم أتاه الموت ضيفاً فلم يكن لينزله إلا على السهل والرحب
ولو خاب منه قبل ذلك سائل لخاب وليس البخل من شيم السحب
قضى فانقضى المعروف وانقرض الندى وحطت رحال الوفد فى الشرق والغرب
فلم يخل قلب من هموم ومن أسى ولم يخل طرف من سهاد ومن سكب
أفاض على الدنيا سجال نواله ففاضت عليه أعين العجم والعُرب
ولو أنه يُبكى على قدر حقه لسالت دموع المزن من أعين الشهب
وأصبح للبيت المقدس منقذاً بأصلب عزم من مُقاربة الصلب
وإن هو أوصى للعزيز بملكه فمن ماجد ندب إلى ماجد ندب[1]

وكتب الفاضل إلى ولده الظاهر بطاقة ساعة موته[2] : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** ﴾[3] ، ﴿ **إن زلزلة الساعة شىء عظيم** ﴾[4] ،كتبت إلى مولانا السلطان ، الملك الظاهر أحسن الله عزاءه ، وجبر مُصابه ، وجعل فيه الخلف فى الساعة المذكورة ، وقد زلزل المسلمون زلزالاً شديداً ، وقد حفرت الدموع المحاجر ، وبلغت القلوب الحناجر ، وقد

---

(١) ورد بعض أبيات هذه القصيدة فى الروضتين ٢٢٤/٢ .
(٢) وردت فى مرآة الزمان ٤٣٢/٨ ، وفيات الأعيان ٢٠٤/٦ ، النجوم الزاهرة ٥٣/٦ ، تاريخ ابن الوردى ١٥٣/٢ .
(٣) سورة الأحزاب : الآية ٢١ .
(٤) سورة الحج : الآية ١ .

ودعت أباك ، ومخدومى وداعاً لا تلاقى بعده ، وقبلت وجهه عنى وعنك ، وأسلمته إلى الله تعالى مغلوب الحيلة ، ضعيف القوة ، راضياً عن الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وبالباب من الجنود المجندة ، والأسلحة المغمدة ، ما لا يدفع البلاد ، ولاملك يرد القضاء وتدمع العين، يخشع القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، وإنا عليك لمحزونون يا يوسف ، وأما الوصايا فما تحتاج إليها ، والآراء فقد شغلنى المصاب عنها ، وأما لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق (٥٠ب) فما عدمتم إلا شخصه الكريم ، وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة أهونها موته ، وهو الهول العظيم » .

وكتب الفاضل على قبره : اللهم فارض عن تلك الروح ، وافتح له أبواب الجنة ، فهو آخر ما كان يرجوه من الفتوح .

ذكر ما فتحه الملك الناصر من البلاد

أول ما فتح الديار المصرية والحجاز ومكة والمدينة ، ومن زبيد إلى حضرموت[١] متصلاً بالهند . وفى الشام : دمشق وبعلبك وحمص وحماة الساحل ، ونذكره قريباً . ومن الشرق: حران والرها والرقة ورأس عين وسنجار ونصيبين وحملين والمورب وديار بكر وميافارقين وآمد[٢] وحصونها وشهرزور والبوازيج[٣] وخطب له (على المنابر) من باب همذان إلى الفرات ، ومن الفرات إلى حضرموت ، ومن الغرب إلى أفريقيا . ويقال : إنه فتح ستين حصناً ، وزاد على نور الدين بمصر والحجاز واللموت واليمن والقدس والساحل وديار بكر . ولو عاش لفتح الدنيا . وهو ونور الدين متقاربا السيرة فى العدل ، وكلاهما لم يبلغ الستين

---

(١) حضرموت : ناحية واسعة فى شرق عدن بقرب الساحل . معجم البلدان ٢٧٠/٢ .

(٢) أمد : أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدراً وأشهرها ذكراً . معجم البلدان ٥٦/١ .

(٣) البوازج : بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث تصب فى دجلة . معجم البلدان ٥٠٣/١ .

ملك مصر نحو أربع وعشرين سنة والشام قريباً من تسع عشرة سنة . ومدة عمره قريب من سبع وخمسين سنة .

وأما ما فتحه من البلاد الفرنجية على ما ساقه الدوادار : فحصن صفورية بالسيف ، حصن الطور تسليماً ، حصن دبورية[١] بالسيف ، قلعة الفولة[٢] تسليماً ، حصن عفر بلا[٣] تسليماً ، حصن جنين تسليماً ، حصن سبسطية تسليماً ، حصن كرك تسليماً ، حصن عفرى[٤] بالأمـان ، بيت لحم[٥] حصن الغازرية تسليـماً ، حصن الجليل[٦] بالأمان، حصن جبريل بالأمان ، قلعة تل الصافية[٧] تسليماً ، حصن أيابا بالأيمان ، قلعة الجيب الفوقانى بالأمان ، حصن الجيب التحتانى[٨] بالأمان ، حصن النطرون بالأمان ، حصن الداروم بلا قتال ، حصن المجدل، حصن الأحمر بالسيف ، حصن لُد بالسيف ، حصن ، حصن قلنسوه[٩] بغير قتال ، حصن الفاقون كذلك ، حصن العون بالسيف ، حصن يُبنى[١٠] بالسيف ، قلعة الكرك بعد حصار سنة ونصف ، قلعة الشوبك بالأمان ، قلعة السلع[١١] والوعيرة[١٢] والجمع[١٣] قلعة صفد بعد الحصار ، حصن يازور ، قلعة

(١) دبورية : بليد قرب طبرية من أعمال الأردن . معجم البلدان ٤٣٧/٢ .

(٢) الفولة : بلدة بفلسطين من نواحى الشام . معجم البلدان ٢٨٠/٤ .

(٣) عفربلا : بلد بغور الأردن قرب بيسان وطبرية . معجم البلدان ١٣١/٤ .

(٤) عفرى : حصن شمال القدس . النوادر السلطانية ٢٤٨ .

(٥) بيت لحم : بليد قرب البيت المقدس . معجم البلدان ٥٢١/٢.

(٦) حصن الجبل : فى ساحل الشام . معجم البلدان ١٥٧/٢ .

(٧) تل الصافية : حصن من أعمال فلسطين من نواحى الرملة . معجم البلدان ٤٢/٢ .

(٨) الجيب الفوقانى والجيب التحتانى : حصنان بين المقدس نابلسى . معجم البلدان ١٩٦/٢ .

(٩) قلنسوة : حصن قرب الرملة من أرصن .

(١٠) يُبنى : بليد قرب الرملة من أرض فلسطين . معجم البلدان .

(١١) السلع : حصن بوادى موسى قرب بيت المقدس . معجم البلدان ٢٣٦/٣ .

(١٢) العيرة : حصن قرب وادى موسى . معجم البلدان ٣٨٠/٥ .

(١٣) الجمع : قلعة بوادى موسى قرب الشبك . معجم البلدان ١٦٢/٢

هونين بالأمان ، قلعة تبنين تسليماً ، شقيف أرنون تسليماً اسكندرونة وقلعة أبى الحسن وحصن بلدة وحصن يحمور بالأمان . حصن بلنياس . حصن صهيون وربضه بالسيف ، قلعة بلاطنس (٥١ أ) حصن الجُماهرية[1] ، قلعة الفيدوة ، قلعة بكاس ، قلعة الشغر ، بكسرائيل[2] قلعة السرمانية ، قلعة البرزيق ودربساك وبغراس ، حصنا الدامور والسرفند والشقيف بحصار ثلاث سنين، الرملة بالسيف ، طبرية بالسيف ، عكا بالصلح ، حيفا ويافا وعسقلان وغزة[3] وصيدا وانطرسوس وجبلة واللاذقية ونابلس وبيت المقدس .

ذكر ما بنى من الأماكن

لما ملك مصر لم يكن بها شيء من المدارس ، فعمر بالقرافة المدرسة المجاورة لضريح الامام الشافعى بالقاهرة ، والمدرسة المجاورة للمشهد (المنسوب إلى الحسين بن على رضى الله عنهما) وجعل عليها وقفاً كبيراً والخانقاه المعروفة بـ « سعيد السعداء » وهى دار سعيد السعداء خادم (الخلفاء) المصريين ، ودار عباس وزير المصريين مدرسة للحنفية ولها وقف جيد ، والمارستان بالقاهرة داخل القصر وله وقف جيد ، والمدرسة التى بمصر المعروفة بـ « زين التجار » على المالكية ولها وقف جيد ، ومدرسة للمالكية أيضاً. وله بالقدس مدرسة وخانقاه ، وجدد أماكن كجامع عمرو وغيره ، وله المدارس والأوقاف بالأقطار ، ووقف الكثير على أبواب البر ، ووقف على البكرية والعمرية والشيبية ، ولم ينسب شيئاً من ذلك إلى نفسه فالمدرسة التى بالقرافة يقولون : الشافعى . والتى بجوار المشهد تعرف بالمشهد، والخانقاه بسعيد السعداء ، ومدرسة الحنفية بالسيوفية ، والمالكية بهم، والشافعية بزين التجار ، وهذه صدقة السر على الحقيقة . ومن العجب أن له بدمشق مدرسة يقال لها : الصلاحية منسوبة إليه ، ليس لها وقف ، وله بها مدرسة للمالكية لا تعرف به . ومع هذه المملكة

---

(١) حصن الجماهيرية : حصن قرب جبلة من سواحل الشام . معجم البلدان ١٦٠/٢ .

(٢) بكسرائيل : حصن من سواحل حمص مقابل جبلة فى الجبل . معجم البلدان ٤٧٥/١ .

(٣) بعد غزة ذكر الداروم ، وقد ذكرت سابقاً .

المتسعة لم يخلف سوى سبعة وأربعين درهماً وديناراً واحداً . وقال العماد : ستة وثلاثين ، ولم يخلف داراً ولا عماراً ، وهذا دليل قاطع على فرط كرمه .

ذكر بعض ترجمته مما لا يدخل تحت السنين وذكر قضاته وكتابه

كان كثير التواضع واللطف ، قريباً من الناس ، رحيم القلب ، كثير الاحتمال والمداراة. يحب العلماء وأهل الخير ، ويقربهم ويحسن إليهم ، ويميل إلى الفضائل ، ويستحسن الجيد من الأشعار ويرددها ، وكان كثيراً ما يُنشد قول محمد بن الحسين الحميرى ، وقيل : بل ابن خيران[1] أمير المرية :

وزارنى طيف من أهوى على حــــذر ... من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا ٥١ب

فكدت أوقظ من حــولى به فــرحــاً ... وكـــاد يهتك ســتــر الحب بى شـغـفـا

ثم انتــهــيت وآمـــالى تخــيل لى ... نيل المنى فاستحالت غبطتى أسفا [2]

وكان يعجبه قول نشو الملك ابن المنجم فى خضاب الشيب ، ولقد أحسن فيه :

ومـا خضب الناس البياض لقبحـه ... وأقـــبح منه حين يظهــر ناصله

ولكنه مـــات الشـــبـــاب فـــسودت ... على الرسم من حزن عليه منازله[3]

---

(١) هو أبو محمد بن على بن خيران العامرى ، كان أميراً بالمرية من بلاد الأندلس ، وكان جده من سبى المنصور بن أبى عامر فنسب إليه . وفيات الأعيان ٢٠٧/٦ .

(٢) وردت هذه الأبيات فى وفيات الأعيان ٢٠٧/٦ ، النجوم الزاهرة ٥٦/٦ ، الغيث المسجم ١٤٦/١ .

(٣) ورد البيتان فى وفيات الأعيان ٢٠٧/٦ ، النجوم الزاهرة ٥٦/٦ .

فكان إذا قال : ولكنه مات الشباب يُمسك كريمته[1] وينظر إليها ويقول : إى والله مات الشباب! وذكر في الخريدة أن السلطان كتب في أول ملكه إلى بعض أصحابه :

أيها الغائبون عنا وإن كنـ ـتم لقلبى بذكركم جيرانا
إننى مذ فقدتكم لأراكم بعيون الضمير عندى عيانا[2]

ومن محاسن السلطان أن صاحب ديوانه حوسب ، فخرج عليه تسعون ألف دينار فما طلبها ، ولا أراه أنه عرف بها وولاه بعد ذلك ديوان جيشه ، وكان إذا فتح بلداً وهبه لبعض أقاربه أو أتباعه . وقدم إليه مملوك قصة ، فقال : أنا الساعة ضجر ، فلم يؤخرها المملوك ، وقدمها إلى وجهه فلما قرأ اسم صاحبها . قال : إى والله رجل مستحق ، ثم نظر ، فإذا الدواة بعيدة فامتد على يده اليسرى حتى أخذ الدواة . وقال القاضى شهاب الدين : نفرت بغلتى ، وأنا راكب في خدمته ، فزحمت وركه ، حتى أقلقه من الوجع وهو يبتسم . وبدلت في خزانته كيسين من الذهب بكيسين من الفلوس فلم يعمل في المباشرين شيئاً سوى صرفهم . وكان إذا عزم على أمر توكل على الله . ولا يفضل يوماً على يوم . وكان حسن الأخلاق ، صبوراً على ما يكره ، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه ، يسمع ما يكره فلا يتغير على قائلة . وكان يوماً جالساً فرمى بعض المماليك بعضاً بسرموزة فأخطأته ووقعت بالقرب من السلطان فالتفت إلى الجهة الأخرى ليتغافل عنها . وقرأ محضراً في الفقه تصنيف سليم الرازى[3] ومدحه جميع شعراء عصره وانتجعوه من البلاد ، منهم العلم

---

(١) أى : لحيته .

(٢) ورد البيتان في الروضتين ٤١٠/١ ، ومفرج الكروب ١٧٢/١ ، وفيات الأعيان ٢٠٧/٦ ، النجوم الزاهرة ٥٧/٦ ، تاريخ ابن الفرات ٦٦/٤ .

(٣) هو سليم بن أيوب بن سليم الرازى الشافعى ، فقيه أصله من الرى ، تفقه في بغداد ورابط بثغر لور وحج فغرق في البحر عند ساحل جدة سنة ٤٤٧ هـ .
انظر : طبقات السبكى ١٦٨/٣ ، شذرات الذهب ٢٧٥/٢ .

الشاتاني[1] واسمه محمد ، أول القصيد :

أرى النصر مقروناً برايتك الصفرا فسر واملك الدنيا فأنت بها أحرى ١٥٢أ

والمهذب عمر المعروف بابن الشحنة[2] بقصيدته التي أولها :

سلام مشوق قد براه التشوق على جيرة الحى الذين تفرقوا

ومنها :

وإنى امرؤ احببتكم لمكارم سمعت بها والأذن كالعين تعشق
وقالت لى الآمال إن كنت لاحقاً بأبناء أيوب فأنت الموفق

ومدحه ابن قلاقس[3] وابن سناء الملك ، وابن الذروى[4] ، وابن المنجم ، وابن الساعاتي وابن البحراني [5] ، وابن دُهن الحصى[6] ، ومحمد الخيراني[7] ، وغيرهم ،

---

(١) نسبة إلى شاتان : وهى قلعة بديار بكر ، وهو الحسن بن على بن سعيد بن عبد الله ، أبو الحسن علم الدين ، كان أديباً شاعراً فاضلاً ، توفى سنة ٥٧٦ هـ . وفيات الأعيان ٣٨٦/١ ، وقد توهم المؤلف بأن اسمه محمد . انظر : معجم البلدان ٣٠٤/٣ .

(٢) المهذب أبو حفص عمر بن محمد بن على بن أبى نصر المعروف بابن الشُحنة الموصلى . النجوم الزاهرة ٥٨/٦ .

(٣) هو أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله بن مخلق بن على بن عبد القوى بن قلاقس ، كان شاعراً مجيداً ، توفى سنة ٥٦٧ . وفيات الأعيان ٢١/٥ .

(٤) نسبة إلى دروة ، بلد باليمن وهو وجيه الدين على بن الحسن الذروى ، من مشاهير الشعراء بمصر ، توفى سنة ٥٧٧ هـ . (الخريدة ـ قسم الشعراء) .

(٥) هو محمد بن يوسف بن حمد الملقب موفق الدين الأربلى الشاعر المشهور ، كان إماماً مقدماً فى علم العربية توفى سنة ٥٨٥ هـ . النجوم الزاهرة ٥٩/٦ حاشية ٦ .

(٦) هو الحسن بن هبة الله بن دهن الحصى الموصلى ، توفى سنة ٦٠٣ هـ . الغصون البالغة ص ٨١ .

(٧) فى وفيات الأعيان ٢١١/٦ ، محمد بن إسماعيل بن حمدان الخيرانى .

ومن مدحه ابن التعاويذى(١) بقصيدتين الأولى على وزن قصيدة صردر(٢) وأولها :

أكــذا يُجــازى ود كل قــرين ... أم هذه شــيم الظبــاء العين

(وقصيدة سبط ابن التعاويذى) :

إن كـان دينك فى الصبـابة دينى ... فـقف المطى برملتى يبـرين
والثم ثرى لو شـارفت بى هضبـه ... أيدى المطى لثمـتـه بجفـونى
وأنشد فوادى فى الظباء معرضاً ... فـبـغـيـر غـزلان الصـريم جنونى
ونشـيـدتى بين الخـيـام ، وإنما ... غـالطت عنهـا بالضـبـاء العين
لولا العـدا لم أكن عن ألحـاظهـا ... وقـدودها بجـوازىء وغـصـون
لله مـا اشـتـملت عليـه قـبـابهم ... يـوم الـنوى مـن لـؤلـؤ مكـنـون
من كل تـائهـة على أترابهـا ... فى الحسن غـانيـة عن التـحسين
خـود ترى قـمـر السـمـاء إذا بدت ... مـا بين سـالفـة لهـا وجـبين
غـادين مـا لمعت بروق ثغـورهم ... إلا اسـتـهلت بالدمـوع جُفـونى
إن تنكروا نفس الصـبـا فـلأنهـا ... مـرت بزفـرة قلبى المحـزون
وإذا الركـائب فى الجـبـال تلفـتت ... فـحنينهـا لتلفـتى وحنينى
يا سلم إن ضـاعت عـهـودى عندكم ... فـأنا الذى اسـتـودعت غـيـر أمين
أو عُدت مغبوناً فما أنا فى الهوى ... لكم بأول عـاشق مـغـبـون
رفقاً فقد عسف الفراق بمطلق الـ ... ـعـبـرات فى أسـر الغـرام رهين
مـا لى ووصل الغـانيـات أرومـه ... ولقـد بخلن على بالماعـون
وعـلام أشكو والدمـاء مطاحـة ... بلحـاظهن إذا لوين ديونى (٥٢ب)
هيـهـات مـا للبيض فى ود امرئ ... أرب وقـد أربى على الخـمـسين
ومن البليـة أن تكون مطالبى ... جـدوى بخـيـل أو وفـاة خـؤون
ليت الضنين على المحب بوصله ... لقن السـمـاحـة من صلاح الدين

---

(١) محمد بن عبد الله بن عبد الله المعروف بابن التعايذى ، توفى سنة ٥٨٤ هـ . وفيات الأعيان ٤/٩٠ .

(٢) هو رئيس أبو منصور على بن الحسن بن الفضل الكاتب المشهور بصردر ، توفى سنة ٤٦٥ . النجوم الزاهرة ٥/٩٤ .

وأما القصيدة الثانية فهى :

حتام أرضى فى هواك وتغضب ؟ وإلى متى تجنى على وتعتب ؟
ما كان لى لولا ملالك زلة لما مللت زعمت أنى مذنب
خذ فى أفانين الصدود فإن لى قلباً على العلات لا يتقلب
أتظننى أضمرت بعدك سلوة ؟ هيهات ، عطفك من سلوى أقرب
لى فيك نار جوانح ما تنطفى حزناً وماء مدامع ما ينضب
أنسيت أياماً لنا ولياليا للهو فيها والبطالة ملعب
أيام لا الواشى يعد ضلالة ولهى عليك ولا العذول يؤنب
قد كنت تنصفنى المودة راكباً فى الحب من أخطاره ما أركب
واليوم أقنع أن يمر بمضجعى فى النوم طيف خيالك المتأوب
ما خلت أن جديد أيام الصبا يبلى ولا ثوب الشبيبة يُسلب
حتى انجلى ليل الغواية واهتدى سارى الدجى وانجاب ذاك الغيهب
وتنافر البيض الحسان فأعرضت عنى سعاد وأنكرتنى زينب
قالت وريعت من بياض مفارقى ونحول جسمى : بان منك الأطيب
إن تنقمى سقمى فخصرك ناحل أو تنكرى شيبى فثغرك أشنب
يا طالبا بعد المشيب غضارة من عيشه ذهب الزمان المذهب
أتروم بعد الأربعين تعدها وصل الدمى ؟ هيهات عز المطلب
ومن السفاه وقد شاك طلابه نفعاً تطلبه وفودك أشيب
لولا الهوى العذرى يا دار الهوى ما هاج لى طرباً وميض خلب
كلا ولا استجديت أخلاف الحيا وندى صلاح الدين هام صيب(٥٣ أ)

أما قضاته ووزراؤه وكتابه ، فالقضاة : القاضى كمال الدين الشهرزورى ، وشرف الدين بن أبى عصرون ، وولده أبو حامد ، ومحيى الدين بن الزكى ، ووزيره الصفى بن القابض[١] وكاتبه القاضى الفاضل والعماد الكاتب . وكان الفاضل هو المشار إليه لا يصدر السلطان إلا عن رأيه .

---

(١) صفى الدين أبو الفتح بن القابض المتوفى سنة ٥٨٧ . الفتح القسى ٥٧٦ .

ذكر أولاد الملك الناصر

وهم ثمانية عشر وبنتاً ، مات واحد منهم فى حياته وهو الصالح معين الدين حسن ، وخلف الباقى . وقيل : سبعة عشر . وقيل: بل هم ستة عشر . وهم : الأفضل نور الدين على ، وهو الأكبر ، ولد بمصر سنة خمس وستين . العزيز عماد الدين عثمان ، ولد بمصر سنة سبع وستين . الظاهر غياث الدين غازى (ولد) بمصر سنة ثمان وستين . المعز فتح الدين اسحاق ولد سنة سبعين المؤيد نجم الدين مسعود (ولد) بدمشق سنة إحدى وسبعين . الأعز شرف الدين يعقوب (ولد) بمصر سنة اثنتين وسبعين . المفضل قطب الدين موسى (ولد) بمصر سنة ثلاث وسبعين . الزاهر وقيل الزاهد فخر الدين ، وقيل بحير الدين داود (ولد) بمصر سنة ثلاث أيضاً . الأشرف عز الدين ، وقيل نصير الدين محمد بمصر سنة سبع وسبعين . المعظم فخر الدين توران شاه (ولد) بمصر سنة سبع أيضاً . الجواد ركن الدين ، وقيل نجم الدين أيوب (ولد) سنة ثمان وسبعين. العادل ، وقيل الغالب ملك شاه، وقيل الغالب فروخ شاه (ولد) بالشام سنة ثمان أيضاً . عماد الدين شاذى وهو عمر ولم يذكره بعضهم المنصور نصرة الدين ، وقيل سيف الدين أبو بكر ، وقيل إنهما اثنان ، فأبو بكر سيف الدين ، ونصرة الدين مروان ، ولد بحران بعد فاة والده سنة تسع وثمانين ، والبنت مؤنسة خاتون .

الأشقاء ، منهم ثلاثة : على ، خضر ، موسى . ثلاثة أيضاً : توران شاه ، ملك شاه، أبو بكر .اثنان : عثمان، يعقوب ، اثنان أخر : غازى ، داود . اثنان آخر : محمد ، أحمد . ويأتى ذلك مفصلاً .

ذكر ما تجدد بعد وفاته

استقر الأمر بعد وفاته بدمشق لولده الأفضل (نور الدين على) وهو ولى العهد وأكبر أخوته ، والمحلوف له (٥٣ب) ، وعنده شقيقاه الظافر على بصرى ، والمفضل . وبمصر العزيزعثمان . وبحلب الظاهر غازى ، وعنده أخوه الزاهر داود . وبحران والرها وميافارقين وجعبر[١] والكرك والشوبك العادل أبو بكر . وحماة والمعرة وسلمية[٢] ومنبج المنصور محمد. وببعلبك الأمجد بهرام شاه ، وبحمص والرحبة[٣] المجاهد شيركوه (بن محمد بن شيركوه) وبيد جماعة من أمرائه بلاد ، منهم (سابق الدين عثمان بن الداية بيده شيزر وأبو قبيس . وناصر الدين بن منكورس صهيون وحصن برزية . وبدر الدين دلدرم[٤] تل باشر[٥] وعز الدين أسامة[٦] كوكب وعجلون . وعز الدين بن المقدم بعرين وكفر طاب وفامية[٧] . وعين تاب[٨] بيد ناصر الدين شحنة حلب .

ولما بلغ العادل وفاته عظم عليه وقدم على الأفضل معزياً ، وأقام وظيفة العزاء ، ثم توجه إلى بلاده الشرقية . وتأتى بقية الأخبار ، وأقول كما قال ابن خلكان : وعذرى فى تطويل هذه الترجمة قول المتنبى :

---

(١) جعبر : قلعة على الفرات بين بالس والرقة . معجم البلدان ١٤٢/٢ .

(٢) سلمية : بليدة من ناحية البرية من أعمال حماة . معجم البلدان ٢٤٠/٣ .

(٣) الرحبة : ناحية بين المدينة والشام . معجم البلدان ٣٣/٣ .

(٤) هو بدر الدين بن دلدرم بن باروق المتوفى سنة ٦١١ هـ . أبو الفداء ١١٥/٢ ، مفرج الكروب ٢٢٤/٣ .

(٥) تل باشر : قلعة حصينة وكورة واسعة شمالى حلب . معجم البلدان ٤٠/٢ .

(٦) مات فى سجن الكرك سنة ٦٠٨ هـ ، وكان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل . مفرج الكروب ٢١٠/٣ .

(٧) فامية : مدينة كبيرة وكورة من سواحل حمص . معجم البلدان ٢٣٣/٤ .

(٨) عين تاب : قلعة حصينة بين حلب وأنطاكية . معجم البلدان ١٧٦/٤ .

وقـــد أطال ثنائى طول لابســـه إن الثناء على التنبـــال تنبـــال[1]

التنبال بكسر التاء: الرجل القصير .

ومنهم الملك العزيز طُغتكين[2]

وقيل : طُغدكين بن أيوب بن شاذى ، الملك العزيز سيف الإسلام ظهير الدين ، صاحب اليمن أخو صلاح الدين ، سيره أخوه إلى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ليملكها ويقطع الفتن ، كان بها حطان بن سند الكنانى[3] ، وعز الدين عثمان الزنجبيلى[4] قد عادا إلى ولايتهما فإن الأمير الذى سيره السلطان على نيابة اليمن عزلهما ثم توفى ، فعادا إلى ولايتهما ، فوصل سيف الإسلام والفتن قائمة بينهما ، فتحصن حطان ببعض قلاع زبيد[5] فلم يزل يتلطف به إلى أن نزل فأحسن صحبته ، ثم إنه طلب دستوراً للمسير إلى الشام ، فلم يجبه إلا بعد جهد ، فجهز حطان أثقاله قدامه ودخل ليسلم على سيف الإسلام فقبض عليه وأرسل فاسترجع أثقاله وأخذ جميع ماله ومن جملة ما أخذ من ماله سبعون غلاف زردية مملوءة ذهباً عيناً ثم سجنه ببعض القلاع وكان آخر العهد به ، وأما عثمان فإنه لما جرى ذلك لحطان خاف فسار إلى الشام وسير أمواله فى البحر ، فصادفهم مراكب فيها أصحاب سيف الإسلام فأخذوا كل ما لعثمان وصفت بلاد اليمن لسيف الإسلام من زبيد إلى حضرموت وقمع الخوارج ، وكان شجاعاً شهماً وقد تقدم بعض أخباره فى ترجمة

---

(١) ديوان المتنبى ص ٥٠٥ .

(٢) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ٤٥٣/٨ ، وفيات الأعيان ٢٠٦/٢ ، مفرج الكروب ٧٢/٣ ، النجوم الزاهرة ١٤١/٦ ، البـــداية والنهـــاية ١٥/١٣ ، الكامل ١٢٩/١٢ ، تاريخ ابن الوردى ١٦١/٢ ، شذرات الذهب ٣١١/٤٠ .

(٣) قتله طغتكين سنة ٥٧٨ هـ عندما ملك اليمن . كنز الدرر ص ٧٣ .

(٤) هرب من اليمن إلى دمشق وسكن فيها إلى أن توفى سنة ٥٨٣ هـ . الدارس فى تاريخ المدارس ٥٢١ .

(٥) مدينة مشهورة باليمن . معجم البلدان ١٣١/٣ .

أخيه الناصر ، وكان شديد السيرة مُضيقاً على الرعية يشترى أموال (٥٤ أ) التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء ، وجمع من الأموال الآلاف ، وكان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره .

ولما بلغه وفاة أخيه الناصر خرج يريد مصر فأشار عليه رجل شريف : إنك تخرج لبلاد لا يعلم تحصل لك أم لا ؟ وتترك بلاداً بفتنٍ فرجع إلى رأيه وتوفى فى شوال سنة ثلاث وتسعين خمسمائة بزبيد بالمنصورة التى أنشأها ، وكانت ولايته اليمن ست عشرة سنة .

وكان قد طرد شمس الملوك إسماعيل إلى الحجاز لأمر نقمه عليه فكان بالسرين[1] فبعث إليه جمال الدين كافور وعرفه بوفاة والده فملك بعده ، ولما نفى الناصر ابن عتين إلى اليمن اتصل بسيف الإسلام ، وحصل له أموال عمل بها متجراً وعاد إلى مصر ، وصاحبها العزيز ابن الناصر فأخذ منه زكاة ماله على عادة التجار فقال ابن عُنين[2] :

ما كل ما يتسمى بالعزيز لها ... أهل ولا كل برق سحبه غدِقهْ
بين العزيزين بوْن فى فعالهما ... هذاك يعطى ، وهذا يأخذ الصدقهْ

ومنهم الملك العادل محمد[3]

ابن أيوب بن شاذى العادل سيف الدين أبو بكر وكنيته أشهر من اسمه ، قيل : إن مولده فتوح الرها ، وكان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وقيل : إن مولده سنة أربعين ،

---

(١) السرين : بلفظ تثنية السر . بُليد قريب من مكة على ساحل البحر . معجم البلدان ٢١٩/٣ .

(٢) ديوان ابن عنين ص ٢٢٣ .

(٣) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ٥٩٤/٨، وفيات الأعيان ٢٠٧/٢ ، ذيل الروضتين ١١١ ، الوافى بالوفيات ٢٣٥/٢ ، تاريخ أبى الفداء ١٥٨/٣ ، البداية والنهاية ٧٩/١٣ ، السلوك ١٩٠/١ ، الدارس ٢٦٢/٢ ، ابن إياس ٧٥/١ ، ابن الوردى ١٩٢/٢ ، النجوم الزاهرة ١٦٠/٦ ، أخبار الأيوبيين ١٣٠ .

وكان نبيلاً حازماً سديد الآراء ، ذا مكر وخديعة ، حسن التدبير خليقاً للملك حليماً صفوحاً ، عادلاً مجاهداً ديناً عفيفاً متصدقاً آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر طهر جميع ولايته من الفساد والخمور والخواطئ والمخانيث والقمار والمكوس والمظالم ، وكان يحصل من هذه الجهات بدمشق خاصة مائة ألف دينار ، دخلت بعض المغانى عليه فى عرس فقال لها : أين كنت ؟ قالت : ما قدرت أن أجيء حتى وفيت ما على من الضمان فقامت قيامته ، وتوعد على ذلك أشد الوعيد ، وفعل فى غلاء مصر بعد موت العزيز ما لم يفعله غيره ، وكان يخرج بنفسه فى الليل ويفرق المال ، ولولاه ـ بفضل الله ـ لمات الناس كلهم ، وكفن فى تلك الأيام من ماله ثلاثمائة ألف من الغرباء ، وكان إذا مرض تصدق بجميع ما عليه ، وثبت على زكى الدين[1] قاضى دمشق لبيت المال عشرين ألف دينار ، فشرع القاضى يستدينها من الناس فقالت له بعض حظاياه رأيت رسول الله ﷺ فى (٥٤ ب) المنام وهو يوصيك بالقاضى فأسقط ما عليه ورده للقضاء .

ومما يحكى من حلمه أن مجد الملك ابن شمس الخلافة[2] قال : حصلت لى ضائقة مالية شديدة فعملت قصيدة أهجوه بها وأهجو ولده الكامل أولها :

يا ظالما لقب بالعادل ... وناقصا لُقب بالكامل
أهلكتما الآن جميع الورى ... لا عشتما دهراً إلى قابل

وأكثرت من سبه وأتيت دار الوزارة ودفعتها لصواب الخادم فى جملة القصص فدخل بها إليه وهى مختومة ففتحها وحطها تحت ركبته إلى أن قام من مجلسه وصار وقت الظهر وخرج العسكر فاستدعانى وقال : ما حملك على هذا ؟ قلت : الفقر والضائقة فإما أن تقتلنى فأستريح ، وإما أن يشملنى إنعام السلطان فأمر لى بمائة دينار فقلت ولا بد من

---

(١) ركن الدين والتصحيح من مفرج الكروب ١٣٤/٣ ، وكنز الدرر ص ١٥٣ .

(٢) هو الشاعر المشهور أبو الفضل جعفر بن شمس الدين ، الملقب بمجد الملك ولد سنة ٥٤٣ هـ وتوفى سنة ٦٢٢ هـ بمصر . وفيات الأعيان ٣١٣/١ ، شذرات الذهب ٢٦٨/٥ .

مركوب ، قال : تُدفع له بغلة فخرجت من بين يديه ، ثم خطر لى طلب زيادة فشاور عليّ الخادم فأذن لى فدخلت وقلت : لم يشملنى إنعام السلطان بقوت العائلة فأمر لى بخمسين إردب قمحاً فقلت : وعلف البغلة ، فأمر لى بعشرين إردب شعيراً فخرجت ، ثم قلت للخادم أعدنى إليه ، قال : أظنك مجنوناً ، فقلت : لا بد من العود ، فاستأذن لى ثالثة فدخلت وقلت : لا بد من الخلعة ، قال : لا يمكن هذا تسمع الناس هجوك لنا ونخلع عليك ، قلت : فيكون هذا القدر الذى تصدق به السلطان راتباً آخذه كل سنة ، فقال : أحضر مسودة هذه القصيدة ، فقلت : ليس لها مسودة إلا حفظى لها على لسانى ، فقال : قطعه الله ، وخرجت من بين يديه وقبضت ما أمر لى به :

ولابن عُنين الهجاء الخبيث ، يهجوه على عادته الخبيثة[1] :

إن سلطاننا الذى نرتجيه	واسع المال ضيق الإنفاق
هو سيف كما يقال ولكن	قاطع للرسوم والأرزاق

وقد تقدمت أحواله زمن أخيه ، ونذكر الآن ما جرى له بعده فنقول : كان العادل بالكرك عند وفاة أخيه فلما سمع به دخل دمشق فعمل عزاءه وتوجه إلى بلاده الشرقية فلما وصلها ثار عليه المشارقة : صاحب الموصل وصاحب إربل وصاحب الجزيرة ، فأرسل يستنجد بأولاد أخيه فأتته العساكر وحصل لصاحب الموصل إسهال فرجع وتوفى فى شعبان سنة تسع وثمانين ، ومن العجب أن بكتمر ـ صاحب خلاط[2] ـ لما بلغه موت السلطان فرح به ، وأسرف فى إظهار الشماتة ، وعمل له تختا يجلس عليه وسمى نفسه عبد العزيز ولقبها بالسلطان المعظم صلاح الدين ، فقتل فى جمادى الآخرة فكان بينهما (٥٥ أ) دون نصف سنة ، وما أعجل موت المتعادين ، قال بعضهم : لما بلغ العادل موت بكتمر

---

(١) ديوان ابن عنين ص ٢٣٩ .

(٢) خلاط : وهى قصبة أرمينية الوسطى . معجم البلدان ٣٨١/٢ .

أرسل يطلب نجدة فأرسل إليه الأفضل أخاه الظتفر ، وابن المعظم فلما وصلوا إليه طلبوا منه نفقة فأرسل إليهم شيئا فاستقلوه ورجعوا إلى دمشق من غير دستور ، ونزل الظاهر فى لمة قليلة على جانب الفرات ، فتركه العادل ومضى إلى سروج[1] فتسمها ثم حصر الرقة فتسلمها وأعطاها للظافر ، ثم نزل على نصيبين وأخذها فبذل له عماد الدين بن زنكى مالاً فدفعها له ، وكذا الخابور ، ووعده أنه إن ملك خلاط يعيد الرقة وسروج ، ووصل إليه صاحب إربل وساروا إلى خلاط ، فلم ينل منها غرضاً فعاد إلى الرها ، وأعطى العساكر دستوراً .

ذكر أخذ الفرنج بيروت وعودها فى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

انقضت هدنة صلاح الدين فى هذه السنة ، فقصدوا جبيل وأخذوها ، قيل : إن صاحبها باعها بخمسة آلاف دينار صورية[2] ، وقيل : إنه خرج إلى الحمام ، ولم يكن بقى بالقلعة سوى أربعة أكراد فاعتصموا بالحصن ومنعوا الوالى من الدخول إليه ، وسلموها للفرنج على ثلاث ضياع ملكاً بطرابلس ، وذلك فى صفر ، ثم كبس عسكر الأفضل جبيل وملكوها وقتلوا قريب المائة وأسروا مثلها ، ثم قصد الفرنج بيروت فى جمع عظيم وبها أسامة الجبلى[3] فهرب فقال بعض الدماشقة[4] :

سلم الحصن ما عليك ملامهْ ... ما يلام الذى يروم السلامهْ
إن أخذ الحصون لا عن قتالٍ ... سُنة سنَّها ببيروت سامهْ
أبعد الله تاجراً سن ذا البيـ ... ـع وأخرى بخزيه من أسامهْ

---

(١) سروج : بلدة قريبة من حران من ديار مصر . معجم البلدان ٢١٦/٣ .

(٢) نسبة إلى صور ، وهو الدينار الذى ضرب فى أيام الدولة الفاطمية . مفرج الكروب ٧٦/٢ هامش ٦ .

(٣) اعتقله الملك العادل فى سجن الكرك إلى أن مات سنة ٦٠٨ هـ . مفرج الكروب ٢١٠/٣ .

(٤) انظر الأبيات فى مرآة الزمان ٤٥٣/٨ ، والروضتين ٢٣٣/٢ ، مفرج الكروب ٧٤/٣ ، البداية والنهاية ١٥/١٣ ، وابن المجلد الرابع ١٣٣/٢ .

وذلك سنة ثلاث ، وقيل : أربع ، وسار العادل ونزل بتل العجول وأتت النجدة من مصر وصاحب القدس ، وصاحب نابلس ، ثم سار إلى يافا وهاجمها بالسيف وملكها وقتل المقاتلة، وهذا الفتح ثالث فتح لها .

ذكر وقعة تبنين سنة أربع تسعين

نزل الفرنج على تبنين فأرسل العادل يستنجد بالعزيز ، فخرج إلى الشام ، وكانوا قد ضايقوا الحصن ونقبوه ، وجعلوا النقوب مساكن يستظلون بها من المطر ، وكانوا يتحدثون مع المسلمين منها ، فلما اشتد على أهلها الأسر طلبوا الأمان ، فقال بعض فرنج الساحل للمسلمين : إن أنتم سلمتم الحصن لهذا القسيس استأسركم فاحفظوا نفوسكم ، وكان اسم هذا القسيس الخنصلين ، فعاد المسلمون (٥٥ ب) كأنهم يراجعون من فى القلعة فلما صعدوا امتنعوا وقاتلوا قتال من يحامى عن نفسه وجاء العزيز ، فلو تأخر يوما واحداً لأخذوها، وأرسل الله فى تلك الليلة مطراً عظيماً وأوقع فى قلوب الفرنج الرعب ، فتركوا المجانيق بحالها والخيم وهربوا ، وعاد العزيز إلى مصر وترك غالب العسكر مع عمه ، وجعل إليه أمر الحرب والصلح .

ومات فى هذه الليلة سنقر الطويل ، فجعل العزيز أمر القتال إلى قطق مملوك فروخ شاه ، ولما عاد العزيز مدحه ابن سناء الملك بقصيدة أولها :

أقدمت بالسعد وبالمغنم ... كذا قدوم الملك المقدم
قميصك الموروث عن يوسف ... ما جاء إلا صادقاً فى الدم
اغثت (تبنين) وخلصتها ... فريسة من ماضفى صنيغم
شنشنة تعرف من يوسف ... فى النصر لا تعرف من اخزم

ثم طاول العادل الفرنج فطلبوا الهدنة ، واستقرت بينهم ثلاث سنين ، ورجع إلى دمشق، ثم سار إلى ماردين وحصرها وملكها ولم يبق إلا القلعة .

ذكر حصار الأفضل دمشق في سنة خمس وتسعين

لما توفي العزيز بمصر واستخلف ولده محمد ، وجعلوا عمه الأفضل مدبره تنكر منه جهاركس[١] وجماعة ، وساروا إلى الشام وكاتبوا العادل وهو محاصر ماردين ، وورد على الأفضل رسول الظاهر أخيه وابن عمه صاحب حمص ، يحثانه على قصد دمشق ، وكانت للعادل استنابه فيها العزيز ، وقيل : إن العادل كان يقف في خدمة العزيز كالبردْدار[٢] فلما ملك العزيز دمشق سنة اثنتين وتسعين ، كان يوما في محل أنس والعادل على بابه فقال لولده المعظم عيسى : ادخل إليه وقبل يده ، واطلب منه دمشق فوهبها له ، فخرج الأفضل من القاهرة وأرسل نواب العادل يعلمونه ففارق ماردين ، وخلف عليها ولده الكامل ، وحضر جريدة فسبق الأفضل بيومين وقيل : إن الأفضل سبق وإنه نزل بالميدان الأخضر ، فأشار عليه جماعة أن يتأخر إلى مشهد القدم[٣] ، ليصل إليه الظاهر فتأخر وجاء العادل فدخل دمشق فكانت مكيدة ، وجاء الظاهر وصاحب حمص ، وعسكر الحصون ، وزحفوا على البلد رابع عشر شعبان ، وقيل : إن الظاهر ومن (٥٦ أ) ذكر معه لم يكونوا قد وصلوا ، وهو الصحيح ، وقيل : إن المجد أخا الفقيه عيسى اجتمع ببعض الأجناد ففتحوا له باب السلامة[٤] فدخل ، ووصل إلى باب البريد[٥] فلما رآهم العامة استسلموا ونزلوا عن الأسوار وبلغ العادل الخبر فكاد يسلم لكنه تماسك ، ونزل من القلعة وجاء إلى باب جيرون ، والمجد قائم على فرسه يشرب فقاعا[٦] فصاح العادل : يا فعلة ، يا صنعة ، إليّ هنا ! ولما رأى قلة

---

(١) فخر الدين جهاركس مقدم الصلاحية وكبيرهم ، توفي سنة ٦٠٧ هـ . مفرج الكروب ٢٠٨/٣ .

(٢) كلمة فارسية مركبة من كلمتين : « برده » ومعناها : الحجاب ، و « دار » ومعناها : المحافظ . ومحافظ الحجاب هو الحاجب أو الحارس . النجوم الزاهرة ١٢٦/٦ ، هامش ٢ .

(٣) مشهد القدم : هو من الآثار التي في مدينة دمشق وغوطها مما يرجى فيه إجابة الدعاء عند القطيعة . يقال إن هناك قبر موسى بن عمران . تهذيب تاريخ مدينة دمشق ٢٣٦/١ .

(٤) باب السلامة : سمي بهذا الاسم تفاؤلاً لأنه لا يتهيأ القتال على البلد من ناحية لما دونه من الأنهار والأشجار . تاريخ مدينة دمشق ١٨٦/١ .

(٥) باب البريد : هو الباب الثاني لدمشق كما في نزهة الأنام في محاسن الشام ص ٢١ .

(٦) الفقاع : شراب يتخذ من الشعير أو من الأثمار ، سُمي به لما يعلوه من الزبد .

عسكر المصريين وثب عليهم وأخرجهم ، وأغلق باب السلامة ، وجاء إلى باب الفراديس[١] فوجدهم قد كسوا الأقفال بالمرزبات[٢] فقال : من فعل هذا ؟ قالوا الحنابلة ، فسكت ، قال والده المعظم : لما وصلنا مدرسة الحنابلة رمى على رأس أبى حب[٣] الزيت فأخطأه فوقع على رقبة الفرس فوقع ميتاً فنزل عنه وغيره ولم ينطق ، وتأخر الأفضل إلى ذيل الكسوة[٤] ووصل الظاهر فعاد إلى مضايقة دمشق وكاد العادل أن يسلم لولا ما وقع بين الأخوين من الوحشة ، ولما اشتد الأمر على أهل دمشق وقطعوا أشجارها ومياهها ، بعث العادل إلى الظاهر : إنى أسلم إليك البلد ، فطمع الظاهر وأرسل إلى الفاضل يقول : أنت صاحب مصر فاترك لى دمشق ، فقال : دمشق لى عن أبى ، وإنما أخذت منى قهراً ، فوقع الخلف بينهما ، وقيل : بل سبب الوحشة أنه كان للظاهر مملوك يحبه اسمه أيبك ، ففقده ووجد عليه وتوهم أنه دخل دمشق فأرسل يكشف خبره ، واطلع العادل على القصة فأرسل إلى الظاهر يقول له : إن محمود بن الشكرى أفسده ، وحمله إلى أخيك فقبض الظاهر على محمود وتغير على أخيه وترك القتال، وانسلخت سنة خمس والحصار على دمشق .

ذكر رحيل الأفضل والظاهر عن دمشق فى سنة ست وتسعين

وجاء العادل أجنادين القدس[٥] ، ثم وصل الكامل فى تاسع عشر صفر بعسكر الشرق،

---

(١) باب الفراديس : شمال دمشق منسوب إلى محلة كانت خارج الباب تسمى الفراديس . تاريخ مدينة دمشق ١٨٦/٢ .

(٢) جمع مرزبة : عصية من الحديد .

(٣) حُب : جرة .

(٤) الكسوة : قرية هى أول نزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر . معجم البلدان ٤٦١/٤ .

(٥) أجنادين القدس : موضع بالشام من نواحى القدس . معجم البلدان ١٠٣/١ .

فتركا المكان إلى مرج الصفر[1] وأقاما إلى آخر صفر ثم سارا إلى رأس الماء ليقيما إلى آخر الشتاء ، ثم انثنى عزمهما فسارا إلى بلادهما ، واحضر العادل بنى الحنبلى وقال : ما الذى دعاكم إلى كسر باب الفراديس ومظاهرة أعدائى ، وكان الأفضل قد وعد الناصح بالقضاء ، والشهاب بالحسبة ، فقال الناصح : أخطأنا وما ثم إلا عفو السلطان ، فقال : ما بدا منى إليكم ما يوجب ذلك ؟ ولولا أن يقال إنى أقتل الفقهاء ما أبقيتكم ، ولكن البلد لكم هبوه لى ، فأخرجهم إلى حلب ، وجرت بعد هذا واقعة لطيفة فى سنة عشر وستمائة جاء شخص اسمه نصر يشكو الشهاب ابن الحنبلى للعادل (٥٦ ب) وكان أولاده وقوفا فقال : يا مولانا السلطان هذا الرجل الوقف معه مدة يأكله ولا يوصل إلينا شيئاً ، فقال العادل : كم له معه سنة ، قال نصر : من كسرة باب الفراديس ، فقال الأشرف : ذا تاريخ مشؤوم ، فضحك العادل .

ذكر مُلك العادل مصر فى سنة ست وتسعين وخمسمائة أيضاً

لما سار الأفضل إلى مصر أرسل العادل يقول له : أنا لك مثل الوالد ، وعندى كل ما تريد ، فقال : إن صح هذا فابعد عنك أعدائى الصلاحية ، فحركوا العادل على المسير لمصر فسار خلف الأفضل فكان كلما سار الأفضل من منزله نزلها العادل فنزل الأفضل ببلبيس ، والعادل السائح[2] فرجع الأفضل وضرب معهم مصافا كسروه فيه وتفرق جمعه ودخل

---

(١) مُرج الصفر : موضع بدمشق . معجم البلدان ١٠١/٥ .

(٢) السائح : هذا الاسم كان يطلق على منطقة الأراضى الواقعة على جانبى الترعة السعيدية فى المسافة الواقعة بين ناحيتى سوادة والصالحية بمركز فاقوس بمديرية الشرقية . ولما تكلم المقريزى فى خططه ١٨٤/١ على بلدة الصالحة قال : إن الملك الصالح نجم الدين أيوب أنشأ الصالحية من سنة ٦٤٤ هـ بالسائح فى أول الرحل .

القاهرة ، وقيل إنه دخل القاهرة قبل ذلك ، وتفرق العسكر لأجل الربيع فأدركه عمه فخرج بمن عنده من العسكر فانكسر وانهزم إلى القاهرة ونازل العادل القاهرة ثمانية أيام ، واتفق الحال على العادل يعطى الأفضل ميافاقين وجبل جور وديار بكر ويأخذ منه مصر ، ودخل القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الأول ، ودخل الأفضل إلى صرخد ، وقيل إلى ميافارقين في ربيع الآخر ، ولم يف له عمه ، وقال له : كل من معك كاتبنى إلا جهاركس وقدم العادل جهاركس ، ورد القضاء إلى صدر الدين بن درباس ، ووزر الصفى بن شكر[1] قال العماد : أعط القوس باريها[2] واجر الأمور على أحسن مجاريها .

واستدعى العادل الكامل فخرج من دمشق ثالث شعبان ، وودعه أخوه المعظم ، قال العماد : وسرت معه وأنشدته[3] :

دعتك مصر إلى سلطانها فأجبت ... دعاءها فهو حق غير مكذوب
قد كاد يُدركنى دهرى فأدركنى ... محمد بن أبى بكر بن أيوب

ووصل إلى مصر عاشر رمضان والتقاه أبوه من العبّاسة[4] وأنزله بدار الوزارة ، وقد كان زوّجه بنت عمه مؤنسة خاتون بنت الناصر فدخل بها ، وأقام العادل على أنه أتابك المنصور ابن العزيز بن الناصر ، ثم جمع الفقهاء وسألهم هل يجوز ولاية الصغير ؟ فقالوا : الصغير موكل عليه ، قال : فهل ينوب عنه الكبير ؟ قالوا : لا لأن ولاية الصغير غير صحيحة ، فقطع خطبة المنصور وخطب لنفسه ، ولولده الكامل بولاية العهد فى شوال ، وصالحه صاحب حلب وخطب له وشرط عليه خمسمائة فارس من خيار عسكره يكون فى خدمة العادل كلما اجتمع العسكر (٥٧ أ) .

---

(١) هو صفى الدين عبد الله بن على بن شاكر المتوفى سنة ٦٢٢ . النجوم الزاهرة ٢٦٣/٦ .

(٢) انظر المثل فى مجمع الأمثال ٣١٣/١ ، وجمهرة الأمثال ٧٦/١ .

(٣) البيان فى مرآة الزمان ٤٧١/٨ ، الروضتين ٢٣٨/٢ ، النجوم الزاهرة ١٥١/٦ .

(٤) العباسة : أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية ، بينهما بين القاهرة خمسة عشر فرسخاً . معجم البلدان ٧٥/٤ .

ذكر حصار الأفضل والظاهر دمشق فى سنة سبع وتسعين وخمسمائة

دخلت سنة سبع والعادل بمصر ، وعنده ابنه الكامل وهو نائبه لها ، وبحلب الظاهر ، وهو مجد فى تحصينها خوفا من عمه ، وبدمشق المعظم ، وبالشرق الفائز ، وبميافارقين الأوحد ، أولاد العادل ولما توفى فى هذه السنة عز الدين ابن المقدم وصارت البلاد وهى منبج وقلعة نجم وفاميه وكفر طاب لأخيه عبد الملك استقر بمنبج ، سار إليه الظاهر وحصرها وملكها وعصى عبد الملك بالقلعة ثم نزل بالأمان ، ثم سار إلى قلعة نجم فحصرها وملكها فى رجب وأرسل إلى صاحب حماة يبذل له منبج وقلعة نجم على أن يسير معه إلى عمه ، فاعتذر باليمين فلما أيس منه سار إلى المعرة ، وأقطع بلادها واستولى على كفر طاب ثم سار إلى فامية وبها قراقوش نائب ابن المقدم فامتنع فأحضر ابن المقدم من سجن حلب وضربه قدّام قراقوش ليسلم فامتنع ، فضربه ضرباً شديداً فبقى يستغيث فأمر قراقوش بضرب النقارات حتى لا يسمع أهل البلد صراخه ، فرحل عنها إلى حماة وحاصرها لثلاث بقين من شعبان ، ونزل شمالى البلد وشعث التربة التقوية وبعض البساتين وزحف من جهة الباب الغربى وقاتل قتالاً شديداً وجرح بسهم فى ساقه ، واستمرت الحرب إلى أيام من رمضان فلما لم يحصل على غرض صالح صاحبها على مالٍ ، قيل : إنه ثلاثون ألف دينار صورية ، ثم رحل إلى دمشق وسببه أن العادل لما ملك مصر شدد على أهلها فساءت ظنونهم ، ثم إن ميمون القصرى[1] عظم عليه استيلاء العادل على مصر وكان فى نابلس وكتب إلى العادل:

---

(١) فارس الدين ميمون القصرى أحد الأمراء بدولة الظاهر غازى بن صلاح الدين ، كما كان أميراً من أمراء العزيز عثمان بن صلاح الدين .

أقطعه العزيز عثمان نابلس بعد مقاتلة الفرنج سنة ٥٩١ هـ وتفى سنة ٦١٠ هـ . مفرج الكروب ٢٢٠/٣ أبو الفداء .

« إنما نصرناك على موالينا لأجل العزيز وولده لئلا يزول ملكهم ، ولا بد أن تعيده » فأجابه العادل جواب مغالط ، وأرسل الظاهر يطلب الصلح فرسم العادل ألا يدخل القاهرة ، فرجعوا من بلبيس فاجتمعوا بميمون ورغبوه فى خدمة الظاهر ، واجتمع الظاهر والأفضل على بعلبك ، وساروا إلى دمشق وبها المعظم وهو صغير ، والقائم بأمره فلك الدين سليمان[1] أخو العادل لأمه ، فحاصرها حصاراً شديداً ولما تحقق العادل انحراف ميمون راسله ولاطفه فلم يرجع ، فخرج العادل مسرعا من القاهرة ونزل على بلبيس ولم يجسر على القتال ، ثم جعل يعمل الحيل إلى الفرقة بين الأخوين ويستفسد الأمراء ، ووعد الظاهر إن فارق أخاه (٥٧ ب) أن يملكه قطعة من الشرق ، وكاتب الظاهر قراجا[2] وجهاركس أن الأفضل يسلم إلى قراجا صرخد ، وكان بها الظاهر فغضب وانفصل عن أخيه ، ونقل الفضل والدته وأهله إلى حمص وتسلم جهاركس المال ، ثم أخذ فى التفنيد ، وعلما أن الأفضل اطلع على باطنهما فهربا فى الليل إلى نابلس ، وأعظم الناس غدرهما ، وأرسل الظاهر يوبخهما فأجاباه : إنه متى رجع دمشق كانا فى خدمته ، وأصاب الظاهر سهم فى رجله ، وخرج جماعة من عسكره فانحل عزمه ، وقد كان اتفق الأخوان أن الأفضل يتسلم دمشق ، ثم يسيران ويأخذان مصر ويتسلمها الأفضل ، ويسلم دمشق للظاهر بحيث يبقى الشام جميعه للظاهر ، واستمرت المضايقة لدمشق وتعلق النقابيون بسورها فلما شاهدا الظاهر ذلك حسد أخاه وقال : أريد أن اتسلم دمشق الآن ، فقال الأفضل : إن حريمى حريمك وهم على الأرض ، وهب هذا البلد لك فاجعله لى حتى نملك مصر ، فامتنع الظاهر وكان قتال العسكر إنما هو لأجل الأفضل، فقال لهم : إن كان قتالكم لأجلى فاتركوا القتال وصالحوا العادل ، وخرجت السنة وهم محاصرون .

---

(١) وتنسب إليه المدرسة الفلكية فى دمشق ، توفى سنة ٥٩٩ هـ . الدارس ٤٣١/١ .

(٢) الأمير زين الدين قراجا الصلاحى ، كان أميراً أديباً خيراً عادلاً توفى سنة ٦٠٤ هـ . مفرج الكروب ١٧٥/٣ .

ذكر رحيل الملكين عن دمشق
فى سنة ثمان وتسعين

فى أول المحرم رحل الظاهر إلى حلب ، والأفضل إلى حمص ، وأرسل الأفضل يطلب من العادل سميساط وسروج ورأس عين ، فأجابه ، وطلب الظاهر منبج وفامية وكفر طاب ، فأجابه ، وحلف لهما ، وبعد رحيلهما دخل العادل دمشق وسار ميمون القصرى مع الظاهر فاقطعه اعزاز ، ولما نزل منبج خرب قلعتها خوفاً من إخراجها منه ، واقطعها عماد الدين بن المشطوب وأرسل نائب ابن المقدم[1] إلى الظاهر ليسلم فاميه ، على أن يعطى ابن المقدم اقطاعاً يرضاه ، فأقطعه الراوندان[2] وكفر طاب ومفردة المعرة ، وهى عشرون ضيعة ، ثم إن ابن المقدم عصا بالراوندان فسار إليه الظاهر واستنزله وأبعده ، فلحق بالعادل فأحسن إليه ، وسار العادل إلى حماة وقام صاحبها بجميع وظائفه وزوجه ابنته ، وبلغ الظاهر وصوله حماة فاستعدّ للحصار وراسله ولاطفه وأهدى إليه ووقع الصلح وانتزعت منه مفردة المعرة ، واستقرت لصاحب حماة ، وقلعة نجم سُلمت للأفضل ، ولما استقر الصلح رجع العادل إلى دمشق وأقام بها ، وقد انتظمت الممالك الشامية والشرقية والمصرية فى ملكه (٥٨ أ) .

وفى هذه السنة اقطع العادل بلاد بشارة لجهاركس وهى تبنين وهونين ، فامتنع بشارة وارسل إليه الظاهر نجدة وبلغ ذلك العادل فجهز عسكراً وافراً فساروا إلى تبنين فحصروها مدة ثم عجزوا وتركوها ، وفيها اعتقل العادل المؤيد والمعز أولاد أخيه الناصر .

سنة تسع وتسعين وخمسمائة

فيها توفى فلك الدين ابن سليمان أخو العادل لأمه ، وهو الذى تنسب إليه المدرسة الفلكية بدمشق .

---

(١) نائب شمس الدين ابن المقدم هو قراقوش . مفرج الكروب ١٣١/٣ .

(٢) الراوندان : قلعة حصينة وكورة من نواحى حلى . معجم البلدان ١٩/٣٠ .

وفيها أرسل العادل إلى ولده الأشرف يأمره بحصار ماردين فحصرها ثم أرسل الظاهر الصلح فأجابه العادل على أن يحمل إليه صاحب ماردين مائة وخمسين ألف دينار ، ويخطب له ببلاده ، وأن يأتى إلى خدمته متى طلبه ، واستقر الصلح .

وفيها أخرج العادل المنصور محمد بن العزيز عثمان ابن الناصر يوسف من مصر إلى الشام فسار بوالدته وأخوته وأقام بحلب عند عمه ، وقيل : إنه أرسله إلى الرها .

وفيها استرجع العادل ما بيد الأفضل وهى رأس عين وسروج وقلعة نجم ، ولم يترك له غير سميساط فأرسل الأفضل والدته إلى صاحب حماة ليرسل معها من يشفع فيه ، فأرسل معها القاضى زين الدين ابن هندى إلى العادل فلم يجبها ، ورجعت خائبة ، قال ابن الأثير: عوقب البيت الصلاحى بمثل ما فعله والدهم لما خرج إليه بيت الأتابك ومن جملتهم بنت نور الدين الشهيد ، يشفعن فى إبقاء الموصل لعز الدين فردهن ثم ندم فجوزى ولده الافضل، ولما جرى ذلك أقام الأفضل بسميساط وقطع خطبة عمه وخطب لركن الدين صاحب الروم .

سنة ستمائة واحدى وستمائة

فى سنة ستمائة اجتمع الفرنج لقصد بيت المقدس فخرج العادل من دمشق وجمع العساكر ونزل الطور[1] قبالة الفرنج إلى آخر السنة ، ثم كانت الهدنة بينه وبينهم فى سنة احدى وستمائة ، وسلم إليهم يافا ونزل عن مناصفة لُد والرملة إلى مصر ، واعطى العساكر دستوراً ، وسار إلى مصر أقام بدار الوزارة .

وفى سنة اثنتين وستمائة توفى الأمير بدر الدين ممدود ـ شحنة دمشق ـ ابن الحاجب مبارك بن عبد الله فى يوم الأحد خامس رمضان ، وتوفى أخوه شقيق الأمير سعد الدين مسعود ـ صاحب صفد ـ بصفد يوم الاثنين خامس شوال ، وكانا أميرين كبيرين ولهما

---

(١) الطور : جبل مطل على طبرية الأردن ، بنى الملك المعظم عيسى بن أبى بكر بن أيوب قلعة حصينة وأنفق عليها الأموال الجمة وأحكمها غاية الإحكام . معجم البلدان ٤٧/٤ .

مواقف كثيرة مع صلاح الدين ، وأمهما أم فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب فلهذا ذكرتهما (٥٨ ب) .

ذكر خروج العادل إلى الشام
فى سنة ثلاث وستمائة

سار العادل من مصر إلى الشام ، ونازل فى طريقه عكا وسببه أن صاحب قبرص أخذ عدة من أسطول مصر ، وقد كانوا أيضاً قد ملكوا فوة[١] من مصر فى سنة ستمائة ، وأقاموا بها خمسة أيام ، فأرسل العادل فى رد ما أخذ إلى صاحب عكا ، فاعتذر أن أمير قبرص ليس إليه ، فسار إليه فصالحه صاحبها على إطلاق جمع من الأسرى ثم سار إلى دمشق وحضر إليه صاحب حماة وشكا الظاهر فتغير العادل عليه .

واتفق إغارة أهل طرابلس على حمص فعظم ذلك عليه فسار إلى أن نزل ببحيرة قدس[٢] بظاهر حمص واستدعى العساكر فأتته ، وأقام إلى آخر رمضان ثم سار إلى حصن الأكراد وقاتله أشد القتال ، وفتح برج أغناز[٣] قريباً من حصن الأكراد ، وأخذ منه سلاحاً ومالاً وخمسمائة رجل ، ثم نزل القليعات[٤] فتسلمه وأطلق صاحبه وأخذ ما فيه وخربه ، ثم نزل طرابلس فحصرها وقطع أشجارها وعاد عنها فى أواخر ذى الحجة .

وحكى بعضهم ذلك فى سنة أربع .

وقال الرشيد النابلسى يمدح العادل :

---

(١) فوة : بليدة على شاطئ النيل نواحى مصر . معجم البلدان ٢٨٠/٤ .

(٢) بحيرة قدس : وهى بين حمص وجبل لبنان . معجم البلدان ٣٥٧/١ .

(٣) أغناز : بلدة بين حمص الساحل . معجم البلدان ٢٢٢/١ .

(٤) القليعات : قلعة بالقرب من حصن الأكراد . النجوم الزاهرة ١٥٠/٧ ، حاشية ٨ .

خشعت لهيبة مجدك الأبصارُ ... وعنت لدولة ملكك الأمصار
ودنا لك الغرض السعيد وأصحب الـ ... ـجد السعيد ودانت الأقطار
وتظافرت لك بالظهور على العدا ... همم بها تتخاذل الأنصار
أمن الحوادث من بساحتك احتمى ... فكأن جارك للمجرة جار
ووفى بذمتك الزمان وصرفه ... وهو المضيع ذمامه الغدار
دانت لك السبع الشداد كأنما ... بمرادك الفلك العلى يدار
فإذا رماح الخط نحوك أشرعت ... فطوالها عما تروم قصار
وإذا الجياد ثنت إليك شكيمها ... غلبت عليها كبوة وعثار
وإذا غضبت على الملوك فإنه ... هلك دنا منها وحان بوار
ولأنت سيف الدين والدنيا الذى ... فى الشرك أرهف حدة الجبار
ملك ملائكة السماء جنوده ... وعبيده الأيام والأقدار (٥٩ أ)
خطبته آفاق البلاد لملكها ... وترقبته العون والأبكار
وقضت له السبع الكواكب بالذى ... تهواه منها والذى تختار
رب الجحافل زلزلت من وطئها ... لما سرى وارتجت الأقطار
مثل البحور الزاخرات يمدها ... من حيث شاء من الجيوش بحار
طاشت عقول المارقين لهول منـ ... ـظره وحارت منهم الأفكار
فاستعصموا بالعفو منه ولم يكن ... توب لتعصمهم ولا استعبار
حتى غدوا خضع الرقاب منكسى الـ ... ـأعناق فى جبهاتهم آثار

ومنها :

فى كل يوم غارة شعواء لا ... تألوا وتقع للهياج مثار
فمعاقل مهجورة ومنازل ... مهدومة بعد الأنيس قفار

ومنها :

فلها الزمان بشاشة وطلاوة ... وعلى البلاد وأهلها أنوار
بالعادل الملك الذى لعداته ... ذل على طول المدى وصغار
المانح الأبصار ما طمحت ومن ... يعطى مدى ما تطمح الأبصار
الساتر العورات عن أعدائه ... تزوى السعد وتكشف الأستار
الخاشع الصوام والمجتهد الـ ... ـقوام والمتبتل الصبار

الخـــارق العـــادات بالجـــود الذى في الخـــافـــقين لعـــرفـــه إنكار
الملقح الحـــرب العـــوان وقـــاعـــهـــا فـــتح الممـــاليك كلهـــا أبكار
الضـــارب الشـــوهاء إثر الطعنة الـ ـشوهاء فـــيهـــا يفـــرق المســـبـــار
نشـــوان من خـــمـــر المكارم والعـــلا عطفـــا ومـــا دارت عليـــه عـــقـــار
تســقى ذوابلهُ الدمـــاء فـــمـــالهـــا إلا رؤوس المارقـــين ثـمـــــــار
وهى الممـــالك لم تشـــد أركـــانهـــا إلا الصـــــــوارم والقنا الخطار

ومنها :

يـــا آل أيـــوب الأولـــى لـــولاهـــم عـــفت العلوم وعـــيـــفت الأشـــعـــار
يا أعـــدل الأمـــلاك ليس لدهرنا إلاك نـــهـــــاء ولا أمـــــــار

ومنها :

أنت الذى مـــا للنجـــوم الزهر فى عالى المحل بحيث طار مطار (٥٩ ب)
تـــتـــراجع الأبصـــار عنك حســـيـــرة وتعـــوم فـــيك فـــتـــغـــرق الأفكار
لا مـــجـــد يخطر فى رداء جـــلالـه ذو مـــجـــد إلا وهو منك مـــعـــار
أيام دولتك الربيع ومـــا ســـوى أفـــعـــالك الحـــسنى لهـــا أزهار
مـــا حـــاجـــة الدنيـــا وجـــودك هاطلٌ أن تســـتـــهـل بوابلهـــا الأمطار
لا يســـتطاع مـــداك فى شـــرف ولا لك يوم حلبـــتـــه يشق غـــبـــار
ســـبـــحـــان مُعطيك الذى لم يعطه بشـــر تعـــالى الواحـــد القـــهـــار

سنة أربع وستمائة

دخلت والعادل على بحيرة قدس ، ثم دخل دمشق ، وأتاه بها التشريف من الخليفة الناصر صحبة الشيخ شهاب الدين السهروردى[1] فبالغ العادل فى إكرام الشيخ ، والتقاه إلى القصير[2] ووصل من صاحب حماة وصاحب حلب ذهب وجوهر لينثر على العادل إذا

---

(١) أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله شهاب الدين السهرودى ، توفى سنة ٦٣٢ هـ .
وفيات الأعيان ١١٩/٣ .

(٢) القصير : أول منزل لمن يريد حمص من دمشق . معجم البلدان ٣٦٧/٤ .

لبس الخلعة فلبسها ونثر ذلك عليه ، وكان يوماً مشهوداً ، والخلعة هى : جبة سوداء أطلس بطراز مذهب ، وعمامة سوداء بطراز مذهب وطوق ذهب مجوهر ، وسيف جميع قرابه ملبس ذهباً ، وحصان أشهب بمركب ذهب ، ونشر على رأسه علم أسود مكتوب فيه بالبياض اسم الخليفة ، ثم خلع (رسول الخليفة) على الأشرف والمعظم الوزير ابن شكر عمامة سوداء ، وثوباً أسود واسع الكم) وركب العادل وولداه ووزيره ووصل التقليد وخوطب : « بالملك العادل شاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين » ثم توجه (الشيخ شهاب الدين إلى الكامل بمصر فخلع عليه » .

وفيها اهتم العادل بقلعة دمشق ، وألزم كل واحد من ملوك بيته بعمارة برج ، ودخلت سنة خمس والعادل بدمشق ، وقال الدوادار : وفيها خرج العادل إلى الشام ، وكان أكبر البواعث ما حصل من الوحشة بينه وبين الظاهر وهو من الخبط .

ذكر ملك العادل الخابور ونصيبين
فى سنة ست وستمائة

وسببه : أن قطب الدين زنكى ـ صاحب سنجار ـ كان بينه وبين نور الدين صاحب الموصل عداوة ، واتفق أن العادل زوّج ابنه بينت نور الدين فأرسل نور الدين إلى العادل بأن يتعاضدا ويأخذ بلاد قطب الدين ، وتكون الجزيرة لنور الدين ، فأجابه العادل وأنه يعطى البلاد إذا ملكها لولده الذى هو زوج بنت نور الدين ، ويكون مُقامه فى خدمته بالموصل ، وتحالفا على ذلك (٦٠ أ) فقصد الخابور فأخذه ، فلما سمع نور الدين بوصوله واستشار كبراء دولته فبينوا له فساد رأيه فى اتفاقه مع العادل وقالوا له : فات الأمر إلا أن تقف معه على ما استقر بينكما لئلا يجعل ذلك حجة ، ويبتدئ بك ، هذا والعادل قد ملك الخابور ونصيبين ، وسار إلى سنجار فحصرها فى ربيع الأول وعزم صاحبها أن يسلمها بعوض فمنعه من ذلك الأمير أحمد بن يرنقش وقام بحفظ البلد ، وجهز نور الدين ولده ليسير إلى

العادل مع عسكر فبينما هم على ذلك إذ جاءهم أمر لم يكن فى حسابهم ، وهو أن مظفر الدين صاحب إربل أرسل وزيره إلى نور الدين يبذل له المساعدة على منع العادل ، فوصل الوزير ليلاً فوقف مقابل دار نور الدين وصاح فحمل فى سفينة واجتمع بنور الدين ، فأجابه وحلف وعاد الوزير من ليلته ، واجتمع مظفر الدين ونور الدين بعساكرهما بظاهر الموصل وسببه : أن صاحب إربل أرسل يشفع فى صاحب سنجار وكان يظن أنه لو شفع فى نصف مملكة العدل لشفعه لأثره الجميل عنده ، فلم يشفعه العادل فأرسل مظفر الدين إلى صاحب حلب وصاحب الروم بالاتفاق ، فأجاب كل منهما وتداعوا إلى الحركة ووصل رسول الخليفة فأجاب أولا بالرحيل ثم امتنع ، وأطال الأمر لعله يبلغ غرضاً ، وحاصر عسكر العادل وكان أسد الدين يدخل الأغنام والأقوات سنجار ظاهراً فلما لم ينل غرضاً أجاب إلى الصلح على أن يكون له ما أخذ ، وتحالفوا كلهم على أن يكونوا يداً واحدة على الناكث ، وعاد العادل إلى دمشق فى سنة سبع وستمائة ، وقيل : ثمان ، وكان الظاهر قد استعد للقتال وبرز من حلب ثم اصطلحا ، ثم عاد العادل إلى مصر فى سنة سبع المذكورة .

سنة ثمان وستمائة

فيها قبض المعظم على أسامة[١] ـ صاحب كوكب[٢] وعجلون[٣] ـ وحبسه بالكرك إلى أن مات ، وبه انقرضت الصلاحية ، وحاصر الحصنين المذكورين وتسلمهما ، وأخرب كوكب وأبقى عجلون ، وقيل : إن العادل بنفسه حاصر كوكب ثم أخذ القليعات وأخربها، وإن ذلك سنة تسع ، وإن قيمة ما أخذ من القليعات ألف ألف درهم .

وقال الرشيد النابلسى يمدح العادل :

---

(١) انظر سبب قبض الملك المعظم على أسامة فى مفرج الكروب ٣/٢١٠ .

(٢) كوكب : اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية . معجم البلدان ٤/٤٩٤ .

(٣) عجلون : حصن وربضة فى جبل الغور الشرقى قبالة بيسان . تقويم البلدان ٢٣٤ .

وفى لك المسعدان : النصر والظفر … وطاوع العاصيان : الدهر والقدر
فغير بدع وقد جدت سعودك أن … دانت لك الأمتان : البدو والحضر
أشرقت فى ظلم الأيام مزدهراً … فأبلس النيران : الشمس والقمر
قسوت بل لنت بل مازجت ذاك بذا … فافتن فى راحتيك : النفع والضرر
لا زلت تصدر بالآمال ساعة لا … ورد يسوغ ولا عن مورد صدر

ومنها :

لله ما أنت سيف الدين من بشر … لا تستطيع الذى يستطيعه بشر
خطب طرا وطغى حتى تهدت له … أفلان جامحه إذا سهل الوعر
وشامخان رفيعا الأوج يجسر عن … أن يستطيعهما التأميل والنظر
فى ذروتى مشمخر العز دونهما … من أن ينالا تنال الأنجم الزهر
أوردت حصنك من تلك الحصون منى … لولاك عز على ورادها الصدر
وكان أهلاهما قد أكدا حلفا … أن ليس ينقص عن أمريهما المرر
يا ويحهم أوغرتهم مُنَى شمخت … مع اعتزامك واستغوتهم حذر
ولو صدمت به السد الذى اطأدت … قطراه لانداك منه القعر والزبر
أو رام شامخة الأهرام حل بها … ما ليس تبقى غواديه ولا تذر
بل لو دعوت النجوم الزهر لابتدرت … إليك من جنبات الأفق تبتدر

ومنها :

لقد رأى كوكب فى نفسه عجباً … وكاد كوكبه الدرى ينكدر
أضرمت جذوة بأس فى جوانبه … أنفاسها فى نفوس الشرك تزدفر
طوقته بمجانيق تلين لها … غلب الحديد ولا يستمسك الحجر
أنحت عليه بمثل الشهب قاذفة … فجسمه بصعيد الأرض منعفر
أضحت مخانق فى أعناق هضبته … عقود خيلك مسعوداً بها الثغر
بادرتهم برجال لا ينهنههم … من رأيك الحزم أو من كفك البدر
معودين قراع الموت ، قد ألفوا … ألا يروعهم خوف ولا ذعر
جيش إذا جاش طامى لجه غرقت … فى جنب تياره الأفهام والفكر

ومنها :

لقد بطشت بهم بطشا لو أنهم ... صرف المقادير أو أحداثها فتروا
فاستشعروا الذل جلباباً وقادهم ... قسراً إليك سطا للأسد تقتسر
لله صدرك ما أفضى ، وعزمك ما ... أمضى ، وقد كلت الهندية البتر
يا دوحة للعُلى شماء باسقة ... لا تجتنى للقنا من غيرها ثمر
يا راجح الحلم يعفو وهو مقتدر ... ومانح الجم يعطى وهو يعتذر
صلى الاله على علياك وافتتحت ... تتلى على مجدك الآيات والسور
ودمت تخدمك الدنيا ودولتها ... ما غنت الورق أو ما أورق الشجر

وفيها قبض على ابن جهاركس وأخذ معامله ، وهى بانياس وما معها ، وأعطاها العزيز عماد الدين عثمان ، وأعطى صرخد أيبك المعظمى وأعطى ابنه المظفر الرها وميافارقين.

وفيها عزل وزيره ابن شكر . غير ذلك : وفى سنة تسع توفيت والدة العادل ودفنت جوار الإمام الشافعى ، وبنى عليها القبة المعروفة بالشافعى ، وأجرى الماء إليها من بركة الحبش[1] وانفق على ذلك جملة كبيرة ، ونقل الناس الأبنية من القرافة الكبيرة[2] إلى هذه القرافة منذ ذلك الوقت ، وفيها أيضاً عمر العادل قلعة الطور ، وفى سنة إحدى عشرة عاد العادل من الشام إلى مصر . وقال الدوادار : وفى سنة اثنتى عشرة توجه العادل إلى الاسكندرية ، لأنه اجتمع فيها من تجار الفرنج ثلاث آلاف رجل وملكان من ملوكهم، وعزموا على أن يثوروا بأهل الاسكندرية ، فامسك العادل التجار واستصفى أموالهم ، واعتقل الملكين ، وعاد إلى القاهرة .

---

(١) بركة الحبش : هى أرض اسعة طولها نحو ميل مشرفة على نيل مصر خلف القرافة . معجم البلدان ٤٠١/١ .

(٢) القرافة : خطة بالفسطاط من مصر وبها قبر الإمام أبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى ، وفيها مدرسة للفقهاء الشافعية . معجم البلدان ٣١٧/٤ .

سنة أربع عشرة وستمائة

دخلت والعادل بمصر وقد انفسخت الهدنة بينه وبين الفرنج ، وجاء ملك الهنكر[1] في خمسة عشر ألف مقاتل ، فخرج العادل من مصر ، فنزل الفرنج عين الجالوت[2] ، وقصدوا العادل ، وكان ببيسان ، وقيل : بنابلس : فرأى مالا قبل له فتأخر ، فقال له المعظم إلى أين ؟ فشتمه بالعجمية وقال : بمن أُقاتل ؟ أقطعت الشام مماليكك وتركت أولاد الناس الذين يرجعون إلى أصل . وساق فعبر الشريعة ، وجاء الفرنج إلى بيسان ، وكان بها من الأموال ما لا يعلمه إلا الله فأخذوه ، وارتفع العادل إلى عجلون وترك المعظم قرب القدس خوفاً عليه . وأقام الفرنج على بيسان ثلاثة أيام ونزل العادل رأس الماء ، وصعدوا إلى خربة اللصوص، وأقاموا ثلاثة أيام يأسرون وينهبون ، ثم نزلوا الغور ، وأقاموا إلى يوم الأحد ثاني رمضان . وكان كثير الضباب ، فما أحس بهم أهل الغور إلا وهم قد الصقوا (٦١ب) رماحهم بالسور ، فخرج إليهم المسلمون بالفارس والراجل فرموهم إلى أسفل ، فلما كان رابع رمضان صعدوا وألصقوا سلماً بالسور فقاتلهم المسلمون قتالاً لم يجر في الإسلام مثله ، ورموا السلم بالنفط فاحترق ، وقتل عنده جماعة من أعيان الفرنج ، وبكوا وصاحوا ، واغلقوا الباب ، وباتوا يداوون جرحاهم ، وجبن جماعة عن القتال ، ثم تعاقدوا على أن يقاتلوا قتال الموت ، وكان فيه أبطال المسلمين ، وقال الأمير الحلبي :

قل للخليفة لا نالت عساكره	لها إلى النصر إصدار وإيراد
إن الفرنج بحصن الطور قد نزلوا	فلا تغفلن فحصن الطور بغداد

وأوقد الفرنج النيران فلما كان يوم الخميس سادس رمضان رحلوا طالبين عكا ، وصعد المعظم الطور وبكى واطلق الخلع ، وانقضت السنة وهم على عكا .

---

(١) الهنكر : يقصد بلاد هنكاريا أو المجر الحالية . مفرج الكروب ٣٢٠/٢ .

(٢) عين جالوت : بليدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين . معجم البلدان ١٧٧/٤ .

سنة خمس عشرة وستمائة

دخلت والعادل بمرج الصفر ، فاستدعى المعظم وقال : أخشى أن يكون الطور سبباً لخراب الشام ، وفيه أبطال المسلمين وسلاح الدنيا ، ومن المصلحة خرابه ، فتوقف ، وبقى أياماً لا يدخل على أبيه ، فبعث إليه وأرضاه ووعده ببلاد ، فأجاب ، وبعث ما فيه إلى البلاد.

ونزل الفرنج على دمياط ، وهى المعروفة بالمنصورة الأولى ، يوم الثلاثاء ثالث ربيع الأول، فبعث العادل العساكر ، وهو بمرج الصفر ، إلى ولده الكامل ، فسار الكامل ونزل قبالهم أربعة أشهر . واتصل القتال بينهما أياماً ، وعملوا برجاً من خشب فى بطسة ، وألصقوه إلى برج السلسلة[1] وقاتلوا إلى أن ملكوه .

ذكر وفاة الملك العادل

لما اشتد حصار دمياط سار العادل ليمد ولده بالعساكر، فوصل إليه الخبر بأنهم ملكوا برج دمياط ، فانزعج ، ودق بيده على صدره ، ومرض ، وأقام إلى يوم الجمعة ، سابع أو ثامن جمادى الآخرة ، فتوفى بعالقين عند عقبة فيق[2] ، ولم يعلم بموته غير كريم الدين الخلاطى ، فأرسل الطير إلى المعظم بنابلس ، فجاء يوم السبت واحتاط على الخزائن ، وصبر العادل وجعله فى محفة ، وعنده خادم يروح عليه ، ودخلوا به دمشق يوم الأحد ، والناس يسلمون على الخادم ، وهو يومئ إلى ناحية العادل ، ودخلوا به القلعة (وكتموا موته) ولم

---

(١) برج السلسلة : جاء فى كنز الدرر ص ١٥ (إن هذا البرج كان قفل الديار المصرية ، وذلك أنه كان برجاً عالياً ، وفى ناحيته سلسلة وسلسلة تمتد إحداهما على النيل إلى دمياط ، تمتد الأخرى على النيل إلى الجزيرة يمنعان من عبور المراكب إلى بحر النيل المالح .

(٢) عقبة فيق : بالقرب من غور الأردن معجم البلدان ٢٨٦/٤ .

يجدوا له كفناً ، فأخذوا عمامة الفقيه ابن فارس (٦٢ أ) فكفنوه بها ، وأخرجوا قطناً من مخدة (فلفوه به) وسرق بعضهم فأساً من الخندق فحفر به ، ودُفن بالقلعة .

قال جامعة الفقير : ونظير هذا أن بعضهم قال : رأيت قماش هشام بن عبد الملك قبل أن يلي الخلافة ، وقد حج ، على ستمائة جمل . ثم رأيته يوم مات استولى ابن أخيه الوليد ابن يزيد على خزانته ، وكان بينهما نفس فامتنع من تكفينه ، حتى كفنه بعضهم لغل ماله انتهى .

ولما دفن قام المعظم وشق ثيابه ، عمل له العزاء ثلاثة أيام ، وكذا فى الدنيا كلها ، وصلى عليه ببغداد ، ولم يتخلف إلا الخليفة ، وكذا فى غيرها . ونقل إلى التربة التى بنيت فى مجاورة مدرسته ، سنة تسع عشرة وستمائة . ومدة ملكه بمصر تسع عشرة سنة وشهراً وتسعة عشر يوماً وقسم البلاد بين أولاده للكامل (محمد) مصر وللمعظم (عيسى) دمشق والساحل والكرك والشبك ، وللاشرف (موسى) ميافارقين وخلاط وبعض الجزيرة ، وللحافظ (ارسلان شاه) جعبر . وكان له من الذكور ستة عشر ذكراً غير البنات ، وافضلهن ضيفة خاتون ، وقيل سبعة عشر ، وقيل تسعة عشر ، ونحن نذكر من نسبوه إليه : المعظم شمس الدين مودود ، الكامل ناصر الدين محمد ، الأشرف مظفر الدين موسى ، المغيث شهاب الدين محمود ، الفائز سابق الدين ابراهيم ، المعز مجير الدين يعقوب ، الحافظ نور الدين أرسلان شاه ، الناصر صلاح الدين خليل ، الأمجد تقى الدين عباس أصغرهم ، الأوحد نجم الدين أيوب ، المعظم شرف الدين عيسى ، الأمجد مجد الدين حسن توفى فى حياة أبيه ، العزيز عماد الدين عباس صاحب بانياس المظفر شهاب الدين غازى ، القاهر وقيل : تاج الملوك بهاد الدين اسحاق ، الأفضل وقيل : المفضل قطب الدين أحمد توفى بمصر أيام أخيه الكامل ، المغيث فتح الدين عمر مات فى حياة أبيه ، وخلف ولداً لقب بلقبه الصالح عماد الدين اسماعيل ، القاهر بهاء الدين خضر ، القاهر اسماعيل لعله الذى قبله . الأشقاء منهم ثلاثة : العزيز والمعظم والأمجد ، ثلاثة أيضاً : غازى ، يعقوب ، اسحق . ولم

ير أحد من الملوك المشهورين فى أولاده من الملك والظفر ما رآه العادل . ولقد أجاد ابن عُنين فى قصيدته التى مدحه بها ، أولها[1] :

ماذا على طيف الأحبة لو سرى / وعليهم لو سامحونى بالكرى
العادل الملك الذى أسماؤه / فى كل ناحية تشرف منبراً (٦٢ب)
ما فى أبى بكر لمعتقد الهدى / شك يُريب بأنه خير الورى
بين الملوك الغابرين وبينه / فى الفضل ما بين الثريا والثرى
نسخت خلائقه الحميدة ما أتى / فى الكتب عن كسرى الملك وقيصرا
لا تسمعن حديث ملك غيره / يروى ، فكل الصيد فى جوف الفرا
وله الملوك بكل أرض منهم / ملك يجر إلى الأعادى عسكرا
ومن كل وضاح الجبين تخاله / بدراً ، فإن شهد الوغى فغضنفرا

ومن العجائب أنه لم يحضر وفاته أحد من أولاده ، وخلف سبعمائة ألف دينار عيناً احتوى عليها المعظم .

ومنهم ست الشام[2]

ست الشام بنت أيوب بن شاذى ، شقيقة شمس الدولة ، عاقلة ، كثيرة البر والصلاة والاحسان ، وكان يعمل فى دارها فى كل سنة من الأشربة والعقاقير بألوف الدنانير وتُفرقها على الناس . وكان بابها ملجأ للقاصدين ، ومُفرجاً للمكروبين . وهى أم حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين . وتزوجها ناصر الدين ابن عمها اسد الدين محمد بن شيركوه

(١) ورد فى ديوان ابن عنين ص ٣ .

(٢) ترجمتها فى مرآة الزمان ٦٠٦/٨ ، ذيل الروضتين ١١٩ ، ابن كثير ٨٤/١٣ ، الدارس ٢٧٧/١ ، كنز الدرر ٢٠٤ ، النجوم الزاهرة ٢٤٦/٦ ، شذرات ٦٧/٥ .

صاحب حمص وبنت له مدرسة وتربة على الشرف الشمالى من دمشق ، ووقفت عليها وعلى المدرسة الجوانية[1] أوقافاً كثيرة ، وتوفيت فى ذى الحجة سنة ست عشرة وستمائة ودفنت بتربتها وكانت لها جنازة عظيمة ، اجتمع لها ولأختها محارم من الملوك ما لم يجتمع لأحد لأن فاطمة بنت عبد الملك كان لها ثلاثة عشر خليفة ، وكذا بنت صاحب ماردين . وست الشام كان لها نيف وثلاثون محرماً (من الملوك) سوى أولادهم . قال جامعه : وقريب من هذا المنصور محمد بن أبى عامر بنواحى فاس كان له أكثر من ألفى امرأة محارم ، ومن الرجال كذلك .

ومنهم ربيعة خاتون[2]

ربيعة خاتون بنت أيوب بن شاذى ، تزوجت سعد الدين بن أنر وتزوج صلاح الدين عمته ، ثم مات ، فتزوجها مظفر الدين صاحب إربل ، فأقامت بها ، ثم قدمت دمشق، فخدمتها العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلى[3] ، وحصل لها منها أموال عظيمة، ووقفت مدرسة للحنابلة وجعلت عليها الأوقاف ، وحصل لها بعدها شدائد وحُبست بالقلعة ثلاث سنين ثم أطلقت (٦٣ أ) وتزوجت الاشرف صاحب حمص وسافر بها إلى الرحبة

---

(١) فى الدارس فى تاريخ المدارس ٣٠١/١ « المدرسة الجوانية إنشاء ست الشام بنت نجم الدين ، وكانت هذه المدرسة داراً جعلتها بعدها مدرسة ، وفيها توفيت ونقلت إلى تربتها بالشامية البرانية » .

(٢) ترجمتها فى مرآة الزمان ٧٥٦/٨ ، ذيل الروضتين ١١٧ ، مختصر أبى الفداء ١٧٤/٣ ، ابن الوردى ٢٥١/٢ ، الدارس ٨٠/٢ ، النجوم الزاهرة ٣٥٣/٦ ، الشذرات ٢١٨/٥ .

(٣) أمَةُ اللطيف بنت الناصح الحنبلى ، عالمة من دمشق لها تصانيف ، وكانت فى خدمة ربيعة خاتون ، ولما ماتت الخاتون سنة ٦٤٣ هـ وقعت من أجلها فى المصادرات وحبست ثلاث سنين فى القلعة ثم أفرج عنها وتزوجها الأشرف صاحب حمص وسافرت معه إلى الرحبة وتل باشر ، وهناك توفيت سنة ٦٥٣هـ من آثارها مدرسة دار الحديث بدمشق . (القلائد الجوهرية ٨٤ ، الدارس ٨٠/٢ ، ١١٢ ، البداية والنهاية ١٧٠/١٣) .

وماتت بها سنة ثلاث وخمسين وستمائة . وظهر لها من الأموال بدمشق ما يساوى ستمائة ألف دينار غير الاملاك والأوقاف ، وكانت فاضلة لها تواليف .

وتوفيت ربيعة بدار العقيقى بدمشق سنة ثلاث سنة وأربعين وستمائة ، وقد جازت الثمانين ، وبين وفاتها ووفاة والدها ست وسبعون سنة . قال الدوادار لها تواليف ومجموعات.

فيا مانع الاسلام صبراً فإنما بصبرك فى كل المواطن يقتدى
ولو كان غير الموت دافعت دونه بطعن يرد السمهرى مقصداً
وغادرت جفن الأفق بالسمر أو طفاً وخد المواضى بالنجيع موردا
ولكنه دهر إذا ما نعيمه تحول بؤساً هد ما كان مشيداً

ومنهم الملك الظاهر(١)

غازى بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك الظاهر ، غياث الدين ، ابن الملك الناصر الأيوبى ، صاحب حلب ، ولد نصف رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة بمصر . كان مهيباً ، ذا سياسة وفطنة ، ودولته معمورة بالعلماء والفضلاء والأكابر ، محسناً إلى الرعية والى الوافدين عليه . حضر معظم غزوات والده ، وضم أكابر الامراء بعهده ، وهو الذى جمع شمل البيت الأيوبى ، وكان فى دولته من أرباب العمائم : القاضى بهاء الدين بن شداد، والشريف النسابة ، وبنو العجمى ، وبنو القيسرانى ، وبنو الخشاب ، وغيرهم . وكان ملجأ للغرباء ، وكهفاً للفقراء ، يزور الصالحين يتفقدهم ، ويغيث اللهوفين ويرفدهم . وكان يتوقد فطنة وذكاء ، سريع الادراك ، أتى يوماً بامرأة كذبت واعترفت بالكذب ، فسأل

---

(١) انظر : أخبار الأيوبيين ١٣٠ ، شذرات الذهب ٥/٥٥ ، الدارس ١/٢٤٢ ، مفرج الكروب ٣/٢٣٧ ، البداية والنهاية ١٣/٧١ ، الكامل ١٢/٣١٧ ، كنز الدرر ٧/١٨٤ .

القاضى (ابن شداد) ما يجب عليها ؟ قال : التعذيز ، قال : تضرب بالدرة شريعة ، ويقطع لسانها سياسة فقال بعض الحاضرين : الشريعة هى السياسة الكاملة (وما عداها يكون تعاضياً) فأدبت خاصة . وكان فيه إقدام على سفك الدماء ، ثم أقصر عنه عند الموت . وقد فرقنا أخباره فيما مضى ويأتى بقيتها . ومدحه جماعة وذكرنا بعض ذلك فيما مر . ومما يحكى من مآثره أن ابن عمه الأشرف لما قدم عليه فى (٧٩ أ) سنة خمس وستمائة متوجهاً إلى بلاده الشرقية ، أنزله الظاهر بالقلعة ، وبالغ فى إكرامه ، وقام لعسكره بجميع ما يحتاجون من الطعام والحلوى والعلوفات ، وكان يحمل إليه كل يوم خلعة كاملة ، وهى : غلالة[١] وقباء وسراويل وكمه[٢] وفروة وسيف ومنطقة ومنديل وسكين ودلكش[٣] وحصان وخمس خلع لأصحابه . أقام على ذلك خمسة وعشرين يوماً ، وقدم له تقدمه جليلة وهى : مائة ألف درهم ، ومائة بقجة ، مع مائة مملوك . منها: عشر بقج فى كل واحدة ثلاثة أثواب أطلس[٤] وثوبان خطائى[٥] ، وعلى كل بقجة جلد قندس[٦] كبير . ومنها : عشر فى كل واحدة منها عشرة أثواب عتابى خوارزمى ، على كل بقجة جلد قندس كبير ، ومنها : عشر فى كل واحدة عشرة أثواب عتابى[٧] بغدادى وموصلى ، وعليها عشرة جلود قندس صغار ومنها : عشرون فى كل واحدة خمس قطع سوسى وديبقى أربعون فى كل واحدة خمسة أقبية ، وخمس كمام . وحمل إليه خمس حصن عربية بعدتها ، وعشرين إكديشاً ، وأربعة قطر بغال ، خمس بغلات فائقات بالسروج اللجم المكفتة وقطارين من الجمال ، وخلع على أصحابه مائة وخمسين خلعة ، وقاد إلى أكثرهم بغلات وأكاديش .

---

(١) الغلالة : شعار يلبس تحت الثوب . تاريخ ابن الفرات ٧٣/٥ .

(٢) الكمة : القلنسوة المدورة . المعجم المفصل بأسماء الملابس ص ٣١٣ .

(٣) دلكش : لفظ فارسى معناه الجعبة أو الكنانة التى توضع فيها النشاب أو القسى . مفرج الكروب .

(٤) أطلس : نوع من الملابس ويعمل به فى مدينة تبريز كما ذكره ياقوت فى معجمه ٨٢٢/١ .

(٥) الخطائى : نوع من الثياب يصنع فى مدينة تبريز .

(٦) القندس : كلب الماء .

(٧) نسبة إلى محلة فى بغداد فى الجانب الغربى ، وقد اشتهرت هذه المحلة بانتاج نوع من النسيج .

ومن محاسنه أنه أجرى الماء من جيلان إلى حلب ، وغرم على ذلك أموالاً كثيرة وبقى البلد يجرى الماء فيه ، وذلك سنة خمس وستمائة .

ذكر وفاته

لما كان صبيحة السبت ، خامس عشرين جمادى الأولى ، سنة ثلاث عشرة وستمائة ، ابتدأ به حمى حادة ، ولما اشتد مرضه أحضر القضاة والأكابر ، وكتب اليمين : أن يكون الملك بعده لولده الصغير العزيز محمد ، ثم من بعده لولده الكبير الصالح صلاح الدين أحمد[1] ، وبعدهما لابن عمهما المنصور محمد بن العزيز . وجعل الحكم إلى شهاب الدين طغريل الخادم[2]

وهذه وعدة فى حلب قل أن يموت سلطان ويُخلف ولداً صغيراً إلا ويكون أتابكه خادماً.

وفى ثالث عشر جمادى الآخرة أقطع الظافر خضر كفر سودا وأخرجه من حلب فى ليلته بالتوكيل .

واشتد مرضه ، منع الناس الدخول عليه ، وتوفى يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة . وكان عمره اربعاً وأربعين سنة وشهوراً ، ومدة ملكه بحلب إحدى وثلاثون سنة وقال الحلى يرثيه[3] :

سل الخطب إن أصغى إلى من يخاطبه ... بمن علقت أنيابه ومخالبه
لشدتك عاتبه على نائباته ... وإن كان نائى السمع عمن يُعاتبه
أرى اليوم دست الملك أصبح خاليا ... أما فيكم من مخبر أين صاحبه؟
فإن يك نور من شهابك قد خبا ... فيا طالما جلى دجى الليل ثاقبه

---

(١) مات سنة ٦٥١ هـ . انظر وفيات الأعيان ١٠/٤ .

(٢) مات سنة ٦٣١ انظر النجوم الزاهرة ٢٨٦/٦ .

(٣) وردت هذه الأبيات فى وفيات الأعيان ١٧٩/٣ ، مفرج الكروب ٢٤٦/٣ ، كنز الدرر ١٨٦ ، تاريخ ابن الفرات ٥م/٢٠٤/١ .

وقد لاح بالملك العزيز محمد صباح هدى كنا قديماً نراقبه
فتى لم يفته من أبيه وجده إباء وجد غالباً من يُغالبه

ومنهم الملك الأفضل[1]

على بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك الافضل ، نور الدين أبو الحسن ، ابن الملك الناصر . ولد بمصر سنة خمس وستين (وخمسمائة) وهو أكبر الأخوة ، والمعهود إليه بالسلطنة ، وكان فاضلاً شاعراً ، حسن الخط ، قليل الحظ ، وفى ذلك يقول[2] :

يا من يسود شعره بخضابه لعساه من أهل الشبيبة يحصل
ها : فاختصب بسواد حظى مرة ولك الأمان بأنه لا ينصل

ويقول أيضاً[3] :

أما آن للسعد الذى أنا طالب لادراكه يوماً يرى وهو طالبى
ترى هل يُرينى الدهر أيدى شيعتى تمكن يوماً من نواصى النواصب

قال جامعه : والأصل فى قلة حظه الفضل ، ولم تزل الفضائل تأخر ، أما سمعت قولهم :

---

(١) انظر : شذرات الذهب ١٠١/٥ ، النجوم الزاهرة ٢٦٢/٦ ، كنز الدرر ٢٧٥ ، البداية والنهاية ١٠٨/١٣ ، تاريخ ابن الوردى ٢١٠/٢ ، ذيل الروضتين ١٤٥ ، وفيات الأعيان ٩٥/٣ ، السلوك ٢١٦/١

(٢) وردت الأبيات فى المختصر ١٣٥/٣ .

(٣) ردت فى السلوك ٢١٧/١ ، الغيث المسجم ٧٨/٢ .

علام تحركى، والحظ ساكن ... وما نهنهت فى طلب ولكن
أرى نذلاً تقدمه المساوئ ... على حر تؤخره المحاسن

وما أحسن الأرجانى فى قوله[1] :

لو كنت أجهل ما أقول لسرنى ... جهلى كما قد ساءنى ما أعلم
كالصعو يرتع فى الرياض ، وإنما ... حبس الهزار لأنه يترنم

وأحسن من ذلك كله قول المقام العادلى من جمع باسمه هذا الكتاب خلد الله ملكه:

وهذا باب واسع ، ولولا أن يقال مادح نفسه لذكرت أشياء ، وما أشبه قضية الأفضل بابن المعتز[2] ولكن كما قال بعضهم : « ادركته حرفة الأدب » انتهى .

ومن شعره ما كتبه إلى الخليفة[3]

مولاى إن أبا بكر وصاحبه ... عثمان ، قد غصبا بالسيف حق على
فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقى ... من الأواخر ، ما لاقى من الأول

فكتب الامام الناصر جوابه :

وافى كتابك يا بن يوسف مُعلناً ... بالود يُخبر أن أصلك طاهر
غصبوا عليا حقه إذ لم يكن ... بعد النبى له بيثرب ناصر
فاصبر فإن غداً عليه حسابهم ... وابشر فناصرك الامام الناصر

---

(١) الأرجانى : هو ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين ، ولد سنة ٤٦٠ هـ وتوفى سنة ٥٤٤ بمدينة تستر ، وهى مدينة مشهورة بخوزستان ، وهو إقليم واسع بين البصرة وفارس وتولى نيابة القضاء بها ، وكان فقيهاً شاعراً . وفيات الأعيان ١٥١/١ .

(٢) هو عبد الله بن المعتز بالله بن المتوكل ، أديب شاعر ، ولى الخلافة بعد عزل المقتدر يوماً واحداً ، ثم خنقه مؤنس الخادم سنة ٢٩٦ هـ . الأغانى ٢٧٤/١٠ ، ابن خلكان ٧٦/٣ ، تاريخ بغداد ٩٥/١٠ ، المنتظم لابن الجوزى ٨٤/٦ ، البداية والنهاية ١٠٨/١١ .

(٣) انظر : وفيات الأعيان ٤٢٠/٣ ، ثمرات الأوراق ٢٣ ، تاريخ ابن الوردى ٢٦٢/٢ .

وكتب إلى بعض أصحابه : أما أصحابنا بدمشق فلا علم لى بأحد منهم وسبب ذلك أن[1] :

أى صديق سألت عنه ففى الذ ـذُل وتحت الخمول فى الوطن
وأى ضد سألت حالته سمعت ما لا تُحبه أذنى

وقد ذكرنا أخباره مفصلة فيما مضى ، وهنا نذكر بعضها : لما توفى أخوه العزيز سنة خمس وتسعين (وخمسمائة) ملك بعده ابنه المنصور محمد ، فلم يلبث إلا هُنيأة حتى تحركت عليه جماعة ، فقالوا : لا بد من مُدبر واستشاروا الفاضل ، فأشار بالأفضل ، فجاء من صرخد لليلتين بقيتا من صفر متنكراً ، خوفاً من أصحاب عمه ، ووصل بلبيس خامس ربيع الأول واستناب الأفضل أخاه الظافر ، ولما قرب القاهرة تلقاه أخوه المؤيد وجهاركس ، وعمل كل منهما ضيافة ، فحلف المؤيد بالطلاق أنه لا بد أن يبدأ به فغضب لذلك جاركس ، وأخذ دستوراً أن يتأخر بالشرقية ليصلح بين العرب ، فلما انفصل عن الافضل ركب هو وقراجا ، ولحق بالقدس ، وقيل : إن جهاركس كتب إلى عسكر دمشق : إن الأفضل إن حكم قتلنا فركب عسكر دمشق ففاتهم ، ورأى الأفضل النجاب فرده ، فقال جهاركس للنجاب : ما أسرع ما وصلت ؟ فحكى له القصة فهرب ، وفى هذا الكلام خلل. وتلقى المنصور عمه فلما رآه نزل ومشى بين يديه إلى دار الوزارة ، وزينت البلد ، ونزل الأفضل دار البستان التى عمرها العزيز (٧٠ب) . وشرع فى الاطلاقات ، وأرسل إلى عمه يبذل الطاعة ، وحذف من الخطبة الترحم على الناصر والعزيز ، وخطب باسم الأفضل ، وامتدحه شعراء العصر ، وأدباء المصر ، فمن قصيدة للنابلسى :

---

(١) وردت هذه الأبيات فى الكامل فى التاريخ ٤٢٩/٩ ،كنز الدرر ٢٧٦/٧ ، المختصر ١٣٥/٣ .

رويدكم إن الهوى مسلك وعر ... يضل به الهادى ويستعبد الحر
أسير الغوانى فيه ليس بمفتدى ... ومقتولها فى دينه دمه هدر
وما هى إلا نظرة سفكت دمى ... وحاذرتها لو أنه ينفع الحذر
وما كان ، لولا أن يُظاهرها الهوى ... لغانيةٍ ، نهى علىّ ولا أمر
فلله بالفسطاط أرغد عيشةٍ ... حظيت بها لو عاد يوماً بها العُمر

ومنها :

فيا حبذا مصر وساكن أرضها ... وساحتها فالنخل فالنيل فالقصر
وليلة زارت والنجوم كأنما ... على روضة خضراء من زهرها زهر
وعقد الثريا فى أنيق نظامه ... يطابقه من أنجم النثر والنثر
وللزهرة الغراد فى الغرب رجفة ... مخافة أن ينقض منقضها النسر
وجنح الدُجى فى عنفوان شبابه ... فما كذبت عيناى إن طلع الفجر
أو الملك نور الدين أشرق قادماً ... يصاحبه الاقبال والفتح والنصر
طوى من أعالى مصر عشرين رحلة ... فكان لموتى الفقر فى طيها نشر
فوافى إليها وهى ترقب قُربه ... وليس لها عن أن يواصلها صبر
وفى طرفها ألا إلى وجهه قذى ... وفى سمعها إلا إلى ذكره وقر
فشرفها منه أغر متوج ... به تشرف الأمصار جمعاء لا مصر
وقلدها سيفاً من العز صارماً ... به حق لو تاهت له التيه والفخر
وكانت عروس الدهر تطلب كُفأها ... فزف إليها الأمجد الأفضل الغمر

ومنها :

هو الغيث وافاها على ظمأ بها ... فبشرها بالغوث من وجهه البشر
حليم على الجانى وطوراً يعاقب ... وخير فتى من عنده الخير والشر
تفرق طعماه لدى السخط والرضا ... فذا سائغ حلو وذا سائغ مر
يلين ويقسو للعُفاة وللعدا ... ففى راحتيه النفع للناس والضر (٧١أ)
بليغ ، يقول الفصل ناطق فضله ... فمعروفه بر ومنطقة در
رحيب الذرى والباع والباس والندى ... وأرحب منها فضله الجم والصدر
يجود ولا وعد فأما وعوده ... فحاشا وفيها من مواقيتها غدر
ضلالاً لمن بالبحر قاس يمينه ... ومن جوده فى كل أنملة بحر

إليه بنى الآمال من كل وجهة ... فإحسانه المد الذى ماله جزر
فتى يهب الجم الغفير وظنه ... بأن كثيراً من مواهبه نزر
هو الغمر قد أفنى الكنوز مواهبا ... أفى قلبه حقد على المال أو غمر؟
يميناً لو أن الدهر ملك يمينه ... لأصبح موهوباً وإن عظم الدهر

ومنها :

أنجل صلاح الدين والملك الذى ... زكا النجل من أولاده وزكا النجر
عدلت فلا جور وصلت فلا أذى ... وقمت فلا زيغ وجدت فلا فقر
ففى غضب الشيطان بأسك والندى ... وفى طاعة الرحمن سرك والجهرُ
لأنتم بنى أيوب خير عصابة ... لها الحمد بعد الله والمدح والذكر
سماء علًا يهدى مصابيح أفقها ... ويهدى لنا من سُحبها النائل الدثر

وقال يمدحه بقصيدة منها :

الأفضل ابن أبيه أفضل ذى ندى ... نسخت وعود الجود منه نقود
ملك إذا وقف الملوك ببابه ... عاينت مولى والملوك عبيد
غيث إذا سحت سحائب جوده ... جزر الحيا ولراحتيه مدود
وللبشر فى قسماته نور - الى ... ما يرتجى الراجون منه - يزيد

ومنها :

يقظ تنبه للثناء وكسبه ... حين الملوك عن الثناء رقود
فإذا اقتنى الملك الكنوز رأيته ... خرقاً بما ملكت يداه يجود
مهلاً على علوت حتى مالذى ... شرف إلى حيث ارتقيت صعود
كم لج جيش للفرنجة خضته ... والدارعون بجانبيه ورود
فنظمته بالرمح وهو مُبدد ... ونثرته بالسيف وهو عقود (٧١ب)
صلت سيوفك حين صلت ركعاً ... فيهم فهامهم إليك سجود

ومنها :

أشرقت فى الزمن البهيم كما بنا ... للصبح فى غسق الظلام عمود
فألية بك يا بن من لسيوفه ... أبداً رقاب المشركين حصيد
لو كان حلمك للجبال موطداً ... لم تُلف بالزلزال وهى تميد
لو كان جودك للسحاب مُظاهراً ... ما زالت الأنواء وهى تجود

أو كـان عـزمك للصـوارم لم تُحط يومـاً بهن ولو أحطن غـمـود
أو كـان بأسك للأسـود لما احـتـمت من خـوف بأسك بالعـرين أسـود

ومنها :

فـتـمـل منى كل بكر طائر الـ ـمـعنى أنى شـدى غـريد
شـعـر يضـوع ثناك فى أثنائه عـبـقـاً وخـفـاق النسيم ركـود
يُكسى على مـر الزمـان طلاوة وتُمـزق الأيام وهو جـديدُ
در تنظم من عـلاك فـريده فمن العجائب أن يقال قصيد
لا تحسبن لك فى الكمال مشاركاً ما عن صفاتك للكمال محيد

ثم جهز عسكراً فى سنته مع الظافر للقدس ، وأرسل من فيه إلى الأفضل : قد غررت بنفسك فلا تطمع فى ملك أبداً . وأوقف المظرية ومنية الباسك والرباع المسوغة وغيرها على سور القاهرة ومصر والمهتان . وقد ذكرنا أحواله كاملة . وكان أولاً بالشام وهو السلطان ، ثم تعوض صرخد ، ثم حكم مصر نيابة ، ثم تعوض عنها ميافارقين وحانى وسميساط[1] ، ثم أخذ منه ذلك غير سُميساط ، ولما قصد ملك الروح حلب ، سنة خمس عشرة ، وتسلم منها رعبان[2] وسلمها إلى الملك الأفضل ثم أخذها منه فى سنته ، ولم يتحرك بعدها فى طلب ملك إلى أن مات بسُميساط ، ولم يكن له غيرها . ومات فجأة يوم الجمعة ، فى ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، ونقل إلى ظاهر حلب فدفن بها ، وعمره سبع وخمسون سنة . وكان حسن السيرة ، تجمعت فيه الفضائل والأخلاق الحسنة .

ومنهم الملك المعز

إسحاق بن يوسف بن أيب بن شاذى الملك المعز ، فتح الدين ، أبو يعقوب ، ابن الملك

---

(١) سيمساط : قلعة فى بر الشام على الفرات . وفيات الأعيان ٤٢١/٣ .

(٢) رعبان : بلدة بين حلب وسيمساط قرب الفرات . معجم البلدان ٥١/٣ .

الناصر . ولد سنة سبعين (وخمسمائة)[1] وسمع ابن برى[2] وحدث ، وكان فاضلاً ، حسن الذاكرة ، نزل عند أخيه الظاهر (٧٢ أ) بحلب في حرمة تجمل ، تقنطر به[3] فرسه في الصيد ، فمات في ذى الحجة ، سنة خمس وعشرين وستمائة ، وله سبع وخمسون سنة ، قاله الذهبى ، وعلى ما حكيناه من مولده تكون له خمس وخمسون .

ومنهم الملك الظافر[4]

خضر بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك الظافر ، وقيل : الظاهر ، مظفر الدين ، أبو الدوام ، وأبو العباس ، ابن الملك الناصر ، المعروف بالمشمر ، وإنما قيل له ذلك لأن أباه لما قسم البلاد بين أولاده ، قال : وأنا مشمر ، فغلب عليه هذا اللقب .

ولد بالقاهرة خامس شعبان سنة ثمان وستين (وخمسمائة) وهو شقيق الأفضل . حج على تيماء سنة عشر وستمائة ، فلما وصل إلى بدر وجد عسكر الكامل قد سبقه خوفاً على اليمن منه ، فقالوا : ارجع ، فقال : قد بقى بينى وبين مكة مسافة يسيرة ، والله ما قصدى إلا الحج ، فقيدونى حتى أقضى مناسكى وأعود ، فلم يلتفتوا إليه ، فأراد أن يقاتلهم فلم يكن له بهم طاقة ، فعاد بلا حج ، وتوفى فى جمادى الآخرة ، سنة سبع وعشرين وستمائة بحران عند ابن عمه الأشرف ، ولم يكن الأشرف ملكها ، وإنما مجتازاً بها عند دخوله بلاد الروم .

---

(١) انظر : ترويح القلوب ٩٥ .

(٢) ابن برى : هو عبد الله بن برى بن عبد الجبار ، أبو محمد المقدسى المصرى النحوى اللغوى ، لم يكن فى الديار المصرية مثله ، أجاز لأهل عصره ، توفى سنة ٥٨٢ هـ . وفيات الأعيان ١٠٨/٣ .

(٣) تقنطر : قنطر الفارس : سقط عن ظهر فرسه إلى قدامها .

(٤) انظر : ترويح القلوب ٩٤ ، وفيات الأعيان ٢٠٥/٧ ، الدارس والمدارس ١٨٧/٢ .

ومنهم الملك الزاهر[1]

داود بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك الزاهر ، وصحفه بعضهم الزاهد ، فخر الدين ، وقيل :مجير الدين ، ابن الملك الناصر .

ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وكان صاحب البيرة [2] مرض بالعسكر الكالى، وحمل إلى البيرة ، فاستدعى ابن اخيه العزيز بن الظاهر ، وكان الظاهر شقيقه، فأوصى له بالبيرة وبخزائنه وقلاعه ، وعين لأولاده شيئاً من ماله . ثم توفى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، وتسلم العزيز البيرة . وله ولد اسمه أسد الدين .

منهم الملك المحسن[3]

أحمد بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك المحسن ، زين الدين ، وقيل : ظهير الدين ، وقيل : ثمين الدين ، أبو العباس ، الملك المحسن ، ابن الملك الناصر .

ولد سنة سبع وسبعين وخمسمائة بمصر ، سمع الحديث بدمشق من صَدَقة الحرانى[4] وحنبل [5] .

---

(١) انظر : تاريخ ابن الوردى ٢٣٠/٢ ، المختصر ١٥٦/٣ ، مفرج الكروب ٤٢٤/٢ ، السلوك ٢٥٠/١ ، وفيات الأعيان ٢٥٧/٢ .

(٢) البيرة قلعة بقرب سميساط من ثغر الروم على الفرات . وفيات الأعيان ٢٥٨/٢ .

(٣) ترجمته فى مفرج الكروب ٢٤٥/٢ ، النجوم الزاهرة ٢٩٨/٦، شذرات الذهب ١٦٢/٥ .

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن على بن محمد بن الحسن بن صدقة الحرانى ، توفى سنة ٥٨٤ هـ . النجوم الزاهرة ١٠٩/٦ .

(٥) حنبل بن عبد الله بن الفرج بن سعادة ، توفى سنة ٦٠٤ هـ . النجوم الزاهرة ١٩٥/٦ .

وابن طبرزد[1] ، وبمصر من البوصيرى[2] وغير واحد ، وعنى بالحديث ، وطلب وكتب واستنسخ وقرأ على الشيوخ . وكان مليح الكتابة ، جيد النقل ، متواضعاً، متزهداً ، حسن الأخلاق ، مفضلاً على أصحاب الحديث وعلى الشيخ ، حصل الكتب النفيسة ، والأصول (٧٢ب) المليحة ، ووجد المحدثون به راحة عظيمة ، وجاهاً ووجاهة ، وهو السبب في مجيء حنبل وابن طبرزد ، وكان يكثر التحرى في القراءة . وسمع بمكة من الحُصرى[3] ، وببغداد من الداهرى . سئل عنه الحافظ الضياء[4] فقال : سمع وحصل الكتب ، وانتفع الخلق بإفادته ، وطلب الحديث على وجهه . وقال السيف بن المجد[5] إنه كان يميل إلى التشيع ، روى عنه أبو نصر الشيرازى[6] ، وهو اكبر منه ، والقاضى العديمى .

توفى بحلب رابع محرم سنة أربع وثلاثين وستمائة ، وحمل إلى الرقة فدفن بها بقرب عمار بن ياسر[7] .

---

(١) أبو حفص عمر بن محمد بن معمر المعروف بابن طبرزد ، محدث كبير توفى سنة ٦٠٧ هـ . النجوم الزاهرة ٢٠١/٦ .

(٢) عبد الله بن على بن ثابت بن مسعود الأنصارى الخزرجى ، أبو القاسم البوصيرى ، حدث بالقاهرة والإسكندرية ، توفى سنة ٥٩٨ هـ . النجوم الزاهرة ١٨٢/٦ ، شذرات ٣٣٨/٤ .

(٣) الحافظ أبو الفتح نصر بن أبى الفرج البغدادى المقرئ ، توفى سنة ٦١٩ هـ . النجوم الزاهرة ٢٥٤/٦.

(٤) الحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الاحد الدمشقى الصالحى ، ولد سنة ٥٦٩ هـ ، له تصانيف كثيرة فى أجزاء عديدة ، توفى سنة ٦٤٣ هـ . الوافى بالوفيات ٦٥/٤ ، فوات الوفيات ٤٢٦/٣ ، النجوم الزاهرة ٣٥٤/٦ .

(٥) الإمام الحافظ سيف الدين أحمد بن المجد الحنبلى ، ولد سنة ٦٠٥ هـ ، كتب وصنف توفى سنة ٦٤٣ هـ . النجوم الزاهرة ٣٥٣/٦ .

(٦) أبو نصر محمد بن هبة الله بن محمد الشيرازى ، توفى سنة ٦٣٥ هـ . النجوم الزاهرة ٣٠٢/٦ .

(٧) عمار بن ياسر بن عامر الكندى ، صحابى ، وهو أحد السابقين إلى الإسلام والجهر به ، توفى سنة ٣٧هـ . صفوة الصفوة ١٧٥/١ .

ومنهم الملك المعظم[1]

توران شاه بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك المعظم ، ابن الناصر ، أبو المفاخر، فخر الدين .

ولد بمصر سنة سبع وسبعين ، وهو آخر من بقى من أخوته . سمع الحديث بدمشق من محيى الثقفى ، وأجازه ابن برى ، وانتقى له الدمياطى[1] وحدث بدمشق وحلب . روى عنه الدمياطى . وكان كبير البيت الأيوبى وكان الناصر ، وهو ابن ابن أخيه ، يحترمه ويجله ويثق به ويتأدب معه. وكان يتصرف في الخزائن والأموال والغلمان ، قد حضر غير مصافٍ ، وسنذكر بعض ذلك .

وكان ذا شجاعة وعقل ، وكان مُقدم الجيش الحلبى من زمان طويل ، وهو كان المقدم لما التقوا مع الخوارزمية سنة سبع وثلاثين بقرب الفرات ، فأسر يومئذ وهو مثخن الجراح ، وانهزم عسكره هزيمة قبيحة . ولما استولى التتار على حلب ، وبذلوا السيف ، اعتصم بقلعتها ، ثم سلمها بالأمان ، وأدركه الأجل على قرب ذلك . قال الذهبى : ولم يكن عادلاً وربما تعاطى المحرم . فإن الدمياطى يقول : أخبرنى فى حالة الاستقامة .

قال جامعه : وهذا لا يصلح دليلاً .

توفى سابع عشرين ربيع الأول ، سنة ثمان وأربعين وستمائة بحلب ودفن بدهليز داره ، وله ثمانون سنة .

---

(١) ترجمته فى ذيل مرآة الزمان ١٥/١ ، السلوك ٤٤١/١ ، النجوم الزاهرة ٩٠/٧ ، شذرات ٢٩٢/٥ ، ترويح القلوب ص ١٠٠ .

(٢) هو عبد المؤمن بن أبى الحسن بن شرف الدمياطى ، توفى سنة ٧٠٥ هـ . طبقات الشافعية ١٠/٤ ، الدرر الكامنة ٤١٧/٢ ، البداية والنهاية ٤٠/١٤ .

ومنهم الصالح اسماعيل[1]

ابن يوسف بن أيوب بن شاذى ، معين الدين ، مات فى حياة أبيه .

ومنهم الأعز يعقوب[2]

ابن يوسف بن أيب بن شاذى ، شرف الدين . ولد بمصر سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ومنهم المفضل موسى[3]

ابن يوسف بن أيوب بن شاذى ، قطب الدين ، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وهو شقيق الأفضل والظاهر .

ومنهم الأشرف محمد[4]

ابن يوسف بن أيوب بن شاذى ، عز الدين ، وقيل : نصر الدين ولد الشام سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، وهو شقيق المحسن .

---

(١) انظر : ترويح القلوب ٩٦ .

(٢) فى ترويح القلوب ص ٩٤ ، توفى سنة ٦٢٤ هـ ، وفى الدارس فى تاريخ المدارس ١٨٧/٢ ، توفى سنة ٦٢٧ هـ .

(٣) توفى سنة ٦٣١ هـ . انظر السلوك ٢٤٩/١، ترويح القلوب ص ٩٣ .

(٤) توفى سنة ٦٠٥ هـ . انظر ذيل الروضتين ص ٦٧ ، الوافى بالوفيات ٢٥١/٥ .

ومنهم الجواد أيوب[1]

ابن يوسف بن أيوب بن شاذى ، ركن الدين ، وقيل : نجم الدين ولد سنة ثمان وسبعين وخمسمائة .

ومنهم العادل

وقيل : الغالب ملك شاه[2]

ابن يوسف بن أيوب بن شاذى ، ناصر الدين ، وقيل: هو الغالب فروخ شاه . ولد بالشام سنة ثمان وسبعين وخمسمائة .

ومنهم عماد الدين شاذى[3]

ويسمى عمر بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، ولم يذكره بعضهم .

ومنهم المنصور أبو بكر[4]

ابن يوسف بن أيوب بن شاذى ، نصرة الدين . وقيل: سيف الدين . وقيل : بل إنهما اثنان ، فأبو بكر سيف الدين ، ونصرة الدين ابراهيم . وقيل : مروان . ولد بحران بعد وفاة والده سنة تسع وثمانين وخمسمائة .

---

(١) مفرج الكروب ٤٢٥/٢ ، ترويح القلوب ص ٩٥ ، ولم يذكر سنة وفاته .

(٢) ترويح القلوب ص ٩٦ ولم يذكر سنة وفاته .

(٣) ترويح القلوب ص ٩٧ ، ولم يذكر سنة وفاته .

(٤) ترويح القلوب ص ٩٦ ، ولم يذكر سنة وفاته .

فهؤلاء أولاد الناصر صلاح الدين الذكور . ولم يكن له من الاناث سوى بنت واحدة وهي : مؤنسة خاتن بنت يوسف بن أيوب بن شاذى تزوجها ابن عمها الكامل محمد ابن العادل أبي بكر بن أيوب ، ودخل بها سنة ست وتسعين وخمسمائة . آخر أولاد الناصر يوسف.

ومنهم الملك المعز(١)

اسماعيل بن طغتكين بن أيوب بن شاذى ، الملك المعز ، شمس الملوك ، ابن العزيز صاحب اليمن ، ورد بغداد فأكرم مورده ، وتلقى بالاكرام والانعام . وكان منهمكاً في اللهو والشرب ، قليل الخير ، طرده والده إلى الحجاز لأمر نقمه عليه ، فكان بالسرين ، وكتب الخليفة إلى أبيه منشوراً بالرضاء عنه ، ولما توفى أبوه سنة ثلاث وتسعين ،كان بالسرين ، ارسل إليه جمال الدولة كافور مَنْ عرّفه بوفاة والده ، فحضر وملك اليمن ، ثم ادعى أنه أموى ، ورام الخلافة ، ولبس شارتها ، وكان طول الكُم نحو عشرين ذراعاً ، وسمى نفسه المهدى ، وأرسل إليه عمه العادل ينهاه عن ذلك وينكر فعله . وقيل : ادعى النبوة . وخرج عن طاعته جماعة من مماليك أبيه ، واقتتلوا معه فانتصر عليهم ، ثم اتفق جماعة من الأكراد معهم وقتلوه سنة ثمان ، وقيل : تسع وتسعين وخمسمائة بالقور من أعمال زبيد ، وداروا برأسه زبيد ونهبوها سبعة أيام ، وأقاموا أخاه الناصر أيوب .

---

(١) وفيات الأعيان ٥٢٤/٢ ، مفرج الكروب ١٣٦/٣ ، السلوك ١٥٩/١ ، العبر ٣٠١/٤ ، بلوغ المرام ص ٤١ ، النجوم الزاهرة ١٨١/٦ ، العقود اللؤلؤية ٢٩/١ ، ذيل الروضتين ص ١١ ، شذرات الذهب ٣٣٤/٤ ، أبو الفداء ١٠٢/٣ .

ومنهم الملك الناصر[1]

أيوب بن طغتكين بن أيوب بن شاذى ، الملك الناصر سيف الدين ابن العزيز صاحب اليمن ، لما قُتل أخوه المعز رُتب فى الملك ، وذلك سنة ثمان وقيل: تسع وتسعين وخمسمائة ، وأقام بأتابكيته مملوك والده سيف الدين بكتمر سنقر ، ثم مات سنقر بعد أربع سنين ، وتزوج أم الناصر أمير يقال له : غازى بن جبريل ، وقام بالدولة ، ثم سم الناصر فى كوز فقاع[2] على ما قيل ، وبقى غازى ملك اليمن ، ثم قتله جماعة العزيز بسبب قتله الناصر ، وبقيت اليمن خالية بغير سلطان ، فغلبت أم الناصر على (٧٣ب) زبيد ، وكانت تنتظر وصول أحد من بنى أيوب ، فتتزوج به وتملكه ، إلى أن ملكها سليمان بن شاهنشاه بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب .

وقال الدوادار : فى سنة عشر وستمائة ، وفيها بدأ الخلف بين الناصر وأمرائه ، ومنشأ الخلاف أن فخر الدين بكتمر أفسد المماليك ، وانحاز إلى الحزور مخالفاً ، وقصدهم السلطان فانهزموا ، وتوجه بكتمر إلى الحجاز بما معه من المال، فاستلبه أصحاب مكة ، وأرادوا أن يملكوا عليهم المعظم سليمان ، فجلس فى ربيع الأول من هذه السنة .

أولاد العادل أبى بكر :

ومنهم الملك الأوحد[3]

أيوب بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك الأوحد ، نجم الدين ، ابن الملك العادل،

---

(١) توفى سنة ٦١١ هـ . انظر السلوك ١٦٠/١ ، العقود اللؤلؤية ٢٩/١ ، ترويح القلوب .

(٢) الفقاع : الشراب يتخذ من الشعير أو من الأثمار ، سمى به لما يعلوه من الزبد .

(٣) مرآة الزمان ٥٦١/٨ ، ذيل الروضتين ص ٨١ ، مفرج الكروب ٢٠٨/٣ ، كنز الدرر ١٧٥/٧ ، أبو الفداء ١١٣/٣ ، النجوم الزاهرة ٢٠٧/٦ ، العبر ٣١/٥ ، البداية والنهاية ٦٤/١٣ ، ابن الفرات المجلد الخامس ١٠٥/١ ، شذرات الذهب ٣٧/٥ .

ملك خلاط سنة أربع وستمائة ، سببه : أنه كان بميافارقين ، فسار منها وملك موش[1] ، فلما ملكها طمع فى خلاط ، فسار إليها ، فهزمه صاحبها بلبان ، فعاد إلى بلاده ، وجمع وحشد ، وسير إليه أبوه جيشاً ، فقدم خلاط ، واقتتل هو وصاحبها ، فانهزم بلبان واعتصم بالقلعة ، واستنجد بمغيث الدين (طغرل شاه بن قلج أرسلان) صاحب الروم فحضر بنفسه، فاجتمعا وهزما الأوحد ، وحصرا موش ، وأشرفا على أخذها ، فغدر الرومى وقتل صاحب خلاط طمعاً فى البلاد ، وسار إلى خلاط فمنعه أهلها ، فلما لم ير فى البلاد مطمعاً عاد إلى بلاده ، وأرسل أهل خلاط إلى الأوحد يستدعونه ، فحضر وملكها بعد يأسه منها ، وملك أكثر اعمالها سوى اليسير (منها) وكره الملوك مجاورته خوفاً من أبيه . وكذلك خافه الكُرج (وكرهوه) فتابعوا الغارات على بلاده ، وهو مقيم بخلاط لا يقدر على مفارقتها ، فلقى المسلمون من ذلك أذى شديداً ، وكانوا جبابرة ، ثم انتصر عليهم ، وملك حصن أوان وهو من أعظم حصونهم ، وذلك أنه اجتمع إليه جمع كبير ، فأرسل إليه أخاه الأشرف (موسى) فاجتمعا فى عسكر كبير ، وحصرا قلعة أوان وملكها . ولما كان سنة ست ، وقيل : سبع وستمائة ، نزل الكرج على خلاط فى خلق عظيم ، فتحصن الأوحد بالقلعة ، وحصر الملك البلد ، وأشرف على أخذه ، فسكر ذات يوم، وجاء إليه المنجم فقال له : البشارة ، ما تبيت الليلة إلا بقلعة خلاط ، فركب فى جيوشه ، وقيل : بل سكر فحسن له السكر قصد البلد ، فقصدها فى عشرين فارساً ، فخرج إليه المسلمون فرأوا ما لا قبل لهم به ، فبينما هم كذلك إذ عثر به الفرس ، فقتل عليه جماعة من خواصه ، أخذ أسيراً فما بات إلا بالقلعة فرد خمسة آلاف أسير (من المسلمين) ومائة (٧٤ أ) ألف دينار ، وعقد الهدنة ثلاثين سنة ، وأن يُزوج ابنته بالأوحد ، وأطلق .

وكان الأوحد فيه عسف وظلم ، فلم يطل عمره ، وابتلى بأمراض مزمنة ، وكان يتمنى الموت ، وقد استزار أخاه الأشرف من حران عنده أياماً ، واشتد مرضه ، وطلب الأشرف العودة لئلا يتخيل منه الأوحد ، فقال له الأوحد : (يا أخى لم تُلح فى الرواح) والله إنى

---

(١) موشى : بلدة من ناحية خلاط بأرمينية . معجم البلدان ٢٢٣/٥ .

ميت وأنت تأخذ البلاد ، وكان الأوحد قد صاغ للأشرف طلعة ذهب خمسمائة مثقال برسم السنجق ، وبقيت في الخزانة ، وانشغلوا بمرضه فلما توفي وملك للأشرف خلاط كان أول ركوبه بتلك الطلعة .

وتوفي الأوحد بملازكرد(١) في ربيع الأول سنة تسع وستمائة . وقال ابن واصل : سنة سبع . ومدة ملكه نحو خمس سنين . وأحسن الأشرف إلى أهل خلاط ، فأحبوه وسروا بموت الأوحد .

ومنهم الملك الفائز(٢)

ابراهيم بن أبي بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك الفائز ، سابق الدين ، أبو اسحاق ، ابن العادل . أقام في الديار المصرية مدة ، وكان قد انتظم له أمر الملك بعد أبيه على مصر لولا أن الكامل تدارك ذلك على يد أخيه المعظم . فبعثه أخوه الكامل إلى أخيه الأشرف بالموصل يستنجده ، فأدركه أجله بسنجار . وقيل : بينها وبين الموصل . فيقال : إنه سُم فرد إلى سنجار ، ودفن بمدرسة والده قطب الدين صاحب سنجار ، ثم أخرجه بدر الدين لؤلؤ(٣) إلى ظاهر البلد ، ودفن عند تربة عز الدين زنكى . مات سنة سبع عشرة وستمائة .

ومنهم الملك المفضل(٤)

أحمد بن أبي بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك المفضل ، وقيل : الأفضل العادل . توفي بالفيوم سنة تسع عشرة وستمائة ، ونقل إلى القاهرة .

---

(١) ملازكرد : قلعة من أعمال خلاط . وفيات الأعيان ١٤٤/١ .

(٢) ترجمته في ذيل الروضتين ص ١٢٢ ، مفرج الكروب ٦٨/٤ ، الوافي بالوفيات ١٢٤/٦ ، البداية والنهاية ٩٢/١٣ ، الدارس في تاريخ المدارس ٣١٦/١ ، النجوم الزاهرة ٢٤٩/٦ .

(٣) بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله صاحب الموصل ، توفي سنة ٦٥٧ هـ . النجوم الزاهرة ٧٠/٧ .

(٤) ترجمته في ذيل الروضتين ص ١٣٣ ، مفرج الكروب ٢٧٥/٣ ، النجوم الزاهرة ٢٥٤/٦ .

منهم الملك المعظم[1]

عيسى بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك المعظم ، شرف الدين ، ابن الملك المعظم، العالم الفقيه ، المجاهد الغازى ، النحوى اللغوى .

ولد بالقاهرة سنة ست وسبعين ، ونشأ بالشام ، قرأ القرآن ، وتفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة على جمال الدين الحُصيرى[2] واعتنى بالجامع الكبير[3] وصنف له شرحاً ، وانفرد عن بنى أيوب بالمذهب (الحنفى) فإنه لم يكن فيهم حنفى غيره ، بل كلهم شافعية ، وعوتب فى ذلك ، فقال : أما ترضون أن يكون فيكم واحد مسلم ؟ ولما وقف على « تاريخ بغداد »[4] وجد فيه مطاعن على أبى حنيفة –رضى الله عنه– فرد عليه فى كتاب سماه « السهم المصيب فى الرد (٧٤ب) على الخطيب »[5] .

قال جامعه الفقير : ولابن الجوزى أيضاً كتاب مسمى بهذا الاسم ، وملكته ، ورأيت كتاب المعظم .

وحفظ المسعودى ، والايضاح لأبى على ، وكان يحب الفقهاء ويُحرضهم على الاشتغال و يقول : من حفظ « الجامع الكبير » أعطيته مائة دينار ، ومن حفظ « الايضاح »[6] أعطيته مائتى دينار ، فحفظ الكتابين جماعة كبيرة ، ووفى لهم ، وكان

(١) ترجمته فى مرآة الزمان ٦٤٤/٨ ، ذيل الروضتين ص ١٥٢ ، مفرج الكروب ٢٠٨/٤ ، وفيات الأعيان ٤٩٤/٣ ، السلوك ٢٢٤/١ ، أبو الفداء ١٣٨/٣ ، الدارس فى تاريخ المدارس ٥٧٩/١ ، كنز الدرر ٢٨٧/٧ ، الجواهر المضيئة ٤٠٢/١ ، القلائد الجوهرية ص ١٤٣ ، شذرات الذهب ١١٥/٥ ، البداية والنهاية ١٢١/١٣ ، أمراء دمشق ص ٦٢ ، فهرست الكتبخانة ٧٠/٥ .

(٢) جمال الدين بن أحمد الحصيرى شيخ الحنفية فى عصره ، توفى سنة ٦٣٦ هـ . النجوم الزاهرة ٣١٢/٦ .

(٣) الجامع الكبير فى فقه الحنفية للإمام المجتهد أبى عبد الله محمد بن الحسن الشيبانى الحنفى المتوفى سنة ٢١٧ هـ .

(٤) تأليف الإمام الحافظ أبى بكر أحمد بن على بن ثابت .

(٥) طبع بعنوان الرد على أبى بكر الخطيب البغدادى بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٣٢ .

(٦) يقصد الإيضاح فى النحو لأبى على بن حسن بن أحمد الفارسى النحوى المتوفى سنة ٢٧٧ هـ .

عنده جماعة من الفضلاء لا يفارقونه سفراً ولا حضراً ، وكان قد أمر الفقهاء أن يجردوا له مذهب أبى حنيفة دون صاحبيه فجرد ذلك فى عشر مجلدات سماه « التذكرة » فكان لا يفارقه سفراً ولا حضراً قال سبط ابن الجوزى : فكتب على ظهر كل مجلدة « أنهاه حفظاً عيسى بن أبى بكر بن أيوب » فقلت له : ربما يؤخذ عليك لأن أكبر مدرس فى الشام يحفظ « القدورى »[1] مع تفرغه ، وأنت - مع شغلك بالملك - تحفظ عشر مجلدات ، فقال : ليس الاعتبار بالألفاظ وانما الاعتبار بالمعانى ، اسألنى عن جميع مسائلها ، فإن قصرت كان الصواب معكم ، وإلا فسلموا لى. وقرأ الأدب والنحو على تاج الدين الكندى[2] ، أخذ عنه كتاب سيبويه ، وشرحه للسيرافى ، والحجة فى القراءات لأبى على ، والحماسة . وسمع المسند على حنبل[3] بدمشق ، وأعطاه جملة من المال ، سيرة ابن هشام على ابن المحلى بمصر ، وغير ذلك .

قال سبط ابن الجوزى : إنه لا يقيم وزن الشعر فى بعض الأوقات مع أن له تصنيفاً فى العروض ، وله ديوان شعر . وقال بعضهم : إنه كان يجيد النظم ، ذكر أنه كان نازلاً بنابلس مرة وفى عسكره بهاء الدين القيسرانى ، فكتب إلى العظيم [5]:

يا أيها الملك المعظم والذى ... أضحت له الدنيا تُزف عروسا
أوليتنى نعماً إذا أظهرتها ... للناس أظهر حاسدوها بُوسا
فليهنك اليوم الذى أطلعت ... فيه الكؤوس كواكباً وشموسا

فكتب إليه المعظم :

يا من تفرد بالفضائل دائماً ... أبداً يؤسس مجدها تأسيسا
لا زلت فى درج المكارم راقياً ... تعلو وربعك بالثنا مأنوسا

---

(١) مختصر القدورى فى فقه الحنفية للإمام أبى الحسين أحمد بن محمد القدورى البغدادى المتوفى سنة ٤٢٨ ، وهو كتاب قيم مشهور لدى الحنفية شرحه كثيرون .

(٢) هو زيد بن الحسن بن زيد الكندى النحوى ، تفى سنة ٦١٣ هـ . النجزم الزاهرة ٢١٦/٦ .

(٣) هو أبو حنبل بن عبد الله فرج البغدادى ، توفى سنة ٦٠٤ هـ .

(٤) هو القاضى أبو محمد عبد الله بن محمد بن المحلى ترويح القلوب ص ٧٣ .

(٥) ورت الأبيات فى مفرج الكروب ٢١٧/٤ .

فكتب إليه ابن القيسراني :

مدح بمدح يستطاب ولا أرى ... ما بين ذين دراهماً وفلوسا

فأمر له المعظم بقماش وذهب قيمته ألف دينار ، ثم قال للرسول قل له : فلوس بيننا .

وقدم في أيامه البدر بن المسجف[1] الشاعر من الشرق ومعه قماش فعسفه ابن المبنى ، فكتب إلى المعظم :

أيا ملكاً أباد عداه قهراً ... وأحيا كل منقبة وفضل
ومن هو كالمسيح اسماً وفعلاً ... ونصباً للحياة وجزم فعل
يكلفنى البهاء زكاة مالٍ ... حرام كله من غير حل
وكيف يجود بالزكوات من لا ... يحج ولا يصوم ولا يُصلى
فجد بهبات مالكم فإنى ... أجل زكاتكم عن مال مثلى[2]

فكتب المعظم على رأسها يؤخذ منه العشر .

وكان المعظم شجاعاً مقداماً ، كثير الحياء ، متواضعاً ، مليح الصورة ، ضحوكاً ، غيوراً، جواداً ، حسن العشرة ، محافظاً على الصحبة والمودة . سافر على فرس واحدٍ من دمشق إلى إسكندرية إلى أخيه الكامل . وكان إذا خرج إلى الغزاة لا ينام إلا على زرديته . ولا يقطع الاشتغال بالقرآن والجامع الكبير (وكتاب) سيبويه ، وكان يقضى حوائج الناس كل يوم إلى الظهر . وكان فى أيام الفتح مع الفرنج يُرتب النيران على الجبال من نابلس إلى عكا. وكان بجبل عكا جواسيس لهم مع نساء عكا علامات ، فإذا عزم الملك على إخراج مائة أوقدت المرأة شمعة ، وإن كانوا مائتين أوقدت شمعتين ، وتشير إلى الناحية التى

---

(١) هو عبد الرحمن بن أبى القاسم بن غنائم بن يوسف ، الأديب بدر الدين بن المسجف ، كان أديباً ظريفاً خليفاً ، توفى سنة ٦٣٥ هـ . فوات الوفيات ٢/ ٢٨٢ .

(٢) وردت الأبيات فى مرآة الزمان ٨/ ٦٤٥ ، فوات الوفيات ٢/ ٢٨٥ .

يقصدونها . وكان يعطى النساء جملة كثيرة . قال أبو المظفر : قلت له : هذا إسراف لا يحل ، فقال : أنا أعطى الكثير باليسير . لما عزم الانبرور على كبس الشام بغته بعث فارساً يجس له الخبر ، فبعثت إلى امرأة مستحسنة منهم تخبرنى فأرسلت إليها الثياب الحرير وعنبراً وأشياء كثيرة ، فدخل إليها ذلك الفارس وهو موجه إلى الشام ، فرأى ما أدهشه ، فقال : من أين لك هذا ؟ قالت : من عند فلان ، فصلب على وجهه ، ولا زالت المرأة تلاطفه إلى أن صار إذا أرسل معه للملك كتاباً ، جاء به إليها مختوماً ، فترسل به إلىّ . قال سعد الدين (مسعود) والى خولان : كنت والياً بالشوبك ، وكان بها راهب متفرد ببعض الجبال فجاءنى كتاب المعظم بنفيه ، فنفيته ، فغاب مدة ، وجاءنى (٧٥ب) كتابه : أعده إلى مكانه ، وتوصى به ، فبحثت عن القصة، فإذا به قد بعثه يكشف أخبار الانبرور ، إنما نفاه لئلا يتهم ، وأطلق له أرضاً، وأعطاه مائة دينار .

وهبه العزيز ابن الناصر دمشق سنة اثنتين وتسعين ، واستقل بها عند وفاة الده فى سنة خمس عشرة وستمائة ، واحتاط على ما خلفه ، وكان سبعمائة ألف دينار عيناً ، وكان الكامل مشغولاً بالفرنج ، وشق عليه ذلك لما علم به ، وبعث إليه الخلع ، وقال : أدركنى وكان الكامل يخشاه ويداريه ، وكان هو أيضاً يدارى الكامل ويخطب له فى بلاده ، وربما لم يذكر اسمه ، ويدارى الأشرف ، ويألب عليه خوارزم شاه فى الباطن ، وهو الذى ساعد الكامل ، ولولاه لخلع . وكان الكامل يقول : من حفظ علىّ البلاد ، وأحيانى بعد الموت غيره ؟ وكان يقول : من أنبت الشعر على رؤوسنا إلا هو ؟ وكان الأشرف يقول : الله بينى وبين الساعة التى ولدت فيها ، معناه : أنه ولد قبل المعظم بقليل ، فكان يقف فوقه لأجل السن . وكان الظاهر – صاحب حلب يقول : هو عين البلاد ، وواسطة العقد ، ولولاه لما مر لى بحلب قرار وخاطبه الخليفة بشهريار الشام ، معناه الملك .

ولما ولى فى سنة خمس عشرة أبطل المكوس ، ورد المظالم ، وسار إلى بانياس فأخربها ، وكذا تبنين ، وتسلم الحصون ، وأعطى بلاد جهاركس لأخيه العزيز ، وزوجه ابنة

جهاركس، وقد كسر الإفرنج غير مرة . التقاهم مرة على القيمون[1] فقتل مائة ، وأسر مائة دخل بهم القدس منكسة أعلامهم وأخرب قيسارية والشغر ودعوتى وحصوناً كثيرة .

وحكى عن نفسه فقال : كان بالغور حرامى يقال له : قنديل ، يقطع الطريق فى مائة فارس ، فسمعت أن الفرنج قاصدون القدس ، فخرجت بعد الظهر ، وقلت للجماعة : اتبعونى ، وسقت ، فبينما أنا بين بيسان وأريحا[2] ، وقد نسيت قنديل ، وإذا به فى مائة فارس ، ولم يكن معى عشرة أنفس ، فوقفت وصحت ، ذلك ! أنت قنديل ؟ وبيده قوس لو ضرب به فى الجبل لنفذ ، ونزل إليه بعض المماليك ، وكتفه بوتر ، ومسكت الوتر ، وهو ساكت ، ونزلت فاراً ، فجاءنى فسلمته لهم ، قلت هو برؤوسكم ما أعرفه إلا فى القدس ، فلما كان الغد جاءوا به ، فقلت : اشنقوه ، وكان شاباً مليحاً فقال : يا خوند عوض ما تشنقى أبقنى أحمى بلادك ، وأجاهد الكفار ، فرق له قلبى ، وخلعت عليه ، ونزل الغور فأمنت الطرق . لما (٧٦ أ) نزلت الفرنج الطور ، حفظ الباب ، وجاهد جهاداً عظيماً ، فلما رأى الغلبة خرج فقتل منهم جماعة ، ثم استشهد.

وكان مع شهامته ، عظم هيبته ، قليل التكلف ، حليماً ، لا يركب بالسناجق[3] فى الغالب ، بل يركب فى جمع قليل ، وعليه قباء[4] أبيض وكلوته[5] صفراء بلا شاش، ولا يطرق بين يديه كما جرت عادة الملوك ولما زار القدس كان الرجال والصبيان يزاحمونه فى

---

(١) حصن يقع بالقرب من الرملة من أعمال فلسطين . انظر معجم البلدان ٤٢٤/٤ .

(٢) اريحا : مدينة فى الغور من أرض الأردن . معجم البلدان ١٦٥/١ .

(٣) السناجق : فردة سنجق : وهو اللواء (فارسية) .

(٤) القباء : ثوب أبيض يلبس فوق القميص على شكل معطف ، من أنواع الأقبية المختلفة . انظر المعجم المفضل باسماء الملابس عند العرب ص ٢٨٤ .

(٥) الكلوته : غطاء للرأس تلبس وحدها أو بعمامة . مفرج الكروب ١٧٢/٤ ، حاشية ٢ . والشاش : قطعة القماش التى تحيط الكلوتة . المعجم المفضل باسماء الملابس ص ٢٠٠ .

الأقصى ولا يردهم أحد عنه ولما كثر ذلك منه ضُرب به المثل. فكان الإنسان إذا فعل فعلاً لا تكلف فيه يقولون : فعل فعلاً معظمياً .

ومما نقم عليه أنه ألبس القاضي زكي الدين القباء والكلوته[1] في سنة ست عشرة ، وكان في قلبه منه أشياء يمنعه من إظهارها وجود والده ، فاتفق موت العادل ، ومرض ست الشام عمة المعظم ، وكانت أوصت بدارها مدرسة ، وأحضرت القاضي وأوصته ، وبلغ المعظم ، فعز عليه ، وقال : يحضر دار عمتي بغير اذني ؟ ثم إن القاضي أحضر جابي المدرسة العزيزية[2] وطلب الحساب ، وضربه بين يديه ، فوجد المعظم سبيلاً إلى إظهار ما في نفسه ، وكان الجمال المصري[3] عدو القاضي ، فجاء فجلس عند القاضي وبعث المعظم بقجة فيها قباء وكلوته ، وأمره أن يحكم بين الناس ، وهما عليه ، فلبسهما من خوفه، وحكم بين اثنين ، وأضر ما عليه حضور المصري ، ثم إن القاضي مرض ، ورمى كبده، وكانت واقعة شنيعة ، وندم بعدها .

وكان ابن عُنين الشاعر قد تزهد ، فبعث إليه قنينة خمر ونرداً ، وقال : سبح بهذه ، فقال ابن عنين في ذلك[4] :

يا أيها الملك المعظم سُنة ... أحدثتها تبقى على الآباد
تجرى الملوك على طريقك بعدها ... خلع القضاة وتحفة الزهاد

---

(١) كان ذلك سبب موت القاضي زكي الدين بن محيى الدين ، إذ إن ما أمر بلبسه لم يكن من لباس القضاة ، فعده إهانة وتحقيراً ، وانصرف إلى داره ومرض ومات كمداً ، وكان ذلك سنة ٦١٧ هـ . انظر مرآة الزمان ٣٩٧/٨ .

(٢) المدرسة العزيزية : جوار المدرسة المعظمية بالصالحية ، انشئت سنة ٦٢١ هـ . الدارس في تاريخ المدارس ٥٤٩/١ .

(٣) جمال الدين يونس بن بدران المصري قاضي القضاة بدمشق ، توفي سنة ٦٢٣ هـ .البداية والنهاية ١١٥/١٣.

(٤) ديوان ابن عنين ص ٩٢ .

ذكر ما بنى من الأماكن

بنى مدرسة بقاسيون ، ودفن فيها والدته وأخاه المغيث ، ومدرسة القدس ، ودار المضيف، واعتنى بأرض الحجاز ، وبنى حمامين بمعان[١] للرجال والنساء ، وأقام لهم ضيافة ، وأباحهم الحمامين ، وذرع طريق الحجاز من الجابية[٢] إلى مكة ، وحفر المصانع، وأوقف عليها ضياعاً ، وعلى المدارس وحج سنة إحدى عشرة ، وعمر المسجد عند جعفر الطيار[٣] ، وأقام الضيافات للزوار ، وبنى سور دمشق والطارمة التى على باب الحديد[٤]. والطيارة عند باب السر وبنى الخان على باب الجابية الدار والجنينة والقيسارية وغير ذلك .

ذكر وفاته

كان قد جهز العسكر إلى نابلس ، ومرض فى نصف شوال ، وكان عنده رسل الخوارزمى[٥] (٧٦ب) فغرم عليهم فى تسعة أشهر تسعمائة ألف درهم ، وكان مرضه دوسنتاريا ، واشتد مرضه ، ورمى قطعة من كبده ومصرانا ، وكثرت الأقوال ، إنه سُم ، واتهم به جماعة ، كان يتيمم كل صلاة ، وكان يقول : ما فاتتنى صلاة قط ، وسهر الليلة التى مات فيها ، وغفى عند الفجر ، وانتبه وقد كادت الشمس تطلع ، فلم يقدر على

---

(١) معان : مدينة فى طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحى البلقاء . معجم البلدان ١٥٣/٥ .

(٢) الجابية : قرية من أعمال دمشق شمال حوران . معجم البلدان ٩١/٢ .

(٣) هو جعفر بن أبى طالب ابن عم رسول الله ﷺ هاجر إلى الحبشة فى الهجرة الأولى ، ثم عاد منها قتل فى موقعة مؤتة سنة ٨ هـ . الإصابة ٢٣٧/١ ، صفوة الصفوة ٢٠٥/١ ، حلية الأولياء ١١٤/١ .

(٤) باب الحديد : جاء فى نزهة الأنام فى محاسن الشام ص ٢٧ ، من أبواب دمشق ، الباب الحديد وهو الآن خاص بالقلعة والذى أحدثه الأتراك فى دولتهم ثم صحفته العوام بالحديد .

(٥) السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه ملك بلاد أزربيجان وأران وبعض بلاد الكرج وعراق العجم وغيرها، وكان متزوجا من إحدى بنات الملك المعظم . مفرج الكروب ٢٠٤/٤ .

التيمم فصلى بالإيماء ، وكان يقول دائماً : « ما أظن ملكا يدخل الجنة » ويقول : « الموت خير من الحاجة إلى الناس » ويقول : « قد صح عن النبى ﷺ أنه لا يجتمع غبار فى سبيل الله ، ودخان جهنم فى منخرى عبد أبداً ، وكم فى منخرى من تراب (فى سبيل الله) .

وتوفى يوم الجمعة ، أول الحجة ، وقيل : بل فى ذى القعدة ، سنة أربع وعشرين وستمائة ، وأوصى أن لا يُدفن بالقلعة ، بل على باب تربة والدته تحت الشجرة ، فلم تنفذ وصيته ، ودفن بالقلعة ، ثم أخرج بعد مدة ، لما ملك الأشرف ، على حال غير مرضية ، وبين يديه نصف شمعة ، وطلب الحمالون ما يربطون به النعش ، فقالوا لهم : اربطوا بعمائمكم . ودفن مع والدته بالقبة وعمل له العزاء ثلاثة أيام ، وجرى على الرعية من وفاته ما لم يجر على غيره خرجت بنات الملوك ، شاققات لاطمات شهراً كل ليلة فى الأسواق . وكان محسناً إلى الرعية ، ذاباً عن حريمهم ، رفيقاً بهم ، يعرف صغيرهم وكبيرهم ، يحضر مجالس الوعظ ، حضر يوماً عند سبط ابن الجوزى ، فأنشد قصيدة جده التى أولها :

سلامٌ على الدار التى لا أزورها ... على أن هذا القلب فيها أسيرها

فبكى حتى افتضح ، فقال له : لا نسى الله لك مواقفك فى رضائه ، وسهرك الليالى فى جهاد أعدائه .

وكان له من الولد أربعة مات أحدهم صغيراً بعده بقليل ، والناصر وكان يلقب أولاً بالحاكم داود ، وهو أكبرهم ، مولده سنة ثلاث وستمائة ، وأمه تركية . والمغيث شهاب الدين عبد العزيز ، وأمه تركية (أيضاً) توفى سنة تسع وأربعين وستمائة بالشرق ، وخلف عدة أولاد . والقاهر بهاء الدين عبد الملك ، وأمه رومية . وخلف (الملك المعظم ابن العادل أيضاً) عدة بنات ، قيل : تسع ، وقيل : إحدى عشرة ، احداهن زوجة خوارزم شاه لم يتفق حملها إليه . ومات المعظم وسنه تسع وأربعون ومدة ملكه تسع سنين وشهور ، وولى بعده ولده الناصر . ولابن عُنين يرثى المعظم ويمدح الناصر[1] :

(١) وردت فى ديوان « ابن عنين ٥٩ » .

يا دهر ويحك ماعدا فيما بدا ... أرسلت سهم الحادثات فأقصدا
أغمدت سيفاً مُرهفاً شفراته ... قد كان فى ذات الإله مجردا (٧٧ أ)
فافعل بجهدك ما تشاء فإننى ... بعد المعظم لا أبالى بالردى
ما خلته يفنى وأبقى بعده ... يا بوس دهرى ما أمر وأنكدا
لهفى على بدر تغيب فى ثرى ... رمس وبحر فى ضريح ألحدا
أبقيت لى يا دهر بعد فراقه ... كبداً مُقرحة وجفناً أرمدا
وجوى يوجج بين أثناء الحشا ... ناراً تزايد بالدموع توقدا
لو كان خلق بالمكارم والتقى ... يبقى لكنت مع الزمان مُخلدا
أو كان شق الجيب يُنقذ من ردى ... شقت عليك بنو أبيك الأكبد
أو كان يُنجى عنك دفع بالقنا الـ ... ـخطى غادرت الوشيج مُقصدا
ولقد تمنت أن تكون فوارس ... من آل أيوب الكرام لك الفدا
أبكيت حتى نثرة وطمرة ... وحزنت حتى ذابلاً ومهندا
كم ليلة قد بت فيها لا ترى ... إلا ظهور الأعوجية مرقدا
تحمى حمى الاسلام منتصراً له ... بعزائم تستقرب المستبعدا
ولرب ملهوف دعاه لحادث ... جلل فكان جوابه قبل الصدى
ولطالما شمنا بوارق كفه ... فهمت سحائبها علينا عسجدا
يا مالكا من بعد فقدى وجهه ... جار الزمان على بعدك واعتدى
أعزز على بأن يزورك راثياً ... من كان زارك بالمدائح منشدا
كم مورد ضنك وردت وطعمه ... مر وقد عاف الكماة الموردا
وعزيز قوم مترف سربلته ... ذلاً وكان الطاغى المتمردا
أركبته حلقات أدهم قصرت ... عنه الخطى من أشقر أو أجردا
لولا دفاعك بالصوارم والقنا ... عن حوزة الاسلام عاد كما بدا
وديار مصر لو دنت عزماته ... عن نصرها لتحكمت فيها العدى
ولأمست البيض الحرائر بينهم ... فيها إماء والموالى أعبدا
ولأصبحت خيل الفرنج مُغيرة ... تجتاب ما بين البقيع إلى كدى(٧٧ب)
وبثغر دمياط فكم من بيعةٍ ... عُبد الصليب بها وكانت مسجدا
جليت ليل الكفر عنها فانطوى ... وأنرت فى عرصاتها فجر الهدى

ولقد شهدتك يوم قيسارية   والشمس قد نسج القتام لها ردا
فجعلت عاليها مكان أساسها   وألنت كالأخشاب فيها الجلمدا
قل للأعادى إن فقدنا سيداً   يحمى الديار فقد وجدنا سيدا
الناصر الملك الذى أضحى برو   ح القدس فى كل الأمور مؤيدا
أعلى الملوك محلة وأسدهم   رأيا وأشجعهم وأنداهم يدا
ماضى العزائم لا يُرى فى رأيه   يوم الكريهة حائراص متردداً
يقظ يكاد يُريه ثاقب رأيه   فى يومه ما سوف يأتيه غدا

وتأتى بقية أخباره .

ومنهم الملك الأشرف[1]

موسى بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك الأشرف ، أبو الفتح ، شرف الدين، وقيل: مظفر الدين .

ولد بالقاهرة ، وقيل : بالكرك ، سنة ثمان وسبعين (وخمسمائة)[2] وقيل : ست . وكان أول أمره بالقدس تحت حكم ابن الزنجبلى ، وأول ما ملك الرها ، سيره إليها والده سنة ثمان وتسعين ، ثم أضيفت إليه حران ، وكسر أرسلان شاه[3] - صاحب الموصل - سنة ستمائة ، وذلك أن ابن عمه قطب الدين محمد خطب للعادل ، فصعب على أرسلان، وقصد نصيبين ، وهى لمحمد ، واستنجد محمد بالأشرف ، فسار إليه ، هو وأخوه الأوحد ، فالتقوا ، فانهزم صاحب الموصل هزيمة قبيحة ، ودخل الموصل ، وليس معه غير أربعة أنفس، وكانت هذه الواقعة أول ما عرف من نجابة الأشرف ، فإنه لم تهزم له راية بعد ذلك . قال المعظم : « أنا أخذت له حران والرها والشرق وجهزته من عندى » وتنقلت به الأحوال

---

(١) انظر : تاريخ الصالحية ٩٥/١ ، امراء دمشق ٩٥ ، ذيل الروضتين ١٦٥ .

(٢) انظر : مفرج الكروب ٢٩/٣ ، كنز الدرر ٧٠/٧ .

(٣) هو صاحب الموصل ، مات سنة ٦٠٧ هـ . انظر : وفيات الأعيان ١٩٣/١ .

حتى صار شاه أرمن[١] ، وملك خلاط ، سنة تسع ، وكسر الروم ، والخوارزمى ، وأخاه شهاب الدين ، وسنذكر ذلك .

وكان جواداً حيياً عادلاً سخياً ، لو كانت الدنيا بيده ودفعها لأجل الناس ما استكثرها ، ميمون الطلعة ، ما كسرت له راية قط . ولما مرض أخذ بعض مماليكه سنجقه ليكسره ، وقال: ما يحمله غيره ، فقال : لا تفعل ، فوالله ما كسر قط . وكان يحضر (٧٨ أ) مجالس الوعظ ويبكى ، ويعتق ، وكان عفيفاً عن المحارم وقال سبط ابن الجوزى : اجتمعت به فى خلاط ، فعتب على المعظم فى قصة بلغته عنه ، ثم قال : والله ما مددت يدى إلى حريم أحد قط ، لا أنثى ولا ذكر ، ولقد كنت يوماً قاعداً هنا إذ دخل الخادم فقال : على الباب عجوز تذكر أنها من عند بنت شاه أرمن (صاحب خلاط) تذكر أن الحاجب علياً قصدها وأخذ ضيعتها ، وقصد هلاكها ، وما تتجاسر أن تظهر خوفاً منه ، فكتب باطلاق القرية ونهى الحاجب عنها ، قالت العجوز : فهى تسأل الحضور بين يديك ، فعندها سر ، ما تذكره إلا للسلطان ، فقلت : باسم الله ، فغابت ساعة ، ثم جاءت فدخلت ، ومعها امرأة ما رأيت أحسن منهـــا ، ولا أظرف ، وكأن الشمس تحت نقابها ، فخدمت ، فقمت لها (لكونها بنت شاه) وقلت : أنت فى هذا البلد وما علمت بك ! فسفرت عن وجه أضاءت منه المنظرة ، فقلت : غطى وجهك ، وأخبرينى حالك ، فقالت : أنا بنت صاحب هذه البلاد ، ومات أبى ، وتغيرت الدول ، وكان لى ضيعة أعيش منها ، فأخذها الحاجب ، وما أعيش إلا من عمل النقش ، وأنا ساكنة فى دور الكرى ، فبكيت ورق قلبى ، وكتبت لها توقيعاً بالوصية والضيعة ، وأمرت لها بقماش ودار تصلح لها ، وقلت : باسم الله فى حفظ الله، فقالت العجوز : ياخوند[٢] ما جاءت إلى خدمتك إلا حتى تحظى بك الليلة ، فساعة سمعت كلامها وقع فى قلبى تغير الزمان ، وأن يملك خلاط غيرى ، وتحتاج بنتى

---

(١) لقب يطلق على امراء وحكام خلاط .

(٢) بمعنى : الفارس أو الأمير أو السيد بلغة الفارسية .

إلى أن تقعد مثل هذه القعدة ، فقلت : معاذ الله ، والله ما هو شيمتي ، ولا خلوت بغير محارمي ، فخذيها وانصرفي ، وهي العزيزة الكريمة ، ومهما كان لها من الحوائج ينفذ ، فقامت وهي تبكي ، وتقول بالأرمنية : صان الله عاقبتك كما صنتني . فلما خرجت قالت نفسي : في الحلال مندوحة عن الحرام ، تزوجها ، فقلت : ويحك يا نفس ، أمن المروءة والله ما فعلته أبداً .

وقال : كان لي مملوك ، مات وخلف ولداً ، لم يكن في زمانه أحسن منه ، وكان من لا يفهم باطني يتهمني ، وكان عندي أعز من الولد ، وبلغ عشرين سنة ، وضرب غلاماً فمات ، فاستغاث أولياؤه ، فقلت : اثبتوا القتل ، فاثبتوه ، وجاءوا يطلبون الثأر فاجتمع عليهم مماليكي ، وقالوا : نعطيكم عشر ديات ، فأبوا ، فسلمته إليهم فقتلوه ، ولو طلبوا ملكي دفعته إليهم ، ولكن خفت الله أن أمنعهم حقهم لغرض نفسي .

وقدم عليه النظام بن أبي الحديد[1] ومعه نعل النبي - صلى الله عليه وسلم - فأحضره وقام قائماً ، ونزل من الايوان فقبله ووضعه على عينيه ، وبكى ، وخلع على النظام وأعطاه (٧٨ب) نفقة ، وأجرى عليه جراية ، وقال : هذا النظام يطرق البلاد ، وما يقيم عندنا ، وأنا أوثر أن يكون عندي قطعة منه ، فبات مفكراً ، ثم رجع عن ذلك الخاطر ، وقال: ربما يجيء من بعدي فيفعل كذلك ، فيؤدي إلى استئصاله فتركه . وقال : من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، فمات النظام بعد شهور ، وأوصى بالنعل له . ولما فتح دمشق اشترى دار قايماز النجمي[2] وجعلها دار حديث ، وترك الفعل فيها ، ونقل إليها الكتب الثمينة .

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن عثمان بن أبي الحديد المتوفى سنة ٦٢٥ هـ . الدارس ٢٩٥/٢ .

(٢) هو المجاهد الدين قايماز بن عبد الله ،كان عاقلاً أديباً فاضلاً في الفقه على مذهب أبي حنيفة ، وبنى عدة جوامع وربط ومدارس ، توفي سنة ٥٩٥ هـ . مفرج الكروب ١٠٣/٣ ، أبو الفداء ٩٧/٣.

وكان ذكياً ، فطناً ، حسن العقيدة ، جميل الطوية ، يميل إلى أهل الدين والصلاح والعلم ، يحسن إليهم ، ويزورهم ، ويتفقدهم بالمال ، وطول ليالى رمضان لا يغلق باب القلعة، وجفان الحلوى خارجة إلى الجامع والربط ، سعيد الحظ ، تتفق له أشياء خارقة ، اتفق أنه توجه إلى خلاط زائراً لأخيه الأوحد ، وعائداً من مرض أصابه ، وأقام عنده إلى أن دخل الحمام ، فأراد الانصراف إلى بلاده ، فقال له الطبيب : أقم الليلة ، فإنه ميت لا محالة ، فمات فى تلك الليلة ، واستولى الأشرف على خلاط ، وقد حكينا ذلك بقريب من هذا .

وفى سنة سبع عشرة كان الأشرف بحران ، وكان قد أقطع عماد الدين ابن المشطوب رأس عين ، فخرج على الأشرف ، وحسن لصاحب سنجار الخروج أيضاً ، فخرج بدر الدين[1] من الموصل وحضر ابن المشطوب بتل أعفر[2] ، وأخذه بالأمان ، ثم قبض عليه ، وأعلم الاشرف ، فسر بذلك ، ثم سار واستولى على دنيسير[3] وقصد سنجار ، فأتته رسل صاحبها محمود بن قطب الدين ، يسأل أن يعطى الرقة عوض سنجار ، فأجاب الأشرف إلى ذلك ، وتسلم سنجار مستهل جمادى الأولى ، وقيل : رابعه ، وقيل : مستهل صفر ، وهذا من سعادة الأشرف فإن أباه نازلها فى جموع عظيمة ولم يملكها ، وملكها الأشرف بأهون سعى . ثم سار إلى الموصل ، ووصل إليها تاسع عشر جمادى الأولى ، وكان يوم نزوله يوماً مشهوداً ، وتسلم قلعة تلعفر ، وملك الخابور ومعظم الجزيرة . وكان ينتقل إليها ، وأكثر مقامه بالرقة لكونها على الفرات ، وملك دمشق سنة ست وعشرين (وستمائة) ويأتى ذلك مفصلاً .

وفى سنة ست وعشرين أيضاً قصد خوارزم شاه[4] خلاط وحصرها والأشرف لا يمكنه

---

(١) بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله الأتابكى صاحب الموصل ، توفى سنة ٦٥٧ هـ . النجوم الزاهرة ٧٠/٧ .

(٢) تل أعفر : قلعة وربض بين سنجار والموصل . معجم البلدان ٣٩/٢ .

(٣) بلدة عظيمة مشهورة من نواحى الجزيرة قرب ماردين . مفرج الكروب ٢٩٤/٤ .

(٤) وهو جلال الدين بن علاء الدين خوارزم شاه . مفرج الكروب ٢٩٤/٤ .

مفارقة الشام لأمور ، وهجمها بالسيف ، وفعل فى أهلها ما فعله التتر من الأسر والقتل ، فلما جرى ذلك ، اتفق الأشرف وكيقباذ ملك[1] الروم على خوارزم وذلك لقرب الروم من ملك خوارزم وخوفهم منه . واجتمع الملكان ، وسارا إلى (٧٩ أ) خلاط، والتقوا فى تاسع عشرين رمضان سنة سبع وعشرين ، فولى الخوارزميون منهزمين ، وهلك غالب عسكره قتلاً وتردياً من رؤوس الجبال ، وضعف جلال الدين عقيبها ، وملك الأشرف خلاط وهى خراب يباب ، ثم وقعت المراسلة بين الملوك وتحالفوا أن أحداً منهم ما يتعرض لبلاد الآخر .

ذكر ما بنى من الأمكنة

بنى مسجد أبى الدرداء بقلعة دمشق ، وزخرفه ، وكان غالب مقامه به ، والمسجد الذى عند باب النصر ، ومسجداً خارج الباب الصغير ، ومسجد القصب بالعقيبة ، وخان الزنجارى وبنى فى بستان النيرب بنياناً عظيماً ، ودار الحديث الأشرفية . وكان بالعُقيبة ظاهر دمشق خان يعرف بابن الزنجارى ملآن من أنواع الملاهى والفسوق ، فقيل له : إن مثل ذلك لا يليق ، فهدمه وجعله جامعاً وسماه الناس « جامع التوبة » وكان بالشام رجل يعرف بالجمال السبتى ، يقال : إنه كان يلعب فى صباه بالجغانة ثم اشتهر بالصلاح ، فلما عمر السلطان الجامع ولاه الخطابة ، فلما توفى الجمال ، تولى موضعه العماد الواسطى الواعظ ، وكان يهتم بالخمر ، وكانت دمشق يومئذ للصالح إسماعيل ، فعمل عبد الرحيم بن الزويتينة[2] الرحبى أبياتاً هى :

---

(١) كيقباذ بن كيخسروا بن قلج أرسلان السلجوقى صاحب الروم ، توفى سنة ٦٣٤ هـ . شذرات الذهب ١٦٨/٥ .

(٢) عبد الرحيم بن على ، جمال الدين بن الزويتينة ـ تصغير زيتونة ـ الرحبى ، كانت وفاته بعد الخمسين وستمائة . فوات الوفيات ٣١٨/٢ .

يا مليكاً أوضح الـ | ـحق لدينا وأبانه
جامع التوبة قد | قلدني منه أمانه
قال قل للملك الصا | لح أعلى الله شانه
يا عماد الدين يا من | حمد الناس زمانه
كم إلى كم أنا في | ضُر وبؤس وإهانه؟
لي خطيب واسطي | يعشق الشرب ديانه
والذي قد كان من قبـ | ـل يُغني بجفانه
فكما نحن فما زلـ | ـنا ولا أبرح حانه
ردني للنمط الأو | ل واستبق ضمانه

ذكر وفاته

مرض في رجب مرضتين مختلفتين ، في الأعالي والأسافل ، وكان الجرائحي يخرج العظام من رأسه ، وهو يسبح الله ، وكان يتحامل إلى أن غُلب ، فلما أيس قال لوزيره جمال الدين بن جرير في ايش تكفنوني ؟ قال : حاشاك ، قال : دعني من هذا فما بقيت قوتي تحمل أكثر من نهار غد ، فقال : عندنا في الخزانة نصافي ، قال : حاشا لله أن أكفن من هذه الخزانة وكان عماد الدين بن موسك حاضراً ، فقال له : قم فاحضر الوديعة فأحضر مئزر صوف أبيض ، فيه خرق الفقراء وطاقياتهم ، مثل مسعود الرهاوي وغيره ، وكان فيهم إزار عتيق ، فقال : هذا يكون على جسدي ، فإن صاحبه كان من الأبدال ، وأحرم فيه عشرين حجة . ثم مات يوم الخميس رابع محرم ، سنة خمس وثلاثين وستمائة ، وكان آخر كلامه : لا إله إلا الله .

قال المؤيد[1] : كا منهمكاً في اللذات (٧٩ب) وسماع الأغاني ، فلما مرض أقلع

---

(١) المؤيد : هو عماد الدين اسماعيل أبو الفداء . انظر المختصر في أخبار البشر ١٦٠/٣ .

عن ذلك ، أقبل على الاستغفار إلى أن توفى ودفن بالقلعة ، ثم نقل إلى تربته بالكلاسة، فى جمادى الأولى ، ولم يخلف سوى بنت واحدة وهى ملكة خاتون ، أوقف عليها أبوها فى سنة اربع وثلاثين دار فروخ شاه[1] التى يقال لها « دار السعادة » وبستان النيرب ، وأوصى لها بجميع الجوهر ، وذلك فى مرضه ، وأعتق مائتى مملوك وجارية ، وفرق البلاد ، وملك دمشق بعده الصالح إسماعيل بعهد منه ، ومدة عمره نحو من ستين سنة ، وملكه لدمشق ثمانى سنين وشهور ، وقال التلعفرى[2] يرثيه :

أكذا تهدم المنون الجبالا ؟ أكذا ينزع الحمام النصالا ؟
أكذا تحطم الرزايا العوالى ؟ أكذا تثلم السيوف الصقالا ؟
أكذا ترجع البحار ، وقد فا ضت عُباباً ، نقائعاً أوشالا :
أكذا تغرب الكواكب فى التر ب وكانت فى جوها تتلالا ؟

ومنها :

أى مجد للناس بالملك الأشـ ـرف فيه لم يضربوا الأمثالا ؟
أى ملك من الملوك عظيم ما مشى فى ركابه إجلالا ؟
كشف الموت شمس أفق المعالى وأصابت يد المنايا الهلالا
وهوى بعد فقد موسى أبى الفتـ ـح من المجد ما سما وتعالى

آخرها :

جادت الحفرة التى ضمنت جسـ ـمك سحب تضحى وتمسى ثقالاً
وأقامت عليك سحب الحيالا تتولى وإنما تتوالى

ولما كان بعد موته بأيام ، قدم رجل من حران ، كان له على الأشرف فى عمل ما مائتى درهم ، فجاء إلى قبره وجعل يبكى ويقول : كان لى عليه رسم ، فقال بعض

---

(١) فروخ شاه ابن شاهنشاه بن أيوب المتوفى سنة ٥٧٨ هـ .

(٢) محمد بن يوسف بن مسعود ، شهاب الدين التلعفرى المتوفى سنة ٦٧٥ هـ . فوات الوفيات ٦٢/٤ ، النجوم الزاهرة ٢٥٥/٧ ، الشذرات ٢٤٩/٥ ، طبع ديوانه فى بيروت سنة ١٩١٠ ، ولم ترد هذه القصيدة فيه .

أصحابه: هو ذا يسمعك فإن أراد يعطيك ، هو يعطيك ، فانكسر قلبه ، وخرج إلى السوق ، فالتقاه تاجر من أهل بلده ، قال : كم انتظرتك ، قد جاءت لك من الزكاة مائتا درهم وشقاق لأولادك وهى رسم لك فى كل سنة .

وقال بعض الصالحين : لما مات الأشرف رأيته وعليه ثياب خضر وهو يطير مع جماعة من الأولياء فقلت : يا موسى إيش تعمل مع هؤلاء وأنت كنت تصنع وتفعل ، فالتفت إلى وقال : الجسد الذى كان يفعل تلك الأفاعيل تركناه عندكم ، والروح التى كانت تحب هؤلاء صارت معهم .

وكان ـ رحمه الله ـ فى (٨٠ أ) غاية السماحة ، واسع الصدر ،كريم الأخلاق ، لا يوجد فى خزانته شيء من المال مع اتساع مملكته ، ولا تزال عليه ديون للتجار . ولقد رأى يوماً فى دواة كاتبه وشاعره الكمال ابن النبيه[١] قلماً واحداً فأنكر عليه ذلك ، فأنشده فى الحال :

قال الملك الأشرف قولاص رشداً   أقلامك يا كمال قلت عددا
جاويت لعظم كتب ما تُطلقه   تحفى فتقط فهى تفنى أبدا

ويقال : إنه طرب ليلة على بعض الملاهى ، فقال لصاحب الملهى تمن ، فقال : تمنيت خلاط ، فأعطاها إياه ، وكان النائب عليها الحاجب على بن حماد الموصلى ، فعوضه عنها جملة كبيرة ، وله فى ذلك غرائب .

ولابن عُنين يهجوه ، وذلك أنه لما ملك دمشق دخل عليه فلم ير منه ما كان يرى من المعظم ، فقال[٢] :

---

(١) على بن محمد بن الحسن ، كمال الدين ابن النبيه ، مدح بنى أيوب واتصل بالملك الأشرف موسى وكتب له الانشاء ، وسكن نصيبين وتوفى بها سنة ٦١٩ هـ . فوات الوفيات ٦٦/٣ .

(٢) ديوان ابن عنين ص ١٣٢ .

وكنا نُرجى بعد عيسى محمداً لينقذنا من شدة الضر والبلوى
فأوقعنا فى تيه موسى كما ترى حيارى فلا من يهديه ولا سلوى

ومنهم الملك الكامل[1]

محمد بن أبى بكر محمد بن أيوب بن شاذى ، السلطان الملك الكامل ابن العادل . ولد سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وهو أحد أخوته بعد ممدود ، وعهد إليه أبوه لما رأى من عقله . وكان شجاعاً مهيباً ذكياً فطناً يحب العلماء والأماثل ، يلقى عليهم المشكلات ، ويتكلم على صحيح مسلم بكلام حسن ، وثبت فى نوبة دمياط ، وأنفق كل ما فى خزانته . وأما عدله فإليه المنتهى . حضر إليه غلام ، وقال : استاذى استخدمنى بنى ستة أشهر يقوم الأمير (٨١ أ) حتى نتفق على المنجنيقات ، فركب مسرعاً ، واستدرجه المعظم حتى أخرجه عن الخيام ، فأحاط به عسكر المعظم ، وأركبوه بغلة ، فقال : ما معى أحد من غلمانى ولا قماشى ، قال: كل قماشك يتبعك ، لا يضيع لك خيط ، وأعطاه خمسمائة دينار ، وسفر إلى الشام ، وأرسل الكامل يستدعى الصفى بن شكر ، وكان أبوه قد نفاه ، فعاد وقد قل بصره ، فجبى من أموال التجار شيئاً يقال له التبرع .

ذكر أخذ الفرنج دمياط فى سنة ست عشرة

ولما حصل الخلل فى عسكر الكامل ، قوى طمع الفرنج ، واشتدت مضايقتهم لدمياط ، وقد عجز أهلها ، وأكلوا الميتة ، وحصل لهم وباء عظيم ، فأرسل الأمير جمال الدين الكنانى قصيدة على لسان دمياط فى سهم نشاب وهى[2] :

---

(١) ترجمته فى مرآة الزمان ٧٠٥/٨ ، ذيل الروضتين ١٦٦ ، مفرج الكروب ٢٧٤/٣ ، وفيات الأعيان ٧٩/٥ ، الحوادث الجامعة ١٠٧ ، الوافى ١٩٣/١ ، الدارس ١١٧/٢ ، امرؤ القيس ٧٩ ، عبر الذهبى ١٤٤/٥ ، النجوم ٣٠١/٦ ، ابن كثير ١٤٩/١٣ ، ابن اياس ١٨/١ ، السلوك ١٩٤-٢٦٠ ، كنز الدرر ٣٢٦/٧ ، أخبار الأيوبيين ١٤٤ ، شذرات ١٧١/٥ .

(٢) وردت فى السلوك ١٩٩/١ .

يا مالكى ! دمياط ثغر هُدمت   شرفاته وكأن تُجث أصوله
يُقريك من أذكى السلام تحية   كالمسك طاب دقيقه وجليله
ويقول عن بعد ، وإنك سامع   حتى كأنك جاره ونزيله
يا أيها الملك الذى ما إن يُرى   بين الملوك شبيهه وعديله
هذا كتاب موضح عن حالتى   ما ليس يمكننى لديك أقوله
أشكو إليك عدو سوء أحدقت   بجميعة فرسانه وخيوله
فالبر قد مُنعت إليه طريقه   والبحر عز لنصره أسطوله
فخضوعه باد على أبراجه   وحنينه وبكاؤه وعويله
ولو استطاع لأم بابك لائذاً   لكنه سدت عليه سبيله
ورسوله فى أن تجيب سؤاله   دين الإله وخلقه ورسوله
فلقد انتهت أداواؤه وتحكمت   علاته ونحا عليه نحوله
وبقى له رمق يسير يرتجى   أن يشتفى لما دعاك عليله
فاحرس حماه بعزمة يُشفى بها   داء ، فمثلك يُرتجى تعليله
فالله أعطاك الكثير بفضله   ورضاه من هذا الكثير قليله
فالعذر عن نصر الإله ودينه   ما شاع عند المسلمين قبوله
فالدين ناظره إليك محدق   ما إن يمل من الدموع هموله
ولئن قعدت عن القيام بنصره   جفت نضارته وبان ذبوله
ودهت قوى القرآن فيه ورفعت   صلبانه وتلى به إنجيله
وعلا صدى الناقوس فى أرجائه   وخفى على سمع الورى تهليله
هذا وحقك وصف صورة حاله   حقاً وجملته وذا تفصيله
وكفاك يابن الأكرمين بأنه   أضحى عليك من الورى تعويله
حقق رجاءه فيك يا من لم يخب   أبداً لراجى جوده تأميله
واذخر ليوم البعث فعلاً صالحاً   الله ضامن أجره وكفيله

فأمر الكامل أهل مصر والقاهرة بالخروج إلى المنصورة ، فخرجوا ، وأرسل إلى أخيه الأشرف يستدعيه ، وتابع الكتب إليه ، وكان مما كتب إليه هذه الأبيات(١) :

---

(١) وردت فى الحوادث الجامعة ١٠٧ ، السلوك ١٩٧/١ ، خطط المقريزى ٣٧٦/٢ ، البداية والنهاية ١٤٩/٣ ، الدارس ٢٨٠/٢ .

يا مسعفى إن كنت حقاً مسعفى | فارحل بغير تلبث وتوقف
واحثث قلوصك مُرقلاً أو موجفاً | بتجشم فى سيرها وتعسف
واطو المنازل ما استطعت ولا تُنخ | إلا على باب المليك الأشرف
واقر السلام عليه من عبد له | متوقع لقدومه متشوف
وإذا وصلت إلى حماه فقل له | عنى بحسن توسل وتلطف
إن تات عبدك عن قريب تلقه | ما بين حد مهندٍ ومثقف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه | بك فى القيامة فى عراص الموقف

وأرسل المعظم ابن الجرخى فى خمسمائة راجل، فهجموا على الخنادق ، وقتل ابن الجرخى ومن معه ، وصفوا رؤوس القتلى على الخنادق ، وكانوا قد طموها ، وضعف أهل دمياط ، وعجز الكامل عن نصرتهم ، فأرسلوا إلى الفرنج أن يسلموا البلد ويخرجوا بأهلهم ومالهم ، واجتمع الأقساء وحلفوا على ذلك ، وفتح لهم أهل البلد دمياط ، ورفعوا اعلامهم، وغدروا بأهله ، ووضعوا فيهم السيف ، وباتوا تلك الليلة يفجرون بالنساء بالجامع ، وأخذوا كثيراً من المصاحف (٨٢ أ) والرؤوس[(١)] إلى الجزائر ، وجعلوا الجامع كنيسة ، وكان أبو الحسن بن قفل[(٢)] بدمياط ، فسألوا عنه ، فقيل لهم : هذا رجل صالح من مشايخ المسلمين يأوى إليه الفقراء فما تعرضوا له ، ووقع على المسلمين كآبة عظيمة ، وبكى الكامل بكاء شديداً ثم تأخر عن تلك المنزلة ، وكان المعظم يقول : لو كان الدعاء ينفع لسمع دعاء أهل دمياط . ثم قال الكامل للمعظم : قد فات ما ذبح ، والمصلحة أن تنزل إلى الشام ، تشغل خواطر الفرنج ، وتستجلب العساكر ، وكان دخولهم لها فى شعبان ، وقيل : فى عاشر رمضان . ولما ملكوها قوى طمعهم فى مصر ، وابتنى الكامل مدينة عند مفرق البحرين سماها « المنصورة » يحمل منها ، وكتب المعظم إلى سبط ابن الجوزى أن

---

(١) أى : رؤوس القتلى .

(٢) هو أبو الحسن على بن أبى القاسم الدمياطى المعروف بابن قُفل ، حدث المنذرى عنه فى معجمه ، توفى سنة ٦٤٧ هـ . النجوم ٢٣٨/٦ حاشية ٢ .

يحرض الناس على الجهاد ، ويقول : إنى كشفت ضياع الشام فوجدتها الفى قرية ، منها ألف وستمائة أملاك لأهلها والباقى سلطانية ، وكم جهد ما يخرج منها ؟ فتقاعد الناس عن المسير .

ذكر تخريب القدس

وكان المعظم لما رأى قوة الفرنج ، وبلغه أن طائفة عازمة على قصد القدس ، وكان به العزيز عثمان ، فكتب إليه بخرابه ، فتوقف ثم أرسل كتاباً آخر ، فشرعوا فى السور أول يوم المحرم ، ووقع فى البلد ضجة مثل يوم القيامة ، خرج الناس إلى الصخرة ، فقطعوا شعورهم ، ومزقوا ثيابهم ، بحيث امتلأت الصخرة من الشعور ، وخرجوا وتركوا أموالهم وما شكوا أن الفرنج تُصبحهم ، والنساء يشققن ثيابهن ويربطنها على أرجلهن (من الحفا) ومات خلق عظيم من الجوع والعطش ، ونهبت الأموال ، وبلغ قنطار الزيت عشرة دراهم ، والنحاس الرطل بنصف درهم ، وأكثر الشعراء فى ذم المعظم .

فقال بعض الفضلاء[1] :

فى رجب حلل الحميا ... وأخرب القدس فى المحرم

ذكر فتح دمياط

وفى سنة ثمانى عشرة قوى طمعهم فى مصر ، وتقدموا إلى جهتها ، ووصلوا المنصورة، واشتد القتال بين الفريقين ، براً وبحراً ، وكتب السلطان متواترة إلى أهل بيته ، والأشرف متقاعد ، فسار إليه المعظم وألزمه ، فسار واستصحب عسكر حلب ، وكذلك الناصر صاحب حماة ، وكان خائفاً من الكامل أن ينزع حماه منه ويسلمها لأخيه ، فحلف له الأشرف أنه ما يمكنه ، سار صاحب بعلبك ، وصاحب حمص ، والمعظم بعسكر

(١) ورد فى النجوم ٢٤٥/٦ ، البداية والنهاية ٨٣/١٣ .

الشام ، ووصلوا إلى الكامل وهو بالمنصورة ، فركب والتقى أهل بيته وأكرمهم ، وقويت نفوس المسلمين ، وضعفت نفوس الكفار ، ولما شاهدوا من كثرة المسلمين وتجملهم ولا سيما عسكر الأشرف ، فإنه كان في تجمل زائد ، واشتد القتال (٨٢ب) والرسل مترددة في الصلح ، على أن يسلموا القدس وعسقلان وطبرية واللاذقية ، وجبلة وجميع الفتوح الصلاحي ما عدا الكرك والشوبك ، على أن يسلموا دمياط ، فلم يرضوا إلا بالكرك والشوبك زيادة ، وثلاثمائة ألف دينار عوضاً عن تخريب أسوار القدس . وبينما الأمر كذلك إذ عبر جماعة من المسلمين من بحر المحلة إلى الأرض التي عليها الفرنج ، ففجروا فرجة عظيمة وكان ذلك في قوة زيادة النيل ، وهم لا خبرة لهم بأمر النيل ، فركب الماء تلك الأرض ، وصار حائلاً بينهم وبين دمياط وانقطع عنهم الميرة ، فهلكوا جوعاً ، وبعثوا يطلبون الأمان على أن ينزلوا عن جميع ما بذله المسلمون لهم ويسلموا دمياط ، ويعقدوا مدة الصلح وكان فيهم عدة ملوك كبار، نحو عشرين ملكاً ، واختلفت الآراء في إعطائهم الأمان ، ثم اتفقوا على ذلك لطول القتال لأنه كان لهم ثلاث سنين وشهور في القتال ، فأجابهم الكامل حرصاً على أخذ دمياط ولو أمهلهم يومين لأخذهم قهراً ، وطلب الفرنج رهينة ، فبعث لهم ابنه الصالح أيوب وابن أخيه شمس الملوك وحضر من الفرنج رهينة ملك عكا ، وملك رومية الكبرى وغيرهم ، وكان ذلك سابع رجب ، وسُلمت دمياط تاسع عشره وقيل: ثالثه ، وقيل: تاسع عشر شعبان ، وقيل : حلفوا ألا يقصدوا الديار المصرية أربعين سنة . وجلس الكامل لهم مجلساً عظيماً في خيمة ومد سماطاً وأحضر ملوك الفرنج ووقف الأشرف موسى عن يمينه والمعظم عيسى عن شماله ، وقام راجح[1] الحلي فأنشد :

---

(١) شرف الدين راجح بن إسماعيل الحلبي ، كان فاضلاً جيد النظم عذب الألفاظ حسن المعاني ، توفي بدمشق سنة ٦٢٧ هـ . فوات الوفيات ٧/٢ ، النجوم ٢٧٥/٦ ، عبر الذهبي ١٠٨/٥ .

هنيئاً فإن السعد راح مُخلداً وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إله الخلق فتحاً بدا لنا مبيناً إنعاماً وعزاً مؤيدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى الخصم بأهله الـ ـطغاة وأضحى بالمراكب مُزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه صقيلاً لما سل الحسام مجردا
فلم ينج إلا كل سلو مجدل ثوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون فى الأرض رافعاً عقيرته فى الخافقين ومنشدا
أعباد عيسى إن عيسى وحزبه وموسى جميعا يخدمون محمدا

وأشار عند ذكر عيسى إلى المعظم ، وعند ذكر موسى إلى الأشراف ، وعند ذكر محمد إلى الكامل ، وقيل : إن هذا البيت لشرف الدين جبارة[1] من قصيدة أولها :

أبى الوجد إلا أن أبيت مُسهدًا

ومنها :

لقد جهل الفرنج موضعه الذى سقاكم كؤوس الخوف ملاءً من الردى
وكل شجاع كان يحكى عطارداً ذكاء فلما أن رآه تبلدا
أعباد عيسى جاء عيسى برغمكم موسى جميعا ينصران حمدا

لواء نصرك فى الهيجاء منشور

ومنها :

به غدا الثغر للإسلم مبتسما بعد العبوس وفيه الله مذكورُ
بعد الأناجيل آيات القرآن به تتلى وقد نسخ الناقوس تكبيرُ
يقول محرابه لو كان يسمعنا محمدٌ ناصر الشرع منصورُ

---

(١) شرف الدين على بن إسماعيل بن جبارة ، شاعر فاضل ، توفى بالقاهرة سنة ٦٣٢ هـ . نكت الهميان ٢٠٨ .

ولابن عنين من قصيد[١] :

سلو صهوات الخيل يم الوغى عنا ... إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا ... من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رأيا وعزما وهمة ... ودينا وإن كانوا قد اختلفوا لسنا
تداعوا بأنصار الصليب وأقبلت ... جموع كأن الموج كان لها سفنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم ... بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى ... وكيف يذوق النوم من عدم الأمنا
لقد صبروا صبراً جميلاً ودافعوا ... طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى
بدا الموت من زرق الأسنة أحمراً ... فألقوا بأيديهم الينا فأحسنا
وما برح الإحسان منا سجية ... توارثها عن صيد آبائنا الأبنا
أسود الوغى لولا وقائع سمرنا ... لما ركبوا قيداً ولا سكنوا سجنا
يسير بنا من آل أيوب ماجد ... أبى عزمه أن يستقر به مغنى
كريم الثنا عار من العار باسل ... جميل المحيا كامل الحسن والحسنى
مآثر مجدٍ خلدتها سيوفه ... لها نبأ يفنى الزمان وما تفنى
وقد عرفت أسيافنا ورقابهم ... مواقعهم منا فإن عاودوا عدنا
منحناهم منا حياة جديدة ... فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو ملكوا لم يأتلوا فى دمائنا ... ولوغا ولكنا ملكنا فأسجحنا

وقال ابن عنين يمدح الأشراف :

قسما بما ضمت أباطح مكةٍ ... وبمن حواه من الحجيج الموقف
لو لم يقم موسى بنصر محمدٍ ... لرقى على درج الخطيب الأسقف
لولاه ما ذل الصليب وأهله ... فى ثغر دمياط وعز المصحف

وقال يمدحه أيضا بقصيدة مطولة أولها :

---

(١) ديوان ابن عنين ٢٩ .

يا أيهـــا الملك الذى إنعـــامـــه لم يبق فى الدنيا فـقـيـراً مـرمـلا
لقـــد اتقـــيت الله حق تقـــاته ونهــجت للناس الطريق الأمــثــلا
لولاك لانفـصـمت عُرى الإسلام فى مـــصـــر وأخـــمل ذكـــره وتبـــدلا
وتحكمت فـيـهـا الفـرنج وغـادرت أعـلاجـهـا مـحـراب عـمـرو هيكلا

ثم دخل الكامل دمياط ومعه ملوك أهل بيته ، وكان يوماً مشهوداً ، وأذن للملوك فى العودة إلى بلادهم .

ذكر ما جرى بين
الكامل والأشرف والمعظم

وعاد المعظم إلى الشام وأقام الأشرف عند أخيه بمصر ، وتصافيا واتفقا على المعظم فلما علم المعظم ذلك وكان قد ظهر بالشام جراد لم يُعد مثله أظهر أن ببلاد العجم طيراً يقال له : السمرمر يأكل الجراد ، فأرسل الصدر البكرى محتسب دمشق إلى العجم وأمره أن يحمل من ماء عين هناك يجتمع عليه السمرمر فى قوارير وتعلق على رؤوس الرماح ، فلما رآه السمرمر تبعها وكان مقصوده أن يبعث البكرى إلى الخوارزمى فيتفق معه على أخويه ، فقل الجراد فى غيبة البكرى ، فلما رجع ظهر للناس وللكامل ذلك عملت الأشعار وولاه المعظم شيخ الشيوخ .

وفى سنة ثلاث وعشرين نازل المعظم حمص ، وقد اتفق مع خوارزم شاه وصاحب إربل أن يكونوا يداً واحدة ثم رحل عن حمص لكثرة ما مات من خيله ، وورد عليه الأشرف طلبا للصلح وبقى فى الظاهر مكرما وفى الباطن كالأسير ، وأما الكامل فإنه تخيل من عسكره فلم يمكنه مفارقة مصر ، ولما رأى الأشرف أنه لا خلاص له إلا بالإجابة للمعظم حلف له أن يعاضده على الكامل ورحل فى جمادى الآخرة سنة أربع وعشرين ، فكان عند

المعظم نحو عشرة أشهر ، ولما استقر ببلده رجع عما كان بينه وبين المعظم وتأول فى إيمانه أنه مكره ، ولما تحقق الكامل اعتضاد المعظم بجلال الدين ، خاف وكتب إلى ملك الفرنج أن يقدم عكا ليشغل سر أخيه ، ووعده أن يعطيه القدس ، فسار الأنبرور إلى عكا ، وبلغ المعظم ذلك فكاتب الأشرف واستعطفه فعاجل المعظم قاطع الآجال ومخترم الرجال وتوفى سنة أربع وعشرين .

ذكر تسليم القدس للفرنج فى سنة ست وعشرين

لما قدم الأنبرور[1] لم يمكن الكامل دفعه لِما تقدم معه من الاتفاق ولأن القتال يؤدى إلى فوات أغراضه عمر سور صيدا وكانت مناصفة ، وأخرجوا المسلمين منها ، وكان الأشرف والكامل بظاهر غزة ، وذلك أنه خرج سنة خمس وعشرين لينزع دمشق من الناصر داود ، والرسل مترددة فى تسليم القدس ، وأبىّ ملك الفرنج أن يرجع إلى بلاده إلا بما وقع عليه الشرط فى تسليم القدس وبعض الفتوح الصلاحى ، وأبى الكامل تسليم ذلك كله وتقرر الأمر فى ذلك أن يأخذ القدس على شريطة أن يبقى خراباً ، ولا يكون للفرنج شيئاً من قراياه الخارجية ، وأن يكون مقامه بالبيرة من عمل القدس ، وأن الحرم الشريف بما حواه يكون بأيدى المسلمين لا يدخله الفرنج إلا للزيارة ، وقيل : بل أعطوهم من القرايا ما هو على الطريق من عكا إلى القدس ، ورأى الكامل أن يرضيهم بذلك ويهادنهم مدة ، وهو قادر على ارتجاعها متى شاء ، وإنه متى شاققهم انفتح باب محاربة واتسع الخرق ويفوت غرضه وكان الرسول بينهما فخر الدين ابن الشيخ[2] وكان يجرى بينه وبين الملك محاورات فى أشياء شتى ومسائل حكمية ، ثم حلف الملكان ، وكان الفرنجى يقول : لولا

---

(١) الأنبرور : هو الإمبراطور فردريك الثانى صاحب صقلية (العرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس ص ٣١٩ .

(٢) فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ أبى الحسن محمد بن عمر ، كان عاقلاً جواداً خليقاً بالملك ، توفى سنة ٦٤٧ هـ . النجوم الزاهرة ٣٦٣/٦ .

أنى أخاف انكسار جاهى عند الفرنج لما كلفت السلطان شيئا من ذلك ، ونودى فى البلد بخروج المسلمين فخرجوا ووقع الضجيج والبكا ، وانكر الناس على الكامل هذا العمل ، وتسلمه الفرنج فى ربيع الآخر ، وأخذ الناصر داود فى التشنيع على عمه ، وكان بالشام سبط ابن الجوزى وله قبول عظيم فى الوعظ فأمره أن يعمل مجلساً فى ذلك ، فعمل ولم يتخلف عنه أحد وكان من كلامه : وانقطعت من البيت المقدس وفود الزائرين ، يا وحشة المجاورين ! كم كانت لهم فى تلك الأماكن من ركعة ، كم جرت لهم على تلك المساكن من دمعة، تالله لو صارت عيونهم عيوناً لما ونت ، ولو انقطعت قلوبهم أسفاً لما اشتفت ، أحسن الله عزاء المؤمنين يا خجلة ملوك المسلمين ، لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات ، ولمثلها تنقطع القلوب من الحسرات ، ومن ذلك قوله :

على قبة المعراج والصخرة التى تُفاخر ما فى الأرض من صخراتِ
مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحيٍ مُقفر العرصاتِ

وأكثر الشعراء من ذلك فمنه قول بعضهم :

عزيزٌ علينا أن نرى القدس تخرب وشمس مبانيه تزول وتغرب
وقلت له : منا الدموع لأنه على مثله تجرى الدموع وتسكب

وحكى أن فقيراً بات بالقدس فسمع قائلاً يقول فى الليل :

إن لم يكن بالشام قل نصيرى وتهدمت ثم دام هلوكى
فلقد أصبح الغداة خرابى سمة العار فى جباه الملوكِ

ولما تم ذلك استأذن الأنبرور السلطان فى زيارة القدس ، فأذن له وصحبته شمس الدين قاضى نابلس ، فلما رأى الكتابة على القبة قال : ما هذا ؟ قالوا : طهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين . فقال : ومن هم المشركون ؟ وقال : هذه الشبابيك التى على

أبواب الصخر من أجل إيش ؟ قالوا : من العصافير . قال : قد جاءتكم الخنازير ، وكان السلطان قد أمر القاضى ألا يؤذن المؤذنون فى الحرم ، وهو فيه ، فنسى القاضى فطلع المؤذن فى السحر وقال : ﴿ ما اتخذ الله من ولد ﴾[1] ، ﴿ ذلك عيسى ابن مريم ﴾[2] إلى اشباه هذا فعظم على القاضى ونهى المؤذن ، فلما كان الليلة الثانية قال : يا قاض أين الرجل الذى تكلم البارحة بذلك الكلام ؟ فقال : السلطان أمرنا ألا يتكلم به فى حضورك ، قال : أخطأتم . تبطلون شعائر دينكم لأجلى ؟ أنت لو كنت عندى ببلدى بطلت الناقوس لأجلك فإن أول ما تنقصون عندنا[3] وأقام ليلتين ، وفرق على خدمة المسجد والمجاورين كل واحد عشرة دنانير ثم رجع إلى يافا وتوجه الكامل إلى الشرق .

ذكر فتح آمد فى سنة تسع وعشرين

وقيل : فى سنة ثلاثين ، توجه الكامل والأشرف لانتزاع آمد من المسعود ممدود الأرتقى وكان قد أساء السيرة ، وتعرض لنساء الأكابر وشُكى ذلك للكامل ، وتقدم الأشرف إلى دمشق وعبر الكامل الكرك ، واهتم الناصر داود به ، وبالغ فى تعظيمه وعقد عقده على عاشوراء شقيقة العادل ، وعبر الكامل الفرات ومعه الناصر داود ، ونازل آمد يوماً واحداً ، ووعد صاحبها إقطاعاً بمصر ، فأذعن للتسليم ، وسلم إليه آمد وقلاعها غير حصن كيفا ، وقيل : بل به ، ووجد فى قصره خمسمائة حرة من بنات الناس للفراش وعاد الأشرف إلى دمشق والكامل إلى مصر وأقام بتلك البلاد الملك الصالح .

ذكر مسير الكامل إلى الروم فى سنة إحدى وثلاثين

وسبب ذلك أن كيقباذ بن كيخسرو ـ ملك الروم ـ تعرض لخلاط فرحل الكامل ،

---

(١) سورة المؤمنون : الآية ٩١ .

(٢) سورة مريم : الآية ٣٤ .

(٣) فى مرآة الزمان ٦٥٧/٨ (الله الله فان لا تفعلوا فإن أول ما تنقصون عندنا) .

واجتمع عليه الملوك من أهل بيته ونزل شمالى سلمية فى رمضان ، وتقدم إلى جهة الدربندات فوجد الطرق صعبة وقد حفظها الروم ورموا بها الأخشاب فنزل الكامل على النهر الأزرق[1] وفى خدمته ستة عشر دهليزاً لستة عشر ملكا فمن ذلك إخوته الأربعة الأشرف صاحب دمشق ، والمظفر صاحب ميافارقين ، والحافظ صاحب جعبر ، والصالح إسماعيل ، وأولاد صلاح الدين الثلاثة : المعظم أرسله ابن أخيه العزيز مقدما على عسكر حلب ، والزاهر صاحب البيرة ، والمفضل موسى صاحب سميساط ، والصالح أحمد ابن الظاهر غازى صاحب عين تاب[2] ، والمظفر صاحب حماة ، والمجاهد صاحب حمص ، والناصر صاحب الكرك ، فأرسل الكامل بعض العسكر إلى حصن منصور[3] وهو من بلاد كيقباذ فهدمه ، وجاء إليه صاحب خرتبوت[4] وهو من بنى أرتق ، وقال : ادخل الروم من جهتى، فقطع السلطان الفرات وسار إلى السويداء[5] وقدم جاليشه[6] مع صاحب حماة ، تقدير الفين وخمسمائة فارس ، وقيل : بل خمسة آلاف ، فأقبلت عساكر الروم فى اثنى عشر ألفا فاقتتلوا إلى آخر النهار فانهزم المظفر ودخل إلى قلعة خرتبوت وهو صاحبها ، ودخل بقية العسكر الربض[7] ففتحه الروم واسروا من فيه ووصل كيقباذ فنصب على القلعة تسعة عشر منجنيقاً ودام الحصار أربعة وعشرين يوماً ، واشتد الأمر على من بالقلعة لكثرتهم فإنه اجتمع فيها أكثر من اثنى عشر ألفا وعُدم الماء والزاد فأخرج المظفر نصف من بها ثم ضاق به الأمر فطلب الأمان له ولصاحب القلعة ونزل إليه ثالث ذى القعدة فأكرمه وخلع

---

(١) النهر الأزرق : نهر فى طرف بلاد الروم من جهة حلب . معجم البلدان ٣١٧/٥ .

(٢) عين تاب : مدينة حصينة بين حلب أنطاكية . معجم البلدان ١٧٦/٤ .

(٣) حصن منصور : من أعمال ديار مضر غربى الفرات . معجم البلدان ٢٦٥/٢ .

(٤) خرتبوت : مدينة فى أقصى ديار بكر من بلاد الروم . معجم البلدان ٣٥٥/٢ .

(٥) بلدة مشهرة فى ديار مضر قرب حران . معجم البلدان ٢٨٦/٣ .

(٦) الجاليش : الراية العظيمة فى رأسها خصلة الشعر . صبح الأعشى ٨/٤ .

(٧) الربض : ما حل المدينة من خارج .

عليه وقدم له تختا وتسلم خرتبوت وقلاعها وكانت سبعة ، والتزم بالعوض ولم يف ، وأطلق المظفر بعد يومين ففرح به الكامل ، وكان العسكر الكاملى قد فسدت نياتهم لما بلغهم أن الكامل يريد أن يحتصن عنده من الغلاء فضعف عن لقاء الروم وحصل هو عظيمة من الناصر داود ، وألزمه بطلاق ابنته فطلقها وأثبت طلاقها رجع كل واحدٍ من الملوك إلى بلده فى سنة اثنتين وثلاثين ، واستولى كيقباذ على حران والرها بعد المحاصرة .

ذكر مسير الكامل إلى الشرق ثانياً فى سنة ثلاث وثلاثين

سار الكامل واستصحب أخاه الأشرف ونازل الرها وتسلمها وهدم قلعتها ، ونازل حران وتسلمها وقبض على أجناد كيقباذ ، وسيرهم إلى مصر ولم يستحسن الناس منه ذلك ، وأخرب دنيسير سوى قلعتها وعاد إلى دمشق فأقام بها إلى آخر السنة ، ورجع إلى مصر سنة أربع وثلاثين .

ذكر ما حصل من الوحشة بين الملوك فى سنة أربع وثلاثين

وسببه : أن الأشرف أرسل يطلب من الكامل الرقة بسبب العليق فأرسل إليه عشرة آلاف دينار ، فردها وقال : هذه أعطيها لأمير واحدٍ من أمرائى . فاغتاظ الكامل وقال : يكفيه عِشرة المغانى وتعلم صنعتهم ، فلما سمع الأشرف قال : سوف أعرفه قيمته فأرسل إلى الملوك من أهل بيته وأخته صاحبة حلب[1] وصاحب حمص ، وصاحب الروم ، وتوسط صاحب حمص إلى أن أجاب صاحب حماة وهو فى الباطن مع الكامل لأنه خاله ، وملكه حماة وزوجه بنته ، وانتظمت الكلمة فبينما هم فى ذلك مات صاحب الروم ، وولى ولده فجددوا معه الاتفاق ، وأما الناصر داود فإن الأشرف أرسل إليه يدعوه إلى الموافقة على أن يكون ولى عهده وأن يزوجه ابنته ، فعند وصول رسوله ورد رسول الكامل يقول : لما التجأت إلى الأشرف لما مات أبوك وتركت جانبى غدر بك ، أنا أخلص لك الشام منه فاستشار

---

(١) هى ضيفة خاتون . أبو الفداء ١٥٨/٣ .

الناصر والدته فأشارت بالكامل فتوجه إليه ، والتقاه الكامل وزينت القاهرة ونزل بدار الوزارة وخلع عليه خلعة السلطنة ، وحمل العادل ولد الكامل الغاشية بين يديه ، ثم بعده الجواد إلى القلعة، وجدد عقده على عاشوراء ، وكتب الناصر يذكر ما عامله به الكامل ، وفى جملة كتابه :

سيعلم قوم خالفونى وشرقوا وغربت أنى قد ظفرت وخابوا

قال جامعه : لو أطاع الأشرف ، وأرسل إلى الكامل يقول :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت إن ترشد غزية أرشد[1]

لكان خيراً له . انتهى.

وأرسل الملك إلى الكامل : قد اتفقت كلمتنا وطب منك أنك لا تعود وتخرج من مصر ، فتحلف لنا على ذلك . فقال الكامل : احلفوا أنكم لا تقصدون بلادى وأنا أوافقكم، ولما بلغه الرسول بكى وضحك ، وقال : أبكانى اختلاف ملوك الإسلام ، واضحكنى كوننا الجميع مشايخ . وما بقى لنا فسحة فى الأجل نحتمل القال والقيل ، وكتب فى جوابهم :

تجمعتم من كل أوبٍ ووجهة على واحدٍ لا زلتم قرن واحدِ

فبينا هم فى ذلك ، مات الأشرف فى المحرم سنة خمس وثلاثين ، وأوصى إلى أخيه الصالح إسماعيل فلما ملك أرسل إلى الملوك أن يكونوا على ما كان عليه الأشرف ، فأجابوا

---

(١) البيت لدُريد بن الصمة . الأصمعيات ص ١٠٧ .

وامتنع صاحب حماة وانحاز إلى الكامل وأرسل يعتذر أنه ما وافق إلا من الخوف على بلاده فقبل عذره .

ذكر مسير الكامل إلى دمشق
في سنة خمس وثلاثين ووفاته فيها

فسار الكامل إلى دمشق ومعه الناصر ، وكان يعجلون نائب الأشرف ، فتسلمها الناصر على مالٍ سلمه للنائب ولم ينكر الكامل ذلك .

ولما وصل الكامل إلى دمشق دخل إليها أيبك المعظم[1] ـ صاحب صرخد ـ معاضداً للصالح ، وجاءت نجدة من حمص وحلب ، وتهيأ الصالح ونازله الكامل وزحف الناصر من جهة العقبية وكاد يملك البلد ، فلم يعجب الكامل ذلك وسير إليه من رده وخرج الصالح من غد ذلك اليوم بالحرافشة ، فأحرق العقبية وأخرب أيضاً قصر حجاج[2] ، والشاغور[3] وغيرهما ، وأصبح أصحاب الأملاك يشحذون وربما احترق البيت بأهله ، حكى أن رجلا كان له عشر بنات فلما أحس بالنار قال لبناته : اخرجن ، قلن : لا والله النار ولا العار ، فأحرقوا وصادر الصالح جماعة من أهل دمشق وبعث صاحب حمص رجالة تزيد على خمسين لنجدة دمشق فظفر بهم الكامل وشنقهم بين البساتين ، ولم تكن هذه عادته ، وإنما كان شديد الحنق على صاحب حمص .

وفي مدة الحصار أرسل إلى المظفر توقيعا بسلمية ، فتسلمها ، وأذعن الصالح للصلح على أن يعوض عنها بعلبك والبقاع[4] مضافا إلى بصرى[5] والسواد[6] فأجيب إلى ذلك ،

---

(١) أب منصور عز الدين أيبك المعظمي صاحب صرخد ، توفي سنة ٦٤٦ هـ . الدارس ٥٥/١ .

(٢) قصر حجاج : محلة كبيرة في ظاهر باب الجابية من مدينة دمشق . معجم البلدان ٣٥٧/٤ .

(٣) الشاغور : محلة بباب الصغير من دمشق وهي في الظاهر المدينة . معجم البلدان ٣١٠/٣ .

(٤) البقاع : موضع قريب من دمشق . معجم البلدان ٤٧٠/١ .

(٥) بصرى : موضع بالشام من أعمال دمشق . معجم البلدان ٤٤١/١ .

(٦) السواد : مضع قرب البلقاء سميت بذلك لسواد حجارتها .معجم البلدان ٢٧٢/٣ .

وكان المتوسط بينهما محيى الدين بن الجوزى[1] وكان قد ورد رسولا من الخليفة ليصلح بين الملوك وهم الأشرف وأخوه الكامل وابن عمهما العزيز ، وعلاء الدين كيقباذ صاحب الروم ، فاتفق وفاة الأربعة فى وقت تقارب فقال فيه ابن المسجف الشاعر[2] :

يا إمام الهدى أبا جعفر المنـ ... ـصور من له الفخار الأثيل
ما جرى من رسولك الآن محيى الـ ... ـدين فى هذه البلاد قليل
جاء والأرض بالسلاطين تزهى ... وغدا والديار منهم طلول
أقفر الروم والشام ومصر ... أفهذا مغسل أم رسول

ورجعنا إلى ما كنا فيه ، وتسلم الكامل دمشق تاسع عشر جمادى الأول وتقدم إلى المظفر بمنازلة حمص ، فأسقط فى يد المجاهد ، وأرسل يتضرع فما أجاب ضراعته ولم يلبث غير أيام حتى مرض ومات ، وفرح المجاهد فرحاً عظيماً وسببه : أنه لما دخل القلعة أصابه زكام فدخل الحمام وصب على رأسه ماء شديد الحرارة فاندفعت النزلة إلى معدته وحصلت له حمى ، نهاه الأطباء عن القىء فخالفهم وتقيأ فمات لوقته ، حادى عشرين رجب ، وبين موته وموت الأشرف نحو ستة أشهر ، وما أسرع موت المتعادين ، وعمره نحو ستين سنة، وحكم فى مصر أربعين سنة ، عشرون خلافة ، وعشرون نيابة ، فحكمه كحكم معاوية بالشام ، وقال ابن واصل يرثيه ويمدح ولده الصالح :

ولو خلد الملك العظيم جلاجلاً ... حوى الملك وانقادت إلى أمره الأمم
لخلد فينا الكامل الملك الذى ... له خضعت غُلب الممالك والقمم
ولكن قضاء الله ما عنه معدل ... ولا موئل مما به الله قد حكم
فمن بعده حار الدليل وأظلمت ... صباح المعالى وانقضت دول الكرم

---

(١) هو أبو المظفر يوسف ابن الشيخ جمال الدين أبى الفرج ابن الجوزى . مفرج الكرب ١٤/٤ .

(٢) انظر الأبيات فى فوات الوفيات ٢٨٦/٢ ، وأبى الفداء ١٦٤/٣ ، وابن الوردى ٢٤١/٢ ، ونسبها اليونينى فى ذيل مرآة الزمان ٣٣٤/١ إلى الملك الناصر داود بن عيسى .

فمن لبنى الآمال بعد محمد فقلت له : أيوب قالوا : نعم نعم
صدقت وأبدوا فرحة ومسرة وعادوا إلى ما عودوه من النعم
وما كان إلا الشمس غابت وقد بدا لنا بعده بدر جلا الشك والظلم
فحسن وحزن ، فرحة بعد ترحة بدا الملك الباقى وذاك الذى الصرم
فدام لنا الباقى سعيداً مخلداً وجاد ثرى الماضى حياً هاطل الديم

وملك بعده الشام الجواد كما يأتى ، وكان للكامل من الولد : أبو بكر ولى عهده ، والصالح أيوب ببلاد الشرق ، والمسعود يوسف صاحب اليمن مات فى حياة أبيه ، وعدة بنات.

ومنهم الملك العزيز[1]

عثمان بن أبى بكر بن أيوب شاذى ، الملك العزيز ، عماد الدين ابن الملك العادل ، شقيق المعظم عيسى ، كان صاحب بانياس وتبنين ، وهو الذى بنى الصبيبة .

كان عاقلا قليل الكلام مطيعا للمعظم ، أرسل إليه ولد الأمجد[2] صاحب بعلبك : إنى قد نشرت باب السر ، فسر إلينا وقت السحر فساق أول الليل من الصبيبة ، والمسافة بعيدة فجاءهم وقد طلع الشمس ففات الغرض ونزل مقابل بعلبك فأرسل الأمجد إلى الناصر داود أن رحل العزيز عنى ، فأرسل من رحله غضبا فرحل إلى بانياس وما عاد دخل دمشق إلا فى خدمة الكامل فإنه سار إليه إلى القدس وكان أحد الأسباب فى أخذ دمشق من الناصر[3] ،

---

(١) ترجمته فى مرآة الزمان ٤٧٨/٨ ، البداية النهاية ١٣٧/١٣ ، النجوم الزاهرة ٢٨١/٦ ، الدارس ٥٤٩/١ ، القلائد الجوهرية ١٣١ ، شذرات الذهب ١٣٦/٥ .

(٢) الملك الأمجد بهرام شاه بن فروخ شاه المقتول سنة ٦٢٨ هـ .

(٣) الملك الناصر داود بن عيسى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

وقتل الأمجد ولده .. ومات العزيز يوم الاثنين عاشر رمضان سنة ثلاثين وستمائة ببستانه ببيت لهيا[١] وحمل إلى قاسيون[٢] فدفن عند والدته ، وكان له من الولد الظاهر نجم الدين أيوب فولى بعد أبيه ، ثم توفى سنته ، ولى أخوه السعيد بن العزيز[٣] .

ومنهم الملك الحافظ[٤]

أرسلان شاه بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك الحافظ نور الدين العادل ، صاحب قلعة جعبر[٥] تملكها دهراً طويلاً ، وكانت بها خزانة عظيمة لوالده ، فلما توفى أخذها ، فلما كان آخر أمره أصابه فالج ، وخاف من تغلب أولاده عليه فأرسل إلى أخته صاحبة حلب ، نزل عن جعبر لها وتعوض أعزار وبلاداً معها ، ليكون بلاده قريباً من حلب فلا يمكن لأولاده التعرض لها وقيل : بل خاف من الخوارزمية لأنهم عبثوا ببلاده ، وخاف من ابنه أن يسلم القلعة إليهم ، وقدم حلب واجتمع بأخته ، وسكن عزاز وتوفى بها سنة أربعين وستمائة ، وقيل : فى ذى الحجة سنة ثمان وثلاثين ، وخرج الناصر ـ صاحب حلب ـ وصلى عليه ، ونقل فدفن فى المكان الذى أنشأته أخته ويسمى بالفردوس ، وله أولاد وتسلم الناصر عزاز .

---

(١) بيت لهيا : قرية مشهورة بغوطة دمشق . معجم البلدان ٥٢٢/١ .

(٢) قاسيون : هو الجبل المشرف على مدينة دمشق .معجم البلدان ٢٩٥/٤ .

(٣) الملك السعيد حسن بن عبد العزيز ، توفى سنة ٦٥٨ هـ . النجوم الزاهرة ٩٢/٧ .

(٤) ترجمته فى مفرج الكرب ٢٧٥/٣ ، تاريخ ابن الوردى ٢٤٦/٢ ، ترويح القلوب ص ٦٠ .

(٥) جعبر : قلعة على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين . معجم البلدان ١٤٢/٢ .

ومنهم الملك المظفر[1]

غازى بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك المظفر صاحب ميافارقين ، شهاب الدين ابن الملك العادل .

كان جواداً شجاعاً شهماً ذكياً ، يحفظ الأشعار ويحكى الحكايات ، ومن نظمه :

ومن عجب الأيام أنك جالس ... على الأرض فى الدنيا وأنت تسير
فسيرك يا هذا كسير سفينة ... بقوم جلس والقلوع تطير[2]

وله :

ولما[3] التقينا بعد بعدٍ تحدرت ... دموعى إلى أن كدت بالدمع أغرق
فقلت لها : يا عين هذا لقاؤنا ... فقالت : ألسنا بعده نتفرق ؟

وكتب على تقويم :

إذا أردت اختيار السعد فيه فقل ... على الذى فى يديه السعد اتكل
سل إلى الله فيما أنت فاعله ... فما إلى النجم لا قول ولا عمل[4]

وكان بيده الرها سروج ، وكانت ميافارقين وخلاط للأشرف ولم يكن له ولده فجعله

---

(١) مرآة الزمان ٧٦٨/٨ ، ذيل الروضتين ص ١٥١ ، السلك ٣٣٢/١ ، البداية النهاية ١٧٤/٣ ، كنز الدرر ٣٥٧/٧ ، ابن الوردى ٢٥٠/٢ ، شذرات ٢٣٣/٥ .

(٢) البيتان فى مرآة الزمان ٧٦٩/٨ ، البداية والنهاية ١٧٤/١٣ .

(٣) البيتان فى مرآة الزمان ٧٦٩/٨ .

(٤) البيتان فى مرآة الزمان ٧٦٩/٨ .

ولى عهده ، وأعطاه ميارفارقين وخلاط ، هى بلاد تضاهى ملك مصر ، فلما حصلت الوحشة بين المعظم والأشرف حسن المعظم للمظفر العصيان على الأشرف ، واتفق مع المظفر صاحب إربل ، وكان صاحب الموصل منتمياً إلى الأشرف ، فسار صاحب إربل وحصر الموصل عشرة أيام ، وذلك فى سنة إحدى وعشرين ، انشغل الأشرف عن مقصد خلاط ، فلم يلتفت الأشرف إلى الموصل ، وحصر خلاط وتسلمها ، وأقام المظفر فى القلعة إلى الليل، ونزل إلى الأشرف واعتذر فقبله وأقره على ميافارقين واسترجع ما سواها ، وحج من ميارفارقين سنة ست وعشرين ، وكان ثقله ستمائة جمل ، ومعه خمسون هجيناً ، على كل هجين مملوك ، وزار علياً والحسين ، وبعث إليه الخليفة بفرسين وبغلة والفى دينار ، وأوصى أمير الحاج بخدمته ، وتصدق فى الحرمين ، وعاد على غير الطريق الأول ، فكاد يموت عطشاً .

وملك أرزن[١] من دبار بكر من صاحبها حسام الدين ، هو من بيت كبير يقال لهم : بيت الأحدب ، وعوضه عنها حانى[٢] وذلك فى سنة سبع عشرين .

خرج هارباً من التتر يستنجد الملوك فتوفى ، قيل : فى سنة اثنتين وقيل : خمس ، وقيل : ست وأربعين وستمائة ، ورثاه بعضهم بقوله[٣] :

ألا روى الإله تراب قـبـر	حللت به شهاب الدين غازى
وأسكنك المليك جنان عـدن	وكـان لك المكافئ والمجـازى
فـضلت الناس مكرمـة وجـوداً	فـمـا لك فى البرية من مـوازى
وكنت الفـارس البطل المفـدى	مبيد القرن فى يوم البراز(٨٨ أ)
تجندله بابيض مـشـرفى	وتطعنه بأسـمـر ذى اهتـزاز

وكان له من الولد الكامل محمد ، وهو القائم بعده ، وعمر مات فى حياته .

---

(١) أرزن : مدينة مشهورة قرب خلاط لها قلعة حصينة . معجم البلدان ١/١٥٠ .

(٢) حانى : مدينة معروفة بديار بكر . معجم البلدان ٢/٢٠٨ .

(٣) الأبيات فى مرآة الزمان ٨/٧٦٩ .

ومنهم الملك الصالح(١)

اسماعيل بن أبى بكر بن شاذى ، الملك الصالح ، عماد الدين ، أبو الخيش ، ابن الملك العادل ، صاحب بعلبك وبصرى ودمشق . ملك دمشق بعد أخيه الأشرف ، وبقى أياماً، ثم لم يلبث أن نازل أخوه الكامل دمشق فأخذها ، وعوضه بعلبك ، وذلك سنة خمس وثلاثين، ثم هجم هو وصاحب حمص على دمشق وتملكها سنة سبع وثلاثين ، وبدت منه هنات عديدة ، واستعان على حرب ابن أخيه بالفرنج وأطلق لهم حصن الشقيف ، ثم أخذت منه دمشق سنة ثلاث وأربعين ، وذهب إلى بعلبك فلم يقر له قرار ، والتفت عليه الخوارزمية ، وتمت له خطب طويلة ، فالتجأ إلى حلب ، وراحت منه بصرى ، وبقى فى خدمة ابن ابن أخته(٢) فلما سار الناصر لأخذ الديار المصرية ،كان معه الصالح ، فأسر فيمن أسر ، وجاءوا به إلى المعز أيبك ، فقال المعز لابن أبى على : يا خوند حسام الدين أما تسلم على المولى الملك الصالح ؟ قال : فدنوت منه وسلمت عليه ، وكان يوماً مشهوداً ، وقد زينت القاهرة ، ودخل المعز والصالح محتاط به قدامه ، وإلى جانبه ابن أبى على(٣) ، قال: فقلت له : هل رأيتم القاهرة قبل اليوم ؟ قال: نعم رأيتها مع العادل وأنا صبى ، ومروا به على تربة ابن أخيه الصالح أيوب ، فصاحت غلمان أيوب يا خوند أين عينك تبصر عدوك ؟ ثم اعتقل بالقلعة أياماً ، ثم أتاه ليلة سابع عشرين ذى القعدة ، وقيل : سلخه ، جماعة فأركبوه وأخرجوه من باب القلعة ، وكان قاعداً يمص قصباً إلى جهة القرافة ، فأطفأوا المشعل ، وكان آخر العبدية ، فقيل : إنه خنق كما خنق هو الجواد ، وقيل : ذبح . وكان ملكاً

---

(١) ترجمته فى ذيل الروضتين ١٨٦ ، مفرج الكروب ٢٧٥/٣ ، السلوك ٣٧٨/١ ، البداية والنهاية ١٧٩/١٢ ، الدارس ٣١٦/١ ، شذرات ٢٤١/٥ ، أخبار الأيوبيين ١٦٣ ، ترويح القلوب ٦١ .

(٢) هو الناصر يوسف صاحب حلب الشهباء . الدارس ٣١٦/١ .

(٣) حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى نائب السلطنة بمصر ، توفى سنة ٦٥٨ هـ . النجوم الزاهرة ٩٣/٧ .

شهماً يقظاً محسناً إلى جنده ، كثير التجمل ، وكانت أمه أحظى الحظايا عند أبيه ، ولها مدرسة وتربة بدمشق . وله من الأولاد : السعيد عبد الملك ، والمسعود محمود .

ومنهم الملك المعز[1]

يعقوب بن أبى بكر بن شاذى ، الملك المعز ، مجير الدين ، ابن الملك العادل ، توفى سنة أربع وخمسين وستمائة .

ومنهم الملك ممدود[2]

ابن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك المعظم ، شمس الدين ، له محل حسن بالقرافة (٨٨ب) توفى فى حياة ابيه ، وخلف ولده يونس .

ومنهم المغيث محمود[3]

ابن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، شهاب الدين .

ومنهم الناصر خليل[4]

ابن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، صلاح الدين .

---

(١) ترجمته فى ذيل مرآة الزمان ٣٧/١ ، البداية والنهاية ١٩٥/١٣ ، الدارس ٢٦٨/٢، شذرات ٢٦٦/٥ .

(٢) ترجمته فى مفرج الكروب ٢٧٤/٣ ، النجوم ١٧٢/٦ ، ترويح القلوب ٦٢ .

(٣) مفرج الكرب ٢٧٣/٣ ، وفيه توفى سنة ٦٣٠ هـ . ترويح القلوب ٦١ .

(٤) ترجمته فى النجوم ١٧٣/٦ ، ترويح القلوب ٦٣ .

ومنهم الأمجد حسن(١)

ابن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، مجد الدين ، توفى فى حياة أبيه .

ومنهم القاهر خضر(٢)

ابن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، بهاء الدين .

ومنهم المغيث عمر(٣)

ابن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، فتح الدين ، مات فى حياة أبيه وخلف ولداً لقب بلقبه .

ومنهم القاهر
وقيل : تاج الملوك ، اسحاق(٤)

ابن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، بهاء الدين .

ومنهم الأمجد عباس(٥)

ابن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، تقى الدين ، أصغر أخوته فهؤلاء أولاد العادل أبى بكر على اختلاف فيهم ، وكان له عدة بنات .

---

(١) ترجمته فى مفرج الكروب ٢٧٤/٣ ، ذيل الروضتين ص ٦٧ ، وفيه توفى سنة ٦٠٥ هـ . النجوم الزاهرة ١٧٢/٦ ، السلوك ١٩١/١ ، ترويح القلوب ٦١ .

(٢) ترجمته فى النجوم الزاهرة ١٧٢/٦ .

(٣) توفى سنة ٦٠٦ هـ . انظر ترجمته فى ذيل الروضتين ٦٧ ، مفرج الكروب ٢٧٣/٢ ، الدارس ٥٨١/١ ، النجوم الزاهرة ١٧٢/٦ ، القلائد الجوهرية ١٤٤ ، ترويح القلوب ٦٠ .

(٤) وهو المغيث شهاب الدين محمود توفى سنة ٦٣٠ هـ . مفرج الكروب ٢٧٣/٣ .

(٥) توفى سنة ٦٢٨ هـ . تنظر ترجمته فى ذيل الرضتين ١٦٠ ، مفرج الكروب ٢٧٤/٣ ، النجوم الزاهرة ١٧٢/٦ ، ترويح القلوب ٦٢ ، ذكر المولف سهواً ترجمة لإسماعيل بن أبى بكر بعد هذه الترجمة وقد سبقت ترجمته .

منهم غازية خاتون[1]

بنت أبي بكر بن أيوب بن شاذى ، زوجة ابن عمها الظاهر غازى ، زوجه بها والده الناصر صلاح الدين ، ودخل بها يوم الأربعاء ، سادس عشرين رمضان ، سنةاثنتين وثمانين وخمسمائة ، توفيت معه ، ووفاته سنة ثلاث عشرة وستمائة ، وتزوج بعدها أختها .

ومنهم ملكة خاتون[2]

بنت أبي بكر بن أيوب بن شاذى ، بنت الملك العادل ، زوجة المنصور محمد ، صاحب حماة ، ووالدة المظفر محمود ماتت ولبس زوجها الحداد ، وهو ثوب أزرق وعمامة زرقاء ، وأنشد الشعراء فى ذلك ، فمن ذلك قصيدة لحسام الدين الكردى[3] مطلعها :

الطرف فى لجة والقلب فى سعر ... له دخان زفير طار بالشرر

ومنها :

ما كنت أحسب أن الشمس قد غربت ... حتى رأيت الدُجى مُلقى على القمر

لو كان من مات يفدى قبلها لفدى ... أم المظفر آلاف من البشر

توفيت بحماه فى غيبة ولدها سنة ست عشرة وستمائة .

ومنهم ضيفة خاتون[4]

بنت أبي بكر بن أيوب بن شاذى ، الملكة صاحبة حلب ، بنت الملك العادل . مولدها

---

(١) توفيت سنة ٦٠٩ هـ . تنظر ترجمتها فى الدارس ٢٦٨/٢ .

(٢) ترجمتها فى مفرج الكروب ٦٥/٤ ، ابن الوردى ١٩٨/٢ ، الدارس ٢٦٨/٢ .

(٣) حسام الدين خشترين بن تليل الكردى الحكمى الأربلى ، من بنى مران ابن الحكم ، ولد بمصر سنة ٥٧٨ هـ ، توفى سنة ٦١٩ هـ بإربل . ذيل مرآة الزمان ٢٢٨/٢ .

(٤) ترجمتها فى كنز الدرر ٣٥١/٧ ، أبو الفداء ١٧١/٣ ، ابن الوردى ٢٤٧/٢ ، الدارس ٢٦٨/٢ ، أخبار الأيوبيين ١٥٤ .

سنة إحدى ، أو اثنتين وثمانين (وخمسمائة) بقلعة حلب ، حين كان أبوها ملكاً لحلب، وكان عند أبيها حنيف ، فسماها حنيفة . وكان ابن عمها الظاهر غازى متزوجاً باختها غازية خاتون ، فماتت معه ، فلما ماتت ارسل الظاهر القاضى بهاء الدين بن شداد يخطبها، فأرسلها أبوها فى سنة تسع وستمائة ، وكان العقد على خمسين ألف دينار، وكان معها من القماش خمسون بغلاً ، ومئة بختى ، وثلاثمائة جمل ، ومن الكجاوات وغيرها ما يحمله مائة جمل ،كان معها مائة جارية وصيفات ، ومائة أخر يعملن الصنائع البديعة واحتفل (٨٩أ) الظاهر احتفالاً عظيماً ، وقدم لها خمسة وخمسين عقد جوهر قيمتها مائتى ألف وستون ألف درهم ، وعصابة مجوهرة ، وعشر قلائد عنبر وخمس عشرة مذهبة ، ومائة وخمسين قطعة من الذهب والفضة ، وعشرين تختاً من الثياب الفاخرة ، وعشرة خدام، وعشرين جارية ، وأولدها الملك العزيز محمد سنة عشر ، فلما مات سنة أربع وثلاثين وخلف ولدة الناصر يوسف ، تصرفت حنيفة خاتون فى الملك تصرف الملاك ، وقامت بالملك أحسن قيام ، وترجمتها مُفرقة . وحصل لها قرحة فى مراق[1] بطنها ، فماتت بفعله حلب سنة أربعين وستمائة . ومن العجب اتفاق مكان مولدها ووفاتها ، وعمرها نحو تسع وخمسين سنة ، ومدة ملكها نحو ست سنين ، وخلفت ابن ابنها المذكور .

ومنهم زوجة قيصر شاه[2]

ابن قليج أرسلان صاحب الروم ، قدم على عمها الناصر صلاح الدين سنة سبع وثمانين وخمسمائة فزوجه ابنة أخيه العادل أبى بكر بن أيوب ، وما أدرى ما اسمها .

آخر أولاد العادل أبى بكر .

---

(١) مراق : بتشديد القاف ، هو ما سفل البطن عند الصفاق أسفل من السُرة . اللسان ١٢٢/١٠ .

(٢) لم أجد لها ترجمة فى المراجع .

ومنهم محمد بن ست الشام[1]

بنت أيوب بن شاذى ، الأمير حسام الدين بن عمر بن لاجين ، صاحب نابلس . (كان) شجاعاً مقداماً وجواداً ، له مواقف مع خاله صلاح الدين ، توفى ليلة الجمعة ، تاسع رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة بدمشق ، وهى الليلة التى توفى فيها المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، ففجع صلاح الدين بابن أخيه وابن أخته فى ليلة واحدة ، ودفن بالتربة التى أنشأتها والدته بظاهر دمشق .

التركمان ، حتى قيل : إن مقدمهم قال لغازى : أنا أكسر الحلبيين بالخوارزمية الذين معى ، وكان معه سبعون ألف جوبان سوى الجفالة ، فالتقاهم صاحب حمص فى صفر فانكسر غازى (٨٩ ب) وشرع الحلبيون فى النهب ، وحازوا جميع ما فى عسكر غازى وأخذوا النساء الخوارزميات ، ونزل صاحب حمص فى خيمة غازى ، وغنموا ما لا يعد ولا يحصى ، وبيعت الأغنام بأبخس الأثمان ، ثم إنه صالح الصالح وأيوب وكسر معه الخوارزمية الكسرة العظمى بعيون القصب ، واتخذ عنده قدماً ، فقدم من بلاده إلى دمشق ، وأرسل يستأذنه فى القدوم عليه ، وأن يستمر فى خدمته، وسلمه قلعة شميميش[2] ، ولما قدم دمشق قام ابن أبى على بوظائفه كلها ، وكان قد علق به مرض السل ، فمات يوم الأربعاء حادى عشر صفر ، سنة أربع وأربعين وستمائة بالنيرب[3] وحمل إلى حمص فدفن بها ، وقيل : إنه كان عاملاً على أخذ دمشق ، ولو عاش أياماً أخذها . وكانت ولايته ست سنين

---

(١) ترجمته فى النادر السلطانية ١٩٣ ، الفتح القسى ٥٧١ ، القلائد الجوهرية ١٨٧ ، ابن الفرات المجلد الرابع ٤٩/٢ .

(٢) الأصل شميميش ، والصيغة المثبتة فى السلوك ٤٤٦/١ ، زبدة الحلب ٢٣٤/٣ ، هى إحدى بلاد كورة حمص .

(٣) النيراب : قرية مشهورة بدمشق . معجم البلدان ٣٣٠/٥ .

ونصفاً ، قيل : عشر سني وهو غلط . وكان محسناً إلى رعيته ، سمحاً حليماً بخلاف أبيه وكان له من الولد الأشرف موسى[1] وهو الذى قام بعده .

ومنهم الملك الصالح[2]

اسماعيل بن شيركوه بن شاذى ، الملك الصالح ، نور الدين ابن المجاهد ابن القاهر ابن المنصور ، نشأ بحمص وانتقل عنها ، وخدم مع الناصر يوسف صاحب حلب والشام وكان عاقلاً حازماً سائساً ، فلما أخذ هولاكو الشام داجل التتار وحسن للناصر التوجه إلى هولاكو ، وتوجه فى صحبته ، فلما قدموا عليه أحسن إليهم ، فلما بلغه كسرة عين جالوت غضب وقتلهم فى أوائل سنة تسع وخمسين وستمائة .

ومنهم الملك الزاهر[3]

داود بن شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذى ، الملك الزاهر ، مجد الدين ابن القاهر بن المنصور . توفى ليلة الأربعاء ثانى عشر جمادى الآخرة سنة اثنتين وتسعين وستمائة ببستانه بالسهم المعروف ببستان أسامة ظاهر دمشق ، ودفن بتربته بسفح قاسيون .

ومنهم الملك الأمجد[4]

بهرام شاه بن فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى ، الملك الأمجد ، مجد الدين، أبو المظفر، صاحب بعلبك ، أعطاه الناصر يوسف عم أبيه بعلبك بعد وفاة أبيه سنة ثمان وسبعين (وخمسمائة) وكان أديباً فاضلاً شاعراً محسناً جواداً كاتباً ممدحاً ، وهو أشعر بنى أيوب وشعره مشهور ، وله.

---

(١) مظفر الدين موسى ابن الملك المنصور إبراهيم ملك حمص بعد وفاة أبيه ، توفى سنة ٦٦٢ هـ . النجوم الزاهرة ٢١٧/٧ .

(٢) ترجمته فى ذيل مرآة الزمان ١٢٦/٢ ، النجوم الزاهرة ٢٠١/٧ ، السلوك ١٦١/١ .

(٣) ترجمته فى البداية والنهاية ٣٢٣/١٣ ، الدارس ٥٨١/١ ، ابن الفرات ١٦١/٨ ، القلائد الجوهرية ١٤٥ .

(٤) ترجمته فى مرآة الزمان ٦٦٦/٨ ، الحوادث الجامعة ٢٦ ، تاريخ أبى الفداء ١٤٦/٣ ، فوات الفيات ١٥٠/١ ، مرآة الجنان ٦٥/٤ ، البداية والنهاية ١٣١/١٣ ، المسجد المسبوك ٤٤٦ ، السلك ٢٤٠/١ النجوم الزاهرة ٢٧٥/٦ ، الشذرات ١٦٩/٥ ، مفرج الكرب ٢٨٤/٤ .

الطبقة الثالثة

فمنهم الملك المجاهد[1]

شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذى ، الملك المجاهد أسد الدين ابن القاهر ابن المنصور . ولاه الناصر يوسف حمص بعد موت أبيه سنة إحدى وثمانين وخمسمائة . وكان شجاعاً شهماً مقداماً يباشر الحرب بنفسه : وحفظ المسلمين من الفرنج والعرب ، أما من ناحية الفرنج فبنى الأبراج على مخائض العاصى ، ويركب بنفسه إلى قتال العرب من ناحية البرية ، وكانت بلاده طاهرة من الخمور والخواطئ والمكوس ، وكانت بنو أيوب تخافه لأنه كان يرى أنه أحق بالملك منهم ، لأجل جده شيركوه . وكان الكامل على قصده كما يأتى ، يقول : والله لأمحون أثره ، فبعث إليه بنسائه وأمواله فلم يقبل ، فبينما هو يزن المال فى الأكياس ليرسلها له وقعت بطاقة فيها وفاة الكامل ، فرد المال إلى الخزائن ، وفرح فرحاً عظيماً ، ولعب بالكرة وهو فى السبعين . وجاء بعد ذلك إلى دمشق وجلس عند قبر الكامل وتصرف فى أمواله .

وكان ديناً عاقلاً معاشراً العلماء والفقهاء جواداً متصدقاً ، إلا أنه كان ينسى المحبوس . بلغه يوماً أن الفرنج أخذوا قفلاً فى وادى الربيعة واستاقوه يريدون حصن الأكراد ، فلحقهم قبل وصولهم ، وأسرهم جميعهم ، وخلص القفل منهم . وكان فى القفل رجل صوفى ، فأخبر المجاهد أن رجلاً من الفرنج ما زال يضعفه إلى أن وصل السلطان ، وكان الصوفى

---

(١) انظر : شذرات الذهب ١٨٤/٥ ، ذيل الروضتين ١٦٩ ، مرآة الزمان ٧٣١/٨ ، وفيات الأعيان ١٧٥/٢ ، البداية النهاية ١٥٤/١٣ ، النجوم الزاهرة ٣١٦/٦ .

غليظ الرقبة ، فقال المجاهد للصوفي : افعل به كما فعل بك ، وسلمه الصوفي ، فما زال يضعفه إلى باب حمص . قال الملك المؤيد[1] وكان عسوفاً لرعيته ، ومنع النساء أن يخرجن من باب حمص مدة ولايته .

ومات بحمص يوم الثلاثاء عشرين رجب سنة سبع وثلاثين وستمائة ودفن بها ، ومدة حكمه (٦٣ب) سبع وخمسون سنة ، وسنه نحو ثمان وستين وقد مر بعض أخباره ، ويأتي بقيتها ، وله من الولد المنصور ابراهيم وهو الذى قام بملك حمص بعده ، الصالح اسماعيل، والزاهر داود.

ومنهم الملك العز[2]

فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى ، عز الدين ، أبو سعد ابن نور الدولة الأيوبى، صاحب بعلبك ، أقطعه عمه صلاح الدين إياها سنة خمس وسبعين ، وناب بدمشق عنه سنة ست وسبعين (وخمسمائة) .

وفى سنة سبع سار إلى الكرك ، فنهب وقتل ، وفتح الشقيف ، وقد مضى ذكر بعض أخباره ، وكان من الأفاضل الأماثل ، كثير الصدقات ، متواضعاً ، سخياً ، جواداً ، مقداماً، متنصلاً من المظالم ، شاعراً فصيحاً ، وشعره مدون . قال العماد : أنشدنى ونحن بين يدى السلطان[3] :

إذا شئت أن تُعطى الأمور حقوقها ... وتوقع حكم العدل أحسن موقعه
فلا تصنع المعروف مع غير أهله ... فظلمك وضع الشىء فى غير موضعه

---

(١) انظر : المختصر ١٦٥/٣ .

(٢) انظر : شذرات الذهب ٢٥٩/٤ ، العبر ٢٣٣/٤ ، الدارس ٥٦١/١ ، النجوم الزاهرة ٩٦/٦ ، الروضتين ٣٣/٢ ، السلوك ٧٩/١ .

(٣) وردت الأبيات فى مرآة الزمان ٣٧٢/٨ .

قال جامعه : وفى المثل ، أربعة أشياء ضائعة : سراج فى شمس ، وحسناء تزف إلى أعمى ، وزرع فى سبخة ، ومعروف مع من لا يشكره ، انتهى .

وقال فى وصف دمشق[1] :

دمشق سقاك الله صوب غمامة ... فما غائب عنها لدى رشيد
عسى مسعد لى أن أبيت بأرضها ... إلا أننى لو صح لى لسعيد

مات بدمشق فى حال نيابته فى جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، ودفن بقبته على الميدان ، وبلغ السلطان خبره ، وهو ببلاد الجزرية ، فأبقى بعلبك على ولده الأمجد بهرام شاه ، وأرسل ابن المقدم إلى نيابة دمشق ، وكان عزيزاً عنده ، وهو ثقته من بين أهله.

ومنهم الملك المظفر[2]

عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى ، الملك المظفر تقى الدين بن نور الدولة . وكان شجاعاً ، شديد البأس ، ركناً عظيماً من أركان البيت الأيوبى ، وعنده فضل وأدب ، وله شعر حسن ، كسر عسكر الروم ، وكانوا عشرين ألفاً بألف ، وقد تقدمت أخباره فى سيرة عمه (٦٤ أ) صلاح الدين ، سار إلى البلاد التى زادها إياه عمه ، وهى حران وغيرها ، فامتدت عينه إلى البلاد المجاورة ، واستولى على السويداء[3] وحانى[4] ، وأيقع مع بكتمر[5] صاحب خلاط ، فكسره وحصره فى خلاط ، وتملك معظم البلاد ، ثم رحل

---

(١) وردت الأبيات فى مرآة الزمان ٣٧٨/٨ .

(٢) انظر : كنز الدرر ١١٠ ، البداية والنهاية ٣٤٦/١٢ ، النجوم الزاهرة ١١٣/٦ ، شذرات الذهب ٢٨٩/٤ ، العبر ٢٦٢/٤ ، طبقات ابن الوردى ١٤٨/٢ ، الروضتين ١٩٤/٢ .

(٣) تقع بالقرب من حران . انظر معجم البلدان ٢٨٦/٣ .

(٤) مدينة تقع بديار بكر . انظر معجم البلدان ٢٠٨/٢ .

(٥) انظر : النجم الزاهرة ١٣٣/٦ .

ونزل ملازكرد[1] وضايقها ، وكان فى صحبته ولده المنصور محمد ، فعرض للمظفر مرض وتزايد به حتى توفى فى يوم الجمعة لاحدى عشرة بقيت من رمضان سنة سبع ، وقيل : ست وثمانين وخمسمائة ، فأخفى ولده موته ، ورحل من ملازكرد ووصل به إلى حماة . قيل : إنه دفن بميارفارقين ثم نقل ودفن بظاهر حماة ، وبنى إلى جانبه مدرسة ، واتفق أن حسام الدين محمد ابن ست الشام - اخت صلاح الدين - مات فى الليلة التى توفى فيها المظفر ، فأصيب السلطان بيوم واحد بابن أخيه وابن أخته .

ولما مات المظفر أرسل ابنه يشترط شروطاً ، نسبة السلطان فيها إلى العصيان ، وكاد أمره أن يضطرب فراسل عمه العادل أن يستعطف خاطر السلطان ، فما برح العادل يراجع اخاه حتى أقر للمنصور حماة وسلمية والمعرة ومنبج ونجم ، وارتجع البلاد الشرقية ، وأقطعها العادل بعد أن أخذ ما للعادل بالشام ، خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء ونصف خاصه بمصر، وأن يكون عليه كل سنة عشرة آلاف غرارة للقدس .

ولما ابتقر ذلك سار العادل إلى البلاد الشرقية ، وعاد فى آخر جمادى الآخرة ، سنة ثمان وثمانين ، وصحبته المنصور ، فلما رآه السلطان نهض إليه واعتنقه وغشيه البكاء وأكرمه وأنزله مقدمة عسكره .

ومنهم الملك العزيز[2]

عثمان بن يوسف بن شاذى ، الملك العزيز ، عماد الدين ، ابن الملك الناصر ، ولد سنة سبع وستين (وخمسمائة) بمصر ، وهو شقيق الأعز يعقوب ، وقد ذكرنا أحواله زمن أبيه، ونذكر الآن ما اتفق له بعده . فنقول : لما بلغه وفاة أبيه سنة تسع وثمانين جلس للعزاء ، وكان بمصر ، وأخذ بالعزم ، وقرر أمور دولته ، ومحا المظالم ، وخلع على الأمراء ، وجهز

---

(١) انظر : معجم البلدان ٢٠٢/٥ .

(٢) انظر : شذرات الذهب ٣١٩/٤ ، بدائع الزهور ٧٣/١ ، المختصر ٩٥/٣ ، العبر ٢٨٧/٤، البداية والنهاية ١٨/١٣ ، الدارس ٣٧٨/١ ، مرآة الزمان ٤٦٠/٨ .

عشرة آلاف دينار لتنفق فى عسكر القدس ، وخطب له فيها ، وأرسل إليها عسكراً ، أما الأفضل وهو المعهود إليه فإنه استوزر ضياء الدين بن الأثير ، فحسن له القبض على كبراء دولته ، فهرب أكثرهم إلى مصر . قال العماد : وتفرد الوزير بوزره ، ومد الجزرى (٦٤ب) فى جزره .

ولما اجتمعت الأمراء بمصر حسنوا للعزيز الانفراد بالسلطة ، ووقعوا فى أخيه الأفضل فمال إلى ذلك . وحصلت الوحشة بين الاخوين ، فلما كان سنة تسعين حاصر الفرنج جبيل ، فخرج العزيز من مصر ، وخلف بالقاهرة قراقوش ، واحتاط على القطيبات بالغور ، وخرج الأفضل لتخريب كوكب ، ونزل على رأس الماء ، وأرسل الظاهر ، فاتفقوا على أن ينزل لها الأفضل عن اللاذقية وجبلة ، وأن ينجده الظاهر .

ونزل العزيز ميدان الحصى ، واقطع بلاد الشام . وشرع فى جمع الرجال ، وكتب إلى عمه العادل : « إنى ما خرجت إلا لخلاص جُبيل ، فبلغنى أن الأفضل خالف علينا ، وأراد تسليم البلاد إلى الكفار ، فاحوجت الضرورة إلى أن سُقت إليه ، وبلغنى أنك تريد أن تدخل بينى وبينه - وحاشاك من ذلك - وأنا خير لك منه ، وإن أردت أن تكون أنت السلطان فأنا راض بذلك » . وكتب للظاهر ولغيره ، وترددت الرسل فى الصلح ، وبذل الأفضل كل مراد من سكة وخطبة ، فامتنع إلا بسلم ذلك . فأرسل الأفضل يستحث عمه الظاهر والمنصور ، وجاء العادل من الفرات واجتمع بالظاهر ، ونزلوا جميعاً حماة ، وكتب العادل : إن وصولى للإصلاح . فكتب إليه العزيز كتاباً بخطة بالابتهاج بمقدمه ، والرجوع إلى رأيه ، وحلف له على الوفاء ، ولما وصل العادل أصلح بين الأخوين . وكتب العزيز إلى نوابه ألا يمنعوا الأفضل شيئاً من إقطاعاته . ورحل العزيز إلى مصر بعد أن تقرر الحال على أن العادل يخطب للعزيز ، وأن العزيز يمده بألف فارس لفتح خلاط . وخرج الظاهر والأفضل لوداع العزيز ، ثم رحل العادل إلى الشرق ، فأنزله الظاهر قلعة حلب ، وحلف أنه لا يصعد إليها إلا إن وهبها له العادل ، فقال النابلسى يذكر الحال ، ويمدح الظاهر :

أنجز الدهر فيكم ميعادى   بعد طول الأبراق والاوعاد

ورجعتم إلى مكارم كانت   لعلاكم مذ كنتم خير عادِ

وتعاهدتم عهود وفاءٍ   جمعت شملكم لكبت الأعادى

وتسنمتم من العز هضبا   ينظر النجم أوجه من بعاد

لم يكن لائقاً بنجل صلاح الـ   ـدين حال معدومة بفساد

حاش لله ماعهدنا النجوم الز   هر يدعى فى شملها بسداد

أرايت الأشبال تخرج يوماً   خُلقها عن خلائق الأساد

أيما والد به رحم   الله البرايا وأيما أولاد

بدأ الخير للعباد وما منـ   ـهم سوى عائد بما هو بادى

يابى من عليه أجمعت الآ   راء إذ صح فيه كل اعتقاد

لهو الظاهر الذى أظهر ا   لله به معجز النهى والسداد

والذى حل من مكارمه الذر   وة ، فالناس حوله كالوهاد

مرض الحق ثم صح فقد   قرت عيون الأبناء والعواد

خلة ساء صنعها فاستحالت   خلة ذات صفوة ووداد

كدرت بعض ما صفا من قلوب   زال ما استشعرت من الأحقاد

دولة ألف المحبة فيها   رأيك الجزل بعد طول شراد

خال قوم أن يمخضوا زبدة القصـ   ـد بها فانثنوا عن الأقصاد

يا لها من غواية لم يكن إلا   ك فيها الهادى إلى الرشاد

آل أيوب طال باع الملـ   ـك إن جنحتم لرقة الأكباد

شدتم ذروة العُلا بعد ما أشـ   ـفت وزالت أركانها لانهداد

فرق ما بينكم وبين ملوك الـ   ـأرض فرق الأرواح والأجساد

لو تصورتم بحوراً لكانوا   لسواق فى لُجكم وثماد

بذلوا طارف الندى وبذلتم   ما وجدتم من طارف وتلاد

أيقظوا رقدة النهى للأمانى   وافتحوا مقلة الوغى للجهاد

جردوها عزائما قاطعات   ليس تمضى السيوف فى الأغماد

قلما ترتقى السعود صعوداً   بسوى البيض أو بسمر الصعاد

فابثوها مثل الجراد جيوشاً تحجب الأرض عن جيوش الجراد
ليس فيها إلا جواد من الأبـ طال مستوطن لظهر جواد
لا تنوا فى رعاية الدين والدنـ يا بذب عن الهدى وذياد
لك فيها إن شئت أعلا محل غير مستبعد وأوطا مهاد
ومتى دان للفتى العدل والاحـ سان دانت له رقاب العباد
أنت نجم ، رجم لماردة الانـ س وللطالب الهدى منك هاد
أنت يا خير من مضى خير آت أنت يا خير حاضر خير باد
لست أبغى لك المزيد من اللـ ـه فما فى علاك من مستزاد

ولما انفصلت العساكر عن دمشق ، شرع الأفضل فى اللهو واللعب واحتجب وانقطع إلى لذاته ، فسمى الملك النوام ، وأشاع نُدماؤه أن عمه العادل حسن له ذلك ، وكان يعلمه بالخفية ، فأنشد عمه :

فلا خير فى اللذات من دونها ستر[1]

فقبل وصية عمه ، ثم إنه أظهر التوبة ، وأزال المنكرات ، وشرع فى نسخ مصحف بيده.

ذكر نزول العزيز الشام ثانياً سنة إحدى وتسعين

تغيرت قلوب جماعة من أمراء الأفضل ، واتصلوا بالعزيز ، وحسنوا له قصد دمشق ، فخرج إليها فى قوة عظيمة ، فاستنجد الأفضل بعمه العادل ، وجد العادل فى السير ، فسبق العزيز بيومين ، ونزل العزيز الفوار[2] وكاتب العادل العزيزية واستمالهم ، فلما كان ليلة الاثنين رابع شوال سار أبو الهيجاء وجهاركس إلى دمشق ، وكاتبوا أكثر العسكر ، فلم يبال العزيز بانصرافهم ، وقال : صفونا من أكدارهم . وتحالف العادل والأفضل أن يكون ثلث

(١) انظر : ديوان أبى نواس ٢٨ .

(٢) مكان قرب دمشق كان مركزا للعساكر . انظر . مفرج الكرب ٢٢٧/١ .

دمشق للعادل والباقى للأفضل ، وخاف العزيز من الذين بالقاهرة أن يفعلوا كما فعل الذين معه ، فرحل إليها ، فلما وصلها خرج إليه الأمراء ، فأكرمهم ، وسار الأفضل والعادل فى أثر العزيز، وأرسلا إلى القدس وتسلماها ، واتفقا على أن يملك الأفضل مصر ، ويعطى دمشق للعادل . ولما وصل العزيز إلى مصر أرسل عسكراً (٦٦ أ) إلى بلبيس فالتقوا واستظهر العزيز عليهم ، وندم الذين جاءوا العادل ، فخاف العادل من غدرهم وأراد الأفضل القتال ، فمنعه ، وقال : مصر لك متى شئت . وكاتب العزيز فى الباطن ، وأمره أن يرسل الفاضل فى الصلح . وكان قد اعتزل امرهم لما رأى فساد احوالهم ، فدخل عليه العزيز ، وتوجه الفاضل وأصلح بينهم على أن يكون للعادل اقطاعه بمصر ، وأن يكون مقيماً بها ، وأن يعفو العزيز عن الأسدية ، وأن يرجع الأفضل إلى بلاده .

ذكر مُلك العزيز دمشق سنة اثنتين وتسعين

تجدد للعادل سوء ظن فى الأفضل، واتفق مع العزيز أن يخرجا معاً ويملكها العزيز ويسلمها للعادل ، وتكون الخطبة للعزيز بسائر البلاد ، فلما وصلا غزة أرسل الأفضل يستعطف عمه فسير إليه : بأنه لا بد من اجتماع الكلمة ، وقد كان الظاهر أرسل للأفضل: أخرج عمنا من بيننا ونحن ندخل تحت كل ما تريد ، وأنا أعرف به منك ، وأقرب لمملكته، فإنه عمى كما هو عمك ، وأنا زوج ابنته . وقال الأفضل : أنت سيئ الظن فى كل أحد، أى مصلحة لعمنا فى أذيتنا ؟ ولما قربوا من دمشق صلى الأفضل فى الجامع ، وجمع الأمراء واستشارهم ، فأشاروا عليه بطاعة العزيز ، فلما نزلوا على دمشق استمالوا ابن الحمصى[1] وكان الأفضل يعتمد عليه ، فلما كان يوم الأربعاء سادس عشرين رجب ، وقيل : سابع عشرين . وذكر فى المرآة ذلك فى سنة تسعين . ركب العزيز والعادل وجاءوا إلى باب دمشق ، وفتحه ابن الحمصى ، ودخلا البلد من غير قتال ، ونزل الأفضل إليهما

---

(١) انظر : الكامل فى التاريخ ١٢٢/١٢ .

وبكى بكاء شديداً ، فأعطاه العزيز صرخد ، فانتقل إليها بأهله ، وأخرج وزيره[1] فى صندوق خوفاً عليه من القتل ، وكان للظافر[2] حصة مع الأفضل فأخذت منه بصرى فلحق الظاهر وأقام عنده . وكان العزيز قد اتفق مع العادل أنه يقيم بدمشق والعادل يكون نائبه بمصر، ثم ندم ، فأقام العادل بدمشق وقطع حكمه بمصر ، ورحل العزيز عنه يوم الاثنين تاسع شعبان إلى مصر ، وأقام العزيز بدمشق أربعة أيام ، واجتاز العزيز فى طريقه إلى مصر بالقدس وعزل عنه أبا الهيجاء وولى سُنقر الكبير ، ومدة ملك الأفضل ثلاث سنين وأشهر .

ونفى العادل ابن الحمصى من دمشق .

ذكر وفاة العزيز فى سنة خمس وتسعين وخمسمائة

خرج إلى الفيوم يتصيد ، فركض خلف ضبى ، فكبا به فرسه ، فدخل القربوس فى فؤاده ، وقيل : بل تقنطر وحم ، وركب إلى القاهرة ، فسقطت شهوته ، ووصل إلى الأهرام وقد تزايد به المرض (٦٦ب) فتحامل وركب إلى داره فتوفى ليلة الأحد عشرين محرم ، وقيل : سابع عشر منه ، وقال ابن القادسى : وقع فاندقت عنقه وبقى أربعة أيام ومات وأوصى إلى أمير اسمه يازكش فوثبت عليه الأسدية فقتلته ، وليس بصحيح .

وكان سنه سبعاً وعشرين سنة وشهوراً ، ومدة ملكة ست سنين إلا شهراً . وكان لطيفاً ،كثير الخير ، رفيقاً بالرعية ، حليماً سمحاً فى غاية الكرم ، أنفق جميع ما عنده حتى لم يبق بالخزانة درهم .

جاء رجل إلى يازكش وقال: عندى للسلطان عشرة آلاف دينار ولك ألف ، على أن تولينى الصعيد ، فقال العزيز : والله لا بعت دماء المسلمين وأموالهم بملك الدنيا ، وكتب ليازكش بألف دينار . وحكاها بعضهم على صفة أخرى ، فقال : كان عبد الكريم بن على

(١) انظر : المختصر فى أخبار البشر ١٩٢/٣ .

(٢) انظر : المختصر فى أخبار البشر ١٩٢/٣ .

البيسانى أخو الفاضل يتولى الحكم والاشراف بالجزيرة فحصل أموالاً عظيمة ، وكان الناس يحترمونه لأجل أخيه ، فجرت بينهما نبوة انحط بها عند الناس فصرف عن عمله وكان مزوجاً بامرأة من قوم كبار يعرفون ببنى ميسر ، فرحل بها إلى الاسكندرية وأساء عشرتها ، واتصل خبرها بأبيها ، فمضى إليها وأثبت عند الحاكم ضررها ، وأنه حصرها فى مضيق ، فمضى القاضى إلى داره، ورام فتح الباب فعسر . فاحضر الشهود ، ونقب البيت ، وأخرجها وسلمها إلى أبيها ، وسد البيت ، فخرج عبد الكريم إلى جهاركس وبذل فى قضاء الإسكندرية أربعين ألف دينـار ، ولجهاركس خمسة آلاف دينـار ، فاجتمع بالعزيز وقـال : « هذه خزانة مال قد أتتك بلا طلب » فأطرق العزيز ساعة وقال : «أعد المال إلى صاحبه ، وقل له : اياك والعود إلى مثلها . فما كل ملك عادل، ومعاذ الله أن أبيع أهل الإسكندرية بمال » قال (جهاركس)(١) فوجمت ، فلما رآنى قال : أظنك أخذت شيئاً على الوساطة ، قلت : نعم ، خمسة آلاف دينار فأطرق ثم قال : أعطاك شيئاً تنتفع به مرة ، وأنا أعطيك شيئاً تنتفع به مراراً ، فوقع لى على جهة بخطه ، فكنت استغلها سبعة آلاف دينار كل سنة .

ولما قصده أخوه أحمد بذلت له الرعية أموالها لمحبتها فيه فامتنع مع شدة حاجته إليها فاشير عليه ، أن يقترض من الفاضل ، وكانت أمواله عظيمة ، فاستحى ، فألحوا عليه فأرسل خلفه ، فلما حضر لم يتمالك من الحياء ، ودخل دار الحريم ، ثم شجعه الأمراء ، فخرج وقال له ـ بعد أن أطنب فى مدحه ـ أيها القاضى إن الأمور قد ضاقت علينا ، وقلت الأموال عندنا ، وليس لنا إلا حسن نظرك ، واصلاح هذا الأمر إما بنفسك أو برأيك أو بمالك . قال الفاضل : جميع ما أنا فيه من (٦٧ أ) نعمتكم ، ونحن نقدم أولاً الرأى(٢) والحيلة فإن احتيج إلى المال فهو بين يديك .

ووهب دمشق للمعظم ، وكان يطلق عشرة آلاف دينار وعشرين ألف دينار ، ومدحه القاضى الفاضل بقوله(٣) :

---

(١) انظر : مفرج الكروب ٨٤/٣ .

(٢) انظر : مفرج الكروب ٨٤/٣ .

(٣) انظر : ديوان القاضى الفاضل ١٨٩/١ .

الحسن جاد على الأحباب فازدادوا لكن أحبابنا فى الحُسن ما جادوا
فيهن من شبه الغزلان أربعة : نفر وطيب ، وأحداق ، وأجياد
وقد بكت لضنى العشاق أربعة : طب ، وفرش ، وسمار ، وعواد
همى بهم زائد ، زادته أربعة : ينمى ، ويهمى ، ويستشرى ، ويزداد
وكيف يُبقى على العينين أربعة : عداً ، ودمع ، وإطراق ، وتسهاد
هيهات يصدق منك الظن أربعة : عهد ، وود ، وأقوال ، وميعاد
له من الكواكب الدرى أربعة : نشر ، وشكر ، وإصدار ، وإيراد
له إذا سُل سيف المدح أربعة : غيظ ، ووثب ، وإيقاد ، وإزباد
ولى من الدهر عما رمت أربعة : كد ورد ، وإقصاء ، وإقصاد
ولى عن السعى فى المرجو أربعة : بأس ، ويأس ، وإخلال ، وإخلاد
وللعزيز من الملوك اربعة : قلب ، ونطق ، وأخلاق ، وإحماد
تجمعت فى مديحى فيه أربعة : سبك ، ونظم ، وإنشاء ، وإنشاد
جواب راوى ثنائى فيه أربعة : نسخ ، ودرس ، وتكرير ، وإيراد
أيامنا والليالى فيه أربعة : فعل ، وأنس ، وأعراس ، وأعياد
فلم يطف باعتقاد الخلق أربعة : نصب ، ورفض ، وإشراك ، وإلحاد
الأمن فى الأرض ما سلكت اربعة : بر ، وبحر ، وأغوار ، وأنجاد
ما دون منقطع فى الأرض أربعة : ليث ، وذئب ، وقطاع ، ومراد
تحمى به من بلاد الله أربعة : مصر ، وشام ، وخراسان ، وبغداد
إن يبق فيها بقايا فهى أربعة : تنأى فتفتح تستعصى فتنقاد
يُدبر ، الملك من عثمان أربعة : حزم ، وعزم، وأفكار ، وأرصاد
يُثنى عليه من الأوقات أربعة : يوم ، وشهر ، وأعوام ، وآباد
تندى بجودك عام المحل أربعة : أفق ، وأرض ، وأنفاس ، وأكباد
وفيه من صادقات السحب أربعة : فيض ، وسيل ، وإبراق وإرعاد
وأوصاف إنعامه الموصوف أربعة : سار ، وثاو ، ومنقص ، ومعتاد
أعطى العزيز عزيز النصر أربعة : عدل ، وباس ، وإرفاق ، وإرفاد
ونشرت عزمه بالنصر أربعة : سعى ، وسعد ، ورايات ، وأعواد
به لنار العدا فى الحرب أربعة : رفع ، وخفض ، وإطفاء ، وإيقاد

به لنار العدا فى الحرب أربعة : رفع ، وخفض ، وإطفاء ، وإيقاد
أما الملوك لمولانا فأربعة : رق ، وجند ، وأنصار ، وأعضاد
هذا ، وفيك لهم بالحق أربعة : لطف ، وعطف ، وتثقيف ، وإرشاد
لك الرعية يوم العرض أربعة : راءٍ ، وراوٍ ، ومداح ، وأشهاد
كما هم بك فى دنياك أربعة : راضٍ ، وراجٍ ، وقوام وسجاد
وعندهم من ندى نعماك أربعة : كنز ، وحرز ، وأبراك ، وأمداد
فما يصيبهم ما عشت أربعة : هم ، وغم ، وأوجال ، وأنكاد
يأوى إلى بابك المفتوح أربعة : ضعفى ، ولهفى ، ورواد ، ووراد
قلب عداتك فهى اليوم أربعة : قتلى ، وأسرى ، وهراب ، وحياد
تشقى بساعدك المسعود أربعة : هام ، وأيد ، وأسياف ، وأغماد
وحكمت بك فى الكفار أربعة : بيض ، وسمر ، وأغلال ، وأصفاد
لله فى الأرض من ذا البيت أربعة : سُحب ، وروض ، وأقمار ، وأطواد
توارثت بك ملك الأرض أربعة : نجل ، وصنو ، وآباء ، وأجداد
سيما رجال بنى أيوب أربعة : بيض ، وسمر ، وأمجاد ، وأنجاد
وفيهم من خلال الأسد أربعة : وثب ، وضخم ، وإعجال ، والتاد
يا من يحدث عن جدواه أربعة : نطق ، وحال ، وأرواح ، وأجساد
يسرنى ، ويسوء القوم أربعة : أهل ، وصحب ، وأعداء ، وحساد

ولما مات العزيز فجعت به الرعية فجعة عظيمة ، وقال ابن الساعاتى يرثيه :

خلا الدَست من ذاك الجناب الممنع ... فسلم على الدنيا سلام مودع

ومنها :

مضى بعد ما عمت سراياه والندى ... وسار مسير الشمس فى كل موقع
فُجعنا بأندى من بنان سحابة ... وأجرأ من ليث العرين وأشجع
هو الخطب لا المرء الفصيح بمدره ... لديه ولا الحبر الخطيب بمصقع
ثوى الجود والملك الرحيم بحفرة ... وما لها من فرقة وتجمع

آخرها :

فن ذا يرد الخطب تدمى شباته ... برأى جميع أو بقلب مشيع

ورثاه آخر بقصيدة منها :

بعد فقد الملك العزيز عما الد ... ـدين لن ترانى سالى

كان جيد الزمان حال فأضحى ... ولآليه لونها كالليالى

وكتب الفاضل إلى العادل يعزيه : أدام الله تعالى أيام مولانا الملك العادل ، وفدت النفوس نفسه الكريمة ، وأحياه الله حياة طيبة ، يقف فيها المواقف الجسيمة ، وينقلب عنها بالأمور السالمة ، والعواقب السليمة ، ولا نقص الله له عُدداً ولا عدداً ، ولا أعدمه نفساً ولا ولداً ، ولا كدر له مشرباً ولا مورداً ، وأعظم أجره فى ولده العزيز .

رحم الله ذلك الوجه ونضره ، وإلى سبيل الجنة يسره ، وكتب فيها :

وإذا محاسن وجهه بليت ... فعفا البلى عن وجهه الحسن

وكانت مدة مرضه بعد عوده من الفيوم اسبوعين ، وأحزن القلب ، وأبكى العين ، ودفن بجوار الإمام الشافعى ، وخلف من الأولاد : المنصور محمد ، ونص على ولايته ، وهو القائم بعده . على ، عمر ، إبراهيم ، عيسى ، محمود ، فرخشاه ، يوسف ، يونس ، اخوان صغيران ، ثلاث إناث .

ومنهم الملك المؤيد

مسعود بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك المؤيد نجم الدين ، ابن الملك الناصر ، ولد بدمشق سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، وهو شقيق الظاهر ، أرسله الظاهر إلى (٦٨ب) عمه العادل لما نزل على سنجار يشفع فى السنجارية ، فمات فى تلك السفرة . فجىء به رأس عين ، وحمل إلى حلب فدفن بها ، ووفاته سنة ست وستمائة ، وقال ابن

الحلي يرثيه من قصيد(١)

تُرى من على نفس العقلا جار واعتدى
وفوق نحو الملك سهماً مسددا ؟

ومن هد ركن المجد بعد بنائه ؟
ومد إلى تشتيت شمل الهدى يدا

ومن دكدك الطود الأشم وقد رسا
وطار إلى أن جاز نسراً وفرقدا ؟

ومن حجب البدر الذى كان مشرقاً
ومن غيض البحر الذى كان مزْبدا ؟

ومن حبس الغيث الذى كان نووه
إذا عم جدب لا تغب له يدا

* * *

(١) انظر : مفرج الكروب ١٩٨/٣ ، تاريخ ابن الفرات ٩٧/١ .

الطبقة الرابعة

فمنهم الملك المنصور[1]

إبراهيم بن شيركوه بن محمد بن شاذى ، الملك المنصور ، ناصر الدين ، ابن المجاهد ، ابن القاهر ، ابن المنصور ، صاحب حمص ، وليها بعد وفاة والده فى عشرين رجب سنة سبع وثلاثين وستمائة . كان ملكاً شجاعاً ، عالى الهمة ، وافر الهيبة ، له أثر عظيم فى هزيمة جلال الدين خوارزم شاه . كان موافقاً للصالح إسماعيل ، ثم لفته عنه الصالح أيوب، وكسر الخوارزمية بالشرق مرتين ، وأضعف أمرهم ، لا سيما فى سنة أربعين ، فإنه سار بجيش آمد ، واجتمع بعسكر الروم ، فصادف إغارة التتر على خرتبرت[2] فخافهم وساق وقصد الخوارزمية ، وهم مع المظفر غازى ، ومعه خلق لا يحصون من ديوان فمن جيد شعر[3] .

---

(١) انظر : شذرات الذهب ٢٢٩/٥ ، الوافى بالوفيات ٢٠/٦ ، المختصر فى أخبار البشر ١٧٦/٣ ، النجوم الزاهرة ٣٥٦/٦ ، البداية والنهاية ١٧٢/١٣ ، مرآة الزمان ٧٦٤/٨ ، وفيات الأعيان ١٧٥/٢ .

(٢) بالفتح والسكون وفتح التاء المثناة وباء موحدة مكسورة وراء ساكنة وتاء مثناه من فوقها ، اسم أرمنى وهو الحصن المعروف بحصن زياد الذى يجىء فى أخبار بنى حمدان فى أقصى ديار بكر من بلاد الروم بينه وبين ملطية مسيرة يومين . انظر . معجم البلدان ٤١٥/٣ .

(٣) وردت هذه الأبيات فى مفرج الكروب ٢٨٦/٤ ، وديوانه ٢٨٥ .

حى على الحـمى ، وأهل المصلى … زمانا بالرقمتين تولى
كان أغلى الأوقات فى النفس قدراً … فتلاشى زمانه واضمحلا (٩٠ أ)

ومنها :

هل إلى ذلك الزمان سبيل … وضلال أن تلتضى الشوق هلاً ؟
بت والبرق لا أمل دموعى … عند إمضاذه ولا البرق ملاً
مستهاماً ألقى الغرام بجسم … منذ أبلاه هجركم ما أبلا
ذا عليل من حرقة البين والهجـ … ـر بغير اقترابكم لن يبلا
أيها الناظمون هذا قريض … دق فى صنعه القريض وجلا
يتمشى على السماك افتخاراً … ثم يُضحى منه عليكم مُطلاً
ويغيض إلى من ليس يدرى … صنعة الشعر أن يكون مُدلاً
بقريض إذا كسا الشعر عزاً … قائليه كساه هوناً وذُلاً
ما تسمى فى حلبة الشعر يوماً … سابقاً ، لا ولا استحث فصلى

ومنه[1] :

لكم فى فؤادى شاهد ليس يكذب … ومن دمع عينى صامت وهو مُعرب
ولى شهود الوجد خد مُخدد … وقلب على نار الغرام يُقلب
ولى بالرسوم الخُرس من بعد أهلها … غرام عليه ما أزال أؤنب
وإن عن ذكر الراحلين عن الحمى … وقفت فلا أدرى إلى أين أذهب
فربع أناجيه ، وقد ظل خالياً … ودمع أعانيه وقد بات يَسكب

ومنها :

حنين إذا جد الرحيل رأيته … بنفسى فى إثر الظعائن يلعب
وشوق إلى أهل الديار يحثه … غرام إلى العذرى يعزى ويُنسب
وما مزنة أرخت على الدار وبلها … ففى كل أرض جدول يتشعب
بأغزر من دمعى وقد أخفر السرى … وأمست نياق الظاعنين تُغرب

---

(١) وردت هذه الأبيات فى ديوانه ٢٨٦ .

ومنه دوبيت[1] :

كم يذهب هذا العمر فى الخسران ... ما أغفلنى فيه وما أنسانى
ضيعت زمانى كله فى لعب ... ياعمر فهل بعدك عمر ثانى

ومنه دوبيت أيضا[2] :

يا ليتهم عادوا إلى الأوطان ... كى تجتمع الأرواح بالأبدان
كم رام بى العذول عنهم بدلا ... هذا غلط عمرى قصير فانى

وكان يجيز الجوائز السنية على المدح ، ومدحه جماعة منهم ابن عُنين فقال[3] :

لما تخبرنى أروى قصائده ... مضيت قدما وخلفت الرواة ورا
فاعجب لبحرٍ غدا فى رأس شاهقةٍ ... من العواصم طام يقذف الدررا
شعر تمت الشعرى لشركتها ... فيه فباتت تُباهى الشمس والقمرا
سحرٌ ولكن هاروتاً وصاحبه ... ماروت ما نهيا فيه ولا أمرا
كم قمت فى مجلس السادات أنشده ... فلم تكن لحسودٍ فى علاه مِرا

وكان المعظم[4] يحبه ويحترمه ويقبل يده ، وكان يتعذر على الكامل والأشرف والمعظم، وكان فى قلب شيركوه صاحب حمص عليه أحقاد قديمة كما يكون بين الأهل ، فلما

---

(١) الديوان ٣٩٥ ، مرآة الزمان ٦٦٦/٨ ، البداية والنهاية ١٣٢/١٣ ، النجوم الزاهرة ٢٧٥/٦ ، الدارس ١٧٠/١.

(٢) الديوان ٣٩٥ ، مرآة الزمان ٦٦٦/٨ .

(٣) ديوان ابن عنين ٥٨ .

(٤) المقصود هو المعظم عيسى بن أبى بكر صاحب دمشق .

مات المعظم ثارت الأحقاد المخفية ، وحاصره الأشرف تسعة أشهر ، وساعده عليه شيركوه فتملكها الأشرف وسلمها لأخيه الصالح (اسماعيل)[1] وذلك فى سنة سبع وعشرين ، ومدة ملكه ببعلبك تسع وأربعون سنة ، وقيل : خمسون . وعوضه الزبدانى[2] وقصير دمشق[3] ومواضع آخر وأقام الأمجد بداره بدمشق المعرفة « بدار السعادة » فاتفق أنه سُرقت له حياصة[4] ودواة تساى مائة دينار فاتهم بعض مماليكه ، وأخذ وحُبس فى مرقده[5] ، وهدد بقطع اليد ، فلما كانت ليلة الأربعاء ثانى عشر شوال سنة سبع ، وقيل : لثمان وعشرين وستمائة ، جلس على عادته تجاه الخزانة التى فيها المملوك ، عنده عباس وابن فهد[6] اليهودى ، وبيده الاسطرلاب ، وكان يلعب مع عباس بالنرد ، فقال وابن فهد : هذه ساعة سعيدة لو أردت فيها أخذ دمشق أخذتها . فقال : لا تكلمنى قد تعين لى الغلب وكان مع المملوك سكين صغيرة فعالج الباب وهجم على الأمجد وأخذ سيفه ، فضربه به ، فصاح ، ثم ضربه أخرى ، فقطع يده ، ثم طعنه فى خاصرته ، ثم انهزم فصعد السطح ، ورمى بنفسه فمات ، قيل : إن الغلمان قطعوه ، والجزاء من جنس العمل .

كان له ولد شاب مليح قتله : وقيل : خنقه ، وقيل : بنى عليه حائطاً ، سبق ذلك فى ترجمة العزيز ابن العادل . دفن الأمجد بتربة والده عند الشرف(٩١ أ) الشمالى . رآه بعض أصحابه فى النوم ، فقال : ما فعل الله بك ؟ فقال[7] :

---

(١) الإضافة من فوات الوفيات ١٥٠/١ .

(٢) الزبدانى : كورة مشهورة بين دمشق وحلب . انظر : معجم البلدان ١٣٠/٣ .

(٣) قصير دمشق : ضيعة أول منزل لمن يريد حمص من دمشق . انظر : معجم البلدان .

(٤) حياصة : حزام .

(٥) فى مفرج الكروب ٢٨٤/٤ (مرقد بابان الدار التى هو نازل بها) .

(٦) فى مرآة الزمان ٦٦٧/٨ (ابن فهيدا) .

(٧) انظر : شذرات الذهب ١٢٦/٥ ، الدارس ١٧١/١ ، فوات الوفيات ١٥١/١ ، مرآة الزمان ٦٢٧/٨ .

كنت من ذنبي على وجل زال عني ذلك الوجل
أمنت نفسي بوائقها عشت لما متُّ يا رجل

ومنهم أحمد بن عمر(١)

ابن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى ، الأمير ابن الملك المظفر قتل فى وقعة الرملة ، سنة ثلاث سبعين وخمسمائة ، وكان من أحسن الشباب ، أول ما قد تكاملت لحيته أمره أبوه بالحملة على الفرنج ، فحمل وقاتل ، وأثر فيه أثراً عظيماً . عاد فأمره أبوه بالعود إليهم ، فقتل شهيداً .

ومنهم الملك المنصور(٢)

محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى ، الملك المنصور ابن الملك المظفر صاحب حماة . كان شجاعاً عالماً ، يحب العلماء ، ورد إليه منهم جماعة كبيرة مثل الشيخ سيف الدين الآمدى (٣) ، وكان فى خدمته قريب مائتى متعمم من النحاة والفقهاء

---

(١) انظر : كنز الدر ٦٣/٧ ، مفرج الكروب ٦٠/٢ ، ترويح القلوب ١٠٦ .

(٢) انظر : تاريخ ابن الوردى ٢٠٠/٢ ، البداية والنهاية ٩٣/١٣ ، النجوم الزاهرة ٢٥٠/٦ ، ذيل الروضتين ١٣٤ ، فوات الوفيات ٤٥٩/٤ ، وفيات الأعيان ١٢٩/٣ ، مفرج الكرب ٧٧ ، السلوك ٢٠٥/١ ، المختصر فى أخبار البشر ١٢٥/٣ .

(٣) أبو الحسن على بن محمد بن سالم ، المعروف سيف الدين الآمدى ، كان إماماً بارعاً لم يكن فى زمانه من يجاريه فى علم الكلام ، توفى سنة ٦٣٦ هـ . انظر . وفيات الأعيان ٤٥٥/٢ ، طبقات السبكى ١٢٩/٥ ، النجوم الزاهرة ٢٨٥/٦ ، ميزان الاعتدال ٤٣٩/١ .

وغيرهم ، وصنف عدة مصنفات مثل « المضمار »[1] فى التاريخ « وطبقات الشعراء »[2] وكان معنياً بعمارة بلده ، والنظر فى مصالحه ، وهو الذى بنى الجسر عند حمص ، واستقر له بعد وفاة والده حماة والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم ، فلما فتح بارين ألزمه عمه العادل أن يردها على صاحبها ابن المقدم فعوضه عنها (قلعة) نجم ومنبج ، وجرت له خطوب مع الفرنج، وكان ينظم الشعر ، واقتتل هو والفرنج على بعرين فى ثالث رمضان سنة تسع وتسعين (وخمسمائة) ، وقد اجتمعوا من حصن الأكراد وطرابلس ، فانهزم الفرنج ، وقتل وأسر ، وكان يوماً مشهوداً ، وفى ذلك يقول بهاء الدين أسعد السنجاوى[3] :

ما لذة العيش إلا صوت معمعة ... يُنال فيها المنى بالبيض والأسل

يا أيها الملك المنصور تصبح فتى ... لم يلوه عن وفاءٍ كثرة العذلِ

اعزم ولا تترك الدنيا بلا ملك ... وجد فالملك محتاج إلى رجل

يا أوحد العصر ، يا خير الملوك ومن ... فاق البرية من حافٍ ومنتعلِ

والله يقاتل قتاتله ، وهى طويلة .

ثم خرج الفرنج من حصن الأكراد والمرقب والساحل ، وأوقعوا مع المنصور ، وهو ببارين، بعد الوقعة الأولى بثمانية عشر يوماً ، فانتصر ثانياً وانهزم الفرنج هزيمة قبيحة ، وفيها يقول سالم بن سعادة الحمصى من قصيدة (٩١ ب) :

أمن اللواحظ أن يفوق اسهما ... ريم برامة ما رمى حتى رمى

فتانة للحظ بل فتاكة ... ما جار قاضيهن تحكما

أضحيت فيها مغرما كمحمدٍ ... لما غدا بالأريحية مغرما

---

(١) هو كتاب مضمار الحقائق ، نشر جزء منه الدكتور حسن حبش (القاهرة ١٩٦٨) .

(٢) اسعد بن يحيى بن موسى السلمى السنجارى ، فقيه وشاعر ، ولد بأربل سنة ٥٣٣ هـ ، توفى بسنجار سنة ٦٢٢ هـ . انظر : وفيات الأعيان ١٩٣/١ ، البداية والنهاية ١١٠/٣ ، شذرات الذهب ١٠٤/٥ ، ووردت هذه الأبيات فى مفرج الكروب ١٤٤/٣ ، وابن الفرات المجلد الرابع ٢٥٣/٢ .

وسننت متنقما بساحل بحرها جيشاً حكى البحر الخضم عرمرما
أسدلت فى الآفاق من هبواته ليلاً واطلعت الأهلة أنجما

ثم كانت بينه وبينهم هدنة فى سنة ستمائة ، وقيل : إحدى وستمائة بعد أن أغاروا على حماة ، ووصلوا إلى قرية الرُّقيطا[1] وامتلأت أيديهم من المكاسب ، وفى تلك السنة سار المنصور إلى مصر ، وكان عنده استشعار من الكامل ، فلما وصل إليه ، أحسن إليه إحساناً كثيراً ، وأقام فى خدمته شهوراً ، ثم خلع عليه وعلى أصحابه ، وورد إلى حماة ، وتوفى فى ذى القعدة سنة سبع عشرة ، وقيل : ست عشرة وستمائة . وكان مرضه إحدى وعشرين يوماً بحمى حادة ، وعمره خمسون سنة وشهور ، وملكه تسع وعشرون سنة ، فإنه ولى فى سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، واستقر بعده ولده الناصر قليج أرسلان ، ولم يكن ولى عهده ، وإنما كان العهد للمظفر محمود ، وكان غائباً عند خاله الكامل بمصر .

ومنهم الملك المنصور[2]

محمد بن عثمان بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك المنصور ابن الملك العزيز بن الناصر ولد فى جمادى الأولى سنة خمس ثمانين وخمسمائة . ولما مات أبوه فى سنة خمس تسعين ، اتفق الأمراء وأقاموه ، وركب بشعار السلطنة بمصر يوم الثلاثاء ، ثانى عشرين محرم ، ولقب أولاً بالناصر ، ثم كره موافقة الخليفة فى اللقب ، وكتب كتابا إلى العادل يعزيه ويخبره ، ثم تحركت جماعة وقالوا : لا بد من مدبر ، فأشار الفاضل بعمه الأفضل ، فجاء متنكراً من العادل ، ثم وثب العادل على الأفضل وأقام بأتابكية

---

(١) هى ضيعة بالقرب من حماة . انظر : مفرج الكروب ١٦٣/٣ .
(٢) انظر : مفرج الكروب ٨٧/٣ ، السلوك ١٤٥/١ ـ ١٥٣ ، البداية والنهاية ١٨/١٣ ، ابن إياس ٧٤/١، النجوم الزاهرة ١٤٦/٦ . توفى سنة ٦٢٠ .

المنصور ، ثم جمع الفقهاء أفتوه بأنه لا يجوز ولاية الصغير ، فخلعه فى شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة ، ثم أخرجه فى سنة تسع وتسعين إلى حلب ، وقيل : بل حبسه بحران، ثم أطلقه ، ورسم عليه ، فهرب إلى عمه الظاهر بحلب فأعطاه اقطاعاً ، قد تقدم شرح ذلك كل .

ومنهم على وعمر وابراهيم وعيسى[1] ومحمود وفرخشاه ويوسف ويونس وأخوان صغيران وثلاث إناث

أولاد عثمان بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك العزيز ابن الناصر .

ومنهم الملك العزيز[2]

محمد بن غازى بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك العزيز غياث الدين ابن الملك الظاهر ابن الناصر ، صاحب حلب . ولد خامس ذى الحجة ، سنة عشر وستمائة ، من ضيفة خاتون بنت الملك العادل ابن أيوب ، واحتفل والده لمولده ، وصاغ له من الذهب والفضة طيوراً ووحوشاً على ما يمكن أن يعرف ، وعمل له عشرة مهود من الذهب والفضة سوى (ما عمل من) الأبنوس والعود والصندل . ونسج له ثلاث فرجيات[3] من اللؤلؤ ،

---

(١) ذكرهم صاحب كتاب ترويح القلوب ص ٩٠ ، ولم يذكر سنوات وفاتهم .

(٢) انظر : ذيل الروضتين ١٦٥ ، الحوادث الجامعة ٩٦ ، مرآة الزمان ٧٠٣/٨ ، الوافى بالوفيات ٣٠٦/٤ ، السلوك ٢٥٣/١ ، أبو الفداء ١٥٨/٣ ، ابن الوردى ٢٣/٢ ، البداية والنهاية ١٤٥/١٢ ، شذرات ١٦٨/٥ ، النجوم الزاهرة ٢٩٧/٦ ، كنز الدرر ٣١٨/٧ .

(٣) جمع فرجية وهو ثوب فضفاض له كمان واسعان طويلان يتجاوزان قليلاً أطراف الأصابع . انظر المعجم المفصل باسماء الملابس ٣٦٥ .

في كل فرجية أربعون حبة من الياقوت والبلخش والزمرد[١] ، وعمل له ثلاث سيوف غلفها وقبضاتها ذهب مرصع بالجوهر النفيس ، وثلاثة رماح ذهب أسنتها جوهر . ولما توفي أبوه ، سنة ثلاث عشرة ، عهد إليه وسنه سنتان وأشهر وجعل طغريل الخادم أتابكه ، ولما ولي طمع كيكاوس[٢] ملك الروم في الاستيلاء على حلب ، فاستدعى الأفضل ، واتفق معه على أن يفتح بلادها ، ويسلمها للأفضل ، ثم يفتح البلاد الشرقية التي بيد الأشرف ويتسلمها كيكاوس ، فسارا وأخذا رعبان وتسلمها الأفضل ، فمالت قلوب أهل البلاد لذلك ، ثم فتح تل باشر ولم يسلمها للأفضل ، فنفر خاطر الأفضل أهل البلاد منه .

ووصل الأشرف ومعه مانع أمير العرب في جموع عظيمة ، وكان الرومي قد سار إلى منبج وتسلمها بنفسه أيضاً ، ونزل الأفضل وادي بزاعة ، وأيقع بعض عسكر الأشرف بمقدمة عسكر الرومي ، فانهزمت ، وأخذ منها أسرى ، وأرسلوا إلى حلب ، ودقت البشائر ، ولما بلغ ذلك كيكاوس . وهو بمنبج ولي منهزماً ، وتبعه الأشرف يتخطف أطراف عسكره ، ثم حاصر تل باشر واسترجعها كذا رعبان ، وذلك في سنة خمس عشرة . وفي سنة تسع وعشرين فك العزيز الحجر عن نفسه واستقل بالأمر . وكان حسن الصورة ، كريماً عفيفاً ، حسن السيرة، وحكى الحلبيون أن أحواله تغيرت ، خرج في سنة أربع وثلاثين إلى حارم للصيد ، واغتسل بماء بارد فحم ، ودخل حلب ، وقد اشتد به المرض ، فتوفي في ربيع الأول عن ثلاث وعشرين سنة وشهور ، ومدة ملكه قريب العشرين سنة ، رتب بعده ولده الناصر يسف ، وله من العمر نحو سبع سنين ، وأخبار العزيز مفرقة .

---

(١) البلخش جوهر أحمر شفاف يضاهي فائق الياقوت في اللون والرونق . انظر . نخب الذخائر في أحوال الجواهر لابن الأكفاني .

(٢) كيكاوس بن كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب الروم . كان جباراً ظالماً سفاكا للدماء ، توفي سنة ٦١٥ هـ . النجوم الزاهرة ٢٢٣/٦ .

ومنهم الملك الصالح[1]

أحمد بن غازى بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك الصالح صلاح الدين ابن الظاهر ابن الناصر . مولده (٩٢ب) سنة إحدى وستمائة عهد إليه أبوه بالسلطنة بعد أخيه الصغير العزيز محمد ، فوض إلى الأتابك طغريل - مدبر حلب - الشغر وبكاس فى سنة تسع عشرة ، فسار من حلب وملكهما ، وأضاف إليه الروج[2] ومعرة مصرين ، ثم انتزع الشغر وبكاس فى سنة أربع عشرين ، وعوضه عينتاب[3] والراوندان[4] .

ومنهم الملك الناصر[5]

يوسف بن غازى بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك الناصر صلاح الدين بن الظاهر بن الناصر ، ولد سنة تسعين وخمسمائة ، فقال الرشيد النابلسى يهنئ والده من قصيدة :

أضاء لك الاقبال اتسق السعد ... وأنجز مما كنت أملته الوعد

وجاءت لك الدنيا بما أنت أهله ... فجد لك الاقبال واقتبل الجد

تأرج عرف الدهر لا الزهر عندما ... تبلج وجه الجو وابتسم المجد

وأصبح قلب الوفد ولهان خائفاً ... وبشر وفداً بالغنى والمنى وفد

---

(١) انظر : السلوك ٣٨٩/١ ، الوافى بالوفيات ٢٧٦/٧ ، والثابت أنه مات سنة ٦٥١ هـ ، وقيل سنة ٦٥٢ هـ .

(٢) بلدة صغيرة تقع غربى مدينة حلب . انظر . معجم البلدان ٧٦/٣ .

(٣) قلعة تقع بين مدينتى أنطاكية حلب . انظر . معجم البلدان ١٧٦/٤ .

(٤) قلعة صغيرة تقع قرب حلب . انظر . معجم البلدان ١٩/٣ .

(٥) له ترجمة فى مفرج الكروب ١٦٦/٣ .

ومنها :

وقمص أثواب الردى كل قومص — وأضحى كنوداً كل من وسمه كندُ
وصب على الأعداء سوط مذلة — وآنافهم رغم وأوجههم رُبد
فلو نام فى أرض الفرنجة فارس — لما كان إلا العبد رؤياه والقيد

ومنها :

تباشرت الدنيا بمولد يوسف — فركب به يحدو وسفر به يشدو
لله نجم منك أشرف زاهراً — فبات لبدر التم من وجده جد
كفلت برد الناصر الملك للورى — وغادرته حياً وقد ضمه لحد
وما كانت الأيام تسخو بمثله — فاعجزت حتى صار منك له ند
خلفت صلاح الدين بابنك يا ابنه — فقام مقام البحر منهمر عد
وحدثتنى يا سعد عنهم فزدتنى — جنوناً فزدنى من حديثك يا سعد(1)

ومنها :

ألا هكذا تسمو البدور بنورها — الا هكذا تفزهى بأشبالها الأسد
فدمت غياث الدين فى ظل دولة — تدين لها شيب الممالك والمرد
تزين التهانى ما حييت مبوءاً — منازل عز ملؤها المدح والحمد

ومنهم الملك الصالح(2)

اسماعيل بن على بن يوسف بن شاذى ، الصالح بن الأفضل على . توفى سنة سبع وثلاثين وستمائة .

---

(1) انظر : ديوان العباس بن الأحنف 58 .

(2) له ترجمة فى ترويح القلوب 96 .

ومنهم أسد الدين (أرسلان)[1]

ابن داود بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الأمير ابن الملك الزاهر ابن الناصر . قتل لما استولى التتر على حلب سنة ثمان وخمسين وستمائة .

ومنهم تاج الملوك[2]

ابن توران شاه بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، تاج الملك ابن المعظم بن الناصر . توفى سنة ثمان وأربعين وستمائة .

ومنهم أبو بكر بن محمد[3]

ابن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الأمير ابن الملك الأشرف ابن الناصر . ولد بمصر سنة سبع وتسعين (وخمسمائة) ونشأ بحلب ، وسمع من عمر وحنبل ، ودخل بغداد أيام المستنصر ، وسمع بها من أصحاب ابن الزاغونى كان أميراً جليلاً ، له حرمة وافرة . توفى بحلب سنة سبع وخمسين وستمائة وله ستون سنة .

ومنهم بنت أيوب[4]

ابن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، بنت الملك الأوحد ابن العادل .

---

(١) له ترجمة فى ترويح القلوب ٩٨ ، ذيل مرآة الزمان ٤٢٩/١ .

(٢) لم نعثر له على ذكر وترجمة .

(٣) انظر : ترويح القلوب ٩٦ ، ذيل مرآة الزمان ٣٤٩/١ .

(٤) لم نعثر له على ذكر أو ترجمة .

ومنهم الملك المغيث[1]

عبد العزيز بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب بن شاذى . الملك المغيث ، شهاب الدين ابن المعظم بن العادل . توفى سنة تسع وأربعين وستمائة ببلاد الشرق ، له عدة أولاد منهم إسماعيل[2] .

ومنهم الملك الناصر[3]

داود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك الناصر ، صلاح الدين ، أبو المظفر ، وكان يلقب أولاً بالحاكم ، ابن المعظم ابن العادل ، صاحب الكرك ، وهو أكبر أخوته .

ولد سنة ثلاث وستمائة ، لما مات أبوه استقر فى السلطنة بدمشق ، وقام بأمره استاد دار أبيه[4] أيبك المعظمى ، وأرسل إليه الكامل بالخلع ، وطلب الشوبك ليجعلها خزانة له ، فلم يفعل الناصر ، فكان ذلك سبباً للوحشة بينهما ، فسار الكامل إلى الشام فى سنة خمس وعشرين ، فانزعج الناصر ، وأرسل إلى عمه الأشرف ، وهو بالشرق ، فقدم الأشرف ودخل هو والناصر إلى القلعة راكبين ، ووصل إليها المجاهد صاحب حمص ، ثم وقع الاتفاق أن يسيروا إلى نابلس ، فيقيم الناصر والمجاهد بها ، ويتوجه الأشرف إلى الكامل فيشفع فى ابن

---

(١) له ذكر فى ترويح القلوب ٧٤ ، ٧٦ .

(٢) اختلف فى سنة وفاته ، ولكن الثابت سنة ٧١٤ هـ .

(٣) انظر : شذرات الذهب ٢٨٥/٥ ، ذيل الروضتين ٢٠٠ ، فوات الوفيات ٣١٢/١ ، ذيل مرآة الزمان ١٢٦/١ ، المختصر فى أخبار البشر ١٩٥/٣ ، تاريخ ابن الوردى ٢٨٣/٢ ، السلوك ٤١٢/١ ، البداية النهاية ١٩٨/١٣ .

(٤) المشرف على المال وتحصيله . انظر صبح الأعشى ٤٥٧/٥ .

اخيهما ، فلما وصل الأشرف إلى أخيه وقع اتفاقهما فى الباطن على أخذ دمشق من الناصر وتعويضه عنها بحران والرها والرقة (٩٣ب) وتكون دمشق للأشرف ، وخرجت سنة خمس وعشرين وهماً بظاهر غزة ، فلما سمع الناصر ذلك رحل إلى دمشق ، وكان قد لحقه بالغور الأشرف ، وعرفه ما أمره به الكامل ، وأنه لا يمكن الخرج عن مرسومه ، فلم يلتفت الناصر ، وسار الأشرف فى أثره وحصره بدمشق والكامل مشغول بالفرنج ثم إنه سلم القدس فى سنة ست وعشرين ، فأخذ الناصر ، وهو فى الحصار ، فى التشنيع على الكامل لذلك . ثم وصل الكامل دمشق جمادى الأولى ، واشتد الحصار فلما عجز الناصر ونفد ما عنده من الذخائر ، خرج ليلاً من القلعة فى نفر يسير ، وبلغ عمه مجيئه ، فخرج إليه وتلقاه، وطيب قلبه وعاتبه ، وأمره بالعود ، فلما كان بعد يمين ،أرسل الكامل فخر الدين ابن الشيخ فصلى مع الناصر الجمعة فى القلعة ، وخرجا ووقع الاتفاق والتحالف . وقرر للناصر الكرك والشوبك الصلت والبلقاء والأغوار ونابلس وأعمال القدس ، ونزل الناصر عن الشوبك سأل الكامل قبولها ، ثم رجع الناصر إلى قلعة دمشق وفتحت أبواب مستهل شعبان ودخل المصريون وحزن الدمشقيون حزناً عظيماً ، وتسلم الكامل القلعة سلمها للأشرف ، وتعوض البلاد الشرقية التى عينت أولاً للناصر ، وتسلم الناصر بلاده .

وفى سنة ثلاثين دخل الكامل الشرق ، واجتاز على الناصر بالكرك فعين له الاقامات والصيانات ، وحصل بينهما الاتحاد ، وزوجه بنته عاشوراء ، ثم حصلت له منه وحشة، فألزمه بطلاق ابنته ، فخاف الناصر خوفاً عظيماً ، فتوجه إلى المستنصر لائذاً به وذلك سنة ثلاث وثلاثين ، وأمر الخليفة بتلقيبه ، وقدم إلى الخليفة جوهراً نفيساً فقبله ، وخلع عليه ، وأمر له بالاقامات ، ورجا أن يؤذن له كما أذن لمظفر الدين صاحب إربل فلم يأذن[١] له ، فعمل قصيدة على وزن قصيدة أبى تمام التى فيها[٢] :

---

(١) رد فى ذيل مرآة الزمان ١٣٢/١ .

(٢) ورد فى ديوان أبى تمام ٢٢١/١ .

لأمـــر عليـــهم أن تتم صـــدوره   وليس عليـــهم أن تتم عـــواقـــبـــه

وقصيدة الناصر(١) :

ودان المت بـالكثـــيـب ذوائبـــه   وجنح الدجى وحف تجول غـيـاهبـه
وأقـــبل جـــه الأرض طلقـــاً وطالما   غـدا مكفـهـراً مـحشـات جـوانبـه
كساه الحيا وشيئاً من النبت فاخراً   فـعـاد قـشـيـبـاً غـوره وغـواربه
كـمـا عـاد بالمستنصـر بن مـحـمـد   نظام المعـالى حين فلت كـتـائبـه
إمـــام تحلى الدين منه بماجـــد   تحلت بآثار النبى مـــواكـــبـــه

ومنها :

لئن نوهت باسم الامـــام خـــلافـــه   ورفـــعت الزاكى النجـــار مناســـبـه
فـأنت الامـــام العـدل والعـرق الذى   به شـــرفت أنســـابه ومناصـــبـــه
جـمـعت شـتـيت الملك بعد افـتـراقـه   وفـرقت جمع المال فـانهـال كـاثبـه
ألا يا أمـيــر المؤمنين ومن غــدت   على كـاهل الجـوزاء تعلو مـراتبـه
أيحـسن فى شـرع المعـالى ودينهـا   وأنت الذى تُعـزى إليـه مـذاهبـه
بأنى أخـــوض الدو والدو مُقـــفـــر   سـباريتـه مُغـبـرة وسـبـاسبـه(٢)
وارتكب الهل المخـــوف مـــخـــاطراً   بنفـسى ولا أعـيـا بما أنا راكـبـه
وقـد رصـد الأعـداء لى كل مـرصـد   فكلهم نحـــوى تدب عـــقـــاربه
فـتـسـمح لى بالمال والجـاه بغـيـتى   ومـا الجاه إلا بعض مـا أنت واهبـه
وآتيك والعـــضب المهند مـــصلت   طرير شـــبـــاه قـــانيـات ذوائبـــه
وأنزل آمـــالى ببـــابك راجـــيـــاً   فـواضل جـاه يبـهـر النجم ثاقـبـه
ويأتيك غـــيـــرى من بلاد قـــريبـــة   له الأمن فـيـهـا صـاحب لا يجـانبـه
وما أغبر من جوب الفلا حر وجهه   ولا أنضـيت بالسـيـر فـيـهـا ركـائبـه
فـــيلقى دُنواً منك لم ألق مـــثله   ويحظى ومـــا أحظى بما أنا طالبـــه
وينظر من لألاء قـــدسك نظرة   فـيـرجع والنور الامـامى صـاحـبـه

---

(١) انظر : تاريخ ابن الوردى ١٦٣/٢ ، ثمرات الأوراق ٢٤ ، فوات الوفيات ٤٢٠/١ ، المختصر فى أخبار البشر ١٥٧/٣ .

(٢) ورت الأبيات فى مرآة الزمان وفوات الوفيات .

ولو كان يعلونى بنفس ورتبة | وصدق ولاء لست فيه أصاقبه
لكنت أسلى النفس عما ترومه | وكنت أذود العين عما تراقبه
ولكنه مثلى ولو قلت إننى | أزيد عليه لم يعب ذاك عائبه
وما أنا ممن يملأ المال عينه | ولا بسوى التقريب تقضى مآربه

ومنها :

وبى ظمأ رؤياك منهل ريه | ولا غرو أن تصفو لوردى مشاربه

ومنها :

وقد رضت مقصودى فتمت صدوره | ومنك أرجى أن تتم عواقبه

وكان الخليفة متوقفاً بسبب الكامل فجمع بين المصلحتين واستحضره ليلاً ، ثم عاد الناصر (٩٤ب) إلى الكرك .

وفى سنة سبع وثلاثين استنقذ الناصر القدس من الفرنج ، وكان بأيديهم منذ سلمه إليهم الكامل سنة ست وعشرين ، وعمروا قلعة جعلا بُرج داود أحد أبوابها ، فتوجه الناصر وحاصر هذه القلعة ، فسلمت إليه بالأمان فهدمها وهدم بُرج داود ، ومضى من كان بالقدس إلى بلادهم ، فقال ابن مطروح(١) :

المسجد الأقصى له عادة | سارت فصارت مثلاً سائرا
إذ غدا للكفر مستوطناً | أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أولاً | وناصر طهره آخرا(٢)

وجرت له أمور مع الصالح أيوب مذكورة فى ترجمته .

---

(١) هو الوزير أبو الحسن يحيى بن عيسى الملقب جمال الدين ابن مطروح ، كان وزير الملك الصالح أيوب ، مات سنة ٦٤٩ هـ . انظر النجوم الزاهرة ٢٤/٧ ، وفيات الأعيان ٣٠٢/٥ .

(٢) ورد فى ديوان ابن مطروح ١٨٢ .

وفى سنة اربع وأربعين أرسل الصالح أيوب فخر الدين ابن الشيخ إلى بلاد الناصر ، فخرب ضياع الكرك وقل ما عند الناصر ، فعمل الناصر قصيدة يعاتب فيها الصالح ، وهى[1] :

قولاً لمن قاسمته ملك اليد ... ونهضت فيه نهضة المستأسد
عاصيت فيه ذوى الحجى من أسرتى ... وأطعت فيه مكارمى وتوددى
يا قاطع الرحم التى صلتى بها ... كُتبت على الفلك الأثير بعسجد
إن كنت تقدح فى صريح مناسبى ... فاصبر لعرضك للهيب المرصد
عمى أبوك ووالدى عم به ... يعلو انتسابك كل ملك أصيد
دع سيف مقولى البليغ يذب عن ... أعراضكم بفرزندة المتوقد
فهو الذى قد صاغ تاج فخاركم ... بمنصل من لؤلؤ وزبرجد
يا محرجى بالقول والله الذى ... خضعت لعزته جباه السجد
لولا مقال الهجر منك لما بدا ... منى افتخاراً بالقريض المنشد
إن كنت قلت خلاف ما هو شيمتى ... فالحاكمون بمسمع وبمشهد
والله يابن العم لولا خيفتى ... لرميت ثغرك بالعداة المرد
لكننى ممن يخاف حزامة ... ندماً يجرعنى سمام الأسود
فأراك ربك بالهدى ما ترتجى ... لنراك تفعل كل فعل أرشد
لتعيد وجه الملك طلقاً ضاحكاً ... وترد شمل البيت غير مبدد (٩٥ أ)
كى لا ترى الأيام أنا فرصة ... للخارجين وضحكة للحسد
لا زال هذا البيت مرتفع البنا ... يزهى بأمجد بعد آخر أمجد

وفى سنة سبع وأربعين سار الناصر (داود) من الكرك إلى حلب لما ضاقت عليه الأمور مستجيراً بصاحبها الناصر (يوسف) وكان قد بقى عند الناصر داود من الجوهر ما يزيد قيمته على مائة ألف دينار ، وقيل : خمسمائة ألف دينار ، فلما وصل إلى حلب سير الجوهر المذكور إلى بغداد وأودعه عند الخليفة ، ووصل إليه خط الخليفة بتسليمه ، فلم تقع عينه عليه بعد ذلك . ولما سار عن الكرك استناب فيها ولده المعظم عيسى، ولما رأى

---

(١) ورد فى النجوم الزاهرة ٢٣٦/٦ .

ولداه الأكبران الظاهر شاذى والأمجد مجد الدين حسن ميله إلى أخيهما غضبا وقبضا على المعظم ، وسار الأمجد إلى الصالح أيوب ، وكان بالمنصورة مريضاً ، وتوثق من قضيته ، وطلب خبزاً[1] بمصر ، وكان له بالصالح أنس لما كان معتقلاً بالكرك فأكرمه وأرسل إلى الكرك الطواشى بدر الدين الصوابى[2] نائباً ، ووصل أولاد الناصر القاهرة وأخواه القاهر والمغيث ونساؤه وأتباعه ، وأقطعوا اقطاعات جليلة ، وفرح الصالح فرحاً عظيماً ، ودقت البشائر مع ما هو فيه من المرض ، وكان تسلمه لها يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة .

وفى سنة ثمان وأربعين اعتقل الناصر - صاحب حلب - الناصر داود فى حمص ، وذلك أنه بلغه ما أوجب القبض عليه ، وسيره تحت الاحتياط إلى حمص ، وكان قد وعده وعوداً جميلة ، فلم ينجز له شيئاً منها ، فلما أيس منه طلب دستوراً ليمضى إلى بغداد ، فأعطاه ، فلما وصل القصير[3] قبض عليه مستهل شعبان ، ووصل حريمه وأولاده من مصر، لما اعتقل نظم قصيدة مطلعها[4] :

إلهى إلهى أنت أعلا وأعظم ... بمحقوق ما تبدى الصدور وتكتم
وأنت الذى تُرجى لكل عظيمة ... وتخشى وأنت الحاكم المتحكم
إلى علمك العلى أشكو ظلامتى ... وهل بسواه يُنصف المتظلم
أبث جنايات العشيرة مُعلناً ... إلى من بمكنون السرائر يعلم
أتيتهم مستنصراً متحرماً ... كما يفعل المستنصر المتحرم

ومنها :

فلما أيسنا نصرهم ونوالهم ... رمنا بإفك القول هو مرجم

ومنها :

أغثنا أغثنا من عدانا يكن لنا ... بك النصر حتى يُخذلوا ثم يهزموا

ومنها :

فنصرك مجعول لنا ومُعجل ... وبرك معلوم بنا فهو مُعلم

---

(١) قطعة من الأرض .

(٢) وهو الأمير بدر الدين عبد الله الصوابى ، مات سنة ٦٩٨ هـ انظر . النجوم الزاهرة ١٣٨/٨ .

(٣) كورة صغيرة بين حمص ودمشق انظر معجم البلدان ٣٦٧/٤ .

ذكر أحواله بعد ذلك

وفى سنة إحدى وخمسين افرج الناصر عن الناصر بشفاعة الخليفة ، وأمره ألا يسكن بلاده ، فرحل إلى جهة بغداد ، فلم يمكنوه من الوصول إليها ، وطلب وديعته الجوهر ، فمنعوه إياها ، وكتب الناصر إلى ملوك الأطراف أنهم لا يأووه ولا يميروه ، فبقى الناصر داود فى جهة عانة[1] وحديثه[2] ، وضاقت به الحال ، وانضم إليه جماعة من غزية[3] ، فبقوا يرحلون وينزلون جميعاً ، ولما قوى عليهم الحر ، ولم يبق بالبرية عشب قصدا أزوار الفرات يقاسون بق الليل وهواجر النهار ، وكان معه أولاده ، ولولده الظاهر شاذى فهد يتصيد به فى النهار ما يزيد على عشرة غزلان ، وكان يمضى للناصر أيام لا يطعم غير الغزلان ، واتفق أن الأشرف[4] - صاحب الرحبة - بعث إليه مركبين دقيقاً شعيراً ، فأرسل الناصر يوسف يهدده . ثم إن الناصر داود قصد مكاناً للشرابية[5] واستجار به ، فرتب له الشرابى دون كفايته ، أذن له فى النزول بالأنبار ، وبينها وبين بغداد ثلاثة أيام ، والناصر يتضرع إلى الخليفة ، فلا يجيب ضراعته ، ويطلب وديعته فلا يرد لهفته ولا يجيبه إلا بالمماطلة والمطاولة وكانت مدة انتقاله فى الصحارى ثلاثة أشهر ، ثم أرسل الخليفة يشفع فيه عند الناصر يوسف ، فأذن فى العودة إلى دمشق ، ورتب له مائة ألف درهم على فاميهك[6] وغيرها ، فلم يتحصل له من ذلك إلا دون ثلاثين ألفاً .

---

(١) مدينة تطل على نهر الفرات قرب حديثة انظر معجم البلدان ٧٢/٤ .

(٢) تقع بالقرب من الأنباء وبها قلعة حصينة انظر معجم البلدان ٢٣٠/٢ .

(٣) انظر : القلقشندى . نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب .

(٤) هو الملك الأشرف موسى بن العادل أبى بكر ، مات سنة ٦٣٥ هـ انظر . مرآة الزمان ٧١١/٨ ، فيات الأعيان ٣٣٠/٥ .

(٥) هو شرف الدين إقبال الشرابى ، مات سنة ٦٥٣ هـ .

(٦) مدينة تقع على سواحل حمص انظر معجم البلدان ٢٣٢/٤ .

ذكر طلب وديعته

فى سنة ثلاث وخمسين طلب من الناصر يوسف دستوراً إلى العراق ، بسبب طلب وديعته من الخليفة ، وأن يمضى إلى الحج ، فأذن له ، فسار إلى كربلاء ثم مضى إلى الحج، ولما رأى القبر الشريف تعلق بأستار الحجرة الشريفة بحضور الناس وقال : اشهدوا أن هذا مقامى من رسول الله ﷺ ـ داخلاً عليه ، مستشفعاً به ، إلى ابن عمه المستعصم فى أن يرد على وديعتى ، فأعظم الناس ذلك ، وجرت عبراتهم ، وارتفع بكاؤهم ، وكتب بصورة ما جرى مشروح ورفع إلى أمير الحجاج ، وتوجه الناصر مع الحاج العراقى (٩٦ أ) وقدم بغداد سنة أربع وخمسين ، فأرسل المستعصم من حاسب الناصر على ذلك فى ترداده إلى بغداد مثل اللحم والخبز والعليق ونحوه ، وثمن عليه ذلك بأغلى الأثمان ، وأرسل إليه شيئاً نزراً وألزمه أن يكتب خطة برد وديعته فكتب خطة كرهاً ، وسار عن بغداد ، وأقام مع العرب ثم أرسل إليه الناصر يوسف وطيب قلبه وحلف له ، فقدم دمشق ، وأقام بالصالحية .

وفى سنة خمس وخمسين استجار الناصر بنجم الدين البادرائى[1] فى أن يتوجه صحبته إلى بغداد ، ويتصل بالناصر يوسف إلى تهيئته من ذلك ، فلم يتهيأ له . وسار الناصر مع البادرائى إلى قرقيسيا فأخره بها ليشاور عليه ، فلم يؤذن له ، وطال مقامه ، فسار إلى البرية وقصد تيه بنى إسرائيل ، وأقام مع عرب تلك البلاد .

ذكر وفاته

ولما بلغ المغيث فتح الدين عمر صاحب الكرك فصوله إلى التيه خشى منه ، فأرسل

---

(١) هو الإمام العلامة أبو محمد عبد الله بن محمد بن الحسن البادرانى ، كان رسول عن الخليفة العباسى إلى ملوك الشام ومصر ، مات سنة ٦٥٥ هـ انظر . النجوم الزاهرة ٥٧/٧ .

(٢) إضافة من ذيل مرآة الزمان ١٧٣/١ .

فقبض عليه ، وحمله إلى الشوبك ، وأمر بحفر مطمورة ليحبسه فيها ، وبقى الناصر ممسكاً والمطمورة تحفر قدامه ليحبس فيها ، فبينما هم على ذلك الحال ، إذ ورد رسول الخليفة يطلبه لما قصده التتر لتقدمه على بعض العساكر لملتقى التتر ، فلما ورد رسول الخليفة إلى دمشق جهزه الناصر يوسف إلى الكرك ، فوصل الرسول قبل أن تتم المطمورة ، فأخذه وسار إلى جهة الشام ، فبلغ الرسل استيلاء التتر على بغداد وقتل الخليفة ، فتركه الرسول ومضى لشأنه ، فسار الناصر إلى البويضاء ، قرية شرقى دمشق وأقام بها ، ولحق الناس فى تلك المدة طاعون ، مات فيه الناصر ، ليلة السبت سادس عشرين جمادى الأولى ، سنة ست وخمسين وستمائة ، وخرج الناصر يوسف إلى البيضاء ، وأظهر عليه الحزن والتأسف ، ونقله فدفنه بتربة والده المعظم .

وكان الناصر داود فاضلاً ناظماً ناثراً ، قرأ العلوم العقلية على الخسروشاهى[1] تلميذ الامام (الرازى) .

قال جامعه : وذلك هو السبب فى حصول ما قاساه من الشدائد وهيهات مع حرفة الأدب حصول الأرب :

لا غرو أن تجنى على فضائلى ... سبب احتراق المندلى دخانه[2]

انتهى . وله أشعار جيدة تقدم ذكر بعضها ، شعره مدون ومنه[3] :

عيون عن السحر المبين تُبين ... لها عند تحريك القلوب سكون
تصول ببيض وهى سود فرندها ... ذبول فتر والجفون جفون (٩٦ب)

---

(١) هو الفقيه والمحدث عبد الحميد عيسى الخسروشاهى صاحب الفخر الرازى ، مكث عند الناصر داود عدة سنين ، ومات سنة ٦٥٢ هـ.

انظر : النجوم الزاهرة ٣٢/٧ ، طبقات الشافعية ٦/٥ ، فوات الوفيات ٢٢٧/٢ .

(٢) ورد البيت فى وفيات الأعيان ١٣٧/١ .

(٣) وردت الأبيات فى تاريخ ابن الوردى ٢٨٤/٢ ، ذيل مرآة الزمان ١٥٢/١ .

إذا ما رأت قلباً خلياً من الهوى — تقول له : كن مغرماً فيكون

وله(١) :

طرفي وقلبي قاتل وشهيد — ودمي على خديك منه شهود

أما وحبك لست أضمر سلوة — عن صبوتي ودع الفؤاد يبيد

مني بطيفك بعدما منع الكرى — عن ناظري البعد والتسهيد

ومن العجائب أن - قلبك لم يلن — لي والحديد ألانه داود

ومما كتب إلى الشيخ عز الدين بن عبد السلام لما أغارت الفرنج على نابلس أيام الصالح

ألا ليت(٢) أمي أيم طول عُمرها — فلم يقضها ربي لمولى لا بعل

وياليتها لما قضاها لسيدٍ — أريب لبيب طيب الفرع الأصل

قضاها من اللاتي خلقن عواقراً — فما بشرت يوماً بأنثى ولا فحل

وياليتها لما غدت بي حاملاً — أصيبت بما احتلت عليه من الحمل

وياليتني لما ولدت وأصبحت — تشد إلى الشدقميات بالرحل

لحقت بأسلافي فكنت ضجيعهم — لم أر في الإسلام ما فيه من خل

ومنهم الملك القاهر(٣)

عبد الملك بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، الملك القاهر ، بهاء الدين بن المعظم بن العادل . توفي سنة ست وسبعين وستمائة ، سببه أن القمر انكسف كسوفاً كلياً على زمن الظاهر بيبرس(٤) وشاع بين الناس أن ذلك لموت جليل القدر ، فأراد الظاهر أن

---

(١) وردت الأبيات في المختصر ١٩٦/٣ ، شذرات الذهب ٢٧٥/٥ .

(٢) وردت الأبيات في المختصر ١٩٦/٣ ، تاريخ ابن الوردي ٢٨٣/٢ ، صبح الأعشى ١٧٥/٤ .

(٣) انظر : ذيل مرآة الزمان ٢٧٢/٣ ، النجوم الزاهرة ٢٧٨/٧ ، تاريخ ابن الوردي ١٥٣/٧ .

(٤) انظر : فوات الوفيات ٢٣٥/١ ، النجوم الزاهرة ٩٤/٧ .

يصرف عنه التأويل إلى غيره ، فاستدعى القاهر ، وكان يسكن البر ، وتزوج من العرب ، وأقام بينهم ، يسير حيث ساروا ، وينزل حيث نزلوا ، وإذا غزوا غزا معهم ، فحضر من الغزاة إلى دمشق ، فأحضره الظاهر ، وأمر الساقى أن يسقيه كأس قمز[1] مسموماً ، فسقاه الكأس، فمات ، وغلط الساقى لاصابة المقدور ، وملأ على أثر الكأس المذكور وأداره ـ والدائرات تدور فوقع فى نوبة الظاهر ، فشربه فأحس بالنيران ، فكتم أمره عن الأطباء ، وأخفى حاله من الأحباء ، ومكث أياماً يشكو الليل والنهار ، توقد وهج النار ، ثم اضطر إلى اضطلاع الطبيب بعد استحكام دائه ، طمعاً فى دوائه ، فلم ينفع العلاج (٩٧ أ) ولا نهض التدبير بإصلاح المزاج ، وتوفى فى السنة المذكورة .

قال جامعه : ويشبه هذا أن أعداء المستنصر باطنوا الحكيم على قتمله ففصده بمبضع مسموم ، ثم جاء الطبيب إلى بيته فحصل له صداع ، فأمر بعض تلاميذه بفصده ، ففصده بذلك المبضع المسموم ، وقريب منه أن المتوكل سمع بسيف فى اليمن ، فبعث (من) اشتراه بعشرة آلاف دينار، وأعطاه بعض مماليكه ، فقتله ذلك المملوك بذلك السيف ، فأعجب لشخص ابتاع موته بماله ، واجتهد فى تحصيل منيته بجاهه ورجاله ، فكان كالباحث عن حتفه بظلفه ، والجادع مارن أنفه بكفه .

إذا لم يكن عـون من الله للفـتى فأكـثر ما يجنى عليه اجتهاده

وقال جامعه أيضاً : علم بالاستقراء أن من اسمه القاهر لا يفلح وذلك لمشاركة البارى تعالى فى الصفة التى لا تليق إلا له ، انتهى .

وأم القاهر تركية ، وخلف أولاداً ذكوراً وعدة بنات ، منهم زوجة خوارزم شاه ولم يتفق حملها إليه .

---

(١) نوع من الخمور .

ومنهم ولد صغير للمعظم عيسى[1]

ابن العادل بن أبى بكر بن أيوب شاذى مات فى حياته ، ومنهن تسع بنات، وقيل : إحدى عشرة للمعظم عيسى بن العادل بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى .

ومنهم الظاهر أيوب[2]

ابن عثمان بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك الظاهر ، نجم الدين ابن العزيز ابن العادل ، ولى الصُّبيبة بعد وفاة أبيه سنة ثلاثين وستمائة ، ثم توفى فى سنته .

ومنهم الملك السعيد[3]

(حسن) بن عثمان بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك السعيد بن العزيز بن العادل . ملك الصُّبيبة بعد موت أخيه أيوب فى سنة ثلاثين وستمائة وهب الصُّبيبة للصالح أيوب ، وصار فى خدمته ، فلما توفى الصالح ، رحل من مصر ، ومر على غزة وأخذ ما فيها من المال ، وذلك سنة ثمان وأربعين ، وتسلم الصبيبة ، فلما ملك التتر الشام سنة ثمان وخمسين (وستمائة) سلمها إليهم وصار معهم ، وأعلن بالفسق سفك الدماء ، ولم يزل معهم حتى هزمهم المظفر قطز[4] وأحضر السعيد بين يديه ، فضربت عنقه فى سنة ثمان وخمسين وستمائة .

---

(١) لم نعثر له على ذكر أو ترجمة .

(٢) لم نعثر له على ذكر أو ترجمة .

(٣) انظر : البداية والنهاية ٢٢٥/١٣ ، شذرات الذهب ٢٩٢/٥ ، ترويح القلوب ٧١ ، النجوم الزاهرة ٩٢/٧ .

(٤) من مماليك المعز أيبك ، قتل سنة ٦٥٨ هـ . انظر النجوم الزاهرة ٩٣/٧ .

ومنهم ملكة خاتون[1]

بنت موسى بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، بنت الملك الأشرف ابن العادل ، أوصى لها أبوها بجميع الجواهر ، ووقف عليها « دار السعادة » و « بستان النيرب » وتزوجها ابن عمها الجواد يونس بن ممدود ابن العادل ، ثم طلقها وتزجها ابن عمها المنصور ابن الصالح[2] اسماعيل ابن العادل ، هى أم ولديه ، وهى التى أثبت ناصر الدين المقدسى[3] سفهها فى دولة المنصور قلاوون[4] توفيت يوم السبت عاشر (٩٧ب) شعبان سنة اربع وتسعين ستمائة .

ومنهم الملك المسعود[5]

يوسف بن محمد بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك المسعود المعروف بآقسيس ، الملقب أطز ، وهو اسم تركى ، صاحب اليمن ، ابن الكامل ابن العادل ، ملك اليمن سنة اثنتى عشرة ، وذلك أن اليمن لما ملكها المعظم سليمان بن شاهنشاه بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب . ملأها ظلماً وجوراً ، فأرسله الكامل وصحبته من الجند ألف ومن الرماة خمسمائة ، وكان العادل قد رتب أولاده فى كل اقليم ، وقصد أن يسير ولده الفائز ابراهيم إلى اليمن ، فقال الصاحب بن شكر للكامل : مصر لك ، وينبغى أن تكون اليمن لك ظهراً، والفائز اخوك كريم ، فاركب إليه وسأله أن يكون ولدك المسعود نائبه بها ، ففعل

---

(١) انظر : البداية والنهاية ٣٤٢/١٣ .

(٢) هو المنصور محمد بن إسماعيل بن أبى بكر ، مات بدمشق سنة ٦٨٨ هـ .

(٣) انظر : الدارس ٢٧٠/١ .

(٤) هو قلاوون بن عبد الله السابع من ملوك الترك بالديار المصرية ، مات سنة ٦٨٩ هـ .

(٥) انظر : فوات الوفيات ٢٠٣/٣ ، النجوم الزاهرة ٢٩٢/٧ ، السلوك ٦٦٣/١ .

الكامل ، وأجابه الفائز ، ودخل المسعود مكة ثالث ذى الحجة ، سنة إحدى عشرة (وستمائة) ، وحج ، وخطب له بمكة ، ونثر على الناس ألف دينار ، وحمل إلى أمير مكة ألف دينار ، وقماشاً بألف دينار ، وأقام بمكة ستة أشهر ، ووصل الخبر إلى المعظم فهرب من زبيد ، ودخلها المسعود أول يوم من محرم ، سنة اثنتى عشرة بغير قتال ، وقيل : بل ملكها سنة إحدى عشرة ، فقال بعض الشعراء من قصيد :

ليهنك الفتح يا ذا الفضل والمنن بشارة الملك قد جاءت من اليمن
فالآن من لفظ مسعود ومن يمن فالسعد واليمن مقروناً فى قرن

وسلم له ثمانون حصناً ، ثم حاصر قلعة تعز[1] ، وكان سليمان (قد) تحصن بها ، ففتحها واعتقل سليمان بالقلعة ، وقيل : بل بعث به إلى مصر .

وكان المسعود جباراً فاتكاً . قيل : إنه قتل باليمن ثمانمائة شريف . وحج بالناس من اليمن سنة تسع عشرة ، فجاء هو وأصحابه إلى الجبل ملبين ، ومنع عسكر الخليفة أن يتقدم ، وبقيت الكوسات[2] تضرب إلى الغروب ، وجرت منه فى تلك السنة سقطات عظيمة ، قال بعضهم : رأيته قد صعد على قبة زمزم وهو يرمى الحمام بالبندق[3] . قال : ورأيت غلمانه بالمسعى يضربون الناس بالسيف فى أرجلهم ، يقولون : اسعوا قليلاً قليلاً فإن السلطان نائم سكران ، والدم يجرى من سيقان الناس ، وعاد إلى اليمن ، ثم رجع إلى مكة سنة عشرين ، فقاتله صاحبها حسن بن قتادة ، فانتصر المسعود وملك مكة فى ربيع الأول .

وفى سنة إحدى وعشرين ، وقيل : ثلاث ، قدم على أبيه (٩٨ أ) فى مصر ، وما جاء إلا طمعاً فى الشام ، وكان معه من الهدايا شئ عظيم ، من جملة ذلك : ثلاثة أفيلة ، أحدهم كبير يدعى الملك ، عليه محفة تسع عشرة أنفس ، خرج الكامل للقائه ، فلما رأته

---

(١) قلعة كبيرة فى اليمن . انظر : معجم البلدان ٣٤/٢٠ .
(٢) صنوجات من النحاس . انظر : صبح الأعشى ٩/٤ .
(٣) كرات تصنع من الحجارة والطين والرصاص .

الفيلة وضعت رؤوسها على الأرض ، وكان في الهدية مائتا خادم ، وأحمال عود مسك وتحف اليمن ، وفي ذلك يقول البهاء زهير[1] :

لكم أينما كنتم مكان وإمكان ... وملك له تعنوا الملوك وسلطان
ضربتم من العز المنيع سرادقاً ... وأنتم له بين السماكين سُكان

ومنها :

قدمت قدوم الليث ، والليث باسل ... وجئت مجيء الغيث والغيث هتان
ما برحت مصر إليك مشوقة ... ومثلك من يشتاق لقياه بُلدان
فحسبك قد وافاك يا مصر يوسف ... وحسبك قد وافاك يا نيل طوفان[2]

وفي سنة خمس وعشرين بلغه موت عمه المعظم ، فتجهز جهازاً لم يسبقه إليه أحد ، ونادى : من أراد صحبة السلطان فليتجهز ، فجاء التجار من الهند بأموال الدنيا ، فلما تكاملت المراكب بزبيد ، جمع التجار وقال : اكتبوا لي بضاعتكم لأحميها من الزكاة، فكتبها وصار يكتب برأس مال التجار إلى بعض بلاد اليمن ، فاستغاثوا ، وقالوا : نحن من بلدان شتى ولنا مدة عن أهلنا ، فخذ أموالنا وأطلقنا ، فلم يلتفت إليهم ، فقيل : إن ثقله كان في خمسمائة مركب ومعه ألف خادم ومائة قنطار عنبر وعود ومسك ومائة ألف ثوب ومائة صندوق أموال ، فلما وصل بعض الطرق مرض مرضاً مزمناً ، وما وصل مكة حتى يبست أعضاؤه ، ورأى في نفسه العبر ، وبعث لما احتضر إلى رجل مربي فقال : والله ما أرضى لنفسي كفناً مما معي فتصدق على بكفن ، فبعث إليه نصفيتين ومائتي درهم . مات سنة ست وعشرين وستمائة ودفن بالمعلى[3] وحكى : إن الهواء رد المراكب إلى زبيد ،

---

(١) انظر : وفيات الأعيان ٨٦/٢ .

(٢) ورد في ديوان البهاء زهير ٣٣٠ .

(٣) قال ابن خلكان : ٨٤/٥ ، كان أوصى أنه لا يبنى على قبره شيء ، بل دفن في جانب المعلى جبانة مكة .

فأخذها أصحابها ، وسر والده بموته ولم يسأل خازنداره[1] كيف مات ، بل قال : كم معك من المال ؟ وقيل : إنه مرض باليمن بكرة المقام بها ووصل الخبر إلى الده وهو فى حصار دمشق فجلس للعزاء ، وكان المسعود ذا بأس وهيبة ، وكان أبوه يخاف منه على إخوته وكان سنة ستاً وعشرين سنة لأن مولده سنة ستمائة ، وملكه لليمن أربع عشرة سنة ، وخلف ولداً صغيراً فسماه الكامل باسمه ولقبه بلقبه المسعود يوسف (٩٨ب) .

ومنهم الملك العادل[2]

أبو بكر بن محمد بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك العادل ، صاحب مصر ، ابن الصالح ابن الكامل ابن العادل ، وهو أصغر من أخيه الصالح ، وكان الصالح هو ولى العهد ، فبلغ أباه فى سنة ست وعشرين ، لما سافر إلى الشرق ، أنه عزم على التغلب على الملك ، فنفر منه وأبعده إلى الشرق ، وعهد إلى العادل ، فقال فى ذلك معين الدين :

أقام علينا منه نعم خليفة ولا عجب كون الخليفة فى مصر
ولا غرو أيضا أن يقيم محمد خليفته بين العباد أبا بكر

وتملك العادل مصر بعد أبيه فى سنة خمس وثلاثين وله عشرون (سنة) فقال البرهان ابن الفقيه نصر :

قل للذى خاف من مصر وقد أمنت ماذا تألمه فيها وخيفته
إن كان قد مات عن مصر محمدها فقد أقام أبا بكر خليفته

---

(١) الخازندار : متولى الخزانة . صبح الأعشى : ٤٦٣/٥ .

(٢) ترجمته فى السلوك ٣٢٧/١، كنز الدرر ٣٦٣/٧ ، مختصر أبى الفداء ١٧٦/٣ ، ابن الوردى ٢٥٥/٢ ، ترويح القلوب ٧٩ ، شذرات ٢٣٦/٥ .

ولما جلس في السلطنة حط المكوس ، ووسع على الناس في الأرزاق ، وزاد الاقطاعات ، وكان يعاني اللهو واللعب ، وقدم من لا يصلح ممن هو على طريقه ، ويعرض عن الأكابر ، فنفروا منه ، ومالوا إلى أخيه ، وكاتبوه ، فزحف إلى مصر ، فلما سمع العادل زحف إلى بلبيس في سنة سبع وثلاثين ، فبلغه أن الأمراء قصدوا القبض عليه ، وقرروا أن كل واحد من الأمراء يعمل دعوة ، فشرعوا في ذلك ، فحضر عند بعضهم ، فرأى ما أنكره ، فقام إلى الخلاء ، على أن يقضي حاجة ، فخرج من الخيمة لوقته ، وساق إلى القلعة ، وأبطأ ، فعلم الأمراء حاله ، فعادوا إليه ، فقال : ما عدت إلا لاخلق المقياس وأعود . وجرت أمور نذكرها في ترجمة أخيه . ثم قرب الصالح من مصر ، فخرج ثانياً ، فوثبوا عليه واعتقلوه في خيمة وكتبوا إلى أخيه يستحثونه ، فقدم ملك مصر ، ثامن ذى الحجة سنة سبع وثلاثين ، وحبس العادل ثمانين ثم قتله ، فما عاش بعده إلا سنة وعشرة أشهر . وذلك أنه في خامس شوال سنة خمس وأربعين جهز أخاه مع نسائه إلى الشوبك ، فقال : إن أردتم قتلى في الشوبك فهنا أولى ، ولا أروح أبداً ، فلامه الطواشي محسن ، فرماه العادل بدواه ، فخرج وعرف الصالح ، فقال : دبر أمره (٩٩ أ) فأخذ ثلاثة مماليك ، ودخلوا عليه ليلة الاثنين ثاني عشر شوال ، سنة خمس وأربعين وستمائة ، فخنقه بوتر ، قيل : بشاش ، وعلق به ، وأظهر أنه شنق نفسه ، وأخرج جنازته مثل الغرباء ، ودفن بتربة شمس الدولة . وعاش إحدى وثلاثين سنة ، ودولته سنتان وأيام ، أيامه أيام لهو وفرح ومكاسب كبيرة . وله من الأولاد المفيد عمر

ومنهم الملك الصالح[1]

أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك الصالح ، نجم الدين ابن

---

(١) انظر : شذرات الذهب ٥/٢٣٧ ، النجوم الزاهرة ٦/٣٦١ ، المقريزى ٢/٢٣٦ ، بدائع الزهور ١/٨٣، تاريخ ابن الوردى ٢/٢٦٠ ، ذيل الروضتين ١٨٣ .

الكامل بن العادل صاحب مصر ، ولد بالقاهرة سنة ثلاث وستمائة وأمه جارية سوداء اسمها ورد المنى ، ونشأ بالقاهرة ، واستنابه أبوه على مصر سنة خمس وعشرين ، ثم انتقد عليه أموراً ، ومال إلى ولده العادل ، فلما استولى على حران والحصن وآمد وسنجار أرسله إليها .

وفى سنة أربع وثلاثين استأذن أباه فى استخدام الخوارزمية ، عسكر جلال الدين خوارزم شاه ، فأذن له ، ثم خرجوا عن طاعته بعد وفاة أبيه ، فى سنة خمس ثلاثين ، ونهبوا البلاد ، وسار لؤلؤ[1] ـ صاحب الموصل ـ فى هذه السنة وحاصر الصالح بسنجار ، حتى أشرف على أخذها ، فأخرج الصالح من السور القاضى السنجارى[2] ، وراح إلى الخوارزمية فوعدهم ببذل لهم الرها وحران ، فعادوا إلى طاعته ، ودفعوا لؤلؤاً عن سنجار ، وقيل : كسروه ، فانهزم هزيمة قبيحة ، وغنم الصالح شيئاً كثيراً .

كان الجواد يونس بن ممدود ابن العادل بن أبى بكر بن أيوب بدمشق ، فضعف عن سلطتها ، وأرسل إليه العادل ابن الكامل لينتزع دمشق منه ويعوضه إقطاعاً بمصر ، فامتنع ، فأراد العادل القبض عليه ، فكاتب الصالح ، واتفق معه على أن يعطيه سنجار والرقة وعانة بدمشق ، فسار الصالح وطلب نجدة من صاحب الموصل بعد أن صالحه ، فبعث إلى نجدة ، فوصل دمشق فى جمادى الآخرة ، وقيل : غرة جمادى الأولى سنة ست وثلاثين ، ومعه المظفر ـ صاحب حماة ـ معاضداً له ، وكان قد لاقاه أثناء الطريق فزينت دمشق ، وتلقاه ابن عمه الجواد ، وحمل الغاشية ، واتفق أن سنجق[3] الصالح انكسر عند باب القلعة ، ثم تحول الجواد إلى دار السعادة ، فكان ملكه لدمشق عشرة أشهر ، ثم ندم وطلب جماعة واستمالهم ، فأتاه المظفر وعاتبه ، وضمن ما شرطه الصالح ، فخرج الجواد واجتمع الخلق على باب النصر يدعون عليه يسبونه ، وكان قد صادر الناس وضربهم .

---

(١) الملك الرحيم بدر الدين الأتابكى لؤلؤ بن عبد الله النورى ، مات سنة ٦٥٧ هـ . انظر النجوم الزاهرة ٧٠/٧ .

(٢) بدر الدين يوسف بن الحسن السنجارى المتوفى سنة ٦٦٣ هـ . النجوم الزاهرة ٢١٩/٧ .

(٣) السنجق : لفظ تركى يطلق فى الأصل على الرمح ، ثم أريد به الراية التى تربط به ، والجمع : سناجق. صبح الأعشى ٥٠٨/٤ ـ ٤٥٦ .

يقال : إنه أخذ منهم ستمائة ألف درهم ، وأرسل إليه الصالح ليعطى الناس (٩٩ ب) أموالهم فما التفت ، وسار فتسلم بلاده ، فعند ذلك أخرب صاحب حمص سلمية ونقل أهلها إلى حمص أذى لصاحب حماة ، فلما مات صاحب حمص رد أهلها عمروها ، واتفق المظفر مع الخوارزمية ، ونازل حمص ، فبذل المجاهد للخوارزمية أموالاً ، فردهم ، وعرف المظفر فخاف منهم ، وعاد إلى حماة ، ثم تواترت كتب المظفر بقصد حمص ، فبرز إلى ثنية العُقاب[1] لقصد حمص ، ثم عاد إلى دمشق ، ووردت كتب ابن عمه الناصر داود بموآزرته بشرط أن تكون دمشق للناصر ، فأجابه ، ووردت عليه كتب المصريين تستدعيه وقدم عليه عمه الصالح إسماعيل من بعلبك ، فحلف له ، وعاد من يومه ، وانزعج العادل بمصر ، وسار الصالح إلى خربة اللصوص ، وعيد بها عيد الفطر ، وجاء الأمراء من مصر مقفزين ، فنزلوا غزة ، وكان مع الصالح عماه بحير الدين يعقوب تقى الدين سليمان ، استخلف بدمشق ولده المغيث عمر ، ولما لم يقع بين الناصر والصالح اتفاق ذهب إلى العادل بمصر ، فتلقاه العادل، وعده دمشق ، سار الصالح نحو نابلس ، تواترت كتب الأمراء يستدعونه ، لأنه أميز من أخيه ، وأخلق للملك ، وممن كاتبه فخر الدين ابن الشيخ ، فعلم به العادل فحبسه ، واستعمل الصالح نوابه على الأعمال إلى العريش ، وقدم محيى الدين بن الجوزى ليصلح بين الأخوين ، وأرسل الصالح إلى عمه الصالح ليمضى معه إلى مصر ، فتعلل واعتذر ، سير إليه ولده المنصور، ووعده فى المجىء ، وهو فى الباطن عمال على أخذ دمشق .

ودخلت سنة سبع وثلاثين فبرز العادل إلى بلبيس ، تردد ابن الجوزى فى الاصلاح بينهما ، حتى تقارب ما بينهما لولا أن الصالح اسماعيل كان يكاتب العادل يقوى عزمه ، ويقول : أنا آخذ دمشق نائباً لك ، ثم أرسل يطلب ولده المنصور ، ليستخلفه ببعلبك . أما صاحب حماة فاشفق على الصالح أيوب ، وتحيل فى إرسال عسكر إلى دمشق ليحفظها له ، فجهز نائبه ابن أبى على ، ومعه من السلاح والمال شىء كثير ليصل إلى دمشق ، وأظهر

---

(١) مكان على مشرفة على غوطة دمشق . انظر : معجم البلدان ٨٥/٢ .

المظفر ابن أبي على أنهما قد اختصما ، وأن ابن أبي على قد غضب ، واجتمعت معه هذه الجماعة ، وقد قصدوا فراق حماة لأنه يريد أن يسلم حماة للفرغ ، كل ذلك خوفاً من شيركوه صاحب حمص ، وقوى المظفر الوهم بأن استخدم جماعة من الفرغ بالقلعة ، وقوى خوف الرعية ، تبع ابن أبي على خلق كبير ، وسار وراءه المظفر فلم تخف عن (١٠٠ أ) شيركوه الحيلة ، فلما نزل ابن أبي على حمص تلقاه شيركوه ، وأظهر أنه مصدقه ، سأله الدخول ليضيفه ، فأخذ ابن أبي على معه ، وأرسل من استدعى باقى أصحابه ، فمنهم من سمع فدخل ، ومنهم من هرب فسلم ، ثم قبض عليهم ، واعتقل الأكابر وصادرهم ، حتى هلك بعضهم في الحبس ، وباعوا أملاكهم ، وأدوها فى المصادرة ومات ابن أبي على فى السجن بعد أن قاسى شدائد ، وضعف أمر صاحب حماة ضعفاً كبيراً ، وبلغ الصالح سعى عمه فى الباطن ، وكان له طبيب يثق به ، فأرسله إلى بعلبك ، ومعه حمام نابلس ليطالعه بأخبار الصالح اسماعيل ، وحال وصول الحكيم علم صاحب بعلبك فاستحضره وأكرمه ، وسرق الحمام التى لنابلس ، وجعل موضعها حمام بعلبك ، ولم يشعر الطبيب بذلك، فصار الحكيم يكتب : أن عمك قد جمع وهو فى نية قصد دمشق ، ويطلق الطير فتقعد ببعلبك ، فيأخذ اسماعيل البطاقة ويكتب تزويرا على الحكيم أن عمك قد جمع ليعاضدك وهو واصل إليك ، ويسرح الحمام التى لنابلس ، فيعتمد ايوب على بطاقة الحكيم ويترك بقية الأخبار .

ذكر ملك الصالح اسماعيل دمشق وما جرى للصالح أيوب

كان الصالح أيوب بنابلس ينتظر عمه ، فاغتنم صاحب حمص غيبته ، وسار هو وصاحب بعلبك ، فصبحوا دمشق يوم الثلاثاء سابع عشرين صفر سنة سبع وثلاثين وأخذت بلا قتال ، بل تسلق جماعة السور وكسروا باب الفراديس[1] ، فدخلوا ، ثم قصدوا القلعة ،

(١) الفراديس : هى بلغة الروم البستان ، وهى أحد أبواب دمشق . نزهة الأنام فى محاسن الشام ص ٢٥ .

وقاتلوا المغيث ثلاثة أيام ، فسلمت بالأمان ، ودخل الصالح اسماعيل القلعة وسجن المغيث إلى أن مات . فلما بلغ عسكر الصالح أيوب أخذ دمشق فارقوه ، وترحل هو إلى بيسان ، وفسدت نيات من معه ، وعلموا أنهم لا ملجأ لهم ، وقالوا له حتى أعمامه : لا يمكننا المقام معك وأهلونا بدمشق ، فأذن لهم ، فرحلوا ، وهو ينظر إليهم ولم يبق إلا استاد داره وجماعة يسيرة، فلما جنه الليل أمر ألا تُشعل الفوانيس ، ورحل فى الليل ، ورد إلى جهة نابلس ، فلما رحل من منزلته اختلفت كلمة من بقى معه ، فأشار بعضهم بالتحصن بالشقيف ، فلم يره مصلحة ، وأشار بعضهم بالشرق ، فخاف أن يؤخذ لبعد المسافة ، وقال : ما أرى إلا أن التجئ إلى ابن عمي الناصر ، فتوجه إلى نابلس ، فلما طلعت الشمس ورأى مماليكه ما هو عليه من القلة بكوا ، واعترضتهم جماعة من العرب ، فقاتلهم وانتصر عليهم أما الناصر داود فإن العادل استوحش منه فرد إلى الكرك ، فوافق ما ثم على الصالح فوعده النصر (١٠٠ ب) وأشار عليه بالنزول بدار المعظم بنابلس ، وقوى أمر الصالح اسماعيل وجاءته الأمراء ، ثم ضرب يوماً الناصر البوق وأوهم أن الفرنج قد أغاروا ، فركب معه جماعة الصالح ، فأمر حينئذ بتسيير الصالح إلى الكرك فى الليل ، فلم يصحبه من غلمانه سوى بيبرس الكبير والبهاء زهير ، وبعث معه جاريته شجر الدر ، فأنزل بدار السلطنة بقلعة الكرك ، وتقدم الناصر إلى أمه وزوجته وأولاده بخدمة الصالح ، وخير أصحابه بين المقام مُكرمين وبين السفر حيث شاءوا ، فاختاروا السفر ، وبعث إليه يقول : إنما فعلت ذلك احتياطاً ، لئلا يصل إليك مكروه ، لم يفقد شيئاً من الإكرام . ذكر ذلك ابن اصل ،قال غيره : إن الظهير دخل على الصالح بنابلس فقال : ابن عمك له بك اجتماع ، وأخذ سيفه ، وكانت جاريته حاملاً فأسقطت ، توجهوا به إلى الكرك ، قال الصالح : أركبونى بغلة بغير مهماز[1] ولا مقرعة[2] ، وساروا بى فى البرية ثلاثة أيام ، ما كلمت أحداً منهم كلمة ،

---

(١) المهماز : حديدة تكون فى مؤخرة خف الراكب .

(٢) المقرعة : خشبة تُضرب بها البغال والحمير .

ولا أكلت طعاماً، حتى جاء خطيب بلدٍ ومعه ثردة بدجاجة فأكلتها ، وأقاموا يومين ولا أعلم إيش كان المقصود منى ، فإذا بهم يريدون طالعاً نحساً ، يقتضى ألا أخرج من الكرك ، ثم أدخلونى الكرك ليلاً على الطالع الذى كان سبب سعادتى ونحوسهم ، ووكل بى مملك فظ غليظ يقال له : زُريق ، فكان أضر على من كل ما جرى على ، فأقمت عندهم إلى رمضان ، سبعة أشهر . واتفق أنه كان عندى خادم صغير ، بال ليلة على البساط ، فأخذت البساط بيدى وقمت إلى الدهليز ، وفى الدهليز ثمانون رجلاً يحفظوننى ، وقلت : يامقدمون هذا الخادم قد أتلف هذا البساط ، بالله اغسله ، فنفر فى زُريق ، قال : إيش جاء بك إلى هنا ! وصاحوا بى ، فعدت إلى موضعى .

ولما بلغ العادل ما جرى على أخيه أظهر الفرح ، ودقت البشائر ، وزينت مصر شهراً ، فما رأى الناس أطيب من تلك الأيام ولا أكثر لهواً وعملت والدة العادل وليمة عظيمة تحت القلعة ، عمل فيها ألف رأس غنم . وبعث العادل يطلبه من الناصر ويعطيه مائة ألف دينار ، وكذلك صاحب الشام ، صاحب حمص ، فأبى .

ذكر خروج الصالح من الحبس وملكه مصر فى سنة سبع وثلاثين

لما أرسل أخوه وعمه يطلبانه من الناصر ، امتنع ، وطلبه من الكرك ، فنزل إليه إلى نابلس فى آخر رمضان ، فضرب له دهليزاً ، واجتمعت عليه مماليكه ، وخطب له ، ثم سار إلى القدس (١٠١ أ) وتحالفا وتعاقدا عند الصخرة ، أن تكون مصر للصالح ، والشام والشرق للناصر. فإن الصالح : حلفنى على شىء ما تقدر عليه ملوك الأرض ، وهو أن آخذ له دمشق وحمص وحماة وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر ونصف ديار مصر ونصف ما فى الخزائن من المال ، فحلفت من تحت السيف . ثم سار إلى غزة ، ولما سمع الملوك بذلك رموا الناصر عن قوس واحدة ، وعزموا على قصده ، وأول من برز (اليه) العادل من

مصر ، وخرج اسماعيل من دمشق ، ثم خاف الناصر الصالح من جيش يلقاهما ، وجيش خلفهما ، فرجعا إلى القدس ، فما لبث أن جاء النجابون بكتب المصريين يستحثون الصالح فقويت نفسه ، وسار مجداً ، واختلف العسكر على العادل ، فقبض عليه كما حكينا فى ترجمته . ووصل الصالح إلى بلبيس ، ونزل خيمة أخيه وتسلمه وصعد القلعة بكرة الأحد رابع عشرين ذى القعدة ، وزينت البلد ، وفرح الناس به ، لا سيما صاحب حماة ، فإنه ما زال على ولائه ، حتى إنه لما أمسك بالكرك كان يخطب له ، وهو بالحبس ، ونزل الناصر دار الوزارة وهنأ الصالح الشعراء ، فمنه قول جمال الدين الخشاب :

خذوا أحاديث ملك جاد راويها ... وصححوا ما جرى من بحثكم فيها
صح اليقين زال الشك وانكشفت ... سرائر كان صدر الغيب يُخفيها
ما بعد هذا على الأيام معتبة ... غطت محاسنها عندى مساويها
قل للملوك تنحوا عن مراتبكم ... قد جاءكم آخذ الدنيا ومعطيها

لما تملك الصالح استوحش من الناصر . قال الصالح : لما كنا على غزة تغير على الناصر وأراد قتلى ، ولما وصلنا بلبيس شرب وراح إلى العادل وقبل الأرض بين يديه ، وقال : كيف رأيت ما أشرت عليك فلم تقبل ؟ قال : التوبة ، فقال : طيب قلبك ، الساعة أطلقك ، ثم جاء فدخل علينا الخيمة ووقف ، فقلت : باسم الله اجلس فقال : ما أجلس حتى تُطلق العادل ، فقلت : اقعد ، وهو يكرر الحديث ، فنام فما صدقت بنومه ، وقمت فى باقى الليل ، فأخذت العادل فى محفة ودخلت القاهرة ، وبعثت إلى الناصر بعشرين ألف دينار فردها . فلما كان كذلك ، جهز الصالح من أوهم الناصر أن الصالح والناصر اجتمعا على الشراب ، فلما أخذ الشراب من الناصر قال الصالح : لا بد من اخراج العادل فلاطفه الصالح وجعل يناسبه وهو يكرر عليه . وقال له فى أثناء ذلك : لو غسلت رجلى وشربت ماءها (١٠١ب) ما وفيت حقى ، فأمر الصالح المماليك أن يخرجوا فى خدمته ، فنام ليلته ، واستيقظ ، فسأل ما الذى جرى ؟ فحكى له ، فقال : لم يبق لنا مقام بهذه البلاد ، وأمر

بالنجب فشدت ، وعمل عليها اخراج المال ، وهم بالمركوب فوافاه مملوك الصالح ، ومعه عشرة آلاف دينار وعشرة أفراس ، وقال : هذه ضيافتك تأخذها وتمضى ، فركب لوقته ، ومضى على طريق البرية ، ولما أفاق الصالح ندم على عدم القبض عليه . ورجع إلى بلاده فى ذى القعدة ، ثم تحقق الصالح فساد نية الأشرفية ، فأخذ فى تفريقهم ، فأبادهم عن آخرهم ، وأخذ فى شراء المماليك وتقدمهم ، ثم أخذ فى بناء قلعة الجزيرة ، واتخذها مسكناً وأنفق عليها أموالاً عظيمة ، وشيدها فى ثلاثة أعوام ، وانتقل إليها .

ذكر صلح الصالحين وصاحب حمص
فى سنة إحدى وأربعين

وقع الصلح بينهم على أن يُقر كل واحد منهم على بلاده ، وأن تُقام الخطبة لنجم الدين ، وأن يخرج الصالح اسماعيل ولده المغيث ، وأن ينزع من الناصر داود بلاده . فلما تقرر ذلك ركب المغيث وبقى يسير ، ويرجع إلى القلعة ، حتى ترجع نُسخ الأيمان .

قال جلال الدين بن الخلاطى : كنت رسولاً من جهة الصالح اسماعيل ، فورد على كتاب منه وفى طيه : كتاب من نجم الدين إلى الخوارزمية يحثهم على الحركة ، ويعلمهم أنه إنما صالح عمه ليخلص ولده منه ، وأنه باق على عداوته ، ولا بد من أخذ دمشق منه . فرد الصالح اسماعيل المغيث إلى السجن وقطع الخطبة ، وكان (قد) أرسل عسكراً إلى عجلون لحصار الناصر فرده واتفق مع الناصر على عداوة نجم الدين ، وصار الملوك كلهم يداً واحدة ، واعتقلت رسلهم بمصر ، واعتضد صاحب دمشق بالفرنج ، وسلم إليهم طبرية وعسقلان والقدس بما فيها من المزارات . قال ابن واصل : ومررت إذ ذاك بالقدس متوجهاً إلى مصر ورأيت القسوس وقد جعلوا على الصخرة قنانى الخمر للقربان .

ذكر أخذ دمشق من الصالح اساعيل

فى سنة اثنتين وأربعين وصلت الخوارزمية إلى غزة باستدعاء نجم الدين ، ووصل إليهم عدد كبير من العساكر المصرية ، وسار صاحب حمص جريدة إلى عكا واستدعى الفرنج ووعدهم بجزء من مصر ، واجتمعت الفرنج وعسكر الشام وحمص ، والكرك ، ولم يحضر الناصر (داود) والتقى عسكر مصر والخوارزمية بظاهر غزة ، فولى الشاميون منهزمين وتبعهم (١٠٢ أ) عسكر مصر ، فقتلوا خلقاً عظيماً ، واستولى الصالح أيوب على غزة والسواحل والقدس ، ووصلت الأسرى والرءوس إلى مصر ، ودقت البشائر عدة أيام . ثم أرسل الصالح أيوب عسكراً عليهم معين الدين ابن الشيخ ومعه الخوارزمية ، وحاصروا دمشق ، وبها الصالح اسماعيل والمنصور ابراهيم ابن شيركوه . فبعث الصالح وزيره إلى الخليفة ليشفع له عند ابن أخيه فلم يظفر بطائل . واشتد الحصار وذل الصالح لفناء ما عنده من الذخائر ، ولقلة الرجال معه ، وسلم دمشق بالأمان سنة ثلاث وأربعين ، وتسلم معين الدين البلد ، ورحل الصالح إلى بعلبك ، ولما رأت الخوارزمية ذلك صار لهم إدلال عظيم على الصالح أيوب وطمعوا فى الأخبار الجليلة . فلما لم يحصلوا على طائل راسلوا الناصر ، ووافقهم وتزوج منهم وكانت أمه أيضاً منهم ، فاستولى على القدس ونابلس وترك الناحية ، وهرب نواب صاحب مصر ، ثم راسلوا الخوارزمية الصالح إسماعيل ، فسار إليهم ، واتفق الجميع على حرب صاحب مصر ، فقلق لذلك ، ثم خرج بعساكره إلى العباسة ، فجاءه رسول المعتصم بالتشريف .

ذكر منازلة الصالح اسماعيل دمشق وأخذ بعلبك منه

ثم جاء الخوارزمية الصالح اسماعيل ، فنازلوا دمشق سنة ثلاث وأربعين ، وانضم إليهم الناصر داود ، واشتد الحصار وليس بالبلد كبير عسكر . وقام حسام الدين بن أبى على فى

حفظ البلد أتم قيام ، واشتد الغلاء بدمشق حتى مات شخص فى الحبس جوعاً فأكلوه ، وبيع حب الخرنوب بالميزان ليقتاتوا به ، وبلغت الغرارة الفا وخمسمائة درهم ، وكان لشخص دار أعطى فيها قبل هذا عشرة آلاف درهم فأتى فباعها فى الحصار بألف وخمسمائة ، واشترى بها غرارة واحدة .

واتفق أن صاحب حلب اتفق مع صاحب حمص ، وصاروا مع الصالح أيوب ، وقصدوا الخوارزمية فرحلت الخوارزمية عن دمشق ، وساروا نحو الحلبيين ، والتقوا على القصب ، فانهزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة ، تشتت شملهم بعدها ، ودقت البشائر بمصر، وذلك سنة أربع وأربعين . وأما الصالح اسماعيل فاستجار بصاحب حلب الناصر يوسف ، فأرسل إليه الصالح أيوب يطلبه فلم يسلمه الناصر يوسف . وسار ابن أبى على الهذبانى إلى بعلبك فى سنة أربع أربعين وستمائة وحاصرها وتسلمها بالأمان ، وحمل أولاد الصالح اسماعيل إلى الصالح أيوب فاعتقلوه هناك ، ودقت البشائر . قال حسام الدين بن أبى على : لما كنت فى الجب (١٠٢ب) بقلعة بعلبك فى حبس الصالح اسماعيل ، وأنا فى حال قد يئست من الحياة ، لا أفرق بين الليل والنهار ، حدثتنى نفسى يوماً أنى أخرج من الحبس وأرتفع إلى منزلتى عند الصالح أيوب ، وأنه يسيرنى إلى بعلبك وأفتحها ، واحتاط على أولاد الصالح اسماعيل ، وأحملهم معى إلى دمشق ، ثم قلت فى نفسى هذه أمانى كاذبة، فما كان بعد أيام يسيرة إلا قد اتفق لى جميع ما حدثتنى به نفسى .

غير ذلك . وفى سنة أربع وأربعين وستمائة أيضاً سار الصالح إلى دمشق واستناب بمصر ابن أبى على ، ورتب أحوالها ، ودار على خندقها أمر بتعميقه ، فقال سيف الدين :

يا مالك الأرض وما قد حوت ... من عامر الأرض ومعمورها
دمشق أمست بك محروسة ... لما تكفلت بتدبيرها
وكيف يحتاج إلى خندق ... والبحر قد دار على سورها

ووصل إليه صاحب حمص وقدم له شُميميش ، وصاحب حماة ، ثم رجع فى سنة خمس وأربعين ، ومرض فى الطريق . قال حسام الدين : لما ودعنى السلطان قال : إنى مسافر وأخاف أن يعرض لى موت ، وأخى حى ، فإذا مرضت ولو أنه حمى يوم فاعدمه ، وولدى لا يصلح للملك ، ولا تسلم البلاد لأحد من أهلى بل سلمها للخليفة .

وفى سنة ست وأربعين رجع الصالح إلى دمشق ، مع ما هو فيه من الضعف بسبب أخذ صاحب حلب حمص ، فبينما هم فى القتال سمع أن الفرنج قصدوا دمياط ، ثم اصطلحوا على أن تكون حمص بيد الحلبيين . وعاد الصالح إلى القاهرة فى سنة سبع وأربعين فى محفة لا يستطيع الركوب .

ذكر ملك الفرنج دمياط فى سنة سبع وأربعين

جمع ريدافرنس - وهو من أعظم ملوك الفرنج - جموعه ، فكانوا نحو خمسين ألف مقاتل ، وشتى بقبرص ثم سار إلى دمياط ، وقد شحنها الصالح بالذخائر والآلات العظيمة ، وجعل فيها بنى كنانة وهم مشهورون بالشجاعة ، ووصلها الفرنج يوم الجمعة حادى عشر صفر ، وناوشوا المسلمين القتال ، وكان الصالح قد أرسل فخر الدين ابن الشيخ بجماعة كبيرة من العسكر ليكونوا قبالة الفرنج بظاهر دمياط ، فلما وصل الفرنج رحل فخر الدين من البر الغربى إلى الشرقى . ووقع على أهل دمياط الخذلان ، فخرجوا منها طول (١٠٣ أ) الليل على وجوههم حتى لم يبق بها أحد ، فلما أصبح الفرنج تملكوها صفواً بغير قتال مما حوت من الأسلحة . فلما وصلت العساكر وأهل دمياط إلى الصالح وهو بأشمون حنق على بنى كنانة والشجعان الذى كانوا بدمياط فشنقهم جميعاً ، وكان فيهم ابن وأبوه ، فشنق الابن أولاً . ثم رحل ونزل المنصورة ، ووقع النفير العام ، فاجتمع بالمنصورة أمم لا يحصون ، والسلطان يتزايد به المرض .

ذكر وفاة الملك الصالح

وقعت الأكلة فى رجله بدمشق سنة خمس وأربعين ، وحصل له ورم فى ماء بيضه ، ثم فتح ، وحصل منه ناسور . وكان يتجلد ولا يطلع أحداً ، ومات ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة خلت من شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة بالمنصورة فى مقاتلة الفرنج ، ولم يكن له ولد حاضر . لأن ولده توران شاه كا بحصن كيفا ، وولده عمر مات فى حبس الشام ، وولده الخليل توفى طفلاً ، ولم يكن له غيرهم ، ولم يوص الصالح إلى أحد ، فلما توفى أحضرت جاريته شجر الدر فخر الدين ابن الشيخ والطواشى محسناً وعرفتهما موت السلطان . وجمعت الأمراء وقالت : السلطان يأمركم أن تدعوا لولده من بعده ، وللأمير فخر الدين بأتابكيته، وكتب إلى أمراء مصر بذلك ، فحلف الأمراء والأكابر ، وذلك فى العشر الأوسط من شعبان. وكان بعد ذلك تخرج التواقيع وعليها علامة الصالح ، وكان يكتبها خادم اسمه السهيلى ، ولا يشك أحد أنه خط السلطان ، وقيل : بل شجر الدر كانت تكتبه ، وقيل : إن السلطان علم عشرة آلاف علامة قبل موته ليخفوا موته . وأرسلوا قاصداً لاحضار ولده ، لما جرى ذلك شاع بين الناس موت السلطان . ولكن لا يتجاسر أحد أن يتفوه بذلك ، وعلق تابوته بسلاسل إلى أن دُفن بتربته بجانب مدرسته فى سنة ثمان وأربعين وستمائة وعمل له عزاء جديد ، وغلقت مصر والقاهرة ، وكانت مدة ملكه مصر تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوماً ، وعمره نحو أربع وأربعين سنة .

ذكر بعض سيرة الملك الصالح

كان مهيباً ، عالى الهمة ، عفيفاً ، طاهر اللسان والذيل ، شديد الوقار ، كثير الصمت، جمع من المماليك الترك ما لم يجمعه غيره من أهل بيته حتى كان أكثر أمراء عسكره مماليكه ، ورتب جماعة منهم حول دهليزه وسماهم « البحرية » وكان لا يجسر أحد

أن يخاطبه ، ولا يتكلم ابتداء بحضرته ولا يستقل (١٠٣ب) أحد من أهل دولته بأمر من الأمور إلا بعد مشاورته وكان إذا شاهده الترك يرتعدون مخافة منه ، ولم يقع له فى حال غضبه قط كلمة هُجر ، وأكثر ما يشتم : يا متخلف ، وكان كثير الجماع لجواريه فقط ولم يكن عنده فى آخر عمره إلا زوجتين : جاريته شجر الدُّر ، والأخرى بنت العالمة وكان إذا سمع الغناء لا يتحرك ولا يتزعزع وكذلك الحاضرون كأنما على رءوسهم الطير ، وكان يحب أهل الفضل والدين ، وما كان له ميل فى مطالعة الكتب ، وكان لا يجتمع بالفضلاء لأنه لم تكن له شاركة بخلاف أبيه وابنه ، وكان اجتماعه بالناس قليلاً ، بل كان يقتصر على ندمائه المعروفين بحضور الشراب ، وقال بعضهم : إنه كان فصيحاً حسن المحاورة . وكان شديد الحياء لا يرفع رأسه إلى من يكلمه حياء ، وكان إذا حبس إنساناً نسيه ، ولا يتجاسر أحد أن يخاطبه فيه ، وكان يحلف أنه ما قتل أحداً بغير حق قط ، وهذه مكابرة ، فلو لم يكن إلا قتل أخيه العادل لكفى .

ذكر ما بنى من الأماكن

كان مائلاً إلى العمارة واتخاذ الأبنية ، بنى « قلعة الجزيرة » التى فى وسط النيل و «مناظر اللوق » على جانب البحر و « الميدان » الذى إلى جانبها و « الكبش » وهو القصر الذى بين مصر القاهرة مطلاً على بركة النيل ، « الصالحية » وهى بليدة بالسائح ، وبنى بالعلاقمة[1] وشنطوف وغيرها مناظر وقصور .كان يتردد إليها للنزهة ، وبنى المدارس الصالحية بين القصرين .

ومنهم غازية خاتون[2]

بنت محمد بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الصاحبة بنت الملك الكامل ابن العادل

---

(١) مكان فى أرض مصر . انظر معجم البلدان ١٤٥/٤ .

(٢) انظر : تاريخ الوردى ٢٨٥/٢ ، النجوم الزاهرة ٥٧/٧ ، ذيل مرآة الزمان ٧٥/١ ، المختصر ١٩٦/٣.

، تزوجها ابن ابن ابن عم أبيها المظفر محمود ابن المنصور محمد بن المظفر عمر ابن شاهنشاه ابن أيوب سنة ست وعشرين وستمائة ، وكان متمنياً ذلك دائماً ، وسنذكر ذلك في ترجمته.

ولما سافر أبوها الكامل إلى الشام حملها معه ، هى واختها فاطمة زوجة العزيز صاحب حلب ، وأهداها إلى زوجها ذلك سنة تسع وعشرين ستمائة ، ومما هنئ به المظفر قصيدة أولها[1] :

هناء لياليه حوال بواسم   وأيامه للمكرمات مواسم
ووصلة ملك لا يقاوم جده   بملك له تعنو الملوك الأكارم
وإهداء شمس دونها الشمس رتبة   إلى أسد تخشى سطاه الضراغم
قران سعود فى بروج سيادة   بها العيش صفو والزمان مسالم
فوالله ما أدرى : أموسى وأهله   بجنات عدن ، أم على وفاطم ؟
عظيمة قدر كافأت منك ماجداً   تكف به البوسى ، وتكفى العظائم
يمانية ألفتك عضباً يمانياً   تُشاركها فى وصفها ، وتلائم
فخابت عزوفاً عن سواك وخيمت   بحيث المعالى جمة والمكارم
بمغنى ملوك الأرض باد خضوعها   لديه وأملاك السماء حوائم
فيا ليلة تمضى الليالى وذكرها   تُزان به العليا ، وتزهى المعالم
غذتها أفاويق الفخار وجادها   كمال ، لأدواء النقائص ، حاسم
ونور لاظلام الدياجى مبشر   ونشر لأنف البدر بالطيب فاغم
وأضحت بها طير البشائر شُفعاً   تبارى خوافيها الصبا والقوادم
فظلت بها الأمطار مصراً بمثلها   وإن كان شتى جامع يتلاءم
فلله كم أدنت على بعد دارها   لناظرنا ما أطربته الحمائم
عممت الرعايا بالعطاء فسرها   قدومك بالغنم الذى أنت غانم
مهم له ما بعده بد قضيته   قضى الله أن العدل للجور هادم
رأيتك يا محمود ، يا بن محمد   فتى حمده فرض على الناس لازم

(١) انظر : ديوان الأنصارى ٤٤٢ .

وأنك للملك الذي بنواله … وعدل سُطاه بشرتنا الملاحم
يدين له في الناس عمرو وعامر … ويعنو له في الجود كعب وحاتم
أخو نقماتٍ قارنت كلماتها … عواطف تنتاش الورى وملاحم
يُهاب فلا قلب المؤالف ساكن … ويرجى فلا وجه المخالف واجم
ويحلم فالشم الرواسي طوائش … ويكرم فالجون السوارى لائم
ويدنو فمر الصاب شهد لذائق … وينأى فكاسات الرحيق علاقم
ويُغنى اللها جوداً لتغلى بها العلا … ألا هكذا فليغنم المجد غانم
إذا صال فالغلب الرداح فرائس … وإن قال فالعرب الفصاح أعاجم
وإن ضاق رزق أو مجال فإنه … خضم وخصم للحوادث خاصم
كذا أيها الملك المظفر فليكن … من الناس مخدوم له الدهر خادم
أبت لك عار الميل نفس كريمة … وفكر بمجهول العوارف عالم
وناظر عين ليس يغضى وعامل … بأمر الوغى في الرفع والخفض جازم
وجاش وجيش رابط ومرابط … معازم لا تنحل منه العزائم
وليل ببرق البيض أبلج زاهر … ويوم بدجن النقع أكلف قاتم
فهنئت بالدهر الذي أنت مالك … جديديه والشهر الذي أنت صائم
وبلغت ما يرضيك من طول خالق … تحارب في مرضاته وتُسالم
نوالك مقسوم وفضلك شائع … ومجدك محروس وعزك سالم

وولدت من المظفر ثلاث بنين ، مات أحدهم واسمه عمر صغيراً ، والمنصور محمد ، والأفضل علي ، وثلاث بنات ، توفيت الكبرى وهي ملكة خاتون قبل والدتها بقليل ، والصغرى ، وهي دنيا خاتون بعد أخيها المنصور ، وكانت الصاحبة غازية خاتون من أحسن الناس سيرة وزهداً وعبادة وحفظت الملك لولدها المنصور حتى كبر وسلمته إليه . وتوفيت في ذي القعدة سنة ست وخمسين وستمائة .

ومنهم فاطمة خاتون(١)

بنت محمد بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، بنت الملك الكامل ابن العادل . زوجة ابن عم أبيها العزيز محمد بن الظاهر غازى بن الناصر يوسف بن أيوب ، أخذها أبوها فى صحبته لما توجه إلى الشرق فى سنة تسع وعشرين وستمائة واحتفل لها العزيز احتفالاً كلياً.

ومنهم عاشوراء(٢)

بنت محمد بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى . والدها الكامل ابن العادل . تزوجها ابن عمها الناصر داود ابن المعظم عيسى ابن العادل أبى بكر لما توجه والدها إلى الشرق سنة تسع وعشرين وستمائة ، وقيل : ثلاثين ، ثم حصل لوالدها منه نظرة اقتضت الزامه بطلاقها ، ثم لما توجه إلى الكامل فى سنة أربع وثلاثين معاضداً له جدد عقده عليها .

ومنهم السعيد عمر(٣)

ابن غازى بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك السعيد بن المظفر ابن العادل . لما خرج أبوه هارباً من التتر سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، خرج معه ولده عمر وأمير حسن ابن تاج الملوك إسحق بن العادل أبى بكر ، وهو ابن ابن اخى غازى ، فوصلوا إلى الهرماس(٤) فقال غازى لولده : المصلحة أن ترجع إلى ميافارقين وتحفظ (١٠٥ أ) البلد وأتوجه أنا إلى

---

(١) انظر : المختصر ١٥٢/٣ .

(٢) انظر : كنز الدرر ٣٠٨/٧ ـ ٣١٧ .

(٣) لم نعثر له على ترجمة .

(٤) مدينة بينها وبين نصيبين ستة فراسخ . انظر : معجم البلدان ٣٩٨/٥ .

بغداد ، فقال: والله لا أفارقك ، وجاء حسن فجلس إلى جانب عمه عمر وضربه بسكين فقتله وهرب ليرمى نفسه فى العين ، فصاح غازى : امسكوه فقد قتل ولدى ، فمسك، وقام غازى ليقتله ، فتعالجا ساعة ، فجاء عمر فرمى نفسه على أبيه غازى وقال لحسن: يا عدو الله قتلتنى وتقتل والدى ! فضربه حسن بالسيف فقطع خاصرته ، فوقع إلى الأرض ، وقطعت المماليك حسناً ، وحمل عمر إلى الحصن فدفن به ، وحزن والده عليه حزناً شديداً.

ومنهم الملك الكامل[1]

محمد بن غازى بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى . الملك الكامل ابن المظفر ابن العادل صاحب ميافارقين ، وليها سنة اثنتين وأربعين وستمائة بعد والده ، فنزل عليها التتر سنة ست وخمسين ، واستمروا نازلين عليها سنتين حتى فنيت أزوادهم وفنى أهلها بالوباء والقتل وصاحبها ثابت ، ثم فتحوها وقتلوه فى سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وحملوا رأسه على رمح وطيف به فى البلاد ، ومروا به على حلب وحماة ، ووصلوا به إلى دمشق ، سابع عشرين جمادى الأولى من السنة . وطافوا به دمشق بالمغانى (والطبول) وعلقوا الرأس فى شبكة بباب الفراديس ، وفيه يقول ابن ابى شامة من أبيات[2] :

ابن غازى غزا وجاهد يوماً أثخنوا فى العراق والمشرقين
ظاهراً عالياً ومات شهيداً بعد صبر عليهم عامين
لم يشنه إذ طيف بالرأس منه وله أسوة برأس الحسين
وافق السبط فى الشهادة والحمـ ـل لذا حاز أجره مرتين
ثم واروا فى مشهد الرأس ذاك الـ ـرأس فاستعجبوا من الحالتين

(١) انظر : شذرات الذهب ٢٩٥/٥ ، الوافى بالوفيات ٣٠٧/٤ ، المختصر ٢٠٣/٣ ، تاريخ ابن الوردى ٢٩٣/٢ .

(٢) وردت الأبيات فى المختصر ٢٠٤/٣ ، تاريخ ابن الوردى ٢٩٤/٢ .

وارتجـــوا أن يجيء لدى الحـــشـــر رفـــيق الحـــسين فى الحـــسنيين

ومنهم السعيد عبد الملك(١)

ابن اسماعيل بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك السعيد ، فتح الدين ابن الصالح ابن العادل . تقدم بعض أخباره ، توفى ثالث رمضان سنة ثلاث وثمانين ستمائة ، ودفن داخل دمشق .

ومنهم الملك المنصور(٢)

محمود بن اسماعيل بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك المنصور شهاب الدين ابن الصالح ابن العادل . تقدم بعض سيرته ، توفى يوم الثلاثاء ثامن عشر شوال سنة ثمان وثمانين وستمائة بدمشق (١٠٥ب) .

ومنهم غازى بن يعقوب(٣)

ابن ابى بكر بن أيوب بن شاذى ، شهاب الدين ابن المعز ابن العادل . توفى رابع عشر ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين وستمائة بدمشق بداره بالجورة ، ودفن بتربتهم « بقاسيون » .

---

(١) انظر : ترويح القلوب ٦٨ ، الدارس ٢٣٧/١ ، تاريخ ابن الفرات ١٣/٨ ، البداية والنهاية ٣٠٤/١٣ .

(٢) انظر : الدارس ٣٧١/١ ، شذرات الذهب ٤٠٧/٥ .

(٣) انظر : ابن الفرات ٨٥/٨ .

ومنهم الملك الجواد[1]

يونس بن ممدود بن أبى بكر أيوب بن شاذى ، الملك الجواد مظفر الدين ابن المعظم ابن العادل . كان جواداً كاسمه إلا أنه كان حوله من يظلم الناس ، وكان يحب الصالحين، ويحسن الظن بهم . ولما توفى الكامل اجتمع الأمراء وفيهم عماد الدين وفخر الدين ابناء الشيخ ، على تمليك الجواد دمشق نيابة عن العادل صاحب مصر ، وذلك أن الناصر داود كان بدمشق فجاءه جماعة من الأمراء وقالوا : أنفق على العسكر واملك البلد ، فلما كان صبيحة تلك الليلة ، وهى ليلة الجمعة من رجب سنة خمس وثلاثين ، حضر الأمراء وذكروا الناصر والجواد وكان أضر ما على الناصر عماد الدين ، وذلك أنه كان يجرى بينه وبينه مباحثات فى مجالس الكامل ، فيخطئه وينسبه للجهل ، وكان فخر الدين مع الناصر ، فأشار عماد الدين بالجواد ، وقيل : إن فخر الدين لما مات الكامل قيل له : ما تقول فى الجواد ، قال : المصلحة أن نولى عن العادل بعض الخدام ، فمتى شاء عزله ولا نولى أحداً من بيت الملك ، وبلغ الجواد ذلك ، فجاء إليه ووعده باقطاع مائة وخمسين فارساً وعشرة آلاف دينار ، فلم يقبل ، فلما أيس الجواد فرق المال حتى فرغ الخزائن ، وكان فيها تسعمائة ألف دينار ، وأرسلوا يقولون للناصر : إيش قعدك فى بلد القوم ؟ فقام وركب ، وجميع من بدمشق لا يشك أنه يقصد القلعة ، فلما تعداها صاحوا لا لا لا ، فمضى إلى القابون[2] وأقام به أياماً، ثم عزموا على القبض عليه ، فرحل ، فساق أيك الأشرفى ليمسكه ، فساق بالليل إلى عجلون ثم إلى غزة فاستولى عليها ، فخرج إليه الجواد فى عسكر مصر والشام ، فكاتب الأشرفية الناصر[3] ، وأطمعوه فاغتر بهم ، فساق إلى نابلس ، وترك الأثقال

---

(١) انظر : مرآة الجنان ١٠٤/٤ ، البداية والنهاية ١٦٣/١٣ ، مرآة الزمان ٧٤٣/٨ .

(٢) موضع بينه وبين دمشق ميل واحد . انظر معجم البلدان ٢٩٠/٤ .

(٣) هو الناصر داود بن عيسى صاحب الكرك المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

والعساكر خلفه، وكان ثقله على سبعمائة جمل فساقوا وأحاطوا به ، فساق فى نفر يسير نحو نابلس ، وأخذوا الجمال بأحمالها ، ووقع لعماد الدين ابن الشيخ سفط[1] فيه اثنتا عشرة قطعة من الجوهر وفصوص ليس لها قيمة ، فطلبه من الجواد فأعطاه إياه . وكانوا (قد) أشاروا على الناصر أن يرسل أثقاله إلى الكرك فلم يسمع ، وقيل : إنه وقع بين الجواد والناصر مصاف بمكان يقال (١٠٦ أ) له ظهر حمار ، بين نابلس وجينين ، وفى ذلك يقول بعضهم لبعض أولاد الشيخ ، وكان مع الناصر لما انهزم[2] :

يا فقيهاً قد ضل سبل الرشاد مذ أعد الجدال قوم الجلاد
كيف ينجو من هو بظهر حمار من جواد من فوق ظهر جواد

وتمكن الجواد من دمشق ، ولما ولى فرق تسعمائة ألف دينار ، وخلع خمسة آلاف خلعة وبطل المكس والخمور .

ومن العجب أنه ملك دمشق فى هذه السنة أربعة ملوك : أولهم الصالح اسماعيل ، ثم الكامل أخوه ، ثم العادل ابن الكامل ، ثم الجواد ابن عم العادل . وقيل : بل الأربعة الأشرف موسى ، ثم أخوه الصالح ، ثم أخوه الكامل ، ثم ابن أخيه الجواد .

قال جامعه : وكذا أخرى فى مصر سنة أربع وعشرين وثمانمائة استهلت والسلطنة للمؤيد شيخ ، ثم توفى فى ثامن المحرم ، ولى ابنه المظفر أحمد ، ثم خلع تاسع عشرين رمضان ، وولى الظاهر ططر ، ثم توفى فى رابع ذى الحجة ، وولى ابنه الصالح محمد[3] . انتهى .

---

(١) السفط : الذى يعبى فيه الطيب وما أشبه من أدوات النساء . اللسان ٣١٥/٧ .

(٢) فى ذيل مرآة الزمان ١٤١/١ ، قال جمال الدين بن عمل :

يافقيهاقد ضل سبل الرشاد ليس يغنى الجدال يوم الجلاء
كيف ينجى ظهر الحمار هازماً من جواد بكر فوق الجواد

(٣) انظر : النجوم الزاهرة ١٦٧/١٤ .

ولما ولى لام العادل عماد الدين ابن الشيخ فى توليته والزمه بخلعه ، وأن يعطيه إقطاعاً بمصر ، وأشار الناس على العماد ألا يتوجه ، فخالفهم واجتمع بالجواد ، وأغلظ له فى الكلام ، فدس عليه الجواد من وقف له بقصة ، فلما أخذها ضربه بسكين فمات .

قال جامعه : وما هذا جزاؤه ، سلطنه وقدمه ثم يقتله . وفى المثل : اتق إساءة من أحسنت إليه . انتهى .

ثم ارسل إلى الصالح أيوب فقايضه دمشق بسنجار والرقة وعانة كما ذكرنا من قبل ذلك فى سنة ست وثلاثين .

وفى سنة سبع وثلاثين أخذ بدر الدين لؤلؤ سنجار من الجواد بموافقة أهلها لسوء تدبيره ، فإنه صادرهم ، وخرج يتصيد فأرسل أهلها إلى لؤلؤ وفتحوا له أبواب البلد ، فملكها، وقيل : بل حاصرها وأخذها ، ومضى الجواد إلى عانة ثم باعها للخليفة بمالٍ ، وذهب منه العوض والمعوض .

وفى سنة تسع وثلاثين سار على البر إلى غزة ، ولم يكن بقى بيده من البلاد شىء ، وأرسل إلى الصالح يستأذنه فى القدم عليه ، فلم يُجبه ، وقيل : إنه أراد القبض عليه . ثم رجع إلى الناصر داود واتفقا ، وأرسله الناصر فى عسكر إلى الكمال ابن الشيخ(١) ، فالتقوا، وانهزم عسكر ابن الشيخ ، وأخذ أسيراً ، وأقام الجواد عند الناصر فتحيل منه واعتقله ثم بعث (١٠٦ب) به إلى بغداد تحت الاحتياط ، ونزل قريباً من النهر الأزرق ، فعرفه بعض العرب ، فأطلقوه ، فعاد إلى دمشق ، وأقام فى خدمة الصالح اسماعيل ، ثم سار إلى عكا ، وأقام مع الفرنج ، فأرسل الصالح اسماعيل وبذل للفرنج مالاً وتسلمه واعتقله ثم خنقه فى سنة إحدى وأربعين وستمائة فى شوال ، وكان الفرنج (قد) أرسلوا يطلبونه ، فأظهر أنه مات ، ودفن بتربة المعظم بقاسيون ، وخلف بنته نسب خاتون .

---

(١) مات سنة ٦٥٦ هـ . انظر النجوم الزاهرة ٣٤٥/٦ .

ومنهم المغيث بن المغيث عمر[1]

ابن العادل أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، توفى والده فى حياة أبيه العادل ، وخلف المغيث هذا فلقبه بلقب أبيه .

ومنهم حسن بن اسحق[2]

ابن ابى بكر بن أيوب بن شاذى ، أمير حسن ابن تاج الملوك ابن العادل ، قتل فى سنة اثنتين وأربعين وستمائة كما شرحناه فى ترجمة عمر بن غازى بن أبى بكر بن أيوب .

ومنهم الملك المظفر محمود

ابن ملكة خاتون بنت أبى بكر ابن أيوب ابن شاذى . يأتى فى الطبقة الخامسة . فإنه محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى ، توفى سنة اثنتين واربعين وستمائة .

ومنهم الملك العزيز محمد

ابن ضيفة خاتون بنت أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، تقدم أول الطبقة ، فإنه محمد ابن غازى بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، توفى سنة اربع وثلاثين وستمائة .

---

(٢) لم نعثر له على ترجمة .

(٣) لم نعثر له على ترجمة .

ومنهم ملكة خاتون

بنت فلانة بنت أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، ملكة خاتون بنت بنت الملك العادل ، وأبوها كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان ملك الروم ،كان المعظم (قد) زوج أخته به ، فأتت بملكة خاتون منه ، وتزوجها ابن ابن خالتها سنة خمس وثلاثين (وستمائة) على صداق خمسين ألف دينار ، وهو الناصر يوسف ابن العزيز محمد ابن الظاهر غازى ابن الناصر يوسف بن أيوب بن شاذى ، وهو يوسف بن محمد ابن ضيفة خاتون بنت العادل بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، وقدمت عليه بدمشق سنة اثنتين وخمسين وستمائة .

* * *

الطبقة الخامسة

ومنهم الملك الأشرف[1]

موسى بن إبراهيم بن شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذى الملك الأشرف ، صاحب حمص ، ابن الملك المنصور بن المجاهد بن القاهر بن المنصور وقد تقدم بعض أخباره وتأتى بعضها ، ونقول الآن : إنه لما عاد من خدمة الظاهر بيبرس إلى حمص مرض واشتد (ق ١٠٧ أ) المرض ، فتوفى سنة إحدى وستين وستمائة وتسلم الظاهر حمص فى ذى القعدة . وهذا الأشرف آخر من ملك حمص من بنى شيركوه وجملة من ملكها منهم خمسة ملوك : أولهم المنصور شيركوه بن شاذى ، ملكها إياه نور الدين الشهيد فى سنة ثلاث ستين وخمسمائة ، ثم ملكها بعده ابنه القاهر محمد ، ثم بعده ابنه المجاهد شيركوه ثم بعده ابنه المنصور إبراهيم ثم بعده ابنه الأشرف موسى . ولى بعد أبيه سنة أربع وأربعين فى صفر ، ثم أخذها منه الناصر يوسف سنة ست أربعين ، وعوضه تل باشر ثم أعادها عليه هولاكو ، فبقيت فى يده إلى أواخر السنة التى انتقلت إلى الظاهر بيبرس .

ومنهم : الأوحد شاذى[2] بن داود شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذى الملك

---

(١) الثابت هو الملك الأشرف ، وهناك خطأ فى الأصل « الملك المجاهد » انظر : شذرات الذهب ٣١١/٥ ، النجوم الزاهرة ٢١٧/٧ ، المختصر فى أخبار البشر ٢٦٨/٤ ، السلوك ٥٢٢/١ ، ذيل مرآة الزمان ٣١٠/٢ .

(٢) انظر : النجوم الزاهرة ٢١٩/٨ ، البداية والنهاية ٣٩/١٤ ، الدارس ٢٤٨/٢ ، القلائد الجوهرية ٢٢٠ .

الأوحد تقى الدين بن الزاهر بن المجاهد بن القاهر بن المنصور توفى يوم الأربعاء ثانى صفر سنة خمس وسبعمائة بجبال الجردتين وحمل إلى قاسيون ، فدفن بتربة والده .

ومنهم : الملك المعظم[1] عيسى بن داود بن شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذى الملك المعظم ، شرف الدين بن الزاهر بن المجاهد بن القاهر بن المنصور . ولد بدمشق يوم الثلاثاء ثامن عشرين رمضان سنة خمس وخمسين ، وحضر من دمشق إلى مصر ، فسعى فى الإمارة ، فأنعم عليه[2] بطبلخاناة دمشق ، فمات عوده إليها فى ثامن عشر ذى القعدة سنة تسع عشرة وسبعمائة بدار الشريف بن تغلب .

ومنهم : حسن بن داود بن شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذى[3] .

ومنهم : السعيد والمظفر[4] وشاهنشاه أولاد الأمجد بهرام شاه بن فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى . وكان له ولد آخر حسن قتله وقد ذكر فى ترجمة العزيز عثمان بن العادل . وولد اسمه عمر .

ومنهم : الملك الناصر قليج أرسلان[5] بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى الملك الناصر ، صلاح الدين بن الملك المنصور بن المظفر ، صاحب حماة ولد سنة ستمائة ملك حماة سنة سبع عشرة بالغلبة ، ولم يكن المعهود إليه وإنما العهد للمظفر محمود ، ولكن كان عند خاله الكامل بمصر ، فغلب الناصر وذلك أنه كان عند خاله المعظم بدمشق ، وكان وزير حماه زين الدين بن فريج ، فاتفق هو وأكابر الدولة على استدعاء الناصر ، فمنعه المعظم من التوجه إلا بمال (ق ١٠٧ ب) يحمله إليه كل سنة ،

---

(١) انظر : النجوم الزاهرة ٢٤٧/٩ ، السلوك ٢٠٠/٢ ، الدرر الكامنة ١٧٩/٣ .

(٢) من رتب أرباب السيف وتعطى للأمراء الذين يعملون تحت قيادة الواحد منهم أربعون فارساً .
انظر : صبح الأعشى ١٥/٤ .

(٣) لم نعثر على ترجمة له .

(٤) لم نعثر على ترجمة له .

(٥) له ذكر عند المرتضى الزبيدى ٥٣ .

قيل : إنه طلب أربعمائة ألف درهم ، فلما أجاب إلى ذلك وحلف عليه ، أطلقه ، فقدم الناصر إلى حماة ، واجتمع بالجماعة الذى كاتبوه ، واستحلفوه على ما أرادوا ثم ركب من القلعة بالسنجق ، ولما استقر فى الملك وبلغ أخاه المظفر ، استأذن الكامل فى المضى إلى حماة ، ظناً منه أنهم يسلمونها إليه بحكم الأيمان التى فى أعناقهم . فوجد خاله المعظم بالغور فأخبره أن أخاه تملك ويخشى عليه أنه إذا وصل يعتقله ، فسار المظفر إلى دمشق ، وأقام بداره المعروفة بـ الزنجلى[1] وكتب المعظم والمظفر إلى أكابر حماة فى تسليمها إلى المظفر فلم يحصل منهم اجابة ، فعاد المظفر إلى مصر ، وأقام فى خدمة الكامل وأقطعه إقطاعاً بمصر.

وفى سنة تسع عشرة حضر المعظم حماة ، لأن الناصر لم يف له بحمل المال ، وجرى بينهم قتال قليل ، ثم ارتحل إلى سلمية واستولى على حواصلها ، ثم قصد المعرة وأقام فيهم والياً ، وعاد إلى سلمية وأقام عليها حتى خرجت السنة ، وبلغ الأشرف ذلك فعظم عليه ، واتفق مع الكامل على الإنكار على المعظم وترحيله ، فأرسل إليه الكامل يأمره بالرحيل ، وكانت أطماعه قد قويت على الاستيلاء على حماة فرحل مغضباً على أخويه ورجعت المعرة وسلمية للناصر ، ثم اتفق الكامل على نزع سلمية وتسليمها للمظفر فتسلمها ، وأرسل إليها نائباً وهو بمصر ، واستقرت بيد الناصر حماة والمعرة وبعرين ، وذلك فى سنة عشرين وستمائة .

وفى سنة ست وعشرين انتزعت منه حماة غصباً وتسلمها أخوه المظفر محمود ، على ما يأتى وأعطى الناصر بارين .

وفى سنة ثلاثين استأذن أخوه المظفر الكامل فى انتزاع بارين منه ، لأنه خشى أن يسلمها للفرنج لضعفه ، فحاصره المظفر وتسلمها ، ولما نزل الناصر إلى أخيه أحسن إليه ،

---

(١) ورد ذكره فى المختصر فى أخبار البشر ١٢٦/٣ ، مفرج الكروب ٨٩/٤ .

وسأله أن يقيم عنده بحماة ، فامتنع وسار إلى مصر ، فأعطاه الكامل اقطاع مائتى فارس ، وأرسل الكامل يطلب منه أملاك والده التى بمصر والغور فامتنع وأغلظ للرسول ، فاعتقله الكامل بقلعة الجبل إلى أن مات قبل الكامل بأيام سنة خمس وثلاثين وستمائة .

ومنهم : الملك المظفر (١) محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى الملك المظفر بن المنصور بن المظفر ، صاحب حماة ، تقى الدين ، سمى أولاً عمراً وانما سمى محموداً بعد ذلك ، وأمه ملكة خاتون بنت (ق ١٠٨ أ) العادل أبى بكر بن أيوب بن شاذى ولد بقلعة حماة يوم الثلاثاء رابع عشر رمضان سنة تسع وتسعين وخمسمائة وهو أسن من أخيه الناصر بسنة .

وفى سنة ست عشرة جعله والده ولى عهده ، وجرد معه عسكراً نجدة للكامل خاله ، فلما وصل إليه أكرمه وأنزله ميمنة عسكره ، منزله أبيه وجده .

وفى سنة عشرين انتزع الكامل سلمية من أخيه الناصر وسلمها للمظفر وهو بمصر .

* ذكر ملكه حماة فى سنة ست وعشرين *

نزل الكامل بمجمع المروج ، ثم نزل سلمية ، وأرسل عسكراً نازلوا حماة وبها صاحبها الناصر قليج أرسلان أخو المظفر ، وكان فيه جبن ، فلو عصى وطلب عنها عوضاً كبيراً من الكامل لأجابه ، لكنه خاف ، وكان فى العسكر الذين نازلوا حماة شيركوه صاحب حمص ، فأرسل الناصر يقول لشيركوه : إنى أريد أن أخرج إليك بالليل لتحضرنى عند الكامل ، وخرج الناصر إلى شيركوه فى العشر الأخير من رمضان ، فأخذه شيركوه ومضى به إلى الكامل وهو بسلمية ، فحين رآه الكامل شتمه وأمر باعتقاله ، وأن يتقدم إلى

---

(١) انظر : البداية والنهاية ٥/١٤ ، كنز الدرر ٣٥٦/٧ ، تاريخ ابن الوردى ٢٥٠/٢ ، المختصر فى أخبار البشر ١٧٣/٣ ، السلوك ٣١٨/١ ، كنز الدرر ٣٥٦/٧ .

نوابه بحماة بتسليمها إلى عسكر الكامل ، فأرسل الناصر علامته إلى نوابه ، فامتنع من ذلك الطواشيان[١] بشير ومرشد المنصوريان ، وكان للناصر بالقلعة أخ شقيق يقال له العزيز وقيل المعز فملكوه حماة ، وقالوا لرسل الكامل : لا نسلم حماة لغير أولاد تقى الدين ، وثارت العامة عليهم ورجموهم بالحجارة ، فأرسل الكامل يقول للمظفر : اتفق مع غلمان أبيك ونسلم حماة ، وكان المظفر نازلاً على حماة من جملة العسكر الكاملى ، فراسل المظفر جماعة حماة ، فحلفوا له وحلف لهم وواعدوه أن يحضر وقت السحر إلى باب النصر وقيل من الليل فى الليلة الثانية ، وألا يدخل أحد من عسكر بالكامل ، فجاء وفتحوا له الباب ، ودخل البلد ومضى إلى دار الوزير المعروفة بـ دار الأكرم وهى الآن مدرسة تعرف بـ الخاتونية وقفتها مؤنسة خاتون بنت المظفر المذكر وأصبح الناس مهنئين له بوصول الحق إليه وذلك فى العشر الأخير من رمضان ، ولما ملك حماة فوض أمر تدبيرها إلى سيف الدين على بن أبى الهذبانى وكان يقول للمظفر أشتهى أن أراك فى حماة وأكون بفرد عين ، فأصيبت عينه على حصار حماة لما نازلها عسكر الكامل ، فحظى عند المظفر لأجل كفايته وحسن تدبيره وأخذ (ق ١٠٨ ب) الكامل منه سلمية وسلمها إلى شيركوه ، وأخذ بارين وسلمها للناصر أخى المظفر ، وكان للناصر فماطل المظفر ولم يحصل للناصر منها شئ واستقر بيد المظفر حماة والمعرة لا غير وهنئ المظفر بقصائد ، منها قصيدة شرف الدين عبد العزيز بن محمد بن الحسين الأنصارى [٢] الدمشقى وهى :

تناهى إليك الملك واشتد كاهله ... وحل بك الراجى فحطت رواحله
ألا هكذا فليمنع المجد مانع ... ألا هكذا فليبذل الجود باذله
ترحلت عن مصر فأمحل ربعها ... ولما حللت الشام روض ماحله

---

(١) المملوك الخصى . انظر معيد النعم ٣٩ .

(٢) هو الفقيه والمحدث الصاحب شرف الدين بن عبد العزيز بن محمد ابن قاضى حماة ، ولد بدمشق سنة ٥٨٦ هـ ومات سنة ٦٦٢ هـ .

انظر : النجوم الزاهرة ٢١٤/٧ ، طبقات السبكى ١٠٨/٥ ، فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ٥٩٨/١

وعزت حماة فى حمى أنت غابه ... بصولته تحمى كليب ووائلهى
وقد طالما ذلت بتدبير أهوج ... خيب مرجيه ويحرم سائله
فأمضى عليها الشكر فرضاً لفوزها ... بذى كرم فاضت عليها نوافله
سبقت إلى رد العلا كل سابق ... فما نال إلا فضل ما أنت نائله
وعدلت بالعدل الزمان وزدته ... سنا فاستوت أسحاره واضائله
إذا فاعل رام ارتفاعاً بفعله ... ففعلك مرفوع بأنك فاعله
وذى أمل أعطيته فوق سوله ... ففاضت أمانيه وفاضت مناهله
وغاو سبقت العدل بالسيف رادعاً ... له فاهتدت لما أصيبت مقاتله
أبر تقى الدين جوداً وسودداً ... فعمت عطاياه وتمت فضائله
وفاق على الأملاك معنى وصورة ... فراق محياه ورقت شمائله
هم القوم إن سيموا وعوداً بأجل ... سماهم جواد يسبق الوعد عاجله
وإن شغلتهم دمية أو مدامة ... بلهو فلا هزل عن الجد شاغله
فما لبنى أيوب ملك مساجل ... ولا فى بنى أيوب ملك يساجله
فكم فض ضيق حين زارت هبأته ... وضاق فضاء حين سارت جحافله
مليك لشمل المكرمات مجمع ... فلا جمع إلا وهو بالبذل شامله
وبحر طويل الباع منسرح الندى ... بسيط المعالى وافر الفضل كامله
يذل معاوديه ويعتز جاره ... وترجى عطاياه وتخشى غوائله
ويلقى حصينات الدروع غنيمة ... إذا ما التقى أقرانه وعوامله
دعاه إلى حب الماضى قضاؤه ... وهل يصحب الإنسان من لا يشاكله
وعم اليتامى والأرامل بره ... فكل الورى أيتامه وأرامله
وقد كانت الدنيا تحاول كاملاً ... فقد أدركت فى عصره ما تحاوله
بلغت بمدحى فيه أبعد غاية ... فبلغت من جدواه ما أنا أمله
ومن جوده شكرى ولم تثن روضة ... على المزن بل أثنى على المزن وابله
تعدى نداه الجم أقصى ما ربى ... فافضلت مما أمطرتنى فواضله
وقر قرارى فى حنان جنانه ... وقد قلقلت بابن الحسين قلاقله

وصار قريضى مدح أشرف ضيغم فلم ابتذله فى غزال أغزاله(1)

وفى سنة ست وعشرين أيضاً عقد المظفر عقده على بنت خاله الكامل غازية خاتون ، وكانت أمانيه متعلقة بها وبملك حماة .

لما كان بمصر وكان بصحبته وهو بها الزكى عبد الرحمن القوصى(2) فأنشده الزكى يوماً بمصر(3) :

متى أراك كما تهوى وأنت ومن تهوى على رغمهم روحين فى بدن
هناك أنشد والآمال حاضرة هنيت بالملك والأحباب والوطن

فوعده إن حصل له ذلك أن يعطيه ألف دينار ، فلما جرى له ذلك ، دخل عليه فأنشده :

مولاى هذا الملك قد نلته برغم مخلوق من الخالق
والدهر منقاد لما تشتهى فذا أوان الموعد الصادق

فدفع له ألف دينار ولزمه الزكى فى أسفاره فأنفق الألف ، ولم يحصل بيده زيادة فقال:

ذاك الذى أعطوه لى جملة قد استردوه قليلاً قليل
فليت لم يعطوا ولم يأخذوا وحسبى الله ونعم الوكيل

فبلغ ذلك المظفر فأخرجه من دار كان أنزله فيها فقال :

---

(1) وردت القصيدة فى ديوانه ٤٠٣ .

(2) هو عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن الحسن المنعوت بالزكى القوصى كاتب شاعر مات سنة ٦٣١ هـ . انظر : فوات الوفيات ٢٦٨/٢ ، الطالع لسعيد ٢٨٧ .

(3) انظر : الطالع السعيد ٢٨٧ ، بدائع الزهور ٧٨/١ ، المختصر ١٤٥/٣ ، تاريخ ابن الوردى ٢١٩/٢ .

أتخرجنى من كسر بيت مهدم ولى فيك من حسن الثناء بيوت
فإن عشت لم أعدم مكانا يظلنى وأنت فتدرى ذكر من سيموت

فحبسه المظفر ، فقال : ما ذنبى ؟ فقال : وحسبى الله ونعم الوكيل وأمر بخنقه فلما أحس بذلك قال :

أعطيتنى الألف تعظيما وتكرمة ياليت شعرى أم اعطيتنى ديتى

قال الصفدى : لو كنت حاضراً لأنشدته :

وكنت كالمتمنى أن يرى فلقا عن الصباح فلما أن رآه عمى

* ذكر قصد الفرنج حماة سنة سبع وعشرين *

فى رمضان قصد الفرنج حماة فى جموع كبيرة ، ووصلوا إلى أفيون - بليدة بين حماة وبعرين - فخرج إليهم المظفر ، والتقوا هناك ، فولوا منهزمين ، وقتل من فرسانهم جماعة وأسر جماعة ودخل حماة منصوراً فمدحه الشعراء بقصائد منها(١) :

أبشر بما شئت من نصر وتأييد فعنك يروى حديث الباس والجود
وأنت ليث وغى تدمى مخالبه فى نحر كل طويل الباع صنديد
وأنت غيث ندى تجرى عوائده بجوده قبل جرى الماء فى العود
فرقت بين المعالى والثراء كما جمعت فى العدل بين الشاء والسيد
يذم بعض الورى بعضا وقولهم ما فى البرية محمود كمحمود
ملك إذا غرق الأملاك فى قنص فصيده غلب آل الأصفر الصيد
وإن سباهم ذوات الحسن مال بهم قطع الطلى عن وصال الخرد الغيد

ومنها :

فما جنحت إلى سلم على وهن ولا قنعت بإرهاب وتهديد

---

(١) وردت القصيدة فى مفرج الكروب ٣٠٣/٤ .

أقبلتم رحب صدر ليس يحرجه ضيق المجال وقلباً غير مزؤد
ورعتم بخميس فل جمعهم بحر ضرب طعن كالأخاديد
فغودروا بين مجروح ومختبل يبكى على هالك منهم ومفقود
إن خبروا عنك بالبأس الفظيع لقد قام العيان بتصديق الأسانيد
صاروا قطائع إذ راموا القطائع لد قواطع البيض فى حجب الوغى السود
فلا تدع غزوهم فى عقر دارهم صغوا إلى الزور من لوم وتفنيد
وأسلم لك الملك منصوراً عليك ولا زال الورى تحت ظل منك ممدود

وفى سنة ثلاثين ملك بارين من أخيه الناصر - كما قدمناه - فهنأه شرف الدين عبد العزيز بقصيدة أولها(١) :

يوم نصرت به العلياء والجودا ساعة غادرت صيدا لك الصيدا
وموقف سوت كل الحاسدين به كما سررت به عدلا وتوحيدا
انطقت بالفتح أعواد الشيح وما أخليت عن ذكره من منبر عودا
لولاك ما شد أزر المسلمين كما بنيان عزهم لولاك ما شيدا
بادرت بارين إذ بارت رعيتها جهدا وغودر عنها الأمن مطرودا
فأصبحت كحماة فى حمى ملك بالعدل يجمع فيها الشاء والسيدا
لا زالت تفدى بمن جاوزت رتبته كما يخلدك الرحمن تخليدا
ودام قولى فى مدحيك مشتهراً ودام فعلك يا محمود محمودا

وفى سنة إحدى وثلاثين استتم بناء قلعة المعرة فى شهرين ، وعمل فيها جامعاً وكملت آلاتها ورجالها فى هذه المدة القريبة ، ولم يكن عمارتها مصلحة لأن الحلبيين حاصروها فيما بعد وأخذوها وخربت المعرة بسببها وهنأه شرف الدين بقصيدة مطلعها :

---

(١) وردت فى ديوانه ١٦٢ .

مضى بمضاء عزمتك القضاء   وشاء لك المهيمن ما تشاء

ومنها :

وصلت كما وصلت فكل قلب   تعارض فيه خوفك والرجاء
ووافيت المعرة مستنجداً   بناء لا يطاوله بناء
لديه تخضع الآمال صغراً   وفيه تحسد الأرض السماء

ومنها :

لقد أتممتها فوزاً ومجداً   فتم بها السنا ونمى السناء
لها بوقارك الوافى ثبات   ومن طماح همتك اعتلاء
تناهت فى مدى ستين يوماً   وقد بارى أياديك الشتاء

ومنها :

ومد العاملين إلى المعالى   وطالعهم فطال له البقاء

ذكر وفاته وسيرته

أصابه فالج فى شعبان سنة تسع وثلاثين ، وقيل ثمان وليس بصحيح وهو جالس بين أصحابه فى قلعة حملة وبقى أياماً لا يتكلم ولا يتحرك ، وذلك آخر الشتاء ، وأرجف الناس بموته ، وقام بتدبير المملكة مملوكه وأستاذ داره سيف الدين طغريل ، ثم خف مرضه وفتح عينيه ، وصار يتكلم باللفظة واللفظتين ولا يكاد يفهم ، وكان العاطب الجانب الأيمن وبعث إليه الصالح طبيبا حاذقاً نصرانياً يقال له النفيس ولم ينجح فيه المداواة . وتوفى يوم السبت ثامن جمادى الأولى سنة أثنتين وأربعين وستمائة وهو مفلوح بحمى حادة عرضت له وأقام مريضا بالفالج سنتين وتسعة أشهر ، وكان عمره ثلاثاً أربعين سنة ومدة ملكه لحماة خمسة عشر عاما وسبعة أشهر وعشرة أيام وكان شهماً شجاعاً فطناً ذكياً ويحب أهل الفضائل العلوم ، استخدم الشيخ علم الدين قيصر[1] المعروف بتعاسيف وكان مهندساً

---

(١) انظر : الطالع السعيد ٤٦٩ ، السلوك ٢٣٢/١ .

فاضلاً فى العلوم ، فبنى للمظفر أبراجاً بحماة وطاحونا على العاصى[١] وعمله كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصدة .

قال ابن واصل : وساعدت الشيخ علم الدين على عملها ، وكان الظفر يحضر نحن نرسمها ، ويسألنا عن مواضع دقيقة منها . ولما مات المظفر ولى ولده المنصور محمد ومرجع الأمر إلى والدته عازية خاتون بنت الكامل .

ومنهم العزيز وقيل المعز[٢]

ابن المنصور محمد بن المظفر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى فلما نازل الكامل حماة وبها أخوه الناصر قليج أرسلان بن المنصور محمد ، ونزل إلى الكامل واعتقله ، سلطن أهل حماة للعزيز هذا وقالوا : لا يخرج الملك عن بنى تقى الدين عمر فأقام أياماً ثم ولى المظفر محمود كما قدمنا .

ومنهم : الملك المعظم[٣] سليمان بن شاهنشاه بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى الملك المعظم قطب الدين سعد بن المظفر ملك اليمن ، كان فقيرا يحمل الركوة[٤] على كتفه ويتنقل مع الفقراء من مكان إلى مكان فلما سم الناصر أيوب بن طغتكين بن أيوب ابن شاذى زوج أمه ، وتملك وهو غازى ابن جبريل ثم قتلته جماعة من العرب بسبب قتله الناصر وهو ابن عم جد المعظم هذا وعلت (ق١١١ أ) أم الناصر على مملكة زبيد وأحرزت الأموال فكانت تنتظر وصول أحد من بنى أيوب وتتزوج به وتملكه وأرسلت بعض غلمانها إلى مكة فى الموسم ليأتيها بأخبار مصر والشام فوجد سليمان فأحضره إلى اليمن

---

(١) نهر حماة وحمص يصب فى البحر قرب أنطاكية . انظر : معجم البلدان .

(٢) لم نعثر له على ترجمة .

(٣) انظر : مفرج الكروب ١٣٨/٣ ، كنز الدرر ١٥٦/٧ .

(٤) إناء صغير من جلد .

فخلعت عليه وملكته ، فملأ اليمن ظلماً وجوراً وأطرح زوجته التى ملكته وأعرض عنها . وكتب إلى العادل أبى بكر وهو عم جده - كتاباً أوله : « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » فاستثقل الملك العادل عقله .

قال الدوادار : جلس فى الملك سادس ربيع الأول سنة عشر وستمائة ، ثم اتفق أن أهل جبل صبر خالفوا عليه ، فقصدوا تعز فقاتلهم وهزمهم ، وفى أثناء ذلك وصل الخبر بوصول المسعود يوسف بن الكامل محمد إلى مكة سنة إحدى عشرة ، فهرب من زبيد ، ثم ظفر به المسعود وبعث به معتقلاً إلى مصر فأجرى له الكامل ما يقوم به ، ولم يزل مقيماً بالقاهرة إلى سنة ثمان وأربعين وستمائة فخرج إلى المنصورة غازياً فقتل شهيداً .

ومنهم : الملك الناصر[1] يوسف بن محمد بن غازى بن يوسف بن أيوب بن شاذى الملك الناصر ، صلاح الدين بن الملك العزيز بن الظاهر صاحب حلب والشام وغيرهما . ولد سنة سبع وعشرين وستمائة وملك حلب عند موت والده . فى ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وستمائة ، وقام بتدبيره شمس الدين لؤلؤ الأرمنى[2] والمرجع إلى جدته ضيفة خاتون بنت العادل أبى بكر بن أيوب بن شاذى واستقل بالملك بعد وفاتها فى سنة أربعين وفك عن نفسه الحجر ، وعمره ثلاث عشرة سنة ، ولما مات العزيز أرسل إلى الكامل يخبر بوفاته ، وأرسل زرديته فحلف له ، وأشار أن يتقدم الصالح من الظاهر على عسكر حلب ، وأن يتولى أمر ابن أخيه . فلم ترض الصالحبة ضيفة بذلك ثم سير للناصر خلعة بغير مركوب وخلعاً للأمراد وسير مع رسول آخر للصالح ابن الظاهر خلعة ، فاستشعرت الصاحبة من ذلك ولبس الناصر الخلعة ، ولم يلبس أحد من الأمراء ، ولم تمكن الرسول المواصل إلى الصالح من التوجه إليه ، وفى سنة أربع وثلاثين أرسل صاحب شيزر وابن العجمى[3] رسولاً إلى

---

(١) انظر : شذرات الذهب ٢٩٩/٥ ، العبر ٢٥٦/٥ ، مرآة الجنان ١٥١/٤ ، فوات الوفيات ٣٦١/٤ .

(٢) مقدم عسكر حلب ، قتل سنة ٦٤٨ هـ . انظر النجوم الزاهرة ٢١/٧ .

(٣) انظر : النجوم الزاهرة ٢٢٤/٧ .

الأشرف يطمعانه فى حلب ، فلم يجبهما ووصل الخبر إلى الصاحبة فسكت الرسول قبل أن يعود إليهما ، فحبس وحلقت لحيته ، ثم أحضرت صاحب شيزر وابن العجمى واعتقلهما وفيها خرج الفرنج بعد وفاة العزيز من بغراس واستاقوا أغناماً (ق ١١٢ ب) فخرج إليهم المعظم بن الناصر مقدما على عسكر حلب ، فحاصر بغراس مدة ، وأشرف على أخذها ، فشفع فيهم صاحب انطاكية فأجابه المعظم وعقد الهدنة وعاد إلى حلب .

ذكر أخذ المعرة وحصار حماة سنة خمس وثلاثين

ولما بلغ الحلبيين موت الكامل ، اتفقت أراؤهم على أخذ المعرة ، ثم أخذ حماة من المظفر لموافقته الكامل على قصدهم ، ووصل عسكر حلب إلى المعرة ، وانتزعها من المظفر ثم حاصر قلعتها وملكها ، ثم ساروا إلى حماة ومقدمهم المعظم بن الناصر ونازلوا حماة وبها صاحبها المظفر ، ونهبوا .

ودخلت سنة وثلاثين وهم فى الحصار ، فتقدمت الصاحبة بالرحيل ، لأنها كانت تكره مضايقة ابن أختها ، وأنفق المظفر فى ذلك أموالاً عظيمة . وفيها أرسل العادل بن الكامل يطلب الموافقة على أن يخطبوا له فلم توافقه الصاحبة . وفيها خطيب لغياث الدين صاحب الروم - بعد أن أرسل يطلب ذلك .

ذكر كشرة الخوارزمية سنة ثمان وثلاثين

رحلت الخوارزمية من حران وقطعوا الفرات ، ووصلوا إلى غزار ثم إلى سرمين ثم المعرة وهم ينهبون ما يجدونه . فإن الناس جفلوا بين أيديهم وكان قد وصل المنصور صاحب حمص ومعه عسكر دمشق نجدة الحلبيين . واجتمع الحلبيون مع صاحب حمص وقصدوا الخوارزمية على ما هم فيه من النهب ، حتى نزلوا على شيزر ونزل الحلبيون على تل

السلطان[1] ثم رحلت الخوارزمية إلى جهة حماة ، ولم يتعرضوا لنهب ، ثم ساروا إلى سلمية ثم إلى الرصافة[2] طالبين الرقة ، وسار الحلبوين من تل السلطان إليهم ولحقتهم العرب ، فأدمت الخوارزمية ما معهم من المكاسب وسيبوا الأسرى ، ووصلوا إلى الفرات أواخر شعبان ولحقهم الحلبيون واقتتلوا إلى الليل ، ثم قطع الخوارزمية الفرات إلى حران ، فسار عسكر حلب إلى البيرة[3] وقطعوا الفرات ، وقصدوا الخوارزمية وأيقعوا قرب الرها لسبع بقين من رمضان ، فولى الخوارزمية منهزمين ، وركب الحلبيون أقفيتهم يقتلون ويأسرون إلى أن حال الليل بينهم . ثم سار الحلبيون إلى حران فاستولوا عليها ، وهربت الخوارزمية إلى عانة وبادر بدر الدين صاحب الموصل (ق ١١٢ أ) إلى نصيبين ودارا[4] وكانتا للخوارزمية ، فاستولى عليهما وخلص من كان بهما من الأسرى ، وكان فيهم المعظم بن الناصر وذلك من حين أسرته الخوارزمية من كسرة الحلبيين وذلك أنه لما أكثر أذى الخوارزمية فسادهم ، بحيث أنهم ارتكبوا من الفواحش أكثر مما ارتكبه التتر فأرسل إليهم الناصر عسكراً عليه المعظم ، فانهزموا وقتل منعهم جماعة عظيمة منهم الصالح بن الأفضل بن السلطان صلاح الدين ، واستولى الخوارزمية على أثقالهم وأسروا وقتلوا ، وجفل أهل الحواضر إلى حلب واستعد أهل حلب للقتال ثم سارت الخوارزمية إلى منبج وهجموها بالسيف يوم الخميس لتسع بقين من ربيع الأول من هذه السنة ، وعادوا إلى بلادهم ثم عادوا إلى حلب كما حكيناه . انتهى . فحمل بدر الدين المعظم المذكور إلى الموصل ، وقدم له ثياباً وتحفاً ، وبعث به إلى عسكر حلب ، واستولى عسكر حلب على الرقة والرها وسروج ورأس عين وما مع ذلك واستولى صاحب حمص المنصور ابراهيم على الخابور . ثم سار الحلبيون وأتتهم نجدة الروم وحاصروا المعظم بن الصالح أيوب بأمد وتسلموها منه .

---

(١) مكان يقع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق . انظر معجم البلدان ٤٢/٢ .

(٢) موضع قرب الرحبة فى بلاد الشام . انظر معجم البلدان ٤٧/٣ .

(٣) بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية . انظر معجم البلدان ٥٢٦/١ .

(٤) بلدة بين نصيبين وماردين . انظر معجم البلدان ٤١٨/٢ .

ذكر أخذ حمص سنة ست وأربعين

كان الأشرف صاحب حمص قد سلم شميمش إلى الصالح أيوب فتقدم الناصر إلى الصالح اسماعيل ، وقيل بل لؤلؤ الأرمني ، فضايقوها مضايقة شديدة مدة شهرين وكان الصالح أيوب قد عزم إنجادهم ، فعرض له مرض ، فتراخى أمر النجدة ، فتعوض الأشرف تل باشر مضافة إلى[1] تدمر والرحبة وسلمها ثم سار الصالح أيوب إلى الشام ، وأرسل عسكراً إلى حمص ، فنازلها وخرج الناصر من حلب ، ثم تردد رسول الخليفة فأصلح بينهم . على أن تبقى بيد الحلبيين فأذعن الصالح إلى ذلك ، لأنه قد بلغه أن الفرنج وصلت دمياط وذلك بعد أن نصب عليها منجنيقا حجره مائة أربعون رطلاً بالشامى مع منجنيقات أخر، وأشرف على أخذها .

ذكر أخذ نصيبين سنة سبع وأربعين

وقع الحرب بين الناصر وصاحب الموصل ، فأرسل إليه عسكرا والتقوا بظاهر نصيبين، فانهزمت المواصلة هزيمة قبيحة ، واستولى الحلبيون على أثقالهم وتسلما نصيبين، ثم ساروا إلى دارا ، فنازلوا تسلموها وخربوها بعد حصار ثلاثة أشهر ، ثم تسلموا قرقيسيا (ق ١١٢ب) وعادوا إلى حلب .

ذكر أخذ دمشق سنة ثمان وأربعين

وصل إلى الناصر الخبر بقتل المعظم بن الصالح ، والكتب من الأمراء القيمرية[2] يستدعونه ويحثونه ، فسار ودخل البلد يوم السبت ثامن ربيع الآخر من غير ممانعة بل فتح له باب البلد جمال الدين بن يغمور[3] وهو باب الجابية وخلع على الأمراء ، وقبض على جماعة من المصريين ، واستقرت قدمه ، وعصت عليه بعلبك وعجلون وشميميش مدة يسيرة ثم سلمت إليه ، ولما صل الخبر إلى مصر قبضوا على من عندهم بمصر من القيمرية.

---

(١) مدينة قديمة مشهورة فى الشام . انظر معجم البلدان ١٧/٢ .

(٢) نسبة إلى قيمر قلعة بين الموصل وخلاط .

(٣) هو أحد الأمراء ، مات سنة ٦٦٣ هـ . انظر النجوم الزاهرة ٢١٩/٧ .

ذكر مسير الناصر إلى مصر وكسوته
فى السنة المذكورة

رحل الناصر من دمشق وصحبته من ملوك أهل بيته[١] المعظم ونصرة الدين ولدا الناصر والصالح[٢] وتقى الدين عباس ولداً العادل والأمجد الظاهر[٣] ولدا الناصر داود[٤] للأشرف موسى ، ومقدم الجيش لؤلؤ الأرمنى يوم الأحد منتصف رمضان ، فلما بلغ المصريين ذلك اهتموا وبرزوا للسائح ، وأفرجوا عن المنصور والسعيد ولدى الصالح اسماعيل وكانا معتقلين وخلع عليهما ليتوهم الناصر من أبيهما ، والتقى العسكران بالقرب من العباسية يوم الخميس عاشر ذى القعدة فكانت الكسرة أولاً على عسكر مصر وتبعهم الشاميون ولم يشكوا فى القصر ، وثبت المعز أيبك فى جماعة قليلة ، فخامر على الناصر جماعة من الترك ، فبقى واقفاً تحت السناجق فى جماعة قليلة من المتعممين ، فحمل عليه المعز ، فولى الناصر الناصر منهزماً طالباً الشام ، ثم حمل المعز على لؤلؤ فهزمه وأخذه أسيراً فضربت عنقه بين يديه ، وكذلك ضياء الدين القيمرى ، وأسر الصالح والأشرف والمعظم أخوه ، ووصل عسكر الناصر فى أثر المنهزمين إلى العباسية ، وضربوا بها دهليز الناصر وهم لا يشكون أن الهزيمة نمت على المصريين ، فلما بلغهم هروب الناصر اختلفوا فمنهم من أشار بدخول القاهرة وتملكها ، ولو فعلوا لما كان فيها من يمنعهم فإن غالب المنهزمين وصل إلى الصعيد . وفيهم من أشار بالرجوع إلى الشام ، وكان معهم تاج الملوك بن المعظم توران شاه بن الناصر يوسف وهو مجروح ، فحمل إلى القدس فمات ووصل

---

(١) انظر : المختصر فى أخبار البشر ١٨٤/٣ .

(٢) انظر : المختصر فى أخبار البشر ١٨٤/٣ .

(٣) انظر : المختصر فى أخبار البشر ١٨٤/٣ .

(٤) مات سنة ٦٥٦ هـ .

المنهزمون من المصريين القاهرة فى غد الوقعة ، وهو يوم الجمعة فلم يشك أهل مصر فى ملك الناصر ديار مصر وخطب له بالقلعة ومصر وأما القاهرة فلم يخطب فيها لأحد . ثم وردت البشرى بانتصار المصريين ودخل المعز إلى القاهرة يـوم السبت ثانى عشر ذى القعـدة (ق ١١٣ أ) ومعه الصالح اسماعيل تحت الاحتياط ، ورجع الناصر إلى الشام سنة تسع وأربعين وأنفق الأموال وجهز عسكرا إلى غزة . وخرج المصريون إلى السائح ، فأقاموا إلى أن دخلت سنة خمسين وقيل إحدى وخمسين ، فاستقر الصلح على أن للمصريين إلى نهر الأردن وللناصر ما راء ذلك بواسطة البادرائى[١] رسول الخليفة .

غير ذلك وفى سنة اثنتين وخمسين خرج جماعة من البحرية إلى الشام وأطمعوه[٢] وخرج إلى عمتا من الغور[٣] وأرسل إلى غزة عسكرا ونزل المعز العباسية ثم جاء البادرائى فى سنة ثلاث وخمسين فأصلح بينهم على أن للناصر إلى العريش لهم ما سوى ذلك .

وفى سنة أربع وخمسين أرسل للناصر كمال الدين بن العديم[٤] إلى الخليفة ومعه تقدمه جليلة ووصل من جهة صاحب مصر سنقر الأقرع بتقدمة جليلة وسعى فى تعطيل خلعة الناصر ، فبقى الخليفة متحيراً ، ثم إنه احضر سكينا من اليشم[٥] وقال لابن العديم : هذه علامة أن للناصر عندى خلعة فى قت آخر . وأما هذا الوقت فلم يمكننى ، ثم أرسلها فى سنة خمس خمسين كما وعده .

وفى سنة خمس وخمسين فارق البحرية الناصر ، وسببه : أنه نقل له عنهم أنهم يريدون القبض عليه فاستوحش منهم ، وتقدم إليهم بالانتزاح ووجه فى أثرهم عسكراً فنهبوه

---

(١) انظر المختصر فى أخبار البشر ١٨٦/٣ .
(٢) المقصد : طمع الملك الناصر يوسف صاحب بلاد الشام .
(٣) قرية فى الأردن .
(٤) انظر : ذيل مرآة الزمان ٤٧٩/٢ .
(٥) نوع من الأحجار .

ثم إن الناصرية كسروهم . فانهزموا والتجأوا إلى الكرك وأطمعوا المغيث فى ملك مصر ، فانفق فيهم أموالا جليلة ، وجهزهم بعسكر إلى مصر ، فانزعج المصريون ، وبرزوا إلى العباسية فالتقوا يوم السبت منتصف ذى القعدة ، فانهزم عسكر المغيث والبحرية . فى سنة ست وخمسين أرسل الناصر ولده العزيز محمداً إلى هولاكو بتحف وهدايا ليصانعه بذلك .

ذكر أخذ التتار بلاد الشام
وما جرى للناصر

لما بلغ الناصر قصد التتر حلب ، برز من دمشق أواخر سنة سبع وخمسين ، وجفل الناس بين يدى التتار ، سار المنصور - صاحب حماة - من حماة إلى دمشق ونزل مع الناصر ، واجتمع مع الناصر أمم عظيمة . فلما دخلت سنة ثمان بلغ الناصر أن جماعة قصدا قتله ، فهرب من الدهليز إلى القلعة ، وبلغ مماليكه ذلك فهربوا وكذلك أخوه غازى ، وذلك أن المماليك أشاعوا أنهم لم يريدوا قتله وانما أرادوا سلطنة أخيه لشهامته .

وفى يوم الأحد تاسع صفر سنة ثمان وخمسين استولى التتر على حلب ، وذلك أن هولاكو نازلها وأرسل إلى المعظم بن صلاح الدين ـ نائب حلب ـ يقول : إنكم (١١٣ب) تضعفون عن لقائنا ، ونحن إنما قصدنا الناصر ، فاجعلوا لنا عندكم شحنة ، ونحن نتوجه إلى العسكر فإن كانت الكسرة على المسلمين كانت البلاد لنا . وتكونون قد حقنتم دمائكم وإن كانت الكسرة علينا فأنتم مخيرون فى الشحنة . فلم يجب المعظم ، وقال : ما لكم عندنا الا السيف . كان الرسول إليهم صاحب أرزن[1] الروم ، فتألم لذلك ، لما علم من هلاك أهل حلب ، فاحتاط بها هولاكو ثانى صفر وهجموا السور ، وقتل من المسلمين جماعة كبيرة ، منهم أسد الدين بن الزاهر ابن الناصر بن أيوب ، ثم هجموا البلد تاسع صفر ،

---

(١) مدينة مشهورة قرب خلاط . انظر معجم البلدان ١/ ١٥٠ .

وبذلوا السيف ، وصعد إلى القلعة خلق من المسلمين ، ودام القتل والنهب إلى يوم الجمعة رابع عشر صفر ، فنودى بالأمان ، ونازلوا القلعة وبها المعظم ، واستمر الحصار نحو شهرين ، وسلمت بالأمان يوم الاثنين حادى عشر ربيع الأول ، وأمر هولاكو : إن كل من سلم يمضى إلى داره لا يعارض . وجعل النائب بها بهاء الدين القزوينى ، ووصل إليه - وهو بحلب - الأشرف صاحب حمص ، ولم تكن يومئذ معه ، فردها عليه ، وأمر هولاكو بخراب سور قلعة حلب ، فخربت ، وبيعت الكتب بأبخس الأثمان . فلما سمع الناصر بأخذ حلب رحل إلى جهة مصر وفى صحبته المنصور صاحب حماة ، وانضم إليه جماعة واصطلح مع أخيه ، ثم سار الناصر إلى غزة ، فبلغه أن التتر كبست نابلس فرحل إلى العرائش ، وسير رسلاً إلى مصر بطلب المعاضدة ، وخاف إن دخل مصر أن يقبض عليه. فتأخر فى قطية[1] ، ودخلت العساكر والمنصور إلى مصر ، فلما دخلوا مصر طيب صاحبها قلب المنصور ، وأرسل إليها سنجقاً ، واستولى التتر على الشام جميعه فى تلك السنة .

وأما الناصر فلما انفرد عن العسكر بقطية بقى متحيراً ، فعزم على التوجه إلى الحجاز ، وكان له طبردار كردى اسمه حسين ، فحسن له المضى إلى التتر ، فاغتر بقوله ، ونزل ببركة زيزا[2] ، وسار حسين إلى كتبغا نائب هولاكو وعرفه موضعه ، فأرسل كتبغا وقبض عليه ، وأحضره إلى عجلون ، وكانت عاصية ، فأمرهم بتسليمها إليهم فهدموها ، وكان بالصبيبة السعيد بن العزيز ، فسلمها إليهم ، وصار معهم ، وأرسل كتبغا الناصر إلى هولاكو فوصل إلى حماة ، وبها الأشرف صاحب حمص ، فخرج إلى لقائه ، ثم سار إلى حلب ، فلما رأى ما حل بها بكى وأنشد[3] :

---

(١) قرية فى مصر . انظر معجم البلدان ٣٧٨/٤ .

(٢) قرية من قرى البلقاء . انظر معجم البلدان ١٦٣/٣ .

(٣) انظر : النجوم الزاهرة ٢٠٥/٧ ، فوات الوفيات ٣٦٣/٤ .

سقى حلب الشهباء فى كل بقعة سحائب غيث نوؤها ماء أدمعى
فتلك مرامى لا العقيق ولا اللوى وتلك ربوعى لا زرود ولعلعى (١١٤أ)

ولما بعد عنها قليلاً أنشد :

ناشدتك الله يا هطالة السحب إلا حملت تحياتى إلى حلب
لا عذر للشوق أن يمشى على قدر ماذا عسى يبلغ المشتاق فى الكتب
أحبابنا لو درى قلبى بأنكم تدرون ما أنا فيه لذ لى تعبى
لكن أصعب ما ألقاه من ألم أنى أموت ولا تدرى الأحبة بى

ثم بكى طويلاً وأنشد[1] :

يعز علينا أن نرى ربعكم يبلى وكانت به آيات حسنكم تتلى
أقلب طرفى نحوكم فى دياركم فأكثر فيها النوح كالناحية الثكلى
لقد مر لى فيها أفانين لذتى ترى هل لأوقاتى بها عودة أم لا ؟

وفى نسخة :

فما كان أهنا العيش فيها وما أحلى

أأحبابنا والله ما قلت بعدكم لحادثة الأيام رفقاً ولا مهلاً
عبرت على الشهباء وفى القلب حسرة ومن حولها ترك تتابعها مغلاً
وقد حكموا فى مهجتى حكم ظالم وما ظالم إلا سيبلى كما أبلى

ثم سار إلى الأردن فاقبل عليه هولاكو ووعده برد ملكه .

ذكر مقتل الملك الناصر سنة تسع وخمسين وستمائة :

ورد الخبر بقتله ، وعقد عزاؤه بجامع دمشق فى سابع جمادى الأولى ، وصورة الحال له: لما وصل إلى هولاكو وعده برد ملكه ، وأقام عنده ، فلما بلغ هولاكو كسرة عسكره بعين جالوت[2] وقتل كتبغا صهره ، ثم كسرة عسكره على حمص ثانياً ، غضب من ذلك

---

(١) انظر : تاريخ ابن الوردى ٢٩١/٢ ، المختصر ٢٠٤/٣ .

(٢) بلدة صغيرة بين نابلس وبيسان من أعمال فلسطين . انظر معجم البلدان ١٧٧/٤ .

وأحضر الناصر وأخاه الظاهر غازياً وقال : إن عسكر الشام فى طاعتك فغررت بى وقتلت المغل، فقال الناصر : لو كنت بالشام ما ضرب أحد فى وجه عسكرك سيفاً ، ومن يكن بتبريز[1] كيف يحكم على الشام ؟ فضربه هولاكو بفردة نشاب ، فقال الناصر : يا خوند الصنيعة ، فنهاه أخوه الظاهر ، وقال : قد حضرت ، ثم رماه بفردة ثانية فقتله ، ثم أمر بضرب رقاب الباقين ، فقتل الظاهر أخو الناصر والصالح بن صاحب حمص والجماعة ، وشفعت الخاتون فى العزيز (١١٤ب) ابن الناصر ، فبقى عندهم مدة طويلة وأحسنوا إليه ثم مات .

ذكر سيرة الناصر

كان ملكاً جليلاً ، زائد التجمل ، يذبح كل يوم فى مطبخه أربعمائة رأس غنم ، وسماطاته وتجمله فى الغاية القصوى ، حليماً تجاوز به الحلم إلى حد أضر بالمملكة . أمنت الحرامية ، وقطعت الطرق ، وبقى المسافر لا يقدر على السفر إلا برفقة من العسكر ، وكثر طمع العرب والتركمان ، وكانت الحرامية تكبس الدور ، ومع ذلك إذا حضر القاتل بين يديه يقول : الحى خير من الميت ويطلقه ، فأفسد نظامه ، وكان على ذهنه شىء كثير من الأدب والفوائد ، وله أشعار كثيرة ، منها[2] :

فــوالله لو قطعت قلبى تأســفــا ... وجرعتنى كاسات دمعى دما صرفا
لما زادنى إلا هوى ومــحــبــة ... ولا اتخذت روحى سواك لها إلفا

وزاد ملكه على ملك أبيه وجده ، فإنه ملك حلب وحران والرها والرقة ورأس عين وما مع ذلك ، وملك حمص ودمشق وبعلبك والأغوار والساحل إلى غزة ، وعظم شأنه ، وكسر

---

(١) أشهر مدن أذربيجان .

(٢) انظر : فوات الوفيات ٣٦٣/٤ ، تاريخ ابن الوردى ٣٠٣/٢ .

عساكر مصر ، وخطب له بمصر والقلعة ، وكان قد غلب على الديار المصرية لولا الأقدار وبنى بدمشق مدرسة قرب الجامع ، ووقف عليها وقفاً جليلا ، وبنى بالصالحية تربة غرم عليها جملة مستكثرة . ومن العجب أن الناصر دفن ببلاد العجم ، ودفن بتربته كرمون وهو بعض أمراء التتر . ومدة عمر الناصر اثنتان وثلاثون سنة ، وملكه خمس وعشرون سنة .

ومنهم الملك الظاهر(١)

غازى بن محمد بن غازى بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك الظاهر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر . تقدمت أخباره فى ترجمة أخيه الناصر ، وكيفية قتل التتر له سنة تسع خمسين وستمائة .

ومنهم الظاهر على(٢)

ابن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن الناصر يوسف بن أيوب بن شاذى .

ومنهم غازية خاتون(٣)

بنت العزيز محمد بن الظاهر غازى بن الناصر يوسف بن أيوب بن شاذى ، تزوجها كيخسرو صاحب الروم على صداق خمسين ألف دينار .

---

(١) انظر : شذرات الذهب ٢٩٨/٥ .

(٢) انظر : ذيل مرآة الزمان ١٣٠/٢ .

(٣) لم نعثر له على ترجمة .

ومنهم عائشة خاتون(١)

بنت العزيز محمد بن الظاهر غازى بن الناصر يوسف بن أيوب بن شاذى ، تزوجها المنصور محمد بن المظفر محمود بن المنصور محمد بن المظفر وعمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن شاذى ، وأرسل الطواشى مرشداً المنصورى ومجاهد الدين أمير جاندار وأحضرها من حلب ، فوصلت حماة فى العشر الأوسط من رمضان سنة خمس وأربعين ستمائة ، ووصلت فى تجمل عظيم واحتفل المنصور للقائها احتفالاً عظيماً (١١٥ أ) .

ومنهم الملك العادل(٢)

أبو بكر بن داود بن عيسى بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك العادل ، سيف الدين ابن الناصر ابن المعظم بن العادل . جمع بين الرياسة والفضيلة والعقل الوافر والخصال الجميلة ، وكان مجانب الناس ، محبوب الصورة ، توفى يوم الخميس عاشر رمضان سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، ودفن بالتربة المعظمية .

ومنهم الملك الأوحد(٣)

يوسف بن داود بن عيسى بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك الأوحد ، نجم الدين ابن الناصر بن المعظم بن العادل . كان من المشهورين بالجلالة والتقدم فى المجالس وعند الملوك ، كثير الإحسان إلى الضعفاء ، توفى ليلة الثلاثاء رابع عشرين ذى الحجة سنة ثمان وتسعين وستمائة بالقدس ، ودفن من الغد برباطه عند باب حطة .

---

(١) لم نعثر له على ترجمة .

(٢) انظر : تاريخ ابن الفرات ٢٨٤/٧ ، الدارس ٢٨٢/١ .

(٣) شذرات الذهب ٤٤٣/٥ ، النجوم الزاهرة ١٨٩/٨ .

ومنهم الملك المظفر[1]

غازى بن داود بن عيسى بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك المظفر ، شهاب الدين بن الناصر بن المعظم بن العادل . مولده سنة تسع وثلاثين (وستمائة) بقلعة الكرك. وكان أديباً فاضلاً متواضعاً ، حج وزار القدس ، وتوجه إلى دمشق ، ثم عاد إلى القاهرة ، فمات بها يوم الاثنين ثانى عشر رجب سنة اثنتى عشرة وسبعمائة وقت العصر ، وتوفيت زوجته ابنة عمه المغيث بن المعظم وقت العشاء الآخرة ، فخرجت جنازتهما جميعاً .

ومنهم عيسى وشاذى وحسن على[2]

وثلاث أخوة لهم لتكملة عشرة ذكور للناصر داود بن المعظم عيسى بن العادل أبى بكر ابن أيوب بن شاذى ، ومنهم ثلاث إناث أولاد الناصر داود بن المعظم عيسى بن العادل بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى .

ومنهم الملك الكامل[3]

محمد بن عبد الملك بن عيسى بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى الملك الكامل بن القاهر بن المعظم بن العادل . توفى سنة اثنتين سبعمائة .

---

(١) انظر : الدرر الكامنة ٢٩٥/٣ ، شذرات الذهب ٣١/٦ .

(٢) انظر : شذرات الذهب ٣٣١/٥ ، ذيل مرآة الزمان ٤٧٢/٢ .

(٣) لم نعثر له على ترجمة .

ومنهم على بن عبد الملك[1]

ابن عيسى بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الأمير ، ابن القاهر بن المعظم بن العادل . توفى بدمشق يوم السبت تاسع عشرين رجب سنة سبع وسبعمائة ، ودفن بقاسيون .

ومنهم عدة بنات للقاهر[2]

عبد الملك بن المعظم بن عيسى بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، منهن زوجة خوارزم شاه ، ولم يتفق حملها إليه .

ومنهم اسماعيل بن عبد العزيز[3]

ابن عيسى بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الأمير عماد الدين بن المغيث بن المعظم ابن العادل . توفى ثامن عشرين ربيع الآخر سنة أربع عشرة وسبعمائة ، ووالد محمد .

ومنهم أولاد المغيث[4]

عبد العزيز بن المعظم بن عيسى بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شاذى .

---

(١) انظر : الدرر الكامنة ٣/١٥٠ .

(٢) لم نعثر له على ترجمة .

(٣) انظر : الدرر الكامنة ١/٣٩٣ .

(٤) لم نعثر له على ترجمة .

ومنهم خاتون بنت عبد العزيز المغيث[1]

ابن المعظم عيسى بن أبى بكر بن العادل بن أيوب بن شاذى(١١٥ب) زوجة ابن عمها غازى بن الناصر داود بن المعظم عيسى ابن العادل أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، توفى المظفر يوم الاثنين ثانى عشر رجب سنة اثنتى عشرة وسبعمائة وتوفيت هى بعد العشاء ، وخرجت جنازتهما جميعاً بالقاهرة .

ومنهم ابن للسعيد حسن[2]

ابن العزيز عثمان بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شاذى .

ومنهم المسعود يوسف[3]

ابن يوسف بن محمد بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى . الملك المسعود ابن المسعود بن الكامل بن العادل . مات أبوه وهو صغير فى سنة ست وعشرين وستمائة فسماه جده الكامل باسم أبيه ، ولقبه بلقبه ، ومات فى أيام عمه الصالح أيوب ، وخلف ولده الأشرف موسى .

ومنهم الملك المغيث[4]

عمر بن أيوب بن محمد بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك المغيث بن الصالح

---

(١) انظر : البداية والنهاية ٦٨/١٤ ، النجوم الزاهرة ٢٢٤/٩ ، شذرات الذهب ٣١/٦ .

(٢) لم نعثر له على ترجمة .

(٣) انظر : مفرج الكروب ٢٦٢/٤ .

(٤) انظر : شذرات ٢١٥/٥ ، تاريخ ابن الوردى ٢٥٠/٢ ، السلوك ٣١٨/١ .

ابن الكامل بن العادل . كان ولداً حسناً عاقلاً دينا ، أسره عم أبيه الصالح اسماعيل فى سنة ثمان وثلاثين وستمائة وحبسه فى بعض أبراج قلعة دمشق . وكان عاقلاً لم يسمع منه كلمة فحش ، ولا كسر قلب أحد وكان جواداً ، وتخلى عنه أبوه بعدما بالغ فى خلاصه فلم يقدر . ومات غماً وغبناً فى السجن ليلة الجمعة ثانى عشر ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، فحمل إلى تربة جده الكامل فدفن بها .

ومنهم الملك المعظم[1]

توران شاه بن أيوب بن محمد بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك المعظم ، غياث الدين بن الملك الصالح بن الكامل بن العادل . لما توفى أبوه سنة سبع وأربعين وستمائة جمع فخر الدين ابن الشيخ الأمراء وحلفهم للمعظم . وكان بحصن كيفا ونفذوا فى طلبه الفارس أقطاى[2] فسار على البرية لئلا يعترضه أحد من ملوك الشام ، فكاد يهلك عطشا هو ومن معه وكانوا خمسين ، فساروا إلى عانة ، وعبروا على بر السماوة ، ودخل دمشق بأبهة السلطنة فى أواخر رمضان ، ونزل القلعة ، وأنفق الأموال ، وأحبه الناس ، ثم سار إلى الديار المصرية بعد عيد الأضحى ، فاتفق كسرة الفرنج عند قدومه ، ففرح الناس وتيمنوا بطلعته ، لكن بدت منه أمور نفرت منه القلوب ، منها أنه كان فيه خفة وطيش وسوء تدبير. وكان أبوه يقول : إنه لا يصلح للملك ، وكان حسام الدين بن أبى على يلح على أبيه فى مجيئه فيقول : أجيبه لهم يقتلوه ؟ فكان كما قال . ولما ولى دفع خبز حسام الدين إلى جوهر الخادم[3] لا لأمه ، وانتظر الأمراء أن يعطيهم كما أعطى (١١٦ أ) أمراء دمشق فما رأوا لذلك أثراً . وكان لا يزال يحرك كتفه الأيمن مع نصف وجهه وكثيراً ما يولع بلحيته ،

---

(١) انظر : ذيل الروضتين ١٨٥ ، فوات الوفيات ٢٦٣/١ ، المختصر ١٨١/٣ .

(٢) انظر : النجوم الزاهرة ٣٣/٧ .

(٣) انظر : فوات الوفيات ٢٦٤/١ .

ومتى سكر ضرب الشمع بالسيف ، وقال : هكذا أريد أن أفعل بغلمان أبى ، فتشوش قلوب الجميع . لكنه كان قوى المشاركة فى العلوم ، حسن المباحث ، ذكيا . ومنها : أنه احتجب عن أمور الناس وانهمك على الفساد مع الغلمان ، وما كان أبوه كذلك . وقيل : إنه تعرض لحظايا أبيه . ومنها : أنه قدم الأراذل وأخر خواص أبيه . وكان قد وعد الفارس اقطاى لما قدم عليه الى الحصن أن يؤمره فما وفى له فغضب .

وكانت أم خليل شجر الدر زوجة والده قد ذهبت من المنصورة إلى القاهرة ، فجاء هو إلى المنصورة وأرسل يهددها ويطالبها بالأموال ، فعاملت عليه ، فلما كان سابع عشرين المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة جلس على السماط فضربه بعض البحرية ، فتلقى الضربة فذهبت بعض أصابعه ، فقام ودخل البرج الخشب الذى عمل له هناك وصاح : من جرحنى ؟ فقالوا : بعض الحشيشية ، فقال : لا والله إلا البحرية ، والله لافنينهم ، وخيط المزين يده وهو يتهددهم ، فقالوا فيما بينهم : تمموه وإلا أبادنا ، فهجموا عليه البرج ، فانهزم إلى اعلاه ، فأوقدوا فيه النار ، فرمى بنفسه وتعلق بذيل الفارس اقطاى فما أجاره فهرب إلى النيل وهو يصيح : ما أريد ملكاً ، دعونى أرجع إلى الحصن يا مسلمون ، أما فيكم من يجيرنى ؟ وكان الذى باشر قتله أربعة .

وحكى أن أباه قال للطواشى محسن : اذهب إلى أخى العادل إلى الحبس وخذ معك من المماليك من يخنقه ، فعرض محسن ذلك على جميع المماليك فامتنعوا إلا هؤلاء الأربعة ، فسلطهم الله على ولده فقتلوه أقبح قتله جرى فاقاً ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾[1].

وبقى ملقى على جانب النيل ثلاثة أيام منتفخاً حتى شفع فيه رسول الخليفة . قال ابو شامة : أخبرنى من شاهد قتله أنه ضرب أولاً فتلقى السيف بيده ، فاغتبط الناس وقالوا : بعد جرح الحية لا ينبغى إلا قتلها ، فلبسها وأحاطوا بالبرج وأمروا زراقاً باحراق البرج ،

---

(١) سورة فصلت : الآية ٤٦ .

فامتنع ، فضربوا عنقه وأمروا آخر فرماه بالنفط ، فهرب من بابه ، وناشدهم الله فى الكف عنه وأنه مقلع عما نقموا عليه ، فما أجابوه ، فدخل البحر إلى خلفه فضرب البندقدارى بالسيف فوقع ، وقيل : ضربه على عاتقه فنزل السيف تحت ابطه الأخرى . وحدثت : أنه بقى يستغيث برسول الخليفة ، يا أبا عز الدين أدركنى ، فجاء وكلمهم فيه فردوه وخوفوه من القتل فرجع ، فلما أول أودى لا بأس على الناس وإنما كانت حاجة (١١٦ ب) قضيناها ، وسلطنوا شجر الدر . وقال أبو شامة : سلطنوا المعز أيبك ، وفيه نظر .

قال ابن واصل : لما دخل قلعة دمشق قامت الشعراء فابتدأ شاعر بقصيدة أولها :

قل لنا كيف جئت من حصن كيفا حين أرغمت للأعادى أنوفا

فقال المعظم فى الوقت :

الطريق الطريق يا ألف نحس تارة آمناً وطوراً مخوفا

فلما نزل بقصر الصالحية ، وقع الصريخ بموت أبيه . وكانت مدة كتمان موته ثلاثة أشهر ، وكان يخطب بولاية العهد للمعظم ، ثم قدم عليه نائب السلطنة حسام الدين بن أبى على فخلع عليه خلعة تامة ، وسيفاً محلى ، وفرساً بسرج محلى ، وثلاثة آلاف دينار . قال : كنت يومئذ مع حسام الدين فذكرنى للسلطان فأتيت وقبلت يده ، ثم حضرت أنا وجماعة من علماء مصر عنده فأقبل علينا . وذكر ابن نباتة[١] مشاكلة للخطيبين عماد الدين وأصيل الدين الأسعردى ، فما نطقا لخلوهما من فضيلة . فقلت : إن بعض الناس رد عليه فى قوله : الحمد لله الذى إن وعد وفى وإن توعد عفى ، كأنه نظر إلى قول الشاعر[٢] :

وإنى وإن أوعدته وعدته لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

(١) انظر : البداية النهاية ٣٢٢/١٤ ، حسن المحاضرة ٣٢٩/١ ، الدرر الكامنة ٢١٦/١ .

(٢) انظر ديوانه ٥٨ .

وهذا مدح للآدمى ، ولكنه لا يكون مدحاً فى حق الله ، إذ الخلف فى كلامه محال عقلاً . فأقبل على وقال : أليس الله يعفو بعد الوعيد ؟ قلت : يا خوند هذا حق ولكنه يكون وعيده مخلقاً فإذا عفى عن شخص من المتواعدين علم أنه ما أراد الخلف ، وهو محال، فأعجبه ، وأخذ يحادثنى فى أشياء من علم الكلام وغيره من الأدب ، فتكلم كلاماً حسناً ورجح أبا تمام على المتنبى ، وأشار إلى حسام الدين وقال : الأمير حسام الدين يوافقنى على ترجيحه . ثم وصلنا إلى المنصورة لسبع بقين من ذى القعدة فنزل بقصر أبيه ، وقدم جماعة من علماء القاهرة كابن عبد السلام والأرموى[1] ونفق سوق الفضائل عنده انتهى .

قال بعضهم[2] رأيت الصالح بعد قتل المعظم فى المنام وهو يقول :

قتلوه شر قتله ... صار للعالم مثله

لم يراعوا فيه إلا ... لا ولا من كان قبله

ستراهم عن قريب ... لأقل الناس أكله

ومنهم المنصور خليل[3]

ابن الصالح أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شاذى . أمه شجر الدر ، أم ولد ، ثم زوجة . ولد سنة ثمان وثلاثين وستمائة وبقى قليلاً ومات طفلاً .

---

(١) انظر : النجوم الزاهرة ٣٨/٨ .

(٢) انظر : النجوم الزاهرة ٣٧٢/٦ .

(٣) انظر : ذيل مرآة الزمان ٦١/١ .

ومنهم الملك المغيث[1]

عمر بن أبى بكر بن محمد بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك المغيث ، فتح الدين بن الملك العادل بن الكامل بن العادل . ولد سنة ست وستمائة ، قاله الدوادار وليس بصحيح ، فإن أباه العادل لم يكن ولد حينئذ ، انتهى . ولما وصل المعظم بن الصالح أيوب إلى مصر اعتقل ابن عمه بالشوبك ، فلما قتل المعظم بادر بدر الدين الصوابى النائب على الكرك والشبك فأفرج عن المغيث وملكه القلعتين الكرك والشوبك ، وقام فى خدمته أتم قيام وذلك فى سنة ثمان وأربعين وستمائة .

وفى سنة خمس وخمسين خرجت البحرية عن طاعة المصريين والتجأوا إلى الناصر يوسف ، ثم طردهم ، فالتجأوا إلى المغيث وأطمعوه ، فأرسل معهم عسكرا فالتقوا منتصف ذى القعدة ، فانهزمت البحرية وفيهم بيبرس البندقدارى المسمى بعد ذلك بالظاهر .

ذكر كسرته سنة ست وخمسين

ثم خرج المغيث بالبحرية وخيم بغزة ، وجمع الجموع وسار إلى مصر فى دست السلطنة ، وخرجت عساكر مصر مع المعز أيبك ، والتقى الفريقان ، فكانت الكسرة على المغيث ، فولى منهزما إلى الكرك فى أسوأ حال ونهبت أثقاله ودهليزه .

ذكر منازلة الناصر يوسف الكرك

فى سنة ست وخمسين كان بين الناصر وبين البحرية مصاف بظاهر غزة ، انهزم عسكر الناصر ، وقوى أمر البحرية بعد ذلك . فلما كانت سنة سبع وخمسين سار الناصر بنفسه

---

(١) انظر : شذرات الذهب ٣١٠/٥ ، النجوم الزاهرة ٢١٥/٧ ، المختصر ٢١٦/٣ ، السلوك ٥٢٢/١ .

وفى صحبته المنصور صاحب حماة ونزل على بركة زيزاء منازلا للمغيث بسبب حمايته البحرية . ووصل الناصر رسل المغيث والقطبية بنت الملك المفضل قطب الدين بن العادل يتضرعون ويطلبون رضاه ، فلم يمل إلى ذلك إلا بشرط أن يقبض المغيث على من عنده من البحرية ، فأجاب إلى ذلك ، وعلم بيبرس البندقدارى فهرب مع جماعة وقبض المغيث على من بقى عنده وأرسلهم على الجمال إلى الناصر فبعث بهم إلى حلب فاعتقلوا بها . واستقر الصلح بين الناصر والمغيث ، وكانت مدة مقام الناصر على بركة زيزاء ما يزيد على الشهرين.

ذكر القبض على المغيث سنة إحدى وستين وستمائة (١١٧ ب)

سار الظاهر بيبرس إلى الشام وكان المغيث متخوفاً ، فأرسل والدته فلاقت الظاهر ، توثقت لابنها بالامان ، وأحسن إليها ، ثم توجهت إلى الكرك وصحبتها شرف الدين الجاكى يرسم حمل الاقامات فى الطرقات برسم المغيث ، وكل ذلك من الخدع ، فإن الظاهر بيبرس كان فى قلبه من المغيث غيظ لأمور كانت بينهما : قيل : إن المغيث أكره امرأة الظاهر لما قبض على البحرية وأرسلهم إلى الناصر يوسف صاحب دمشق وهرب الظاهر المذكور، وبقيت امرأته فى الكرك ، وما زال الظاهر يجتهد على حضور المغيث ، وكان عند المغيث شخص يسمى الأمجد كان يبعثه فى الرسيلة إلى الظاهر ، فكان الظاهر يبالغ فى اكرامه ، فاغتر الأمجد بذلك وما زال على مخدومه المغيث حتى أحضره إلى الظاهر . قال شرف الدين بن مزهر – وكان ناظر خزانة المغيث لما عزم على التوجه إلى الظاهر لم يكن قد بقى عنده شيء من المال ولا القماش ، وكان لوالديه حواصل فى البلاد فبعناها بأربعة وعشرين ألف درهم ، فاشترينا باثنى عشر ألفاً خلعاً من دمشق وجعلنا فى صناديق الخزانة الاثنى عشر ألف الأخرى ، ونزل المغيث من الكرك وأنا والأمجد وجماعة من أصحابه فى

خدمته ، وشرعت البريدية تصل إلى المغيث فى كل يوم بمكاتبات الظاهر ويرسل صحبتهم مثل غزلان ونحوها والمغيث يخلع عليهم حتى نفد ما كان فى الخزانة من الخلع ، من جملة ما كتب إليه الظاهر : إن المملوك ينشد فى قدوم مولانا :

خليلى هل أبصرتما أو سمعتما ... بأكرم من مولى تمشى إلى عبد[1]

وكان الخوف فى قلب المغيث شديد ، قال ابن زهر : ففاتحنى بشيء من ذلك بالليل ، فقلت له : احلف لى أنك ما تقول للأمجد ما أقول لك حتى أنصحك ، فحلف لى ، فقلت : اخرج الساعة من تحت الخام فاركب حجرتك النجيلة ولا يصبح صباحك إلا وأنت بالكرك ، فتعصى فيه وما تفكر بأحد ، قال ابن مزهر : فغافلنى وتحدث مع الأمجد فى شيء من ذلك ، فقال الأمجد : هذا رأى ابن مزهر اياك من ذلك ، وسار المغيث ووصل إلى بيسان ، فركب الظاهر بعساكره والتقاه فى يوم السبت سابع عشرين جمادى الأولى ، فلما شاهد المغيث الظاهر ترجل فمنعه الظاهر وأركبه ، وساق إلى جانبه وقد تغير وجه الظاهر ، فلما قارب الدهليز أفرد المغيث عنه (١١٨ أ) وأنزله فى خيمة وقبض عليه وأرسله معتقلاً إلى مصر ، وكان آخر العهد به . قيل : إنه حمل إلى امرأة الظاهر بقلعة الجبل فأمرت جواريها فقتلته بالقباقيب ، ثم قبض الظاهر على جميع أصحابه ومن جملتهم ابن مزهر . انتهى

ولما قبض الظاهر على المغيث أحضر القضاة وأوقعها على مكاتبات من التتر إلى المغيث أجوبة عما كتب به إليهم فى اطماعهم فى مصر والشام ، وكتب بذلك مشروح وأثبت على الحكام ، وكان له ولدان : العزيز عثمان أعطاه الظاهر إمرة مائة بمصر ، وشرف الدين . ثم سار الظاهر إلى الكرك فرتب امورها ، وأورد الدوادار وفاته سنة إحدى وسبعين ، وكان مسجوناً بخزانة البنود ، ودفن بتربتهم المجاورة للامام الشافعى .

---

(١) انظر : وفيات الأعيان ١٣/٥ .

ومنهم عمر ومحمد وعلى(١)

وملكة خاتون ودنيا خاتون وبنت أخرى لعلها مؤنسة أولاد غازية خاتون بنت الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، يأتون فى الطبقة السادسة ،فإنهم أولاد محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن شاذى .

ومنهم عائشة خاتون(٢)

بنت فاطمة خاتون بنت الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شاذى تقدمت فى هذه الطبقة ، فإنها بنت محمد بن غازى بن يوسف بن أيوب بن شاذى .

ومنهم الملك الكامل(٣)

محمد بن عبد الملك بن اسماعيل بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى الملك الكامل ، ناصر الدين بن السعيد بن الصالح بن العادل . جعله العادل كتبغا أحد أمراء الطلبخاناة بدمشق يوم الخميس سابع عشر محرم سنة ست وتسعين وستمائة .

ومنهم بُسْت خاتون(٤)

بنت الجواد يونس بن المعظم ممدود بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شاذى . توفيت فى العشر الأوسط من ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين وستمائة ودفنت عند والدها بقاسيون .

---

(١) لم نعثر له على ترجمة .

(٢) لم نعثر له على ترجمة .

(٣) انظر : النجوم الزاهرة ٢٦٩/٩ ، الدارس ٢٨٦/٢ ، ذيل العبر ١٥٣ ، الدرر الكامنة ١٥٠/٤ .

(٤) انظر : الدرر الكامنة ٢٤٨/٢ ، فوات الوفيات ٢١٨/٣ .

ومنهم على بن الجواد يونس[1]

ابن المعظم ممدود بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شاذى . توفى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة .

ومنهم يوسف بن محمد[2]

ابن ضيفة خاتون بنت أبى بكر بن أيوب بن شاذى . مقدم فى هذه الطبقة ، فإنه يوسف بن محمد بن غازى بن يوسف بن أيوب بن شاذى .

***

(١) انظر : ترويح القلوب ١١١ .

(٢) لم نعثر له على ترجمة .

الطبقة السادسة

فمنهم على بن المعظم عيسى(١)

ابن الزاهر داود بن المجاهد شيركوه بن القاهر محمد بن المنصور شيركوه بن شاذى .

ومنهم السعيد نور الدين(٢)

شاهنشاه بن الأمجد بهرام شاه بن فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب ابن شاذى .

ومنهم عمر بن المظفر محمود(٣)

ابن المنصور محمد (١١٨ب) بن المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن شاذى . مات طفلاً .

ومنهم الملك المنصور محمد(٤)

ابن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن شاذى الملك المنصور ، ناصر

---

(١) لم نعثر له على ترجمة .

(٢) ورد فى ترويح القلوب ٥٠ .

(٣) لم نعثر له على ترجمة .

(٤) انظر : النجوم الزاهرة ٣٦٣/٧ ، شذرات الذهب ٣٨٤/٥ ، البداية والنهاية ٣٠٥/١٣ ، الوافى بالوفيات ١١/٥ .

الدين ، أبو المعالى بن الملك المظفر بن المنصور بن المظفر ، صاحب حماة . ولد يوم الخميس لليلتين بقيتا من ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وستمائة وذلك بعد مقدم والده بيومين ، وكان فى الغزاة ، فقال شرف الدين مادحاً ومهنئاً :

غدا الملك محروس الذرا والقواعد ... بأشرف مولود لأشرف والد
حبينا به يوم الخميس كأنه ... خميس بدا للناس فى شخص واحد
وسميته باسم النبى محمدٍ ... وجديه ، فاستوفى جميع المحامد

أى باسم جده الكامل محمد والد والدته ، والمنصور محمد والد والده .

تهيأ منه للمعالى مثقف ... يجمع من أشتاتها كل شارد
دعته أباها ، وهو فى المهد ، فاعجبوا ... لفرع مساوٍ أصله فى الموارد

ومنها :

كأنى به فى سدة الملك جالسا ... وقد شاد فى أوصافه كل شائد
ووفاك من أبنائه وبنيهم ... بأنجم سعد ، نورها غير خامد
ألا أيها الملك المظفر دعونى ... سيورى بها زندى ويشتد ساعدى
وبشرنا من قبل مولده به ... من الله آى صادقات المواعد
فحمداً ، وشكرا للإله مخلداً ... على منن منه جسام خوالد
فذا اليوم نال الملك أشرف مقصد ... وحلقت النعمى ظنون القصائد

وأمه غازية خاتون بنت الكامل محمد بن العادل بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى .

ذكر ولايته حماة

مات والده يوم السبت ثامن جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، فملك هو وعمره عشر سنين وشهر وثلاثة عشر يوماً ، والقائم بأمره طغريل[1] مملوك والده ومشاركه

---

(١) انظر : النجوم الزاهرة ٢٧٩/٨ .

الشيخ شرف الدين شيخ الشيوخ والطواشى مرشد والوزير بهاء الدين بن التاج ومرجع الجميع إلى (١١٩ أ) والدة المنصور .

غير ذلك :

وفى سنة ثمان وخمسين حضر المظفر قطز[١] إلى الشام بسبب التتر وحضر إليه المنصور فمن الله تعالى بكسرتهم على عين جاوت ، وعاد المظفر إلى دمشق فى صحبته المنصور ، فأحسن المظفر إلى المنصور وأقره على حماة وبارين ، وأعاد عليه المعرة وكانت بأيدى الحلبيين من حين استولوا عليها سنة خمس وثلاثين وستمائة ، وأخذ سلمية منه وأعطاها أمير العرب. ثم أعطاه الدستور ، فقدم المنصور قدامه مملوكه مبارز الدين آقوش النصرى إلى حماة ، ثم سار المنصور وأخوه الأفضل ووصلا حماة ، فلما استقر المنصور قبض على جماعة كانوا مع التتر ، وهنأه الشيخ شرف الدين بقصيد[٢] منها :

رعت العدا فضمنت ثل عروشها ... ولقيتها ، فأخذت فل جيوشها
نازلت أملاك التتار ، فأنزلت ... عن فحلها قسراً وعن إكديشها
فغدا لسيفك فى رقاب كماتها ... حصد المناجل فى يبيس حشيشها
فلت الملوك ببذل ما تحويه إذ ... ختمت خزائنها على منقوشها

ومنها :

وطويت عن مصر نسيج مراحل ... ما بين بركتها وبين عريشها
حتى حفظت على العباد بلادها ... من رومها الأقصى إلى أحبوشها
فرشت حماة لوطء نعلك خدها ... فوطئت عين الشمس من مفروشها
وضربت سكتها التى أخلصتها ... عما يشوب النقد من مغشوشها
وكذا المعرة إذ ملكت قيادها ... دهشت سروراً سار فى مدهوشها
طربت برجعتها إليك كأنما ... سكرت بخمرة جاشها أو جيشها
لا زلت تنعش بالنوال فقيرها ... وتنال أقصى الأجر من منعوشها

---

(١) انظر : ذيل مرآة الزمان ٣٨/٢ ، فوات الوفيات ٢٠١/٣ .

(٢) انظر : ديوانه ٢٦٩ .

وفى سنة تسع وخمسين قصد التتر حماة ، وأقاموا عليها يوماً واحداً ثم رحلوا ، فأراد المنصور الرحيل إلى دمشق فمنعته العامة من ذلك حتى استوثقوا منه أنه يعود إليهم عن قريب ، فسافر هو وأخوه الأفضل فى جماعة قليلة وبقى الطواشى مرشد فى باقى العسكر بحماة ، ونزل بدمشق فى داره ، ثم عاد إلى بلده فى سنته .

وفى سنة ستين وستمائة تقدم الظاهر بيبرس إلى المنصور والى صاحب حمص أن يسيروا للاغارة على أنطاكية ، فساروا (١١٩ب) إليها وضايقوها ، ثم عادوا ومعهم ماينيف على ثلاثمائة أسير . وفيها جهز المنصور شيخ الشيوخ شرف الدين رسولاً إلى الظاهر بيبرس ، فوجد الظاهر عاتباً على المنصور لاشتغاله عن مصالح المسلمين باللهو ، ثم انصلح خاطر الظاهر وحمل الشيخ ما طيب به قلب المنصور .

وفى سنة أربع وستين وستمائة خرج الظاهر بيبرس إلى الشام وقدم عليه وهو بصفد المنصور ، فلما دخل الظاهر دمشق جرد عسكرا ضخماً وقدم المنصور عليهم إلى بلاد الأرمن، فوصلوا إلى سيس[1] فى ذى القعدة وكان صاحبها هيتوم بن قسطنطين بن باسيل قد حصن بلاده وجعل عسكره مع ولديه على الطرقات لحفظ بلادهم ، فداستهم العساكر الإسلامية وأفنوهم قتلاً وأسراً ، وقتل ابن صاحب سيس الواحد ، وأسر الآخر ، وفتحت قلعة العامودين وقتل أهلها ، ثم عادت العساكر وقد امتلأت أيديهم من الغنائم ، فخرج الظاهر إلى دمشق ثم إلى حماة ثم إلى فامية ولاقى العسكر وهنأه ابن عبد الظاهر بقوله :

جعلت سيساً فوقها تحتها   والناس قالوا : سيس لا تنقلب

وفى سنة خمس وستين دخل المنصور مصر وتوجه إلى الإسكندرية متفرجاً وأمر الظاهر أهل الثغر باكرامه ، ففرشت الشقق بين يدى فرسه ، ثم عاد فخلع عليه الظاهر ورسم له بالعود ، فتوجه إلى بلاده .

---

(١) بلد عظيم من مدن ثغور الشام تقع بين أنطاكية وطرسوس . انظر معجم البلدان ٢٩٧/٣ .

وفى سنة ثمانين كانت الوقعة العظيمة على حمص ورأس الميمنة المنصور محمد فى عسكر النصور قلاوون[1] ، فأنزل الله النصر على الميمنة ، فهزموا العدو .

وفى أوائل سنة اثنتين وثمانين قدم المنصور وصحبته أخوه الأفضل إلى مصر ، فبالغ المنصور قلاوون فى اكرامهما وأنزلهما بالكبش ، وأركب المنصور بالسناجق ، وسأله عن حوائجه ، فقال : حاجتى أن أعفى من هذا اللقب فإنه ما بقيى صلح لى أن ألقب بالملك المنصور وقد صار لقب مولانا السلطان الأعظم ، فقال قلاوون : أنا ما تلقبت بهذا اللقب إلا لمحبتى فيك ، ولو كان غير هذا لتلقبت به ، فشىء قد فعلته محبة لك ،كيف سأتمكن من تغييره وأطلع المنصور قلاوون إلى حفر خليج البحيرة صاحب حماة فى خدمته ثم أعطى بعد ذلك الدستور لصاحب حماة فعاد مكرماً .

ذكر وفاة الملك المنصور وسيرته (٢٠ أ)

ابتدأ به المرض بعد عوده من دمشق فى أوائل شعبان ، ومرضه حمى صفراوية داخل العروق ، ثم صلح مزاجه بعض الصلاح ، فأشار الأطباء بدخوله الحمام ، فدخلها فعاوده المرض ، وأحضر له الأطباء من دمشق مع من كان فى خدمته ، واشتد به ذات الجنب ، ولم يفد العلاج وفى مدة مرضه عتق مماليكه وتاب توبة نصوحاً ، وكتب إلى المنصور قلاوون فى إقرار ابنه المظفر محمود مكانه ، وتوفى بكرة حادى عشر شوال سنة اثنتين وثمانين ، وعمره إحدى وخمسون سنة وستة شهور وأربعة عشر يوماً ، ومدة ملكة إحدى وأربعون سنة وخمسة أشهر أربعة أيام ، وكان أكبر أمانيه أن يسمع جواب المنصور فيما سأله من إقرار ولده ، فاتفق وصول الجواب بعد موته بستة أيام .

ونسخة الجواب[2] : بعد البسملة : المملوك قلاوون ، أعز الله أنصار المقام العالى

---

(١) انظر : النجوم الزاهرة ٢٩٢/٧ ، شذرات الذهب ٤٠٩/٥ .

(٢) وردت فى المختصر ١٨/٣ ، تاريخ ابن الوردى ٣٣١/٢ .

المولوى السلطانى الملكى المنصورى الناصرى ، ولا عدمه الاسلام ولا فقدته السيوف والأقلام ، وحماه من أذى داء وعود عواد وإلمام آلام المملوك يجدد الخدمة التى كان يود تجديدها شفاها ، ويصف ما عنده من الألم لما ألم بمزاجه الكريم ، حتى إنه لم يكد يفتح بحديث فاها ، ولما وقفنا على كتاب المولى المتضمن بمرض الجسد المحروس ، وما انتهى إليه الحال ، كادت القلوب تنشق والنفوس تذوب حزناً ، والرجاء من الله أن يتداركه بلطفه ، وأن يمن بعافيته ، التى رفع فى مسألتها يديه وبسط كفيه ، وهو يرجو من كرم الله معالجة الشفاء ، ومداركة العافية الموردة بعد الكدر مورد الصفاء ، وأن الله يفسح فى أجل المولى ويهبه العمر الطويل ، وأما الاشارة الكريمة إلى ما ذكره من حقوق يوجبها الاقرار ، وعهود أمنت بدورها من السرار ، ونحن بحمد الله فعندنا تلك العهود ملحوظة ، وتلك المودات محفوظة ، فالمولى يعيش قرير العين ، فما ثم إلا ما يسره من إقامة ولده مقامه ، ولا يحول ولا يزول لا يرى على ذلك ذلة ولا ذهول ، ويكون المولى طيب النفس ، مستديم الأنس ، يصدق العهد القديم وبكل ما يؤثر من خير مقيم .

وكان المنصور ذكياً فطناً (١٢٠ ب) محبوب الصورة ، له قبول عظيم عند ملوك الترك ، حليماً إلى الغاية ، يتجاوز عما يكره ، ويكتمه ولا يفضح قائله ، من ذلك : أن الملك الظاهر بيبرس قدم مرة إلى حماة ، ونزل بالدار المعروف بـ دار المبارز فرفع إليه أهل حماة قصصاً يشكون فيها المنصور فأمر الظاهر دواداره سيف الدين بلبان الرومى[١] أن يجمع القصص ولا يقرأها ويحملها فى منديل إلى المنصور ، فأحضرها الدوادار إلى المنصور وقال : إنه والله لم يطلع السلطان (يعنى الملك الظاهر) على قصة منها وقد حملتها إليك ، فتضاعف دعاء المنصور للظاهر ، وخلع على الدوادار وأخذ القصص . فقال بعض الجماعة : سوف يرى من تكلم بشىء ما يلتقى فأمر المنصور باحضار نار وحرق تلك القصص ، ولم يقف على شىء منها لئلا يتغير خاطره على رافعها .

---

(١) انظر : النجوم الزاهرة ٣٤٩/٧ .

ومنهم الملك الأفضل[1]

على بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى ، الملك الأفضل ابن المظفر بن المنصور بن المظفر . ولد سنة خمس وثلاثين وستمائة فى أواخرها . ووالدته غازية خاتون بنت الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شاذى .

لما ماتت والدته حصل بينه وبين أخيه المنصور محمد وحشة ، فعزم أن ينزح من حماة وأذن له أخوه فى ذلك ، فاجتمع الشيخ شرف الدين شيخ الشيوخ بالأفضل ، وعرفه ما يعتمده من السلوك مع أخيه ، ثم اجتمع بالمنصور وقبح عنده مفارقة أخيه ، وما برح بينهما حتى زال ما بينهما وصار لكل واحد عند الآخرة من المحبة المكانة ما يفوق الوصف . يأتى بعض أخباره .

سار من حلب إلى دمشق فتوفى بها يوم الاثنين مستهل ذى الحجة سنة اثنتين وتسعين وستمائة، وصلى عليه بجامعها ، ونقل لوقته إلى حماة فدفن بها هو والد المؤيد اسماعيل.

ومنهم ملكة خاتون[2]

بنت المظفر محمود بن المنصور محمد بن المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى. وهى أكبر أخوتها ، أمها غازية خاتون بنت الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شاذى . توفيت قبل والدتها بقليل ، ووفاة والدتها سنة ست وخمسين وستمائة .

---

(١) انظر : تاريخ ابن الوردى ٤٣٠/٢ ، المختصر ٢٩/٤ ، البداية والنهاية ٣٣٤/١٣ .

(٢) انظر : المختصر ٣/ ١٩٦ ، ذيل مرآة الزمان ٧٥/١ .

ومنهم دنيا خاتون[1]

بنت المظفر محمود بن المنصور محمد بن المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى أمها غازية خاتون بنت الكامل محمد العادل أبى بكر بن أيوب بن شاذى توفيت بعد أخيها المنصور محمد ، ووفاته سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

ومنهم مؤنسة خاتون[2]

بنت المظفر محمود بن المنصور محمد بن المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى عمرت بحماة المدرسة الخاتونية ، وهى دار الوزير المعروفة بـ « دار الأكرم » .

وللمظفر محمود المذكور بنت لم أقف لها على اسم من غازية خاتون بنت الكامل المذكور ، ما أدرى هل هى مؤنسة هذه أم غيرها .

ومنهم الملك العزيز[3]

محمد بن يوسف بن محمد بن غازى بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك العزيز ابن الملك الناصر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر . أرسله والده فى سنة ست وخمسين وستمائة إلى هولاكو بهدية ، ولما قتل أبوه سنة تسع وخمسين شفعت فيه الخاتون زوجة هولاكو فبقى عندهم مدة طويلة مكرماً ثم مات .

---

(١) انظر : تاريخ ابن الوردى ٢/٢٨٥ ، ذيل مرآة الزمان ١/ ٧٥

(٢) انظر : تاريخ المختصر ٤/٥١ ، تاريخ ابن الوردى ٢/٣٦١

(٣) انظر : المختصر ٣/ ٣١٢ .

ومنهم أحمد بن على[1]

ابن محمد بن غازى بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الأمير نور الدين ، ويدعى زبالة ابن الظاهر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر ، وأمه زوجة الأمير بيسرى[2] المعروفة بوجه القمر. توفى بالقاهرة فى شوال سنة ثمانين وستمائة ، وعمره ست وعشرون سنة ، كان بديع الحسن ، تام الخلقة ، عنده شجاعة وله مروءة .

ومنهم علاء الدين على[3]

ابن يوسف بن محمد بن غازى بن يوسف بن أيوب بن شاذى . ولد الملك الناصر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر . مولده سنة ثلاث وخمسين ، واعتقل فى سابع عشر رمضان سنة ثمان سبعين ، فحصل له ماخوليا ، فلما اشتدت به قتل نفسه تاسع عشر محرم سنة ست وثمانين وستمائة فى الاعتقال .

ومنهم الملك المظفر محمود[4]

ابن عائشة خاتون بنت العزيز محمد بن الظاهر غازى بن أيوب بن شاذى . يأتى فى الطبقة السابعة . فإن محمود بن محمد بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى ، توفى سنة ثمان وتسعين وستمائة .

---

(١) انظر : ترويح القلوب ٩٣ .

(٢) انظر : ذيل مرآة الزمان ٣٢٨ .

(٣) انظر : تاريخ ابن الوردى ٣٥١/٢ ، شذرات الذهب ٤٤٢/٥ .

(٤) انظر : النجوم الزاهرة ١٨٥/٨ .

ومنهم بنت الناصر يوسف[1]

ابن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن الناصر يوسف بن أيوب بن شاذى ، زوجة ابن عمتها المظفر محمود بن المنصور محمد ، ووالدته عائشة خاتون بنت العزيز محمد بن الظاهر غازى بن الناصر يوسف بن أيوب بن شاذى ، طلقها فى شعبان سنة إحدى وتسعين وستمائة ، فعاب الناس ذلك واستقبحوه ، وتوجهت من حماة إلى مصر فتوفيت بعد وصولها بعشرين يوماً .

ومنهم أيوب بن على[2]

ابن داود بن عيسى بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، نجم الدين بن الأفضل بن الناصر ابن المعظم بن العادل . فتوفى بدمشق رابع عشر ذى الحجة سنة ثمان وتسعين وستمائة وصلى عليه يوم الجمعة[3] .

ومنهم محمد بن حسن[4]

ابن داود بن عيسى بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، صلاح الدين ابن الملك الأمجد ابن الناصر بن المعظم بن العادل . والد الأمير شهاب الدين أحمد (١٢١ ب) .

---

(١) لم نعثر لها على ترجمة .

(٢) لم نعثر له على ترجمة .

(٣) انظر : الدرر الكامنة ٤٥٠/١ .

(٤) انظر : القلائد الجوهرية ١٤٥ .

ومنهم الملك الأشرف[1]

موسى بن يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، الملك الأشرف بن المسعود ابن الكامل بن العادل . لما توفي الصالح أيوب وولي بعده ولده المعظم توران شاه ، ثم قتل وملكوا شجر الدر ، اجتمعت الأمراد وقالوا : لا بد من سلطان ، فسلطنوا المعز أيبك يوم السبت آخر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وستماذة ، فخرج عن طاعته جماعة ، فقالوا : لا بد من شخص من بني أيوب ليتفق الكل على طاعته ، فولوا الأشرف موسى ، ورضي الجميع به ، وجلس في دست السلطنة بمصر يوم الخميس خامس جمادى الأولى . وكان بغزة جماعة من عسكر مصر ، فخرجوا عن الطاعة ودخلوا في طاعة المغيث صاحب الكرك وخطبوا له في الصالحية يوم الجمعة لأربع مضين من جمادى الآخرة . فنودي بالقاهرة أن البلاد للخليفة المستعصم ، وأن المعز أيبك نائبة بها ، ثم جددت الأيمان للأشرف بالسلطنة ، ولمعز بأتابكيته ، ثم إن المعز قتل خشداشه الفارس أقطاي ، وكان يمنع المعز أن يستقل بالسلطنة ، فلما قتله سنة اثنتين وخمسين وستمائة استقل المعز بالسلطنة ، وأبطل الأشرف منها بالكلية وبعث به إلى عماته القطبيات[2] ، وموسى المذكور آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة في مصر .

ومنهم الملك العزيز[3]

عثمان بن عمر بن أبي بكر بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، الملك العزيز فخر الدين بن المغيث بن العادل بن الكامل بن العادل . أرسله والده إلى كتبغا مقدم التتر

---

(١) انظر : المختصر ١٨٣/٣ ـ ١٩٠ .

(٢) انظر : السلوك ٣٨٨/٢ .

(٣) انظر : النجوم الزاهرة ٥٤/٨ .

عند وصوله إلى دمشق فاعتقله فلما دخل الظاهر بيبرس دمشق أفرج عنه ، واحسن إليه ، وجهزه إلى والده ، وذلك سنة ستين وستمائة ، ولما مسك أبوه سنة إحدى وستين أعطى العزيز إمرة مائة بمصر ، ثم اعتقله رابع عشر ربيع الأول سنة تسع وستين ثم أفرج عنه الأشرف خليل بن قلاوون فى سادس محرم سنة تسعين وستمائة ، فمدة اعتقاله عشرون سنة وتسعة أشهر واثنان وعشرون يوماً ، ورتب له راتباً جيداً ، واشتغل بالمطالعة والنسخ وانقطع عن السعى إلا لما لا بد منه .

ومنهم فخر الدين بن المغيث عمر[1]

ابن العادل أبى بكر بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شاذى .

ومنهم غياث الدين بن محمد[2]

ابن عبد الملك بن اسماعيل بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى . ولد الكامل بن السعيد ابن الصالح بن العادل . توفى سنة تسع وأربعين وسبعمائة (١٢٢ أ) .

* * *

(١) انظر : ترويح القلوب ٨٣ .

(٢) لم نعثر له على ترجمة .

الطبقة السابعة

فمنهم الملك الحافظ محمد(١)

ابن نور الدين شاهنشاه بن بهرام شاه بن فروخ شاه بن شاهنشاه ابن أيوب بن شاذى ، الملك الحافظ ، عز الدين ، أبو عبد الله ابن شاهنشاه ابن الأمجد . توفى يوم الخميس خامس شعبان سنة ثلاث تسعين ستمائة وصلى عليه بجامع دمشق بعد الجمعة ، ودفن بمقبرة باب الفراديس .

ومنهم الملك المظفر محمود(٢)

ابن محمد بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى ، الملك المظفر بن المنصور بن المظفر بن المنصور بن المظفر ، صاحب حماة. أمه عائشة خاتون بنت الملك العزيز محمد بن الظاهر غازى بن الناصر يوسف بن أيوب بن شاذى . ولد ليلة الأحد خامس عشر محرم سنة سبع وخمسين وستمائة فقال الشيخ شرف الدين يهنىء والده من قصيد(٣) :

---

(١) انظر : تاريخ ابن الفرات ١٨٩/٨ ، البداية والنهاية ٣٣٧/١٣ .

(٢) انظر : النجوم الزاهرة ١٨٩/٨ .

(٣) انظر : ديوان الأنصارى ٥٤٦ .

أبشر على رغم العدا والحسد بأجل مولود وأكرم والد
بالنعمة الغراء بل بالدولة الز هراء بل بالمفخر المتجدد
وافاك بدراً كاملاً فى ليلة طلعت عليك نجومها بالأسعد
ما بين محمود المظفر أسفرت عنه وما بين العزيز محمد

ملك حماة عند وفاة والده فى حادى عشر شوال سنة ثلاث وثمانين وستمائة ، وذلك أن المنصور والده لما توفى أمر المنصور قلاوون المظفر هذا فى ملك حماة على قاعدة والده ، وأرسل إليه والى عمه الأفضل والى أولاده التشاريف ومكاتبة إلى المظفر بذلك . ووصلت التشاريف ولبسوها فى العشر الأخير من شوال .

ونسخة الكتاب[1] بعد البسملة : المملوك قلاوون ، أعز الله نصرة المقام العالى المولوى السلطانى الملكى المظفرى التقوى ، ونزع عنه لباس البأس ، وألبسه حلل السعد المجلوة على أعين الناس ، وهو يخدم (خدمة) بولاء قد تبجست عيونه ، وتأسست مبانيه ،وتناسبت ظنونه ، وحلت رهونه وحلت ديونه ، وأثمرت غصونه ، وزهت أفنانه وفنونه .

ومنها : وقد سيرنا المجلس السامى جمال الدين أقوش الحاجب ، وأصحبناه من الملبوس الشريف ما يغير به لباس الحزن (١٢٢ ب) ويتجلى فى مطلعه ضياء وجهه الحسن ، تنجلى بذلك غيوم تلك الغموم ، وأرسلنا أيضاً (صحبته) ما يلبسه هو وذووه كما يبدو بين النجوم وكتب فى عشر شوال .

وكان المظفر قد أرسل علم الدين سنجر الحموى[2] لهذا المهم ، فلاقى سنجر المذكور جمال الدين أقوش بالخلع في أثناء الطريق ، فأتم علم الدين سنجر سيره إلى السلطان المنصور فأكرمه وأعاده ، وقال : نحن واصلون إلى الشام ونفعل مع الملك المظفر فوق ما فى نفسه . فعاد سنجر ومعه الجواب بنحو ذلك.

---

(١) انظر : المختصر ٤ / ٢٠ .

(٢) له ذكر وترجمة فى النجوم الزاهرة ٧ / ١٧٦ .

ثم صل السلطان المنصور إلى دمشق فى أواخر محرم سنة أربع وثمانين (وستمائة) وسار إليه المظفر وعمه الأفضل إلى دمشق ، فأكرمهما اكراماً كثيراً ، وأرسل إلى المظفر فى اليوم الثالث من وصوله التقليد بسلطنة حماة والمعرة وبارين ، والتشريف وهو : أطلس أحمر فوقانى بطراز زركش وسنجاب ودائرة قندس وقباء أطلس أصفر تحتانى وشاش تساعى وكلوته زركش وحياصة ذهب وسيف محلى بالذهب وتلكش وغير ذلك . وأرسل شعار السلطنة وهو سنجق بعصائب سلطانية وفرس بسرج ذهب ورقبة وكنبوش ، والغاشية السلطانية . فركب المظفر بشعار السلطنة ، وحضر أمراء السلطان ، وساروا معه من داره المعروفة بـ « الحافظية » داخل باب الفراديس إلى أن وصل إلى القلعة ، ومشى الأمراء فى خدمته ، ودخل إلى عند السلطان ، فأكرمه وأجلسه إلى جانبه وقال له : أنت ولدى وأعز من الملك الصالح عندى فتوجه إلى بلادك وتأهب للغزاة أنتم بيت مبارك ما حضرتم فى مكان إلا وكان النصر معكم . فعاد المظفر وعمه إلى حماة ، وعملا أشغالهما وتأهبا للسير إلى خدمة السلطان ثانياً ، وحضرا معه فتح المرقب ثم عادا إلى حماة .

وفى سنة ثمان وثمانين (وستمائة) حضرا مع المنصور قلاوون فتح طرابلس ، ثم أعطاهما الدستور . وفى سنة تسعين كان فتح عكا . قال الملك المؤيد صاحب حماة : سار الأشرف خليل بن قلاوون إلى عكا وأرسل إلى العساكر الشامية يأمرهم بالحضور ، فحضر المظفر والأفضل عمه ، وهو والد المؤيد ، وتسلما منجنيقا من حصن الأكراد يسمى المنصورى حمل مائة عجلة ، ففرقت على العسكر الحموى . قال المؤيد : وسلم إلى منه عجلة واحدة لأنى كنت أمير عشرة ، كان مسيرنا أواخر الشتاء ، فقاسينا شدة عظيمة من موت البقر بسبب البرد ، ووصلنا (١٢٣ أ) من حصن الأكراد إلى عكا فى شهر وذلك مسيرة ثمانية أيام للخيل على العادة ، ونزل العسكر الإسلامى عليها أوائل جمادى الأولى ، واشتد القتال ، ولم يغلق لها باب ، وكانت منزلة الحمويين برأس الميمنة على عادتهم ، فكنا على جانب البحر والبحر عن يميننا إذا واجهنا عكا ، وكان يحضر إلينا مراكب ملبسة جلود الجاموس ، وكان القتال قدامنا من جهة المدينة ، وعن يميننا من البحر ، وأحضروا بطسة

فيها منجنيق يرمى على خيمتنا ، فكنا فى شدة ، حتى جاءت ريح شديدة ، فارتفع المركب وانحط، فانكسر وخرج الفرنج بالليل فكبسوا العسكر ووصلوا إلى الخيام فتعلقوا بالأطناب ووقع فارس منهم فى جوة مستراح بعض الأمراء فقتل ، ثم ولوا منهزمين ، وقتل العسكر الحموى عدة منهم ، فلما أصبح الصبح علق المظفر عدة من رءوس الفرنج فى رقاب خيلهم وأحضروا إلى الملك الأشرف ، ثم فتح الله عكا يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة بالسيف . ومن العجب أن الفرنج أخذتها من السلطان صلاح الدين يوم الجمعة سابع عاشر جمادى الآخرة سنة سبع ثمانين وخمسمائة . وكان أخذه لها منهم يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين .

وفى سنة إحدى وتسعين وستمائة سار الأشرف خليل من مصر إلى الشام ، وسار إليه المظفر وعمه والتقياه بدمشق ، وسارا فى خدمته لقصد الروم ، ثم سبقاه إلى حماة ، واهتم المظفر بالضيافة والاقامة والتقدمة ، ونزل الأشرف حماة وضرب دهليزه شماليها ، ومد له المظفر سماطاً عظيماً بالميدان ، ونصب خيماً ، ونزل الأشرف بالميدان وبسط بين يدى فرسه الشُقق الفاخرة ثم دخل إلى دار المظفر بحماة فبسط بين يدى فرسه بسطا ثانياً ، ثم دخل السلطان الحمام ، وخرج فجلس على جانب العاصى ، ثم راح إلى الطيارة المعروفة بـ الحمراء ، ثم توجه من حماة وصاحب حماة وعمه فى خدمته إلى المشهد ثم إلى الحمام، ثم توجه إلى الروم .

ذكر حضور المظفر إلى مصر

فى جمادى الأولى سنة اثنتين وتسعين وستمائة أرسل الملك الأشرف أحضر المظفر وعمه على البريد إلى مصر ، فتوجها من حماة ، وعندهما الخوف بسبب طلبهما شىء عظيم . وصلا يوم الثامن من خروجهما ، ثم أنعم عليهما بملبوس ، وأدخلهما حمام القلعة ، ثم خرج الأشرف على الهجن إلى الكرك ، وأركب المظفر وعمه الهجن صحبته ،

ولم يكن معهما خيل ولا غلمان ، فرسم السلطان لهما بما يليق بهما (١٢٣ ب) من المأكول والمشروب والهجن والغلمان ، وسارا صحبته إلى الكرك ، ولاقتهما تقادمهما إلى بركة زيزاء فقبلها السلطان ، وأنعم عليهما ثم دخل السلطان دمشق وخرج منها ، وأعطى صاحب حماة الدستور كذلك عمه ، وكان قد حصل له تشويش ، فأرسل عمه الأفضل التقدمة مع ولده المؤيد ، ولم يقدر هو على الحضور بسبب مرضه ، ثم برز مرسوم الأشرف إلى صاحب حماة وإلى عمه أن يتوجها إلى حلب ، ويقيما بها لأجل العدو ، فخرجوا من حماة يوم الجمعة خامس عشرين شعبان ، ودخلوا حلب يوم الثلاثاء تاسع عشرينه .

ذكر وفاة المظفر

توفى يوم الخميس حادى عشرين ذى القعدة سنة ثمان وتسعين وستمائة ، ودفن ليلة الجمعة آخر الليل عند أبيه وعمره إحدى وأربعون سنة وعشرة أشهر سبعة أيام . ومدة ملكه حماة خمس عشرة سنة وشهر ويوم وانقطع ملك حماة بعده من البيت الأيوبى سنين إلى أن عاد الناصر محمد فى سلطنته الثالثة . ولما مات فوضت نيابتها إلى الأمير سنقر المنصورى وتداولها جماعة من النواب .

ومنهم الملك المؤيد[1]

اسماعيل بن على بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن شاذى ، الملك المؤيد بن الملك الأفضل بن المظفر بن المنصور بن المظفر صاحب حماة . ولد يوم السبت سابع جمادى الأولى أو ثامنه سنة اثنتين وسبعين وستمائة بدار . الزنجبلى بدمشق ، فإن أهله جفلوا من حماة بسبب التتر .

---

(١) انظر : الدرر الكامنة ١ / ٣٩٦ ، البداية والنهاية ١٤ / ١٥٨ فوات الوفيات ١ / ١٨٣ .

وفى سنة عشر وسبعمائة عزل الناصر محمد عن نيابة حماة أسرمر كرجى وولى المؤيد.

وفى سنة عشرين تولى حماة ، وذلك أنه حج مع الناصر محمد ، فلما رجعا من الحج رأى أن يجيزه ، فلما دخل القاهرة فوصى إليه سلطنة حماة وأركبه يوم الجمعة سابع عشرين محرم بالقاهرة من المدرسة المنصورية بشعار السلطنة والأمراء فى خدمته والعصائب على رأسه ، وحمل غاشيته أمير مجلس ودخل القلعة ، وقبل الأرض بين يدى السلطان ثم أعطى الدستور ، فسار من يومه على البريد .

وفى سنة سبع عشرين حضر المؤيد إلى الناصر محمد وقدم له تقاديم وافرة .

وفى سنة ثلاثين وصل إلى الناصر يوم الاثنين ، عشرين محرم ، وتوجد صحبته إلى الصيد بالوجه القبلى وخلع عليه وعلى ولده ، ثم (١٢٤ أ) خلع عليه أيضاً وعلى ولده ورسم بعودهما إلى حماة .

ذكر وفاته وسيرته

مات ثامن عشرين محرم سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، وعاش ستين سنة ، تملك بعد ولده الأفضل على ، وقال ابن نباته يرثيه ويمدح ولده[١] :

ما للندى لا يلبى صوت داعيه ... أظن أن ابن شاذى قام ناعيه
ما للرجا قد اشتدت مذاهبه ... ما للزمان قد اسودت نواحيه
نعى المؤيد ناعيه فواأسفا ... للغيث كيف غدت عنا غواديه

ومنها :

هلا بغير عماد الدين حادثة ... ألقت ذراه وأوهت من مبانيه
كان المديح له عرساً بدولته ... فأحسن الله للشعر العزا فيه

---

(١) انظر : ديوان ابن نباته ٥٧٠ .

يا آل أيوب صبراً إن ارثكم ... من اسم أيوب صبراً كان ينجيه
هى المنايا على الأقوام دائرة ... كل سيأتيه منها دور ساقيه

ومنه يخاطب ولده الأفضل :

ومن أبيك تعلمت الثناء فما ... تحتاج تذكر أمراً أنت تدريه
لا تخش بيتكم يلوى الزمان به ... فإن للبيت رباً سوف يحميه

قال جامعه الفقير : لله در القائل :

لا در در نوازل الأحداث ... نقلت أحبتنا إلى الأجداث
فغدت مآنسنا وهن مآتم ... وغدت مدالحنا وهن مراثى

هذا ابن نباته رائيه هو مادحه ، وله فيه القصائد المطولة والمختصرة منها قوله يهنئه بالعيد ويعرض بالجائزة :

وغيداء يعزى طرفها لكنانة ... ومعطفها المياد يعزى إلى النضر
حمت عبد عنا ثغرها بلحاظها ... كذاك سيوف الهند تحمى حمى الثغر
كأن دموعى الحمر حين تدفقت ... على حبها كف المؤيد بالبتر
رعى الله أيام المؤيد إنها ... ولا برحت فينا - مواسم للدهر
أيا ملكاً ساوى نداه بعلمه ... كأنهما بحران جادا على بحر
تهن بعيد النحر وابق ممتعاً ... بأمثاله وافى المحامد والأبحر
تقلدنا فيه قلائد أنعم ... وأحسن ما تبدو القلائد فى النحر

وكان المؤيد فيه مكارم وفضيلة من فقه وطب وعلم هيئة وأدب ، وكان محباً للعلماء مقرباً لهم . صنف « تقويم البلدان » فهذبه ، له « المختصر فى أخبار البشر ش نقلت منه فى هذا التاريخ كثيراً ، وله محاسن كثيرة ويد فى النظم لنثر ، نظم « الحاوى » فأجاده، ومن نظمه[1] :

---

(١) انظر فوات الوفيات ١ / ١٨٥ .

اقرأ على طيب الحيا ة سلام صب مات حزنا
واعلم بذاك أحبة بخل الزمان بهم . وضنا
لو كان يشرى قربهم بالمال والأرواح جدنا
صب قضى أسفا ولم يقضى له ما قد تمنى
متجرع كأس الفرا ق ببيت للأشجان رهنا

وله :

سرى نشر الصبا فعجبت منه من الهجران كيف صبا إليا
وكيف ألم بى من غير وعد وفارقنى ولم يعطف عليا

ومنهم احمد بن محمد(١)

ابن حسن بن داود بن عيس بن أبي بكر بن أيوب بن شاذى . الأمير شهاب الدين بن صلاح الدين بن الأمجد بن الناصر بن المعظم ابن العادل . توفى يوم الاثنين رابع عشرين رجب سنة تسع عشرة وسبعمائة بدمشق ودفن بقاسيون .

ومنهم الكامل محمد بن موسى(٢)

ابن يوسف بن يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن شاذى الملك الكامل ، ناصر الدين بن الأشرف بن الناصر بن المسعود بن الكامل ابن العادل مولده بالكرك ليلة الأربعاء سادس عشر شوال سنة تسع وخمسين وستمائة ، ومات يوم الخميس خامس رجب سنة اثنتين وتسعين وستمائة .

---

(١) انظر : فوات الوفيات ١ / ٣٠ .

(٢) انظر : النجوم الزاهرة ٩ / ٢٤٧ .

ومنهم الملك الكامل شاذى
وقيل : محمد[1]

ابن عبد الله بن توران شاه ابن أيوب بن محمد ابن أبى بكر ابن أيوب ابن شاذى ، الملك الكامل سيف الدين أبو بكر ابن (١٢٥ أ) الموحد ابن المعظم ابن الصالح ابن الكامل ابن العادل ، وهو والد الملكين الصالح يوسف والعادل محمد .

تم بحمد الله

---

(١) انظر : تاريخ ابن الفرات ٨ / ١٦٣ .

المصادر والمراجع

الأيوبيون

أ- فى مصر :

* الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف ، (توفى فى ٢٧ صفر سنة ٥٨٩) ٥٦٤
* الملك العزيز (الأول) عماد الدين أبو الفتح عثمان (توفى فى ٢٧ المحرم سنة ٥٩٥) ٢٧ صفر ٥٨٩
* الملك المنصور ناصر الدين محمد .... مستهل صفر ٥٩٥
* الملك العادل (الأول) سيف الدين أبو بكر أحمد (صاحب دمشق) ٥٩٦ (توفى فى ٧ جمادى الآخرة سنة ٦١٥)
* الملك الكامل (الأول) ناصر الدين أبو المعالى محمد ، (صاحب دمشق) ، جمادى الآخرة ٦١٥ (توفى فى ٢٢ رجب سنة ٦٣٥) .
* الملك العادل (الثانى) سيف الدين أبو بكر (صاحب دمشق) ، (عزل فى ٨ ذى الحجة سنة ٦٣٧) . رجب ٦٣٥
* الملك الصالح نجم الدين أيوب ، (صاحب دمشق) ، (توفى بالمنصورة فى ١٥ شعبان سنة ٦٤٧) .... ذو الحجة سنة ٦٣٧ هـ
* الملك المعظم توران شاه (الرابع) ، (صاحب دمشق) ، (قتل فى ٢٩ من المحرم سنة ٦٤٨) شعبان ٦٤٧
* الملك الأشرف (الثانى) مظفر الدين موسى بن يوسف بن محمد مستهل صفر ٦٤٨

(عزله أيبك ولكن اسمه ظل يذكر فى الخطبة حتى سنة ٦٥٢) ٦٥٠

ب ـ فى دمشق :

* الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن على ٥٨٢

* الملك العادل (الأول) سيف الدين أبو بكر أحمد ، (نائب العزيز عثمان) ٥٩٢

الملك المعظم ، (حاكم) .... ٩٧ ـ ٦١٥

الملك المعظم شرف الدين عيسى .... جمادى الآخرة ٦١٥

الملك الناصر صلاح الدين داود .... ذو الحجة ٦٢٤

الملك الأشرف (الأول) مظفر الدين أبو الفتح موسى ، (صاحب العراق) ، (توفى فى ٤ محرم سنة ٦٣٥ ؟) ٦٢٦

الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ٦٣٤

الملك الكامل (الأول) محمد ، (توفى بعد ذلك بشهرين) .... جمادى الأولى ٦٣٥

الملك العادل (الثانى) سيف الدين أبو بكر ..... أصحاب مصر رجب ٦٣٥

الملك الصالح نجم الدين أيوب ٦٣٦

* الملك الصالح اسماعيل ، (للمرة الثانية) .... ٢٧ صفر ٦٣٧

* الملك الصالح نجم الدين أيوب ، (صاحب مصر) ٨ جمادى الأولى ٦٤٣ (للمرة الثانية)

الملك المعظم توران شاه (الرابع) ، (ومعه مصر) ٦٤٧

* الملك الناصر (الثانى) صلاح الدين يوسف ، (صاحب حلب) ... ١٧ ربيع الثانى ٦٤٨

بيبرس ، (صاحب مصر) ٦٥٨

جـ - فى حلب :

الملك العادل (الأول) سيف الدين أبو بكر أحمد ٥٧٩

* الملك الظاهر غياث الدين أبو الفتح غازى (الأول) ، (شيمى ، توفى فى ٢٣ جمادى الآخرة سنة ٦١٣) .... جمادى الآخرة سنة ٥٨٢ هـ

* الملك العزيز غياث الدين أبو المظفر محمد (توفى فى ٤ ربيع الأول سنة ٦٣٤) جمادى الآخرة ٦١٣

ضيفة خاتون .... .ربيع الأول ٦٣٤

الملك الناصر (الثانى) صلاح الدين يوسف ، (كان بدمشق أيضاً منذ سنة ٦٤٨ ، توفى فى شوال سنة ٦٥٨) ....

د - فى ميافارقين (وسنجار) :

* الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب .... ٢٩ جمادى الأولى ٥٨١

* الملك العادل سيف الدين أبو بكر . (صاحب دمشق) ٥٩١

* الملك الأوحد نجم الدين أيوب ٥٩٦

* الملك الأشرف (الأول) مظفر الدين أبو الفتح موسى ، (انظر دمشق) ٦٠٧

* الملك المظفر شهاب الدين غازى ٦١٧

فتحها المغول مؤقتاً ٦٢٨

* الملك الكامل (الثانى) ناصر الدين محمد ٦٤٢

* فتحها المغول نهائياً ٦٥٨

هـ - فى اليمن :

الملك المعظم شمس الدين توران شاه (الأول) بن أيوب .... رجب ٥٦٩

الملك العزيز سيف الاسلام ظهير الدين أبو الفوارس طغتكين بن أيوب ٥٧٧

(لم يصل إلى اليمن إلا سنة ٥٧٨)

معز الدين اسماعيل بن طغتكين .... ١٩ شوال ٥٩٣

الملك الناصر أيوب بن طغتكين ٥٩٨

الملك المظفر سليمان بم سعد الدين شاهنشاه (الثانى) ، (توفى سنة ٦٤٩) ٦١١

الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الكامل ٦١٢

الاستيلاء على مكة ٦١٩

بنو رسول ٦٢٦

و- فى بعلبك :

الملك المعظم شمس الدين توران شاه (الأول) بن أيوب ٥٦٨

عز الدين فروخ شاه داود بن شاهنشاه (الأول) .... جمادى الأولى ٥٧٥

الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن داود .... سنة ٥٧٨ هـ

الملك الأشرف (الأول) بن مظفر الدين موسى (صاحب دمشق) ٦٢٧

الصالح اسماعيل ، (أخو السابق) .... جمادى الأولى ٦٣٥

الصالح أيوب ٦٤٣

توران شاه (الرابع) .... أصحاب دمشق ٦٤٧

الناصر يوسف ، (حتى سنة ٦٥٨ .... ٦٤٧) .

ز- فى حمص :

الملك القاهر ناصر الدين محمد بن شيركوه ، (توفى فى ٩ ذى الحجة سنة ٥٨١) ٥٧٤

الملك المجاهد صلاح الدين شيركوه (الثانى) ، (توفى فى ١٩ رجب سنة ٦٣٧) ذو الحجة ٥٨١

الملك المنصور ناصر الدين ابراهيم بن شيركوه (الثانى) ، (توفى فى ١٠ صفر سنة ٦٤٤) ....

الملك الأشرف مظفر الدين موسى (الثانى) بن ابراهيم ، (توفى فى ١٠ صفر سنة ٦٦٢) صفر ٦٤٤

صاحب تل باشر أيضاً .... ٦٤٦ ـ ٦٤٨

استولى بيبرس على حمص ٦٦١

ح - فى الكرك :

الملك العادل (الأول) سيف الدين أبو بكر بن أيوب ٥٨٤

الملك المعظم شرف الدين عيسى بن أبى بكر ، (فى دمشق فيما بعد) ٥٩٢

الملك الناصر صلاح الدين داود بن عيسى ، (صاحب دمشق) ، (استولى على بيت المقدس فى ٩ جمادى الأولى سنة ٦٣٧) ٦٢٤

الملك المغيث فخر الدين عمر ابن العادل (الثانى) ابن الكامل ٦٣٧

استولى بيبرس على الكرك ٦٦١

ط - فى حماة :

الملك المظفر (الأول) تقى الدين أبو سعيد عمر ، (توفى فى ١٩ رمضان سنة ٥٨٧) ٥٧٤

الملك المنصور (الأول) ناصر الدين أبو المعالى محمد ، (توفى فى ٢٢ ذى القعدة سنة ٦١٧) .... رمضان ٥٨٧

الملك الناصر صلاح الدين قلج أرسلان .... ذو القعدة ٦١٧

الملك المظفر (الثانى) تقى الدين محمود ٦٢٦

الملك المنصور (الثانى) سيف الدين محمد ٦٤٢

الملك المظفر (الثالث) تقى الدين محمود ، (توفى فى ٢١ ذى القعدة سنة ٦٩٨)
سنة ٦٨٣ هـ

استولى الناصر محمد على حماه ومنحها للأمير سنقر ٦٩٨

الملك الصالح المؤيد عماد الدين أبو الفدا اسماعيل ...... ١٨ جمادى الأولى ٧١٠

الملك الأفضل محمد بن اسماعيل .... ٢٣ المحرم ٧٣٢

ى ـ فى حصن كيفا (وآمد) :

الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ....

بالرها وحران ٦٣٣

بسنجار ونصيبين ٦٣٥

الملك المعظم توران شاه (الرابع) بن أيوب بن الكامل ٦٣٦

الملك الموحد تقى الدين عبد الله بن توران شاه ٦٤٧

الملك الكامل أبو بكر محمد بن عبد الله ٦٨٢

الملك العادل مجير الدين محمد بن أبى بكر

الملك العادل شهاب الدين غازى بن محمد

الملك الصالح أبو بكر بن غازى

الملك العادل فخر الدين سليمان بن غازى ٧٨٠

الملك الأشرف شرف الدين احمد بن سليمان

الملك الصالح صلاح الدين خليل (الأول) بن أحمد ٨٣٦

الملك الكامل أحمد بن خليل ٨٥٦

الملك العادل خلف بن محمد بن أحمد

خليل (الثانى) بن سليمان بن أحمد (؟) ٨٦٦

سليمان (الثانى) بن خليل بن سليمان .

الحسين بن خليل بن خليل ٩٣٠

ك ـ فى آمد :

بنو أرتق .... حتى سنة ٦٢٩

الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ٦٢٩

ل ـ فى بانياس وسبيبه :

الملك الأفضل نور الدين على ....ــــــــ

الملك العادل (الأول) سيف الدين أبو بكر أحمد ....ــــــ

الملك العزيز (الثانى) عماد الدين عثمان ابن العادل ٦٠٨

الملك الظاهر غازى بن عثمان ، (توفى سنة ٦٣٠) ٦٣٠

الملك السعيد فخر الدين (أو مجد الدين) حسن (بالمنفى من سنة ٦٤٤ إلى سنة ٦٥٧) .... ٦٣٠ هـ استولى بيبرس على بانياس وسبيبه ٦٥٨

م ـ فى بصرى :

الملك الصالح عماد الدين أبو طاهر اسماعيل بن العادل (ثم بدمشق حتى سنة ٦٤٤) ٦١٥

* * *

مراجـع التحقيـق

١ ـ أخبار الأيوبيين : المكين جرجيس بن العميد ، ت ٦٧٢ هـ . طبع المعهد الفرنسى بدمشق ١٩٥٨ .

٢ ـ الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة : محمد بن على بن ابراهيم بن شداد، ت ٦٨٤ هـ . تحقيق : سامى الدهان . المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٥٦ .

٣ ـ إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : محمد راغب الطباخ ، ت ١٩٥١م . المطبعة العلمية ـ حلب ١٣٤٢ هـ .

٤ ـ أساس البلاغة : للزمخشرى ـ دار الكتب المصرية .

٥ ـ الأغانى : أبو الفرج الأصفهانى ، ت ٣٥٦ هـ . مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٢٧ .

٦ ـ الألقاب : لابن الجيانى ـ دار الفضيلة ـ القاهرة ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م .

٧ ـ الألقاب : لابن الفرضى ـ تحقيق الدكتور محمد زينهم محمد عزب ـ دار الجيل ـ بيروت .

٨ ـ إنباء الغمر بأنباء العمر : ابن حجر العسقلانى ، ت ٨٥٢ هـ تحقيق : حسن حبشى. مطبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة ١٩٦٩ ـ ١٩٧٢م .

٩ ـ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل : مجير الدين الحنبلى ، ت ٩٢٨ هـ المطبعة الحيدرية ـ النجف ١٩٦٨ .

١٠ ـ ايضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون : اسماعيل بن محمد بن مير سليم البابانى ، ت ١٣٣٩ هـ المطبعة الإسلامية ـ طهران ١٩٤٧ .

١١ ـ بدائع البدائة : على بن ظافر الأزدى ، ت ٦١٣ هـ . تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم . المطبعة الفنية الحديثة ـ القاهرة ١٩٧٠ .

١٢ ـ بدائع الزهور : ابن إياس ، ت ٩٣٠ هـ ط بولاق ١٣١١ ، وجمعية الدراسات التاريخية بالقاهرة ١٩٥١م ، وجمعية المستشرقين الألمان ـ القاهرة ١٩٦٣م .

١٣ ـ البداية والنهاية : أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير ، ت ٧٧٤هـ مطبعة السعادة ـ مصر ١٩٣٢ .

١٤ ـ البدر الطالع : محمد بن على الشوكانى ، ت ١٢٥٠ هـ مطبعة السعادة ـ مصر ١٣٤٨ هـ .

١٥ ـ بغية الوعاة : جلال الدين السيوطى ، ت ٩١١ هـ . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم . مطبعة مصطفى الحلبى ـ القاهرة ١٩٦٤ .

١٦ ـ بلوغ المرام : ابن حجر العسقلانى ، ت ٨٥٢ هـ . المطبعة الفاروقية ببولاق ١٢٩٢ .

١٧ ـ تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان ، ت ١٩١٤م . مطبعة فؤاد بيبان ـ بيروت ١٩٦٧ .

١٨ ـ التاريخ الباهر : ابن الاثير الجزرى ، ت ٦٣٠ هـ تحقيق : عبد القادر أحمد طليمات . طبع دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ١٩٦٣ .

١٩ ـ تاريخ بغداد : الحافظ احمد بن على الخطيب البغدادى ، ت ٤٦٣ هـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٩٣١ .

٢٠ ـ تاريخ ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون ، ت ٨٠٨ هـ طبع دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت ١٩٦٧ .

٢١ ـ تاريخ الخلفاء : جلال الدين السيوطى . ت ٩١١ هـ . تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ـ القاهرة ١٩٤٤ .

٢٢ ـ تاريخ دمشق : ابن عساكر ، ت ٥٧١ هـ . مصورة مكتبة الأوقاف العامة ببغداد عن مكتبه احمد الثالث رقم ٤٢ .

٢٣ ـ تاريخ ابن الفرات : محمد بن عبد الرحيم بن الفرات ، ت ٨٠٧ هـ تحقيق : قسطنطين زريق والدكتورة نجلاء عز الدين . المطبعة الأمريكية ـ بيروت ١٩٣٨ .

٢٤ ـ تاريخ اليمن : لعمارة اليمنى تحقيق الدكتور محمد زينهم محمد عزب ـ دار الجيل ـ بيروت ١٩٩٢م .
٢٥ ـ تاريخ ابن الوردى : عمر بن الوردى ، ت ٧٤٩ هـ . المطبعة الحيدرية ـ النجف ١٩٦٩ .
٢٦ ـ تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، المعروف بالذيل على الروضتين : عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى الملقب بأبى شامة ، ت ٦٦٥ هـ . مطبعة مكتبة نشر الثقافة الإسلامية ـ القاهرة ١٩٤٧ .
٢٧ ـ ترويح القلوب فى ذكر ملوك بنى أيوب : المرتضى الزبيدى ، ت ١٢٠٥ هـ تحقيق : صلاح الدين المنجد . مطبعة الترقى ـ دمشق ١٩٦٩ .
٢٨ ـ تزيين الأسواق : داود الأنطاكى ، ت ١٠٠٨ هـ منشورات دار حمد ومحيو ـ بيروت ١٩٧٢ .
٢٩ ـ تقويم البلدان : أبو الفداء اسماعيل بن على ، ت ٧٣٢ هـ . مطبعة دار الطباعة السلطانية ـ باريس ١٨٤٠ .
٣٠ ـ تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون : خليل بن أيبك الصفدى ، ت ٧٦٤ هـ. مطبعة المدنى ـ القاهرة ١٩٦٩ .
٣١ ـ تهذيب الأسماء واللغات للنواوى ـ المطبعة المنيرية القاهرة .
٣٢ ـ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى حيدر آباد الدكن ١٣٣٢ هـ .
٣٣ ـ ثمرات الأوراق : ابن حجة الحموى ، ت ٨٣٧ هـ . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم . مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة ١٩٧١ .
٣٤ ـ الجواهر المضية فى طبقات الحنفية : عبد القادر بن أبى الوفاء القرشى ت ٧٧٥ هـ مطبعة مجلس دائرة المعارف ـ الهند ١٣٣٢ هـ .
٣٥ ـ حسن المحاضرة : جلال الدين السيوطى ، ت ٩١١ هـ . تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم . طبعة دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٦٧ .
٣٦ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : أبو نعيم أحمد بن عبد الله ، ت ٤٣٠ هـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٣٥١ ـ ١٣٥٧هـ .

٣٧ ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة : عبد الرزاق بن الفوطى ، ت ٧٢٣ هـ . تحقيق : مصطفى جواد . مطبعة الفرات ـ بغداد ١٣٥١ هـ .

٣٨ ـ خريدة القصر وجريدة العصر : عماد الدين الأصفهانى ، ت ٥٩٧ هـ قسم شعراء الشام . تحقيق : د. شكرى فيصل . مطبعة المكتبة الهاشمية ـ دمشق ، ج ١ : ١٩٥٥ ، ج٢ : ١٩٥٩ ، ج٣ : ١٩٦٤ قسم شعراء مصر : عنى بنشره أحمد أمين ، شوقى ضيف ، احسان عباس . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٥١ .

٣٩ ـ خطط الشام : محمد كرد على ، ت ١٩٥٣ . مطبعة الترقى ـ دمشق ١٩٢٦ .

٤٠ ـ دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية . نشر جهان ـ طهران د. ت .

٤١ ـ الدارس فى تاريخ المدارس : عبد القادر بن محمد النعيمى ، ت ٩٢٧ هـ تحقيق : جعفر الحسنى . مطبعة الترقى ـ دمشق ١٩٤٨ .

٤٢ ـ الدرر الكامنة : ابن حجر العسقلانى ، ت ٨٥٢ هـ . تحقيق : محمد سيد جاد الحق . مطبعة المدنى ـ القاهرة ١٩٦٦ .

٤٣ ـ ديوان أسامة بن منقذ : تحقيق : أحمد أحمد بدوى وحامد عبد المجيد المطابع الأميرية ـ القاهرة ١٩٥٣ .

٤٤ ـ ديوان بهاء الدين زهير : مطبعة دار صادر ـ بيروت ١٩٦٤ .

٤٥ ـ ديوان أبى تمام : مطبعة دار المعارف ـ مصر ١٩٦٤ .

٤٦ ـ ديوان زهير بن أبى سلمى : مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٦٤ .

٤٧ ـ ديوان سبط ابن التعاويذى : تحقيق : مرجليوث . مطبعة المقتطف ـ مصر ١٩٠٣ .

٤٨ ـ ديوان ابن الساعاتى : تحقيق : أنيس المقدسى . المطبعة الاميركانية ـ بيروت ١٩٣٨ .

٤٩ ـ ديوان السموأل : تحقيق : الشيخ محمد حسن آل ياسين . مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٥٥ .

٥٠ ـ ديوان الصاحب شرف الدين الأنصارى : تحقيق : د. عمر موسى باشا . المطبعة الهاشمية ـ دمشق ١٩٦٧ .

٥١ ـ ديوان الصبابة : ابن أبى حجلة ، ت ٧٧٦ هـ . المطبعة الأزهرية ـ مصر ١٣٢٨ هـ .
٥٢ ـ ديوان صردر : مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٣٤ .
٥٣ ـ ديوان العباس بن الأحنف : تحقيق : الدكتورة عاتكة الخزرجى مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٥٤ .
٥٤ ـ ديوان أبى العتاهية : تحقيق : د. شكرى فيصل . مطبعة جامعة دمشق ـ دمشق ١٩٦٥ .
٥٥ ـ ديوان عرقلة الكلبى : تحقيق : أحمد الجندى . مطبعة دار الحياة ـ دمشق ١٩٧٠.
٥٦ ـ ديوان ابن عنين : تحقيق : خليل مردم بك . مطبعة دمشق ١٩٤٦ .
٥٧ ـ ديوان القاضى الفاضل : تحقيق : أحمد أحمد بدوى . مطبعة دار الكتاب ـ القاهرة ١٩٦١ .
٥٨ ـ ديوان ابن الفارض : مطبعة دار صادر ـ بيروت ١٩٦٢ .
٥٩ ـ ديوان المتنبى : تحقيق : عبد الوهاب عزام . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٤ .
٦٠ ـ ديوان مجنون ليلى : تحقيق : عبد الستار فراج . مطبعة دار مصر . د. ت .
٦١ ـ ديوان ابن مطروح : مطبعة الجوائب ـ قسطنطينية ١٢٩٨ هـ .
٦٢ ـ ديوان الملك الأمجد : تحقيق : ناظم رشيد . مطبوع على الرونيو ١٩٧٣ .
٦٣ ـ ديوان ابن نباته : مطبعة التمدن ـ القاهرة ١٩٠٥ .
٦٤ ـ ديوان ابن النبيه المصرى : تحقيق : عمر محمد الأسعد . مطبعة دار الفكر ١٩٦٩.
٦٥ ـ ذيل رفع الأصر : عبد الرحمن السخاوى ، ت ٩٠٢ هـ . تحقيق : جودة هلال ومحمد محمود صبيح . طبع دار التعاون ـ القاهرة .
٦٦ ـ ذيل مرآة الزمان : موسى بن محمد اليونينى . ت ٧٢٦ هـ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ١٩٥٥ .

٦٧ ـ رفع الأصر عن قضاة مصر : ابن حجر العسقلاني ، ت ٨٥٢ هـ تحقيق : حامد عبد المجيد ومحمد المهدى ومحمد اسماعيل . المطبعة الأميرية ـ القاهرة ١٩٥٧ .

٦٨ ـ روضات الجنات : محمد باقر الخوانسارى ، ت ١٣١٣هـ . المطبعة الحيدرية ـ طهران ١٣٩٠هـ .

٦٩ ـ الروضتين فى أخبار الدولتين : عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى الملقب بأبى شامة ، ت ٦٦٥ هـ . مطبعة وادى النيل ـ القاهرة ١٢٨٧ هـ .

٧٠ ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب : ابن العديم ، ت ٦٦٠ هـ . تحقيق : سامى الدهان. المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٦٨ .

٧١ ـ سرح العيون فى شرح رسالة بن زيدون : جمال الدين بن نباتة المصرى ، ت ٧٦٨هـ . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم . مطبعة المدنى ـ القاهرة ١٩٦٤ .

٧٢ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك : احمد بن على المقريزى ، ت ٨٤٥ هـ . مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٣٤ .

٧٣ ـ سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى : عبد الملك بن حسين العصامى المكى ، ت ١١١١ هـ المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٣٨٠هـ .

٧٤ ـ سنا البرق الشامى : الفتح بن على البندارى ، ت ٦٤٢ هـ . تحقيق : رمضان ششن . ج١ . مطبعة دار الكتاب الجديد ـ بيروت ١٩٧١ .

٧٥ ـ شذرات الذهب : عبد الحق بن العماد الحنبلى ، ت ١٠٨٩ هـ . عنيت بنشره مكتبة القدسى ـ القاهرة ١٣٥١ هـ .

٧٦ ـ صبح الأعشى : أبو العباس أحمد القلقشندى ، ت ٨٢١ هـ . المطبعة الأميرية ـ القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩٢٠ .

٧٧ ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع : عبد الرحمن السخاوى ، ت ٩٠٢ هـ طبع مكتبة القدسى ـ القاهرة ١٩٦٦ .

٧٨ ـ الطالع السعيد : جعفر بن ثعلب الادفوى ، ت ٧٤٨ هـ . تحقيق : سعد محمد حسن . مطبعة سجل العرب ـ القاهرة ١٩٦٦ .

٧٩ ـ طبقات الشافعية : تاج الدين السبكى ، ت ٧٧١ هـ . المطبعة الحسينية ـ القاهرة ١٣٢٤ هـ .

٨٠ ـ العبر فى خبر من غبر : الحافظ الذهبى ، ت ٧٤٨ هـ . تحقيق : . صلاح الدين المنجد . مطبعة حكومة الكويت ١٩٦٠ ـ ١٩٦٦ .

٨١ ـ العسجد المسبوك : الملك الأشرف الغسانى ، ت ٨٠٣ هـ . تحقيق : شاكر محمود عبد المنعم . طبع دار التراث الإسلامى ـ بيروت ١٩٧٥ .

٨٢ ـ عقود الجمان للزركشى ـ مخطوطة الفاتح رقم ٤٤٣٤ ، مصورة فى مكتبة الأوقاف العامة ببغداد .

٨٣ ـ العقود اللؤلؤية : على بن الحسن الخزرجى ، ت ٨١٢ هـ . مطبعة الهلال ـ مصر ١٩١١ .

٨٤ ـ عيون الانباء فى طبقات الأطباء : ابن أبى أصيعة ، ت ٦٦٨هـ . مطبعة الأقبال ـ بيروت ١٩٥٦ .

٨٥ ـ الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة : على بن موسى الاندلسى ، ت ٦٨٥ هـ . تحقيق : ابراهيم الأبيارى . مطبعة دار المعارف ـ مصر ١٩٦٧ .

٨٦ ـ الغيث المسجم : خليل بن أيبك الصفدى ، ت ٧٦٤ هـ . المطبعة الأزهرية ـ مصر ١٣٠٥ هـ .

٨٧ ـ الفتح القسى فى الفتح القدسى : العماد الأصفهانى، ت ٥٩٧هـ تحقيق : محمد محمود صبيح . طبع الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٥ .

٨٨ ـ الفوائد الجلية فى الفرائد الناصرية : داود بن عيسى الأيوبى ، ت ٦٥٦هـ مصورة دار الكتب المصرية رقم ٢٢٩٣ .

٨٩ ـ فوات الوفيات : محمد بن شاكر الكتبى ، ت ٧٦٤هـ . تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٩٥١ .

٩٠ ـ القلائد الجوهرية فى تاريخ الصالحية : محمد بن طولون ، ت ٩٥٣هـ طبع مكتبة الدراسات الاسلامية ـ دمشق ١٩٤٩ .

٩١ ـ الكامل فى التاريخ : ابن الأثير ، ت ٦٣٠هـ . طبع دار صادر ـ بيروت ١٩٦٥ .
٩٢ ـ كتاب الرد على أبى بكر الخطيب البغدادى : عيسى بن أبى بكر الأيوبى ، ت ٦٢٤ هـ . مطبعة السعادة ـ مصر ١٩٣٢ .
٩٣ ـ كشف الظنون : حاجى خليفة ، ت ١٠٦٨هـ . ط٢ . المطبعة الاسلامية ـ طهران ١٩٦٧ .
٩٤ ـ كنز الدرر وجامع الغرر (الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب) : عبد الله بن أيبك الدوادارى ، ت ٧٣٦ هـ . تحقيق : د. سعيد عبد الفتاح عاشور ـ نشر المعهد الألمانى للآثار ـ القاهرة ١٩٧٢ .
٩٥ ـ لسان العرب : ابن منظور ، ت ٧١١هـ . طبع دار صادر ـ بيروت ١٩٦٨ .
٩٦ ـ لسان الميزان : ابن حجر العسقلانى ، ت ٨٥٢ هـ طبع حيدر آباد الكن ـ الهند ١٣٣١ .
٩٧ ـ المحمدون من الشعراء: على بن يوسف القفطى ، ت ٦٤٦هـ . تحقيق : حسن معمرى ، مطبعة المتنبى ـ بيروت ١٩٧٠ .
٩٨ ـ محيط المحيط : بطرس البستانى ، ت١٨٨٣م . طبع بيروت ١٨٧٠ .
٩٩ ـ المختصر فى اخبار البشر : أبو الفداء اسماعيل بن أيوب ، ت ٧٣٢هـ المطبعة الحسينية ـ مصر ١٣٢٥هـ .
١٠٠ ـ مرآة الجنان وعبر اليقظان : عبد الله بن أسعد اليافعى ، ت ٧٦٨ هـ . مطبعة دار المعارف الإسلامية ـ حيدر آباد الدكن ١٣٣٨ هـ .
١٠١ ـ مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان : يوسف بن قزاوغلى الشهير بسبط ابن الجوزى ، ت ٦٥٤هـ . ج٨ . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ١٩٥١ .
١٠٢ ـ مراصد الاطلاع : عبد المؤمن بن عبد الحق ، ت ٧٣٩هـ . تحقيق : جونبول . مطبعة بريل ـ ليدن ١٨٥٢ .
١٠٣ ـ مضمار الحقائق وسر الخلائق : محمد بن تقى الدين عمره الأيوبى ، ت ٦١٧هـ . تحقيق : د. حسن حبشى . مطبعة دار الهنا ـ القاهرة ١٩٦٨ .

١٠٤ ـ مطالع البدور في منازل السرور : علي بن عبد الله البهائي الغزولي ، ت ٨١٥هـ. مطبعة ادارة الوطن ـ مصر ١٣٠٠هـ .

١٠٥ معجم الأدباء : ياقوت الحموى ، ت ٦٢٦هـ . تحقيق : مرجليوث . ط٢ مطبعة هندية ـ مصر ١٩٢٣ .

١٠٦ ـ معجم الانساب والاسراب الحاكمة فى التأريخ الإسلامى : المستشرق زامبارو . ترجمة د. زكى محمد حسن وحسن أحمد محمود . مطابع جامعة فؤاد الأول ـ القاهرة ١٩٥١ .

١٠٧ ـ معجم البلدان : ياقوت الحموى ، ت ٦٢٦هـ . طبع دار صادر بيروت ١٩٥٥ .

١٠٨ ـ المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب : رينهارت دوزى . ترجمة الدكتور اكرم فاضل . مطبعة الحكومة ـ بغداد ١٩٧١ .

١٠٩ ـ معيد النعم ومبيد النقم : عبد الوهاب السبكبى ، ت ٧٧١ هـ . تحقيق : محمد على النجار وأبو زيد شلبى ومحمد أبو العيون . ط دار الكتاب العربى ـ القاهرة ١٩٤٨ .

١١٠ ـ مفتاح السعادة : طاش كبرى زاده ، ت ٩٦٨هـ . ط حيدر آباد بالهند ١٣٢٨هـ.

١١١ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب : ابن واصل ، ت ٦٩٧هـ الأجزاء الثلاثة الأول تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال . ج١ مطبعة جامعة فؤاد الأول ـ القاهرة ١٩٥٣ ، ج٢ المطبعة الأميرية ـ القاهرة ١٩٥٧ . ج٣ مطبعة دار القلم ـ القاهرة ١٩٦٠ . ج٤ تحقيق : الكتور حسنين محمد ربيع . مطبعة دار الكتب ـ القاهرة ١٩٧٢ .

١١٢ ـ المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى : ابن تغرى بردى ، ت ٨٧٤هـ تحقيق : أحمد يوسف نجاتى . ج١ . مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٥٦ .

١١٣ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط الآثار : أحمد بن على المقريزى ، ت ٨٤٥هـ . ط بولاق ١٢٧٠هـ .

١١٤ ـ ميزال الاعتدال فى نقد الرجال : الحافظ محمد بن أحمد الذهبى ، ت ٧٤٨هـ. ط الخانجى ـ القاهرة ١٣٢٥هـ .
١١٥ ـ نفح الطيب : أحمد بن محمد المقرى ، ت ١٠٤١هـ . تحقيق : د. احسان عباس . مطبعة دار صادر ـ بيروت ١٩٦٨ .
١١٦ ـ نزهة الأمم فى العجائب والحكم لابن إياس ـ القاهرة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .
١١٧ ـ نزهة الأنام فى محاسن الشام : عبد الله بن محمد البدرى ، ت ٨٤٧هـ . المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٣٤١ .
١١٨ ـ نظم العقيان فى أعيان الأعيان : جلال الدين السيوطى ، ت ٩١١هـ . تحقيق : د. فيليب حتى . المطبعة السورية الأمريكية ـ نيويورك ١٩٢٧ .
١١٩ ـ النجوم الزاهرة : ابن تغرى بردى ، ت ٨٧٤هـ . مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٦٣ .
١٢٠ ـ النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية : عمارة اليمنى ، ت ٥٦٩هـ . تحقيق: ديرنبورغ ـ باريس ١٨٩٧ .
١٢١ ـ نكت الهميان : خليل ابن أيبك الصفدى ، ت ٧٦٤ هـ . المطبعة الجمالية ـ مصر ١٩١١ .
١٢٢ ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية : بهاء الدين بن شداد ، ت ٦٣٢هـ . تحقيق: د. جمال الدين الشيال . طبع الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤ .

* * *

الفهـــــرس

* * *

رقم الإيداع	٩٦/٢٠٦٤
الترقيم الدولى I. S. B. N	977 - 5250 - 10 - 2

